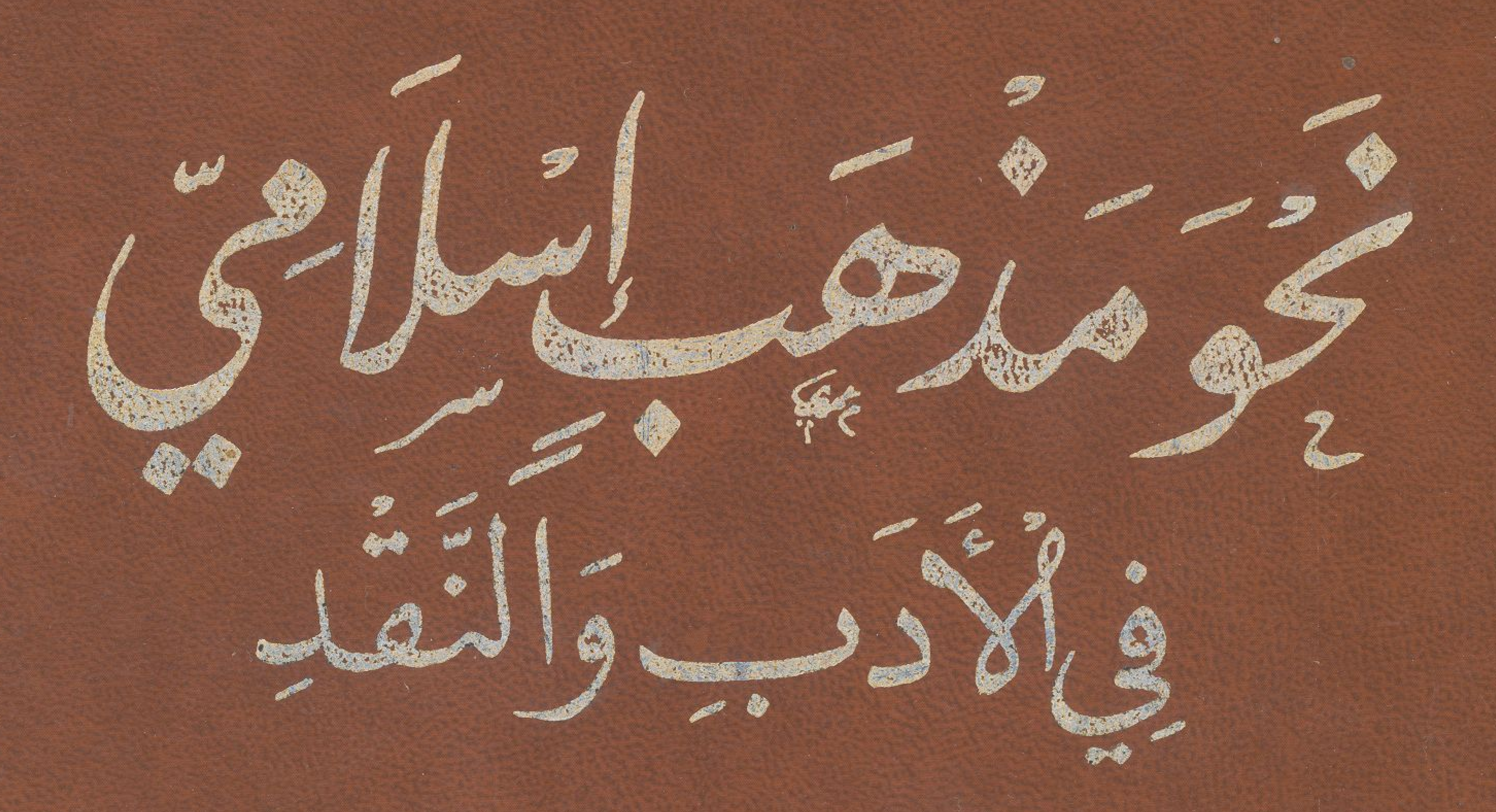


الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا



بسم الله الرحمن الرحيم

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا
كلمة طيبة كشجرة طيبة
أصلها ثابت وفرعها في السماء
تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها
ويضرب الله الأمثال للناس
لعلهم يتذكرون »

سورة إبراهيم ٢٤-٢٥

نحو مذهب إسلامي
في الأدب والنقد

نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد

الدكتور
عبد الرحمن رأفت الباشا

قدم له
فضيلة الشيخ أبو الحسن الندوي

الطبعة الرابعة

دار الأدب الإسلامي
للنشر والتوزيع

الطبعة الرابعة

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع

٩٨/٢٩٥٤

الترقيم الدولي

I.S.B.N.

977-5827-027

الإعداد الفني والجمع التصويري

بدار الأدب الإسلامي

عناوين الدار

LIMASSOL OFFICE

P.O. Box : 3110

LIMASSOL - CYPRUS

TEL : 357 - 5 - 367400

FAX : 357 - 5 - 369336

مكتب القاهرة

ص.ب : ٨١ - بريد بانوراما

١١٨١١ القاهرة - ج. م. ع.

هاتف وفاكس : ٢٦٦٠١٦٤

دار الأدب الإسلامي

للنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

كلمة تقديم

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيد المرسلين وخاتم النبيين، محمد وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلىٰ يوم الدين، وبعد:

فقد طلب مني الأخوان الفاضلان محمد يمان، ورضوان عبد الرحمن رأفت الباشا، أن أكتب كلمة لتقديم الطبعة الجديدة لكتاب «نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد» تأليف والدهما المرحوم الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا، لما كانت تقوم بيني وبين الدكتور عبد الرحمن الباشا رحمه اللّه رحمة واسعة، من صلات وعلاقات مودة ومحبة وتقدير، وما كان يربطنا من وحدة الشعور، والقصور في مجال الأدب الإسلامي والدعوة، ولما كان له من دور رائد في تأسيس «**رابطة الأدب الإسلامي**» التي أتحمل مسئولية الإشراف عليها.

ترجع هذه الصلات إلىٰ عهد مبكر، عهد لم تنبت فيه فكرة تأسيس الرابطة، ولم تتبلور فيه فكرة الأدب الإسلامي كنظرية، ومذهب، وقد أشار إليه الدكتور في كتابه «نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد» فقال:

«نحن لسنا بأول من دعا إلىٰ إقامة مذهب إسلامي في الأدب، وإنما اقتفينا آثار طائفة من أعلام المسلمين وأدبائهم الموهوبين، وقد كان أول من كتب في الموضوع ونبه إليه فضيلة العالم العامل الشيخ أبو الحسن الندوي، وذلك حين اختير عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، حيث قدم بحثاً دعا إلىٰ إقامة أدب إسلامي والعناية به، فكان أول الداعين إلىٰ ذلك وطليعة المنبهين إليه. ثم تلاه شهيد الإسلام والمسلمين سيد قطب فكتب مقالاً في هذا الموضوع»[1].

---

(١) اقرأ البحث «نظرات في الأدب» من إصدارات رابطة الأدب الإسلامي.

وإن دل هذا الكلام علىٰ شيء ، فإنما يدلّ علىٰ وحدة الشعور والتجاوب الحسن بين الطرفين ، وقد كان الدكتور عبد الرحمن ممّن يتّصف بالعمل والتطبيق ، فلم يستجب لهذه الفكرة استجابة فكرية فحسب ، بل سبق إلىٰ تنفيذها وتجسيدها خلال تدريسه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وإشرافه علىٰ البحوث الأدبية ، فكان يوجّه الدارسين إلىٰ هذا الموضوع والكتابة فيه ، والبحث عن مواضع الجمال الأدبي من الفكرة الإسلامية ، وصدرت بفضل جهوده عدة بحوث ومجموعات من النصوص الأدبية[1]، ثم تطوّرت آماله إلىٰ تأسيس رابطة تُعْنَىٰ بهذا الموضوع ، وعقد ندوات حول الموضوع ، والتفّ حوله أساتذة وكتّاب كان بينهم وبينه انسجام فكري ، وتحوّلت هذه الفكرة إلىٰ منظّمة عالمية .

يعد كتاب الدكتور عبد الرحمن الباشا كتاباً أساسيًا لتفهيم مذهب الأدب الإسلامي ، وتطوره ، وموقفه إزاء الكون والحياة ، والإنسان ، وبالمقارنة بينه وبين المذاهب الأدبية ، التي نشأت في مختلف فترات التاريخ ، وكانت تعبيراً عن تجارب الحياة من عهد نشوئها ، أو عن ميول أصحابها وطبائعهم ، ونشأتهم في بيئات خاصة ، وهي تمثل جانباً من الحياة ، وفيها إيجابيات وسلبيات ، وعندما يمرّ دارس بالمقارنة مع هذه المذاهب ، يظهر له المذهب الإسلامي كمذهب إنساني يسير مع الحياة بدون أن تطغىٰ عليه ميول أو أحداث خاصة ، فيحمل الأدب الإسلامي صلاحية الخلود والنماء ومسايرة الحياة أكثر من أي مذهب أدبي آخر ، ومما يميّزه عن غيره ، أنه مذهب رائد ومذهب قيادي ، وليس بمذهب تبعي ، له منزع خاص .

وقد أوضح القرآن الكريم هذا لصلاحيته للخلود ، والبقاء في هذه الآية :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي

(١) سلسلة أدب الدعوة الإسلامية صدرت بعدة مجلدات وهي بحوث تخرج للطلاب في كلية اللغة العربية التي أشرف عليها الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ـ رحمه الله ـ وتمت طباعتها ونشرها بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

السَّمَآءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[1].

إن هذه الآية تبين ما هي الكلمة الطيبة، وما هو تأثير هذه الكلمة علىٰ القلوب، والنفوس، ومدىٰ بقاء هذا التأثير، وما هو منبع هذه الكلمة، أوضحت أن تأثير هذه الكلمة لا يتقيد بزمان دون زمان وبقرن دون قرن، وبيئة دون بيئة، وبفترة زمانية تاريخية دون فترة زمانية تاريخية، بل إنها تؤتي أُكُلَهَا كل حين بإذن ربها، وذلك هو الذي يميّز الأدب الإسلامي عن الآداب الأخرىٰ.

وقد بين الدكتور عبد الرحمن الباشا خصائص الأدب الإسلامي بأنه أدب هادف وملتزم بالقِيَم الإسلامية وأصيل ومتكامل، ومستقل وفعّال ومؤثر، وهي خصائص الأدب الحي البنّاء، وشرح هذه الخصائص التي تميّز الأدب الإسلامي عن غيره من الآداب في كتابه، فأصبح كتابه دليلاً لطُلّاب الأدب الإسلامي، وزاداً لروّاده، وتزداد أهميته في حين يجري النقاش في الأوساط الأدبية حول تعيين وظيفة الأدب وشرح كلمة الأدب لغوياً واصطلاحياً، وقد كان الكُتّاب في السابق يعتمدون علىٰ ما كتبه الأدباء الغربيون، فنقلوا الأدب من وظيفة التهذيب والتثقيف إلىٰ الإفساد والتخريب، ومن التأثير إلىٰ الإثارة وجعله نزعة من النزعات الشخصية، أو تصويراً لجانب من الحياة، أو أداة لوصف المغريات أو الموبقات، أو محراثاً لشق الأرض، أو مطرقة لتليين الحديد، وانقطعت صلة الأدب عن قلب الإنسان.

إن هذا الكتاب يرشد إلىٰ الطريق الذي يجب أن يسير عليه الأدباء الإسلاميون وهو مجهود أساسي، وقد صدرت بعد ذلك كتب وستصدر كتب أخرىٰ، ولكن فضل المتقدّم والمبدع في الأدب فضل لا يُنْسَىٰ، ولا تفقد قيمته مهما تقدّم الأدباء والباحثون.

جزىٰ اللّٰه عنا الأخ الكريم عبد الرحمن الباشا، وجعل كتابه ذُخراً له ونفع به

---

(١) سورة إبراهيم: ٢٤ - ٢٥.

الإسلام والمسلمين، وليس علىٰ اللّٰه بعزيز أن يتحول هذا الكتاب إلىٰ مكتبة كاملة للأدب الإسلامي، بكونه حافزاً علىٰ إصدارات أدبية كثيرة، وإن تأسيس **شركة دار الأدب الإسلامي للنشر والتوزيع** لنجليه الكريمين وصدور الطبعة الجديدة لهذا الكتاب منه يشكّل مؤشراً إلىٰ هذه الغاية المنشودة، واللّٰه الموفق وبه يستعان.

يرفع اللّٰه الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

أبو الحسن علي الحسني الندوي

دارة الشيخ علم اللّٰه الحسني

راي بريلي ــ الهند

التاريخ: ١٤١٢/١٢/٢٨هـ

الموافق: ١٩٩٢/٦/٣٠م

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث هدى ورحمة للعالمين سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم على الإيمان والهدى إلى يوم الدين... وبعد:

فإن هذا الكتاب كان نتاج عمل طويل مضن قام به المؤلف ـ رحمه الله ـ من بداية حياته العملية؛ مكافحاً ومنافحاً عن لغة القرآن... داعياً إلى فن أدبي إسلامي لا يكتفي بجمال التعبير وإبداع التصوير؛ وإنما يشترط فيه أن يكون ممتعاً هادفاً نافعاً في وقت معاً...

فن أدبي إسلامي يلتزم أمام إله متصف بصفات الكمال كلها، منزه عن صفات النقص جميعها... ويكون بسماته هذه مغايراً للتيارات الأدبية الأخرى التي تلتزم أمام النفوس البشرية الأمارة بالسوء.

ومع أنه ـ رحمه الله ـ لم يكن هو أول من دعا إلى إيجاد هذا الأدب، فقد سبقه إلى ذلك كثير من المفكرين والأدباء الإسلاميين، وهو ـ رحمه الله ـ يعترف بذلك ويقر بالفضل لأهله... لكنه استطاع أن يجعل أماني أولئك العلماء حقيقة واقعة... فقد سعى ـ رحمه الله ـ لإيجاد عمل موسوعي يخدم الأدب الإسلامي ويكون له بمثابة الخلفية التاريخية، والقاعدة الصلبة التي ينهض عليها بناؤه؛ ليساعد الدارسين في معرفة هذا الأدب ودراسة خصائصه ورصد موضوعاته... ومن هنا ظهرت فكرة «**موسوعة أدب الدعوة الإسلامية**» التي قامت بإصدارها كلية اللغة العربية بالرياض، وأشرف عليها بنفسه ـ رحمه الله ـ حيث كانت نتاج مادة البحث لطلبة السنة النهائية بكلية اللغة العربية، وصدر منها ستة مجلدات:

١ - شعر الدعوة الإسلامية «في عصر النبوة والخلفاء الراشدين».

إعداد عبد الله حامد الحامد.

٢ - شعر الدعوة الإسلامية «في العصر الأموي».

إعداد عبد العزيز محمد الزير، ومحمد بن عبد الله الأطرم.

٣ - شعر الدعوة الإسلامية «في العصر العباسي الأول».

إعداد عبد الله عبد الرحمن الجعيثن.

٤ - شعر الدعوة الإسلامية «في العصر العباسي الثاني».

إعداد عائض بنية الردادي.

٥ - شعر الدعوة الإسلامية «في العصر العباسي الثالث».

إعداد محمد بن علي الصامل، وعبد الله بن صالح العريني.

وفي مجال النثر:

القصص الإسلامية «في عصر النبوة والخلفاء الراشدين» ـ جزءان ـ.

إعداد أحمد بن حافظ الحكمي.

وقد حظيت هذه المجلدات التي صدرت من هذه الموسوعة بإعجاب وتقدير كثير من الأدباء والمفكرين في العالم الإسلامي.

وكانت أمنية المؤلف ـ رحمه الله ـ أن يجند الجهود لاستكمال هذه الموسوعة لتشمل جميع العصور والفنون، وهو عمل جليل كبير يحتاج إلىٰ من يكمله. وقد قام وحده ـ رحمه الله ـ برسم منهج إسلامي في الأدب والنقد، وتبنت جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية هذه الفكرة الرائدة، وأوسعت لها في المحاضرات الجامعية ... حتىٰ قيض لمادة منهج الأدب الإسلامي أن تقف علىٰ أرض صُلبة قوية، وأنشئ علىٰ أثرها أول قسم خاص بها في العالم الإسلامي.

لقد كان في عمله هذا واسع النظرة، قوي الخطوة، صادق العزيمة، لأنه يؤمن ـ كما قال في كتابه هذا ـ:

«إنها مسئولية كبرىٰ يُلقيها الإسلام علىٰ عاتق الأدباء، وإشارة ضخمة إلىٰ مهمة الأديب الإسلامي في بناء المجتمع.

فأسلات الأقلام في هذا الدين كشفرات السيوف...

وكل أديب يستحق هذا اللقب بجدارة يقف علىٰ ثغر من ثغور الإسلام.

فإذا عرفنا أن الإسلام والمسلمين في معركة دائمة، وأن علىٰ كل مسلم نصيبه من الجهاد والبناء، أدركنا قيمة الأدب في حياة المسلمين، وأهميته في بناء المجتمع المسلم، وعلىٰ هذا فليس الأدب نافلة في الحياة، وإنما هو عنصر من عناصرها الأصيلة الثابتة، وليس الأدباء بسكان الأبراج العاجية، وإنما هم حملة السلاح في المعركة».

وإننا لنرجو من الله عز وجل أن يُيَسر لنا السبل ويذلل أمامنا العقبات، للسير علىٰ هذا المنهج الذي رآه الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ودعا إليه.

النـــاشـــر

يمـــان عبد الرحمن رأفت الباشا

رضوان عبد الرحمن رأفت الباشا

مَوْقِفُ الإِسْلَامِ مِنَ الأَدَبِ بِعَامَّةٍ
وَمِنَ الشِّعْرِ بِخَاصَّةٍ
وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

لَا رَيْبَ فِي أَنَّكَ حِينَ تَسْمَعُنَا نَدْعُو مَعَ الدَّاعِينَ إِلَىٰ إِقَامَةِ مَذْهَبٍ إِسْلَامِيٍّ فِي الْأَدَبِ وَنَقْدِهِ سَتَقُولُ فِي نَفْسِكَ : يَحْسُنُ بِكُمْ قَبْلَ الكَلَامِ عَلَىٰ هَذَا المَذْهَبِ وَأُسُسِهِ وَتَطبِيقَاتِهِ أَنْ تَقِفُونَا عَلَىٰ مَوْقِفِ الإِسْلَامِ مِنَ الْأَدَبِ وَنَظرَتِهِ إِلَيْهِ .

فَهَلْ يَنْظُرُ إِلَىٰ الْأَدَبِ عَامَّةً وَإِلَىٰ الشِّعْرِ خَاصَّةً بِعَيْنِ الرِّضَا ؟ ...

أَمْ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا كَمَا يَنْظُرُ إِلَىٰ الفُنُونِ الأُخْرَىٰ كَالنَّحْتِ وَالـمُوسِيقَا وَغَيْرِهِمَا ؟ .

ذَلِكَ لِأَنَّ تَحْدِيدَ هَذَا المَوْقِفِ هُوَ الأَسَاسُ الَّذِي تُقَامُ عَلَيْهِ نَظَرِيَّةُ الْأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ ، وَهُوَ المُنْطَلَقُ الَّذِي يَنْطَلِقُ مِنْهُ الدَّاعُونَ إِلَيْهَا .

فَإِذَا كَانَ الإِسْلَامُ يَتَقَبَّلُ الْأَدَبَ وَيُفْسِحُ لَهُ مَكَاناً مَكِيناً فِي رِحَابِهِ انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ غَايَتِكُمْ فِي رَسْمِ مَعَالِمِ النَّظَرِيَّةِ وَتَأْصِيلِ أُصُولِهَا فِي إِطَارِ الإِسْلَامِ ، وَإِنْ كَانَتِ الأُخْرَىٰ كَفَفْتُمْ عَنِ الكَلَامِ فِي هَذَا المَوْضُوعِ وَاسْتَرَحْتُمْ وَأَرَحْتُمْ .

وَلَعَلَّكَ تَقُولُ أَيْضاً : إِذَا كُنْتُمْ سَتُحَدِّثُونَنَا عَنْ مَوْقِفِ الإِسْلَامِ مِنَ الْأَدَبِ فَلَيْسَ مِنْ حَقِّكُمْ أَنْ تَفْعَلُوا كَمَا فَعَلَ غَيْرُكُمْ ؛ فَتَعْتَمِدُوا فِي هَذَا الأَمْرِ الجَلِيلِ

عَلَىٰ مَا جَاءَ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ مِنْ أَخْبَارٍ وَأَقْوَالٍ ، وَلَا عَلَىٰ مَا وَرَدَ فِي أَسْفَارِ التَّارِيخِ مِنْ قِصَصٍ وَمَوَاقِفَ .

بَلْ لَيْسَ مِنْ حَقِّكُمْ أَنْ تَعْتَمِدُوا عَلَىٰ كُتُبِ السِّيَرِ وَالمَغَازِي وَالتَّرَاجِمِ ، فَلَيْسَ كُلُّ مَا جَاءَ فِي الطَّبَرِيِّ ، وَابْنِ الأَثِيرِ ، وَالإِصَابَةِ ، وَأُسْدِ الغَابَةِ ، وَالطَّبَقَاتِ الكُبْرَىٰ ، وَنَحْوِهَا بِصَحِيحٍ مَقْطُوعٍ بِصِحَّتِهِ .

فَهَذِهِ الكُتُبُ عَلَىٰ جَلَالَةِ قَدْرِهَا لَا تَرْقَىٰ إِلَىٰ مَرْتَبَةٍ تَجْعَلُهَا مَصْدَراً مِنْ مَصَادِرِ الدِّينِ وَلَا مَنْهَلاً مِنْ مَنَاهِلِ الشَّرِيعَةِ تُؤْخَذُ مِنْهُ النُّصُوصُ ، وَتُبْنَىٰ عَلَيْهِ الأَحْكَامُ .

فَمَا بَالُكَ بِالأَغَانِي وَالعِقْدِ وَنَحْوِهِمَا ؟ .

لِذَا فَأَنْتُمْ مُطَالَبُونَ بِأَنْ تُحَدِّدُوا لَنَا مَوْقِفَ الإِسْلَامِ مِنَ الْأَدَبِ مِنْ خِلَالِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ .

وَهَذِهِ أَيْضاً قَوْلَةُ حَقٍّ وَمَطْلَبُ صِدْقٍ نَعِدُكَ بِأَنْ نَلْتَزِمَ بِهَا فِيمَا نَقُولُ ، وَأَلَّا نَتَجَاوَزَهَا قِيدَ شَعْرَةٍ .

لَكِنَّنَا حِينَ نَشْرَعُ فِي تَحْدِيدِ نَظْرَةِ الإِسْلَامِ إِلَىٰ الْأَدَبِ لَنْ نَتَنَاوَلَ مَوْقِفَهُ مِنَ الفُنُونِ الْأَدَبِيَّةِ جَمِيعِهَا ؛ فَذَلِكَ أَمْرٌ عَسِيرُ المَنَالِ ؛ لِأَنَّ كَثِيراً مِنْ هَذِهِ الفُنُونِ جَدَّ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ بَعْدَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَإِنَّمَا سَيَدُورُ كَلَامُنَا حَوْلَ الشِّعْرِ ، وَالقِصَّةِ وَالخَطَابَةِ ، فَهِيَ الفُنُونُ الْأَدَبِيَّةُ الَّتِي كَانَ لِلإِسْلَامِ مِنْهَا مَوْقِفٌ وَاضِحٌ مُحَدَّدٌ .

وَلَكَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَقِيسَ مَا لَمْ نَذْكُرْهُ مِنَ الفُنُونِ الْأَدَبِيَّةِ عَلَىٰ مَا ذَكَرْنَاهُ .

وَسَنَبْدَأُ بِمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ حَوْلَ هَذَا المَوْضُوعِ .

ثُمَّ نُتَوِّجُهُ بِمَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لِأَنَّ الحَدِيثَ الشَّرِيفَ قَامَ عَلَىٰ التَّفْصِيلِ ، وَلِأَنَّ الكِتَابَ العَزِيزَ بُنِيَ عَلَىٰ الإِجْمَالِ .

مَوْقِفُ الإِسْلَامِ مِنَ الشِّعْرِ مِنْ خِلَالِ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

إِنَّ الطَّرِيقَةَ الَّتِي سَنَسْلُكُهَا فِي عَرْضِ هَذَا المَوْضُوعِ سَتَقُومُ عَلَىٰ المَوَاقِفِ وَالحَوَادِثِ ، ثُمَّ نَدْعَمُهَا بِمَا صَحَّ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ ذَٰلِكَ لِأَنَّ فِي الحَوَادِثِ وَالمَوَاقِفِ مِنْ وُضُوحِ الدِّلَالَةِ وَغِنَىٰ الإِيحَاءِ مَا يُفَسِّرُ الحَدِيثَ الشَّرِيفَ ، وَيُوَضِّحُهُ وَيُغْنِيهِ .

أَوَّلاً : مَا جَاءَ فِي مَدْحِ الشِّعْرِ

١ ـ هَذَا مَسْجِدُ الرَّسُولِ الأَعْظَمِ ﷺ قَدْ أُقِيمَ فِي جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِهِ مِنْبَرٌ مَرْمُوقُ المَكَانِ مَشْهُودُ المَوْقِعِ ، وَقَدْ تَحَلَّقَ حَوْلَ المِنْبَرِ الصَّحَابَةُ الكِرَامُ الَّذِينَ مَا حَظِيَ تَارِيخُ الإِنْسَانِيَّةِ بِأَنْقَىٰ مِنْهُمْ قُلُوباً ، وَلَا أَصْفَىٰ مِنْهُمْ فِكْراً ، وَلَا أَنْأَىٰ عَنْ لَهْوٍ ، وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ جِدٍّ .

وَكَانَ عَلَىٰ رَأْسِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَقَدْ شَخَصَتْ أَبْصَارُهُمْ جَمِيعاً إِلَىٰ الوَاقِفِ فَوْقَ المِنْبَرِ ، وَشُدَّتْ أَسْمَاعُهُمْ إِلَىٰ مَا يُلْقِيهِ مِنْ رَائِعِ القَوْلِ وَسَاحِرِ البَيَانِ .

وَكَانَ الوَاقِفُ عَلَىٰ المِنْبَرِ شَاعِراً يُنْشِدُ الشِّعْرَ ... هُوَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

فَقَدْ رَوَىٰ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَضَعُ لِحَسَّانَ مِنْبَراً فِي المَسْجِدِ يَقُومُ عَلَيْهِ قَائِماً يُفَاخِرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ يُنَافِحُ ، وَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

(إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ القُدُسِ مَا نَافَحَ أَوْ فَاخَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ) .

أَفَتَحْسَبُ بَعْدَ هَذَا أَنَّ شَرِيعَةً عَلَىٰ ظَهْرِ الأَرْضِ ، أَوْ نِظَاماً مِنْ أَنْظِمَةِ الحُكْمِ الَّتِي عَرَفَهَا النَّاسُ قَدْ رَقَتْ بِالأَدَبِ إِلَىٰ مِثْلِ هَذِهِ المَنْزِلَةِ ، أَوْ أَحَلَّتْهُ مَقَاماً يُضَارِعُ هَذَا المَقَامَ ؟ ...

فَمَجْلِسُ الأَدَبِ ـ كَمَا رَأَيْتَ ـ يُعْقَدُ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ ، وَشُهُودُ المَجْلِسِ الصَّحَابَةُ الكِرَامُ وَعَلَىٰ رَأْسِهِمُ الرَّسُولُ الأَعْظَمُ ﷺ ...

وَالنَّبِيُّ الكَرِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُبَشِّرُ بِمَا سَيَحُفُّ الشَّاعِرَ مِنَ التَّأْيِيدِ فَيَقُولُ :

(إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ القُدُسِ) .

وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ أَنَّ رُوحَ القُدُسِ إِنَّمَا هُوَ أَحَدُ أَسْمَاءِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَإِنَّمَا اخْتِيرَ مِنْ أَسْمَائِهِ هَذَا الاسْمُ إِشَارَةً إِلَىٰ طَهَارَتِهِ وَنَزَاهَتِهِ عَنِ العُيُوبِ ، وَهُمَا الوَصْفَانِ اللَّذَانِ يَنْشُدُهُمَا الشَّاعِرُ المُسْلِمُ ، وَيَطمَحُ إِلَىٰ الاتِّصَافِ بِهِمَا .

أَمَّا التَّأْيِيدُ الَّذِي سَيَحُفُّ بِحَسَّانَ فَإِنَّمَا يَكُونُ بِإِلْهَامِهِ طَيِّبَ القَوْلِ وَإِرْشَادِهِ لِمَا هُوَ الصَّوَابُ وَالحَقُّ .

وَلَعَلَّهُ وَضَحَ لَكَ أَنَّ الأَدَبَ الَّذِي حَظِيَ بِذَلِكَ المَقَامِ الكَبِيرِ الجَلِيلِ لَهُ

صِفَاتٌ تُمَيِّزُهُ ، وَسِمَاتٌ تُخَصِّصُهُ ، فَشِعْرُ حَسَّانَ الَّذِي نُصِبَ لَهُ المِنْبَرُ فِي المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ إِنَّمَا قِيلَ دِفَاعاً عَنِ نَبِيِّ الإِسْلَامِ ، وَذِيَاداً عَن حَوْضِ الإِيمَانِ ، وَكَبْتاً لِأَعْدَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

وَالأَدَبُ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ حِينَ يَغْدُو سِلَاحاً فِي يَدِ الدَّعْوَةِ وَالدُّعَاةِ ، وَيَتَحَوَّلُ إِلَىٰ لِسَانِ صِدْقٍ ، يَهْدِي إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَيَحُضُّ عَلَىٰ الخَيْرِ وَالبِرِّ وَالإِحْسَانِ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْي ، وَيُغْرِي بِالفَضَائِلِ وَيُزَيِّنُهَا ، وَيُنَفِّرُ مِنَ الرَّذَائِلِ وَيُقَبِّحُهَا ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فِي رِحَابِ الإِسْلَامِ مِنْ أَوْسَعِ أَبْوَابِهَا ، وَيَسْتَحِقُّ ثَوَابَ اللَّهِ وَمَرْضَاةَ رَسُولِهِ ، وَيَكُونُ الأَدِيبُ الَّذِي يُنْتِجُهُ أَهْلاً لِأَنْ يُلْهَمَ طَيِّبَ القَوْلِ ، وَيُهْدَىٰ إِلَىٰ الصَّوَابِ وَالحَقِّ .

٢ ـ ثُمَّ إِنَّ الإِسْلَامَ أَحْدَثَ تَغْيِيراً خَطِيراً فِي وَظِيفَةِ الأَدَبِ ، وَتَبْدِيلاً كَبِيراً فِي نَظْرَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فَهُوَ لَمْ يُبْقِهِ ـ كَمَا كَانَ ـ مُتْعَةً يَسْتَمْتِعُ بِهَا النَّاسُ فِي أَنْدِيَتِهِمْ وَأَسْمَارِهِمْ ، وَلَا مُتَنَفَّساً يُنَفِّسُونَ بِهِ عَنْ أَحْزَانِهِمْ وَأَشْوَاقِهِمْ ، وَإِنَّمَا طَفِقَ يَرْقَىٰ بِالأَدَبِ وَيَرْقَىٰ حَتَّىٰ جَعَلَهُ ضَرْباً مِنْ ضُرُوبِ الجِهَادِ ، وَأَلْحَقَهُ بِفَرِيضَةٍ مِنْ أَجَلِّ الفَرَائِضِ .

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

(جَاهِدُوا المُشْرِكِينَ بِأَنْفُسِكُمْ ، وَأَمْوَالِكُمْ ، وَأَلْسِنَتِكُمْ)(١) .

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَدْ أَنْزَلَ فِي الشِّعْرِ مَا أَنْزَلَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (إِنَّ المُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي

---

(١) فيض القدير: ٣/١٤٣.

بِيَدِهِ لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ)[1].

فَالْجِهَادُ ـ كَمَا أَوْضَحَ نَبِيُّ الإِسْلَامِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ ضُرُوبٌ، وَالْأَدَبُ ـ مُمَثَّلاً فِي الشِّعْرِ ـ وَاحِدٌ مِنْهَا.

فَهُنَاكَ جِهَادٌ بِالنَّفْسِ حِينَ يَجُودُ بِهَا المَرْءُ مُنْعَتِقاً مِنْ جُبْنِهِ، شَارِياً بِالنَّفْسِ الفَانِيَةِ نَفْساً بَاقِيَةً تَنْعَمُ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ ... وَهُنَاكَ جِهَادٌ بِالمَالِ حِينَ يَبْذُلُهُ المَرْءُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُتَحَدِّياً نَوَازِعَ الشُّحِّ فِي نَفْسِهِ، مُقْرِضاً هَذَا المَالَ لِلَّهِ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفُهُ لَهُ.

وَهُنَاكَ جِهَادٌ بِالكَلِمَةِ يَقِفُ جَنْباً إِلَىٰ جَنْبٍ مَعَ الجِهَادِ بِالنَّفْسِ وَالمَالِ ... بَلْ إِنَّ الجِهَادَ بِالكَلِمَةِ «أَنْدَرُ»، وَالحَاجَةُ إِلَيْهِ ـ بِسَبَبِ نُدْرَتِهِ ـ أَشَدُّ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ لِلنَّاسِ جَمِيعاً نُفُوساً يُمْكِنُ أَنْ يَجُودُوا بِهَا إِذَا صَحَّتْ عَزَائِمُهُمْ ... وَأَنَّ لَدَىٰ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مَالاً يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُضَحُّوا بِهِ إِذَا سَخَتْ نُفُوسُهُمْ.

وَلَكِنَّ سِلَاحَ الْأَدَبِ نَادِرٌ ثَمِينٌ لَا تَمْلِكُهُ إِلَّا القِلَّةُ القَلِيلَةُ فِي أَيِّ مُجْتَمَعٍ مِنَ المُجْتَمَعَاتِ، ذَلِكَ لِأَنَّ قِوَامَهُ المَوْهِبَةُ، وَالمَوْهُوبُونَ قَلِيلٌ.

٣ ـ ثُمَّ إِنَّ النُّصُوصَ تُشِيرُ إِلَىٰ حَقِيقَةٍ أُخْرَىٰ، خُلَاصَتُهَا أَنَّ مِنْ شَأْنِ المُجْتَمَعِ ـ مُمَثَّلاً بِوَلِيِّ الأَمْرِ ـ أَنْ يَنْشَطَ لِلبَحْثِ عَنِ الطَّاقَاتِ الفَذَّةِ، وَأَنْ يُجَنِّدَهَا لِلقِيَامِ بِمَسْؤُولِيَاتِهَا فِي الدِّفَاعِ عَنْ قِيَمِ الأُمَّةِ وَمُثُلِهَا؛ وَفْقَ مَنْهَجٍ مَدْرُوسٍ يُحَقِّقُ الغَايَةَ الَّتِي يَهْدِفُ إِلَيْهَا دُونَ أَنْ يَتْرُكَ آثَاراً جَانِبِيَّةً ضَارَّةً فِي أَيِّ مَجَالٍ مِنَ المَجَالَاتِ.

---

(١) روي في شرح السنة، وفي الاستيعاب لابن عبد البرّ أنه قال: يا رسولَ اللّه ماذا ترىٰ في الشعرِ؟ فقالَ: إنَّ المؤمنَ يجاهدُ بسيفِهِ ولسانِهِ.

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

(اهْجُوا قُرَيْشاً فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ رَشْقِ النَّبْلِ) ، فَأَرْسَلَ إِلَىٰ ابْنِ رَوَاحَةَ فَقَالَ : (اهْجُهُمْ) ، فَهَجَاهُمْ ، فَلَمْ يُرْضِ ، فَأَرْسَلَ إِلَىٰ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَىٰ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ ... فَلَمَّا دَخَلَ حَسَّانُ قَالَ : قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَىٰ هَذَا الأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ ، ثُمَّ دَلَعَ لِسَانَهُ ، فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ ، ثُمَّ قَالَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لأَفْرِيَنَّهُمْ فَرْيَ الأَدِيمِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (لَا تَعْجَلْ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا ، وَإِنَّ لِي فِيهِمْ نَسَباً حَتَّىٰ يُخَلِّصَ لَكَ نَسَبِي) ، فَأَتَاهُ حَسَّانُ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ خَلَّصَ لِي نَسَبَكَ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لَأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ العَجِينِ ... قَالَتْ عَائِشَةُ : فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

(لَقَدْ هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَىٰ وَأَشْفَىٰ)[1].

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ ذَلِكَ وِسَامُ فَخَارٍ يَضَعُهُ الإِسْلَامُ عَلَىٰ صُدُورِ الأُدَبَاءِ حِينَ يَبْحَثُ عَنْهُمْ وَلِيُّ أَمْرِ المُسْلِمِينَ كَمَا يَبْحَثُ الطَّبِيبُ الحَاذِقُ عَنِ الدَّوَاءِ النَّاجِعِ .

وَإِنَّهُ مَسْئُولِيَّةٌ كُبْرَىٰ يُلْقِيهَا الإِسْلَامُ عَلَىٰ عَاتِقِ الأُدَبَاءِ ، وَإِشَارَةٌ وَاضِحَةٌ إِلَىٰ مُهِمَّةِ الأَدِيبِ الإِسْلَامِيِّ فِي بِنَاءِ المُجْتَمَعِ .

فَأَسَلَاتُ الأَقْلَامِ فِي هَذَا الدِّينِ كَشَفَرَاتِ السُّيُوفِ ...

وَكُلُّ أَدِيبٍ يَسْتَحِقُّ هَذَا اللَّقَبَ بِجَدَارَةٍ يَقِفُ عَلَىٰ ثَغْرٍ مِنْ ثُغُورِ الإِسْلَامِ .

---

(١) صحيح مسلم: الحدث ذو الرقم ٤٥٤٥.

فَإِذَا عَرَفْنَا أَنَّ الإِسْلَامَ وَالمُسْلِمِينَ فِي مَعْرَكَةٍ دَائِمَةٍ ، وَأَنَّ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ نَصِيبَهُ مِنَ الجِهَادِ وَالبِنَاءِ ، أَدْرَكْنَا قِيمَةَ الأَدَبِ فِي حَيَاةِ المُسْلِمِينَ ، وَأَهَمِيَّتَهُ فِي بِنَاءِ المُجْتَمَعِ المُسْلِمِ ، وَعَلَىٰ هَذَا فَلَيْسَ الأَدَبُ نَافِلَةً فِي الحَيَاةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ عُنْصُرٌ مِنْ عَنَاصِرِهَا الأَصِيلَةِ الثَّابِتَةِ ، وَلَيْسَ الأُدَبَاءُ بِسُكَّانِ الأَبْرَاجِ العَاجِيَّةِ وَإِنَّمَا هُمْ حَمَلَةُ السِّلَاحِ فِي المَعْرَكَةِ .

٤ ـ ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ حَقِيقَةً أُخْرَىٰ هِيَ أَنَّ الإِسْلَامَ فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ كَادَ يَحْصُرُ وَظِيفَةَ الأَدَبِ فِي الذَّوْدِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَمُنَاضَلَةِ خُصُومِهِ ، فَكَانَتْ وَظِيفَتُهُ الأُولَىٰ ـ كَمَا رَأَيْنَا مِنْ قَبْلُ ـ وَظِيفَةً نِضَالِيَّةً .

فَلَمَّا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالفَتْحُ ، وَأُرْسِيَتْ قَوَاعِدُ الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ عَلَىٰ أُسُسٍ ثَابِتَةٍ ، جَنَّدَ المُسْلِمُونَ الأَدَبَ لِلتَّوْجِيهِ وَالتَّوْعِيَةِ وَالتَّرْبِيَةِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا مَا لِلْكَلِمَةِ مِنْ قُدْرَةٍ رَائِعَةٍ فِي المُحَافَظَةِ عَلَىٰ جَذْوَةِ الإِيمَانِ مُشْتَعِلَةً فِي النُّفُوسِ ، وَمَا لَهَا مِنْ أَثَرٍ فَذٍّ فِي إِنَارَةِ القُلُوبِ ، وَتَغْذِيَةِ العُقُولِ .

فَقَدْ رَوَىٰ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنِ الهَيْثَمِ بْنِ أَبِي سِنَانٍ قَالَ : « رَأَيْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ يَقُصُّ قَائِماً فَقَالَ فِي قَصَصِهِ : إِنَّ أَخاً لَكُمْ كَانَ لَا يَقُولُ الرَّفَثَ » [يَعْنِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ] ، فَقَالَ :[1]

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ

إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ[2] مِنَ الفَجْرِ سَاطِعُ

---

(١) ديوان عبد اللّٰه بن رواحة ، جمع الدكتور حسن باجودة : ٩٦.

(٢) المعروف : هو الذي تعرفه العين ولا تنكره لظهور نوره .

أَرَانَا الهُدَىٰ بَعْدَ العَمَىٰ فَقُلُوبُنَا
بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ
إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالكَافِرِينَ المَضَاجِعُ

فَأَبُو هُرَيْرَةَ يَقُصُّ يَوْمَ الجُمُعَةِ فِي المَسْجِدِ ، وَالقَصُّ فِي الاصْطَلَاحِ إِنَّمَا هُوَ : الوَعْظُ ، وَالإِرْشَادُ ، وَالتَّذْكِيرُ ، وَمِنْ شَأْنِ الوَعْظِ أَنْ تَكُونَ فِيهِ آيَاتٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، وَمُخْتَارَاتٌ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَنُبَذٌ مِنْ رَوَائِعِ الأَخْبَارِ ، وَقَدْ أُضِيفَ إِلَيْهِ عُنْصُرُ الأَدَبِ مُمَثَّلاً فِي الشِّعْرِ .

وَكَانَ الَّذِي جَمَعَ القُرْآنَ وَالحَدِيثَ وَالشِّعْرَ عَلَىٰ مَا بَيْنَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ مِنْ تَفَاوُتٍ كَبِيرٍ فِي القِيمَةِ وَالرِّفْعَةِ أَنَّهَا جَمِيعاً إِيمَانِيَّةُ الغَايَةِ رَبَّانِيَّةُ الاتِّجَاهِ .

وَفِي هَذَا تَكْرِيمٌ لِلأَدَبِ مَا بَعْدَهُ مِنْ تَكْرِيمٍ ، فَهُوَ حِينَ يَكُونُ شَرِيفَ البَوَاعِثِ ، سَامِيَ الغَايَاتِ ، يَرْتَقِي وَيَرْتَقِي ، حَتَّىٰ يَغْدُوَ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يُرْوَىٰ فِي بَيْتِ اللَّهِ جَنْباً إِلَىٰ جَنْبٍ مَعَ كَلَامِ اللَّهِ ، وَحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَقَبْلَ أَنْ نُغَادِرَ هَذِهِ الفِقْرَةَ مِنَ الْمَوْضُوعِ لَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نَقِفَ وَقْفَةً مُسْتَأْنِيَةً عِنْدَ نَعْتِ أَبِي هُرَيْرَةَ لِصَاحِبِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ ، فَلَقَدْ قَالَ عَنْهُ :

إِنَّهُ كَانَ لَا يَقُولُ الرَّفَثَ ، وَالرَّفَثُ هُوَ الفَاحِشُ مِنَ القَوْلِ .

فَنَظَافَةُ الأَدَبِ وَبَرَاءَتُهُ مِنْ فَاحِشِ الْكَلَامِ أَمْرَانِ لَا غِنَى عَنْهُمَا لِأَيِّ أَدَبٍ يَرْنُو إِلَىٰ الدُّخُولِ فِي رِحَابِ الأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ .

أَمَّا الْأَدَبُ الَّذِي يَصِفُ الْعَوْرَاتِ ، وَيُثِيرُ الشَّهَوَاتِ ، وَيَستَبِيحُ الْحُرُمَاتِ فَهُوَ أَدَبٌ غَيْرُ إِسْلَامِيٍّ كَائِناً مَنْ كَانَ قَائِلُهُ .

٥ ـ ثُمَّ إِنَّ النُّصُوصَ تُومِئُ إِلَىٰ حَقِيقَةٍ أُخْرَىٰ هِيَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَفزَعُونَ إِلَىٰ هَذَا الْأَدَبِ فِي سَاعَاتِ الشِّدَّةِ ، وَيَسْتَرْوِحُونَ بِهِ فِي أَوْقَاتِ الْمِحْنَةِ ، فَتَقْوَىٰ بِهِ الْقُلُوبُ وَتَهْتَزُّ لَهُ الْمَشَاعِرُ .

فَقَدْ رَوَىٰ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ البَرَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ :

يَا أَبَا عُمَارَةَ أَوَلَّيْتُمْ يَوْمَ « حُنَيْنٍ » ؟ .

قَالَ البَرَاءُ : « أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يُوَلِّ يَوْمَئِذٍ ... كَانَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ آخِذاً بِعِنَانِ بَغْلَتِهِ فَلَمَّا غَشِيَهُ المُشْرِكُونَ نَزَلَ فَجَعَلَ يَقُولُ :

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ   أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ

فَمَا رُئِيَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ أَشَدُّ مِنْهُ .

وَقَدْ حَدَثَ نَحْوٌ مِنْ هَذَا فِي يَوْمِ « الأَحْزَابِ » حِينَ كَانَ المُسْلِمُونَ يَحْفِرُونَ الخَنْدَقَ حَوْلَ المَدِينَةِ ، وَهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَدْهَمَهُمُ المُشْرِكُونَ قَبْلَ أَنْ يَفْرَغُوا مِنْ عَمَلِهِمْ ، وَكَانَ الْجَهْدُ وَالجُوعُ وَالإِعْيَاءُ قَدْ تَأَلَّبَتْ عَلَيْهِمْ ، وَأَخذَتْ مِنْهُمْ كُلَّ مَأْخَذٍ ...

فِي هَذَا المَوْقِفِ العَصِيبِ كَانَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ ﷺ وَصَحَابَتُهُ الأَخْيَارُ يَسْتَرْوِحُونَ بِالْأَدَبِ ، وَيَتَقَوَّوْنَ بِهِ عَلَىٰ مُوَاصَلَةِ الْجَهْدِ ، وَيَتَغَلَّبُونَ بِحَلَاوَةِ جَرْسِهِ عَلَىٰ النَّصَبِ .

فَعَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

« رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ « الأَحْزَابِ » ، وَقَدْ وَارَىٰ التُّرَابُ بَيَاضَ إِبِطَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ :[1]

وَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّا إِذَا قَوْمٌ بَغَوْا عَلَيْنَا ... وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

يَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ : « أَبَيْنَا أَبَيْنَا »[2]

وَلَكِنْ لَا تَنْسَ أَنَّ هَذَا النَّشِيدَ نَظِيفُ الكَلِمَاتِ ، إِيمَانِيُّ المُنْطَلَقَاتِ ، إِسْلَامِيُّ المَضَامِينِ .

فَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ إِشَادَةٍ بِفَضْلِ اللَّهِ الَّذِي هَدَاهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ ، وَيَسَّرَ لَهُمُ القِيَامَ بِفَرَائِضِهِ ، وَعَلَىٰ دُعَاءٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُثَبِّتَ أَقْدَامَهُمْ يَوْمَ الرَّوْعِ ، وَيُنَزِّلَ السَّكِينَةَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فِي سَاعَاتِ الفَزَعِ .

كَمَا يَشْتَمِلُ عَلَىٰ إِعْلَانٍ عَنْ بَعْضِ مَبَادِئِهِمْ ، فَهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَبْغُوا عَلَىٰ أَحَدٍ ، وَيَأْبَوْنَ أَن يَبْغِيَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ أَيْضاً .

وَكُلُّ نَشِيدٍ يَتَّسِمُ بِنَظَافَةِ الكَلِمَةِ وَإِسْلَامِيَّةِ المَضْمُونِ يُمْكِنُ لَهُ أَن يَدْخُلَ رِحَابَ الأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ مِنْ أَوْسَعِ أَبْوَابِهِ .

٦ ـ ثُمَّ إِنَّ النُّصُوصَ تُومِئُ إِلَىٰ حَقِيقَةٍ أُخْرَىٰ ، هِيَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ كَانَ يَأْنَسُ بِالشِّعْرِ ، وَيَسْأَلُ الرُّوَاةَ عَنْهُ ، وَيُنْصِتُ إِلَيْهِ وَيَسْتَزِيدُ مِنْهُ .

---

(١) أي الرسول عليه الصلاة والسلام.

(٢) هذه الأبيات لابن الأكوع : انظر السيرة لابن هشام في ذكر غزوة الأحزاب.

وَلَكِنْ حَذَارِ أَنْ تَظُنَّ أَنَّ هَذَا الَّذِي يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ هُوَ كُلُّ شِعْرٍ، وَإِنَّمَا هُوَ شِعْرٌ ذُو صِفَاتٍ مُحَدَّدَةٍ... فَقَدْ رَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الشَّرِيدِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: رَدِفْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْماً فَقَالَ:

(هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْءٌ)؟.

قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: (هِيهِ).

فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتاً... فَقَالَ: (هِيهِ).

ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتاً... فَقَالَ: (هِيهِ)، حَتَّىٰ أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ.

وَفِي رِوَايَةٍ: «أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ قَافِيَةٍ»، فَجَعَلَ كُلَّمَا مَرَرْتُ عَلَىٰ بَيْتٍ مِنْهَا قَالَ: (هِيهِ)، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (اسْتَسْلَمَ شِعْرُهُ).

وَفِي رِوَايَةٍ ثَالِثَةٍ: إِنَّ الشَّرِيدَ بَيْنَمَا هُوَ يَمْشِي بَيْنَ مِنًى وَالشِّعْبِ فِي حِجَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّتِي حَجَّ قَالَ [أَيِ الشَّرِيدُ]: وَإِذَا وَقْعُ نَاقَةٍ خَلْفِي، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَعَرَفَنِي...

فَقَالَ: (الشَّرِيدُ؟).

قُلْتُ: نَعَمْ...

قَالَ: (أَلَا أَحْمِلُكَ خَلْفِي يَا شَرِيدُ؟).

قُلْتُ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ [أَيِ الشَّرِيدُ]: مَا بِي إِعْيَاءٌ وَلَا لُغُوبٌ[1] وَلَكِنْ أَلْتَمِسُ البَرَكَةَ فِي مَرْكَبِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

---

(١) لُغُوب: تعب.

فَقَالَ : (يَا شَرِيدُ هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْءٌ ؟) .

قُلْتُ : أَنَا أَرْوَىٰ النَّاسِ . قَالَ : (هَاتِ) ...

فَأَنْشَدْتُهُ ، فَإِذَا سَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَكَتُّ ، وَإِذَا قَالَ « إِيهِ » أَنْشَدْتُهُ حَتَّىٰ إِذَا طَالَ ذَٰلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (عِنْدَ اللَّهِ عِلْمُ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ) .

وَأُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ - كَمَا تَعْلَمُ - شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ مُتَأَلِّهٌ مُتَعَبِّدٌ حَرَّمَ الخَمْرَ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَنَبَذَ عِبَادَةَ الأَوْثَانِ .

قَالَ عَنْهُ الأَصْمَعِيُّ : إِنَّهُ ذَهَبَ فِي شِعْرِهِ بِعَامَّةِ ذِكْرِ الآخِرَةِ ، وَذَهَبَ عَنْتَرَةُ بِعَامَّةِ ذِكْرِ الحَرْبِ ، وَذَهَبَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ بِعَامَّةِ ذِكْرِ الشَّبَابِ . وَفِي ذَٰلِكَ مَا يُفَسِّرُ لَكَ سُؤَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ شِعْرِهِ وَاسْتِمَاعِهِ لَهُ ، وَاسْتِزَادَتِهِ مِنْهُ .

فَهُوَ كَمَا نَعَتَهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ شَاعِرٌ أَسْلَمَ شِعْرُهُ أَوِ اسْتَسْلَمَ شِعْرُهُ ، وَإِنْ لَمْ يُسْلِمْ صَاحِبُهُ .

٧ - وَهُنَاكَ حَقِيقَةٌ أُخْرَىٰ هِيَ أَنَّ الشِّعْرَ كَانَ يُنْشَدُ فِي مَجَالِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَكَانَ يَسْتَمِعُ لَهُ مَعَ الصَّحَابَةِ الكِرَامِ ، وَإِنَّ ذَٰلِكَ لَمْ يَحْدُثْ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، وَإِنَّمَا حَدَثَ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً فَقَدْ حَدَّثَ شَرِيكٌ عَنْ سِمَاكٍ قَالَ :

قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ : أَكُنْتَ تُجَالِسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَكَانَ(١) طَوِيلَ الصَّمْتِ قَلِيلَ الضَّحِكِ ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَذْكُرُونَ عِنْدَهُ الشِّعْرَ ، وَأَشْيَاءَ مِنْ أُمُورِهِمْ ، فَيَضْحَكُونَ ، وَرُبَّمَا يَتَبَسَّمُ ﷺ(٢) .

٨ - ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ حَقِيقَةً أُخْرَىٰ هِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ

(١) أي الرسول عليه الصلاة والسلام.

(٢) مسند أحمد : ٥/٨٦.

شَهِدَ لِلأَدَبِ مُمَثَّلاً فِي الشِّعْرِ بِأَنَّ بَعْضَهُ حِكْمَةٌ ، كَمَا شَهِدَ لِلبَيَانِ بِأَنَّهُ سِحْرٌ .

فَقَدْ رَوَىٰ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً) .

كَمَا رَوَىٰ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ : قَدِمَ رَجُلَانِ مِنَ المَشْرِقِ فَخَطَبَا ، فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً) .

٩ ـ وَهُنَاكَ حَقِيقَةٌ أَخِيرَةٌ تُومِئُ إِلَىٰ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يُنَوِّهُ بِبَعْضِ الشِّعْرِ ، وَيَرْفَعُ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضِهِ لِعَنَاصِرَ مَوْضُوعِيَّةٍ تَوَافَرَتْ لَهُ ... وَفِي قِمَّةِ هَذِهِ العَنَاصِرِ الصِّدْقُ .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ قَوْلُ لَبِيدٍ : « أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ »)[1] .

ثَانِياً : مَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ذَمِّ الشِّعْرِ

بَعْدَ أَنْ أَثْبَتَتِ الأَحَادِيثُ الكَثِيرَةُ الوَفِيرَةُ الَّتِي رَوَاهَا البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ أَنَّ الرَّسُولَ الأَعْظَمَ ﷺ قَدْ دَعَا الشُّعَرَاءَ لِلذَّودِ عَنِ دِينِ اللَّهِ ، وَالدِّفَاعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ نَصَبَ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ مِنْبَراً فِي مَسْجِدِهِ لِيُنْشِدَ الشِّعْرَ مِنْ فَوْقِهِ ، وَأَنَّهُ كَانَ فِي طَلِيعَةِ المُسْتَمِعِينَ إِلَيْهِ المُشِيدِينَ بِهِ .

وَأَنَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ كَانَ يَسْتَرْوِحُ بِالشِّعْرِ فِي أَوْقَاتِ المِحْنَةِ وَيَتَقَوَّىٰ بِهِ عَلَىٰ مُوَاصَلَةِ الْجَهْدِ فِي سَاعَاتِ الشِّدَّةِ ، وَيُرَدِّدُهُ بِنَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَأْنَسُ بِالشِّعْرِ ، وَيَسْأَلُ الرُّوَاةَ عَنْهُ وَيَسْتَزِيدُ مِنْهُ ...

(١) أخرجه الشيخان .

بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ حَدِيثٌ وَاحِدٌ فِي ذَمِّ الشِّعْرِ، رَوَاهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَأَبُو دَاودَ بِوُجُوهٍ مُتَّفِقَةٍ مَعْنًى مُخْتَلِفَةٍ لَفْظاً بَعْضَ الِاخْتِلَافِ، وَأَوْسَعُ هَذِهِ الصِّيَغِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:

بَيْنَا نَحْنُ نَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالعَرْجِ[2] إِذْ عَرَضَ شَاعِرٌ يُنْشِدُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (خُذُوا الشَّيْطَانَ، أَوْ أَمْسِكُوا الشَّيْطَانَ، لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحاً خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً).

وَلَقَدْ اجْتَهَدَتْ طَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي مُعَالَجَةِ هَذَا الحَدِيثِ، وَتَأْوِيلِهِ تَأْوِيلاً يَتَّفِقُ مَعَ الأَحَادِيثِ الكَثِيرَةِ الوَفِيرَةِ الَّتِي أَوْرَدْنَا شَيْئًا مِنْهَا فِي مَدْحِ الشِّعْرِ، وَالثَّنَاءِ عَلَىٰ قَائِلِيهِ. وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ هَؤُلَاءِ السُّهَيْلِيُّ الَّذِي اسْتَنَدَ إِلَىٰ مَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنْ أَنَّ المَقْصُودَ بِالشِّعْرِ الوَارِدِ فِي هَذَا الحَدِيثِ إِنَّمَا هُوَ الشِّعْرُ الَّذِي هُجِيَ بِهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا الشِّعْرُ كُلُّهُ[3].

كَمَا اعْتَمَدَ بَعْضُهُمُ الآخَرُ عَلَىٰ الحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ جَابِرٌ وَهُوَ: (لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً ـ أَوْ دَماً ـ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً هُجِيتُ بِهِ)[4].

فَالشِّعْرُ المَذْمُومُ فِي هَذَا الحَدِيثِ هُوَ الشِّعْرُ الَّذِي هُجِيَ بِهِ الرَّسُولُ الأَعْظَمُ ﷺ.

وَلَقَدْ وَسَمَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ هَذَا الحَدِيثَ وَمَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ عَائِشَةُ رِضْوَانُ

---

(١) صحيح مسلم: الحديث ذو الرقم ٢٢٥٩ كتاب الشعر.

(٢) العَرْج: مكان بين مَكّة والمدينة المنوّرة.

(٣) انظر الروض الأنف للسهيلي: ٥/٧٣ـ ٧٤.

(٤) انظر فتح الباري: ٢٢/٣٩.

اللَّهِ عَلَيْهَا بِالضَّعْفِ ، وَطَفِقُوا يُؤَوِّلُونَ الحَدِيثَ الَّذِي صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ البُخَارِيُّ : « إِنَّ هَذَا الحَدِيثَ يَنْصَبُّ عَلَىٰ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الشِّعْرُ وَامْتَلأَ صَدْرُهُ مِنْهُ ، وَاشْتَغَلَ بِهِ عَنِ العِلْمِ ، وَأَعْرَضَ بَسَبَبِهِ عَنِ الذِّكْرِ ، وَخَاضَ بِهِ فِي البَاطِلِ »[1].

وَذَهَبَ ابْنُ حَجَرٍ إِلَىٰ أَنَّ الَّذِينَ خُوطِبُوا بِذَلِكَ إِنَّمَا كَانُوا فِي غَايَةِ الإِقْبَالِ عَلَىٰ الشِّعْرِ وَالاِشْتِغَالِ بِهِ ، فَزَجَرَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ عَنْهُ لِيُقْبِلُوا عَلَىٰ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَيَتَمَلَّوْا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ ، فَإِذَا أَخَذَ المُسْلِمُ مِنْ هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَهُ فَإِنَّ الشِّعْرَ لَا يَضُرُّهُ بَعْدَ ذَلِكَ[2].

وَلَعَلَّ أَفْضَلَ مَا قِيلَ فِي هَذَا الأَمْرِ هُوَ : « أَنَّ الشِّعْرَ كَلَامٌ ، كَأَيِّ كَلَامٍ آخَرَ ، فَحَسَنُهُ حَسَنٌ وَهُوَ مَقْبُولٌ ، وَسَيِّئُهُ سَيِّئٌ وَهُوَ مَرْفُوضٌ » .

وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الأَمْرُ كَذَلِكَ لَمَا اسْتَحْسَنَ الرَّسُولُ الأَعْظَمُ ﷺ حَسَنَهُ ، وَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ تَارَةً وَرَدَّدَهُ عَلَىٰ لِسَانِهِ تَارَةً أُخْرَىٰ .

وَلَمَا أَنْشَدَهُ أَعْلَامُ الصَّحَابَةِ وَفُضَلَاءُ التَّابِعِينَ[3] وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا .

مَوْقِفُ الإِسْلَامِ مِنَ الشِّعْرِ مِنْ خِلَالِ كِتَابِ اللَّهِ :

رُبَّ قَائِلٍ يَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَد أَنْحَىٰ بِاللَّائِمَةِ عَلَىٰ الشُّعَرَاءِ ،

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٣/ ١٥١.

(٢) انظر فتح الباري : ٢٢/ ٣٥٧.

(٣) التّابعون : هم الرعيل الأول بعد صَحابة النّبي ﷺ ، وقد قسمهم علماء الحديث إِلَىٰ طبقات ، أولهم من لحِقَ العشرةَ المبشرين بالجنة وآخرهم من لَقِيَ صغار الصَّحَابة أو من تأخرت وفاتهم ... انظر كتاب « صور من حياة التّابعين » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي .

وَوَصَفَهُمْ بِصِفَاتٍ نَالَتْ مِنْهُمْ أَقْسَىٰ النَّيلِ ، وَأَوْجَعَتْهُمْ أَشَدَّ الإِيجَاعِ ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ **وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ ...**

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ...

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ... ﴾[1].

فَالآيَاتُ الثَّلَاثُ تُشِيرُ إِشَارَةً وَاضِحَةً إِلَىٰ مَوْقِفِ القُرْآنِ الكَرِيمِ مِنْ هَذَا الفَنِّ وَنَظْرَتِهِ إِلَىٰ أَرْبَابِهِ مِنَ الشُّعَرَاءِ .

وَلِلإِجَابَةِ عَنْ ذَلِكَ يَجْدُرُ بِنَا أَنْ نُشِيرَ إِلَىٰ أَنَّ الكِتَابَ العَزِيزَ لَا يُحَارِبُ هَذَا الفَنَّ الأَدَبِيَّ لِذَاتِهِ ، وَإِنَّمَا يُحَارِبُ فِئَةً خَاصَّةً مِنَ الشُّعَرَاءِ ، وَهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ دَأَبُوا عَلَىٰ هِجَاءِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَإِنْشَادِ شِعْرِهِمْ الَّذِي قَالُوهُ فِي هِجَائِهِ ، كَمَا يُحَارِبُ الغَاوِينَ الضَّالِّينَ مِنَ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ جَعَلُوا يَتَغَنَّوْنَ بِأَشْعَارِهِمْ وَيُذِيعُونَهَا بَيْنَ النَّاسِ .

ثُمَّ أَضَافَ إِلَىٰ ذَلِكَ الشُّعَرَاءَ الَّذِينَ كَانُوا يَهِيمُونَ وَرَاءَ أَحْلَامِهِمُ الضَّالَّةِ ، وَيَخْضَعُونَ لِانْفِعَالَاتِهِمُ الفَاسِدَةِ ، وَلَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ ... فَيُمَزِّقُونَ بِشِعْرِهِمُ الأَعْرَاضَ ، وَيُعَرُّونَ النِّسَاءَ ، وَيَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ، وَيَمْدَحُونَ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ المَدْحَ ، وَيَذُمُّونَ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الذَّمَّ ، وَهُمْ فَوْقَ ذَلِكَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، فَيُشِيدُونَ بِالجُودِ مَعَ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَهُ ، وَيَذُمُّونَ البُخْلَ وَهُمْ يَأْتُونَهُ .

وَقَدْ أَتْبَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الآيَاتِ الثَّلَاثَ الَّتِي نَدَّدَ فِيهَا بِضُرُوبٍ مِنَ الشِّعْرِ وَأَصْنَافٍ مِنَ الشُّعَرَاءِ بِقَوْلِهِ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

---

(١) سورة الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً، وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ...﴾[1].

فَالشُّعَرَاءُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَاهتَدَوْا بِهَدْيِهِ، وَاتَّبَعُوا الرَّسُولَ الكَرِيمَ ﷺ، وَسَارُوا عَلَىٰ نَهْجِهِ، وَجَنَّدُوا طَاقَاتِهِمْ لِعَمَلِ الصَّالِحَاتِ مِنَ الأَفْعَالِ وَالأَقْوَالِ، وَذَكَرُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ، وَتَحَدَّثُوا بِآلَائِهِ.

إِنَّ هَؤُلَاءِ الشُّعَرَاءَ قَدِ اسْتَثْنَاهُمُ الكِتَابُ الكَرِيمُ مِنْ تِلْكَ الحَمْلَةِ الَّتِي حَمَلَهَا عَلَىٰ الآخَرِينَ ...

وَرَفَعَ شَأْنَهُمْ عَلَىٰ سَائِرِ الشُّعَرَاءِ، وَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الإِسْلَامَ قَدْ أَرَادَ - فِي جُمْلَةِ مَا أَرَادَهُ - أَنْ يَنْتَشِلَ هَذَا الفَنَّ الرَّفِيعَ مِمَّا غَرِقَ فِيهِ، وَأَنْ يَنْهَضَ بِهِ إِلَىٰ المُسْتَوَىٰ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ، وَأَنْ يُوَجِّهَ الشُّعَرَاءَ الوِجْهَةَ الصَّالِحَةَ، وَأَنْ يَأْخُذَ بِأَيْدِيهِمْ لِأَدَاءِ رِسَالَتِهِمْ فِي الحَيَاةِ.

فَهُمْ إِذَا أَفْعَمُوا النُّفُوسَ بِحَرَارَةِ الإِيمَانِ وَمَلَأُوا القُلُوبَ بِمُثُلِ الإِسْلَامِ، وَشَحَذُوا العَزَائِمَ بِرُوحِ التَّضْحِيَةِ، وَصَرَفُوا النَّاسَ بِجَمَالِ فَنِّهِمْ وَنَقَائِهِ عَنِ الأَدَبِ الرَّخِيصِ الَّذِي تَقْذِفُ بِهِ المَطَابِعُ كُلَّ يَوْمٍ ...

إِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ نَالُوا رِضَا اللَّهِ، وَفَازُوا بِثَوَابِهِ.

وَخُلَاصَةُ القَوْلِ:

هِيَ أَنَّ الإِسْلَامَ لَا يُحَارِبُ الشِّعْرَ لِذَاتِهِ، وَإِنَّمَا يُحَارِبُ الفَاسِدَ مِنْ مَنَاهِجِ الشُّعَرَاءِ كَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ.

---

(١) سورة الشعراء: ٢٢٧.

ذَلِكَ لِأَنَّ الشِّعْرَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الكَلَامِ ، وَضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِهِ ، فَصَالِحُهُ كَصَالِحِ غَيْرِهِ مِنَ الكَلَامِ وَهُوَ مَقْبُولٌ ، وَفَاسِدُهُ كَفَاسِدِهِ وَهُوَ مَرْفُوضٌ .

وَمَا يُقَالُ عَنِ الشِّعْرِ يُقَالُ عَنْ فُنُونِ الأَدَبِ الأُخْرَىٰ كَالخَطَابَةِ وَالقِصَّةِ ، وَالأُقْصُوصَةِ وَغَيْرِهَا .

* * *

أَهَمُّ الـمَذَاهِبِ الأَدَبِيَّةِ عِنْدَ الغَرْبِ وَمَوْقِفُ الإِسْلَامِ مِنْهَا

مَدْخَلٌ وَتَعْرِيفَاتٌ

أَوَّلاً : الـمَدْرَسَةُ الكَلَاسِيكِيَّةُ Classicalism

ثَانِياً : الرُّومَانْتِيكِيَّةُ Romanticism

ثَالِثاً : الوَاقِعِيَّةُ الأُورُبِيَّةُ Realism

رَابِعاً : الطَّبِيعِيَّةُ Naturalism

خَامِساً : مَذْهَبُ «الفَنُّ لِلْفَنِّ» Arbism

سَادِساً : الرَّمْزِيَّةُ Symbolism

سَابِعاً : الْوُجُودِيَّةُ Existentialism

أَهَمُّ الـمَذَاهِبِ الأَدَبِيَّةِ عِنْدَ الغَرْبِ وَمَوْقِفُ الإِسْلَامِ مِنْهَا (*)

مَدْخَلٌ وَتَعْرِيفَاتٌ

كَثِيراً مَا طَرَقَتْ سَمْعَكَ كَلِمَةُ « العُصُورُ الوُسْطَىٰ » أَوِ « القُرُونُ الوُسْطَىٰ » وَذَلِكَ فِي مَعْرِضِ اسْتِهْجَانِ عَمَلٍ مِنَ الأَعْمَالِ ، أَوِ الإِزْرَاءِ عَلَىٰ فِكْرٍ مِنَ الأَفْكَارِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ القُرُونَ الوُسْطَىٰ تُعْتَبَرُ بِالنِّسْبَةِ لِأُورُبَّا عَصْرَ الظُّلْمِ وَالظُّلُمَاتِ .

وَكَمَا سَمِعْتَ عَنِ القُرُونِ الوُسْطَىٰ فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ فَقَدْ سَمِعْتَ كَثِيراً عَنْ عَصْرِ النَّهْضَةِ ، وَالعُصُورِ الحَدِيثَةِ فِي مَجَالِ الإِطْرَاءِ وَالمَدْحِ .

وَمَا دَامَتْ هُنَاكَ « عُصُورٌ وُسْطَىٰ » وَأُخْرَىٰ « حَدِيثَةٌ » فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تُوجَدَ إِلَىٰ جَانِبِ ذَلِكَ « عُصُورٌ قَدِيمَةٌ » .

(*) لقد اعتمدنا في هذا البحثِ عَلَىٰ المصادر والمراجِعِ التاليةِ :

١ – الكتابُ ، والسنةُ .

٢ – قصةُ الأدبِ في العالَمِ ، لأحمد أمين وزكي نجيب محمود .

٣ – الأدبُ ومذَاهبُهُ ، وفي الأدب والنقدِ ، ومحاضراتٌ في الأدبِ ومذاهبِهِ ، للدكتور محمد مَندُور .

٤ – النقدُ الأدبيُّ الحديثُ ، والرومانتيكيةُ ، للدكتور محمد غنيمي هلال .

٥ – أدباءُ الرومانتيكيةِ الفرنسيةِ ، للدكتور محمد غلاب .

٦ – المذاهبُ الأدبيةُ من الكلاسيكيةِ إِلَىٰ العبَثيةِ ، للدكتور نبيل راغب .

٧ – الموسوعةُ العربيةُ المُيَسَّرةُ ، وقد اعتمدنا عليها في التراجم .

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّكَ تَتُوقُ إِلَىٰ تَحْدِيدِ هَذِهِ العُصُورِ مِنْ جِهَةٍ ، وَإِلْقَاءِ الأَضْوَاءِ عَلَيْهَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ ؛ وَذَٰلِكَ لِمَعْرِفَةِ خَصَائِصِ كُلٍّ مِنْهَا وَمُمَيِّزَاتِهِ .

وَنُبَادِرُ فَنَقُولُ : إِنَّ العُصُورَ الوُسْطَىٰ تَعْنِي تِلْكَ القُرُونَ السَّبْعَةَ الَّتِي تَمْتَدُّ مِنْ أَوَاخِرِ القَرْنِ الخَامِسِ المِيلَادِيِّ حَيْثُ سَقَطَتِ الإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الرُّومَانِيَّةُ الغَرْبِيَّةُ سَنَةَ (٤٧٦م) إِلَىٰ أَوَاخِرِ القَرْنِ الثَّانِيَ عَشَرَ وَبِدَايَةِ القَرْنِ الثَّالِثَ عَشَرَ .

وَإِذَا تَحَدَّدَتْ لَكَ بِدَايَةُ القُرُونِ الوُسْطَىٰ وَنِهَايَتُهَا فَاعْلَمْ أَنَّ مَا سَبَقَهَا يُدْعَىٰ بِالعُصُورِ القَدِيمَةِ ، وَأَنَّ مَا تَلَاهَا يُدْعَىٰ بِعُصُورِ النَّهْضَةِ ، وَالعَصْرِ الحَدِيثِ .

هَذَا ، وَإِنَّ العُصُورَ القَدِيمَةَ بِالنِّسْبَةِ لِأُورُبَّا هِيَ عُصُورُ ازْدِهَارٍ فِي الفِكْرِ ، وَالفَنِّ وَحَسْبُهَا أَنَّهَا أَنْجَبَتْ لَهُمْ « أَرِسْطُو »(١).

وَالعُصُورُ الوُسْطَىٰ هِيَ عُصُورُ انْحِطَاطٍ فِي الفِكْرِ ، وَالفَنِّ ، وَالأَدَبِ ، وَانْحِلَالٍ وَتَدَهْوُرٍ وَتَمَزُّقٍ فِي السِّيَاسَةِ وَالحُكْمِ ، وَوَحْشِيَّةٍ وَبَدَاوَةٍ فِي المَدَنِيَّةِ وَالحَضَارَةِ .

عَلَىٰ أَنَّ هَذِهِ العُصُورَ الَّتِي دَامَتْ سَبْعَةَ قُرُونٍ لَيْسَتْ سَوَاءً فِي ذَلِكَ ...

فَبَعْضُهَا أَشَدُّ ظُلْمَةً مِنْ بَعْضِهَا الآخَرِ ، وَأَوَاخِرُهَا خَيْرٌ مِنْ أَوَائِلِهَا وَأَوْسَاطِهَا .

---

(١) أرسطو Aristotle: فيلسوفٌ يوناني تتلمذَ عَلَىٰ « أفلاطونَ » أَلَّف عدداً كبيراً من الكتُبِ. منها « الأورغانون » في المنطقِ ، و« السماعُ الطبيعيُّ » ، و« السماءُ » ، و« الكونُ والفسادُ » ، و« كتابُ النفسِ » ، و« الجوهرُ والعرضُ » ، وله كتبٌ في الأخلاقِ والسياسةِ ، وهو يهتمُّ بالموسيقا والرسمِ . تُوفي سنة ٣٢٢ قبلَ الميلادِ .

وَكَانَ مِنْ أَبْرَزِ مَا وَقَعَ فِي العُصُورِ الوُسْطَىٰ مِنَ النَّاحِيَةِ السِّيَاسِيَّةِ الحُرُوبُ المَعْرُوفَةُ بِالحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ .

أَمَّا عَصْرُ النَّهْضَةِ فَهُوَ ذَلِكَ الجِسْرُ الَّذِي عَبَرَتْ عَلَيْهِ أُورُبَّا مِنَ العُصُورِ الوُسْطَىٰ إِلَىٰ العُصُورِ الحَدِيثَةِ ؛ فَفِيهِ وَقَعَتْ جَمِيعُ التَّغْيِيرَاتِ الفِكْرِيَّةِ ، وَالسِّيَاسِيَّةِ ، والِاقْتِصَادِيَّةِ ، وَالْأَدَبِيَّةِ ، وَالدِّينِيَّةِ الَّتِي نَقَلَتِ العَالَمَ المَسِيحِيَّ مِنْ ظُلُمَاتِ العُصُورِ الوُسْطَىٰ إِلَىٰ مُعْطَيَاتِ العَصْرِ الحَدِيثِ .

وَإِذَا سَأَلْتَ عَنِ الأَسْبَابِ الَّتِي أَدَّتْ إِلَىٰ تَحْقِيقِ هَذِهِ النَّهْضَةِ فِي مَجَالَاتِ العُلُومِ وَالفُنُونِ ، وَسَاعَدَتْ عَلَىٰ تَكْوِينِ هَذِهِ الحَضَارَةِ المَادِيَّةِ فِي أُورُبَّا ، أَجَبْنَاكَ بِأَنَّ أَعْظَمَ هَذِهِ الأَسْبَابِ هِيَ :

أ ـ اتِّصَالُ الغَرْبِ المُتَقَهْقِرِ بِالشَّرْقِ المُتَحَضِّرِ ، وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ الأَنْدَلُسِ أَوَّلاً ، ثُمَّ عَنْ طَرِيقِ الحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ ثَانِياً ... حَيْثُ تَفَتَّحَتْ عُيُونُ أُورُبَّا عَلَىٰ الحَضَارَةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَهِيَ فِي أَوْجِ ازْدِهَارِهَا فِي بِلَادِ الأَنْدَلُسِ ، وَرَأَىٰ الأُورُبِّيُّونَ مِنْ خِلَالِهَا مَبْلَغَ تَأَخُّرِهِمْ ، وَمَدَىٰ حَاجَتِهِمْ إِلَىٰ النُّهُوضِ .

وَحَيْثُ عَثَرَ الصَّلِيبِيُّونَ فِي بِلَادِ الشَّرْقِ عَلَىٰ مَا أَضَاعُوهُ إِبَّانَ جَاهِلِيَّتِهِمْ مِنْ أُصُولِ الثَّقَافَةِ اليُونَانِيَّةِ بَعْدَ أَنْ هَضَمَهَا المُسْلِمُونَ ، وَطَوَّرُوهَا ، وَأَغْنَوْهَا بِحَضَارَتِهِمْ وَزَادُوا فِيهَا زِيَادَاتٍ ثَمِينَةً .

ب ـ فَتْحُ المُسْلِمِينَ لِلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ بَعْدَ حُرُوبٍ طَوِيلَةٍ دَامَتْ مُنْذُ خِلَافَةِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ إِلَىٰ خِلَافَةِ المَلِكِ العُثْمَانِيِّ « مُحَمَّدٍ الفَاتِحِ » .

كَمَا أَنَّ العُلَمَاءَ مِنَ القُسُسِ وَالرُّهْبَانِ فَرُّوا إِلَىٰ « إِيطَالْيَا » ، وَحَمَلُوا مَعَهُمْ

مَا كَانُوا يَحْتَفِظُونَ بِهِ مِنَ المَخْطُوطَاتِ وَالآثَارِ اليُونَانِيَّةِ ، وَعَمِلُوا عَلَىٰ نَشْرِ مَا فِيهَا مِنَ المَعَارِفِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ أُورُبَّا .

جـ - اكْتِشَافُ الطِّبَاعَةِ عَلَىٰ يَدِ « يُوهَان جُوتِنْبِرْج »[1]، وَذَلِكَ فِي مُنْتَصَفِ القَرْنِ الخَامِسَ عَشَرَ المِيلَادِيِّ ، مِمَّا أَدَّىٰ إِلَىٰ تَيْسِيرِ سُبُلِ العِلْمِ لِلنَّاسِ ، وَتَخْفِيفِ نَفَقَاتِهِ عَلَيْهِمْ .

د - حَرَكَةُ الإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ الَّتِي نَادَىٰ بِهَا « مَارْتِنْ لُوثَر »[2] وَالَّتِي دَعَتْ - فِي جُمْلَةِ مَا دَعَتْ إِلَيْهِ - إِلَىٰ التَّنْدِيدِ بِبَيْعِ صُكُوكِ الغُفْرَانِ ، وَنَبْذِ كَثِيرٍ مِنْ طُرُقِ العِبَادَةِ المُتَّبَعَةِ ، وَنَادَتْ بِأَنَّ الكِتَابَ المُقَدَّسَ يَحْوِي الدَّلِيلَ الهَادِيَ إِلَىٰ الحَقِيقَةِ ، وَأَنَّ مِنْ حَقِّ الفَرْدِ أَن يَتَّصِلَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْ طَرِيقِ هَذَا الكِتَابِ ، وَذَلِكَ بِمَسْئُولِيَّةِ ضَمِيرِهِ الخَاصِّ أَمَامَ اللَّهِ وَحْدَهُ .

وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ مَا فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ مِنْ مُحَاوَلَةٍ لِدَحْرِ سُلْطَةِ الكَنِيسَةِ عَلَىٰ الفِكْرِ ، وَمُقَاوَمَةٍ لِحَجْرِهَا عَلَىٰ العَقْلِ ، كَمَا لَا يَفُوتُكَ إِدْرَاكُ مَدَىٰ تَأَثُّرِ هَذِهِ الأُسُسِ بِالتَّعَالِيمِ الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُ صِلَةَ المُسْلِمِ بِرَبِّهِ صِلَةً مُبَاشِرَةً لَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ وَسِيطٍ .

وَقَدْ سَلَكَتْ أُورُبَّا إِلَىٰ النَّهْضَةِ سَبِيلَ العَوْدَةِ إِلَىٰ تُرَاثِ الإِغْرِيقِ وَإِحْيَائِهِ ، وَجَعْلِهِ مَنَارَةً يَهْتَدِي بِهَا السَّرَاةُ فِي مَجَالَاتِ الفِكْرِ ، وَالفَنِّ ، وَالأَدَبِ ، وَالسِّيَاسَةِ ، وَغَيْرِهَا مِنْ شُئُونِ الحَيَاةِ .

(١) يُوهان جُوتنبرج Johann Gutenberg: هوَ أولُ أوربي استخدمَ حروف الطباعةِ المنفصلةَ . أنشأ مطبعةً في بلدةِ « ماينز » مسقطِ رأسِه ، وطبعَ عليها الإنجيلَ ، ثم أصبحتْ بلدتُه مركزاً للطباعةِ . تُوفي سنة ١٤٦٨م .

(٢) مارتنْ لوثر Martin Luther: زعيمُ الإصلاحِ البروتستانتيِّ نال شهادَة أستاذ في العُلوم ، ثمَّ دخلَ ديراً للرهْبانِ ، ورُسِمَ قسيساً . زَارَ « رُومَا » فساءَه الانحلالُ الروحيُّ المتفشِّي هناكَ ، ووقفَ في وجْه البابَا ؛ فأصْدر قراراً بحرمانِه من غُفرانِ الكنيسةِ . أوجَد مَذهباً كنسيًّا جَديداً يدعىٰ باللُّوثرية . تُوفي سنة ١٥٤٦م .

وَقَدْ دَفَعَهُمْ إِلَىٰ ذَٰلِكَ نَظْرَتُهُمْ إِلَىٰ فَلَاسِفَةِ الإِغْرِيقِ وَعُلَمَائِهِمْ وَأُدَبَائِهِمْ وَفَنَّانِيهِمْ ؛ نَظْرَةَ إِجْلَالٍ وَتَقْدِيسٍ ، وَتَنْزِيهٍ عَنِ الخَطَأِ ، وَاعْتِبَارِ مَا خَلَّفُوهُ مِنْ آثَارٍ مَثَلاً أَعْلَىٰ لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ مِنَ الجِهَاتِ .

وَقَدْ أَزْمَعَ قَادَةُ الحَرَكَةِ الأَدَبِيَّةِ عَلَىٰ التَّخَلُّصِ مِنْ جَمِيعِ مَا يَتَّصِلُ بِالقُرُونِ الوُسْطَىٰ مِنْ أَدَبٍ وَنَقْدٍ ، وَالعَوْدَةِ إِلَىٰ أَدَبِ اليُونَانِ القَدِيمِ وَالنَّسْجِ عَلَىٰ مِنْوَالِهِ ؛ وَذَٰلِكَ عَلَىٰ اعْتِبَارِهِ النَّمُوذَجَ الوَحِيدَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُحْتَذَىٰ ، وَالمِثَالَ الكَامِلَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُحَاكَىٰ .

بَعْدَ هَذَا المَدْخَلِ نَجِدُ أَنَّهُ قَدْ آنَ لَنَا الأَوَانُ لِنَتَحَدَّثَ عَنْ أَهَمِّ المَذَاهِبِ الأَدَبِيَّةِ ، وَمَوْقِفِ الإِسْلَامِ مِنْ تِلْكَ المَذَاهِبِ .

* * *

أَوَّلاً : الـمَدْرَسَةُ الكَلاَسِيكِيَّةُ Classicalism

« الإِتِّبَاعِيَّةُ »

إِنَّ أَقْدَمَ المَدَارِسِ الأَدَبِيَّةِ عِنْدَ الغَرْبِ هِيَ المَدْرَسَةُ الكَلاَسِيكِيَّةُ ، وَلَقَدْ أَصَابَ المَحَزَّ مَنْ تَرْجَمَ كَلِمَةَ الكَلاَسِيكِيَّةِ بِالإِتِّبَاعِيَّةِ ، حَتَّىٰ لَكَأَنَّهُ لَخَّصَ المَذْهَبَ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ .

وَلَقَدْ نَشَأَتْ هَذِهِ المَدْرَسَةُ فِي « فَرَنْسَا » خِلاَلَ المُدَّةِ الوَاقِعَةِ بَيْنَ عَامِ « ١٦٣٠م » ، وَعَامِ « ١٦٦٠م » ... وَكَانَ السَّبَبُ فِي نُشُوئِهَا هُوَ أَنَّ كِبَارَ الأُدَبَاءِ عَكَفُوا عَلَىٰ قِرَاءَةِ الآثَارِ الأَدَبِيَّةِ الَّتِي خَلَّفَهَا قُدَمَاءُ اليُونَانِ وَالرُّومَانِ ، وَجَعَلُوا يُوَازِنُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا خَلَّفَهُ لَهُمْ أُدَبَاءُ القُرُونِ الوُسْطَىٰ مِنْ فُنُونِ الشِّعْرِ الشَّعْبِيِّ ؛ فَأُخِذُوا بِرَوْعَةِ تِلْكَ الآثَارِ القَدِيمَةِ ، وَأَدْهَشَتْهُمُ الأُسُسُ المُحْكَمَةُ وَالقَوَاعِدُ المُتْقَنَةُ الَّتِي الْتَزَمَتْ بِهَا .

وَبَهَرَهُمْ عُلُوُّ كَعْبِ القُدَامَىٰ مِنْ أَمْثَالِ « هُومِيرُوسَ »[1] وَغَيْرِهِ مِنْ أَفْذَاذِ أُدَبَاءِ الإِغْرِيقِ ؛ فَعَزَمُوا عَلَىٰ أَن يَقْطَعُوا الصِّلَةَ بَيْنَ أَدَبِهِمْ وَأَدَبِ القُرُونِ الوُسْطَىٰ ، وَأَنْ يُوَلُّوا وُجُوهَهُمْ شَطْرَ « أَرِسْطُو » ، وَأَنْ يَعْكُفُوا عَلَىٰ قِرَاءَةِ كِتَابِهِ « الشِّعْرُ » ، وَأَنْ يَسْتَمِدُّوا مِنْهُ مَنْهَجَ أَدَبِهِمُ الَّذِي ارْتَضَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ .

---

(١) هُوميروسُ Homer: أعظمُ شعراء اليونانِ. وَصَفَهُ نقادُهم بأنهُ « البدايةُ » و« النهايةُ » وأنه معلمُهم ، وباعثُ نهضتِهِم. نظمَ « الإلياذةَ » و« الأوديسة » اللتين مازالَتا حَتَّىٰ اليومِ تعتبرانِ المثلَ الرائعَ للملاحِمِ ، وقد تُرجِمَتا إِلَىٰ معظمِ اللغاتِ الحيةِ ، ومِنْهَا العربيةُ ، عاشَ في القرنِ الثامنِ قبلَ الميلادِ .

وَقَدْ تَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَىٰ يَدِ النَّاقِدِ الفَرَنْسِيِّ « بُوَالُو »[1] فِي كِتَابِهِ الشَّهِيرِ « فَنُّ الأَدَبِ » .

المَبَادِئُ الَّتِي قَامَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ المَدْرَسَةُ

لَقَدْ قَامَتْ هَذِهِ المَدْرَسَةُ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنَ المَبَادِئِ وَالقَوَاعِدِ الَّتِي يُمْكِنُ إِجْمَالُهَا فِيمَا يَلِي :

أ ـ مُحَاكَاةُ القُدَمَاءِ مِنْ إِغْرِيقٍ وَرُومَانٍ ، وَتَرَسُّمُ خُطَاهُمْ ؛ وَذَلِكَ لِمَا اتَّسَمَ بِهِ أَدَبُهُمْ مِنْ جَمَالٍ وَنُضْجٍ ، وَبِذَلِكَ كَانَ هَذَا الأَدَبُ أَدَبَ تَقْلِيدٍ وَاحْتِذَاءٍ ، لَا أَدَبَ وَحْيٍ وَإِلْهَامٍ .

ب ـ تَفْضِيلُ الصَّنْعَةِ عَلَىٰ العَبْقَرِيَّةِ ، وَهُمْ يُرِيدُونَ بِالصَّنْعَةِ مَجْمُوعَةَ القَوَاعِدِ وَالأُصُولِ الَّتِي تُحَقِّقُ لِلأَثَرِ الأَدَبِيِّ الكَمَالَ .

وَيُرِيدُونَ بِالعَبْقَرِيَّةِ الإِلْهَامَ الفِطْرِيَّ ، وَالمُيُولَ الذَّاتِيَّةَ ، وَقَدْ عَبَّرَ أَحَدُهُمْ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : إِنَّ الَّذِي يَحْسَبُ أَنَّ المُيُولَ وَحْدَهَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْلُقَ مِنْهُ شَاعِراً مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَزَوَّدَ بِالقَوَاعِدِ وَالأُصُولِ وَيَلْتَزِمَ بِهَا ، فَقَدْ حَادَ عَنْ جَادَّةِ الصَّوَابِ .

وَبِإِيجَازٍ فَهُمْ يُغَلِّبُونَ الفَنَّ عَلَىٰ الإِلْهَامِ ، وَقَدْ دَفَعَهُمْ إِلَىٰ ذَلِكَ مَا رَأَوْهُ مِنْ أَنَّ شُعَرَاءَ القَرْنِ السَّادِسَ عَشَرَ الَّذِينَ اعْتَمَدُوا عَلَىٰ وَمَضَاتِ الإِلْهَامِ دُونَ أَنْ تَكُونَ لَدَيْهِمُ الأُصُولُ الفَنِّيَّةُ المُحْكَمَةُ ، قَدْ أَخْفَقُوا فِي إِنْتَاجِ الآثَارِ الشِّعْرِيَّةِ الرَّائِعَةِ البَاقِيَةِ .

---

(١) نيقولَا بوالُو Nicolas Boileau: شاعرٌ وناقدٌ فرنسيٌ نظمَ قصيدةً عنوانُها « فنُّ الشعرِ » ، وملحمةً فكاهيةً ، وعدداً من المقطوعاتِ الهجائيةِ عَلَىٰ غرارِ « هُوراس » . تُوفي سنة ١٧١١م .

جـ - الِانْصِرَافُ عَنْ مَوْضُوعَاتِ الإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ، وَالتَّوَغُّلُ فِي النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ مِنْ حَيْثُ طَبِيعَتُهَا، وَأَهْوَاؤُهَا، وَعَرْضُ العَادَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ بِطَرَائِفِهَا، وَتَوَافِهِهَا.

فَلَقَدْ رَأَىٰ أَئِمَّةُ هَذَا المَذْهَبِ أَنَّ قِيمَةَ الأَثَرِ الأَدَبِيِّ لَا تُقَدَّرُ بِأَهَمِيَةِ مَوْضُوعَاتِهِ وَدَسَامَتِهَا وَنَبَالَتِهَا، وَإِنَّمَا تُقَدَّرُ بِمَا فِيهِ مِنْ عُمْقٍ فِي تَحْلِيلِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ، وَالكَشْفِ عَنْ أَسْرَارِهَا، وَالتَّصْوِيرِ لِخَلَجَاتِهَا، وَالتَّعْبِيرِ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ تَعْبِيراً دَقِيقاً صَادِقاً.

د - الدَّعْوَةُ إِلَىٰ سَيْطَرَةِ العَقْلِ عَلَىٰ الأَدَبِ، وَقَدْ أَدَّىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ جَعْلِ أَدَبِ الكَلَاسِيكِيِّينَ ضَعِيفَ الخَيَالِ شَدِيدَ الانْقِيَادِ إِلَىٰ أَحْكَامِ المَنْطِقِ، كَمَا جَعَلَ النُّقَّادَ يَزِنُونَ الأَعْمَالَ الأَدَبِيَّةَ بِمَوَازِينَ عَقْلِيَّةٍ بَحْتَةٍ، مَعَ أَنَّ العَقْلَ لَا يَهْتَمُّ إِلَّا بِالحَقِيقَةِ، وَذَلِكَ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ جَفَافِهَا، وَصَرَامَتِهَا، وَبِذَلِكَ ابْتَعَدَ هَذَا الأَدَبُ عَنِ المَجَازِ الَّذِي يُعَدُّ عُنْصُراً أَصِيلاً مِنْ عَنَاصِرِ الأَدَبِ، وَضَاقَتِ السُّبُلُ فِي وَجْهِ الأَدِيبِ المُبْدِعِ، وَالقَارِئِ المُتَشَوِّقِ المُتَطَلِّعِ إِلَىٰ الأَدَبِ الرَّحْبِ الفَسِيحِ.

وَقَدْ فَاتَ الدُّعَاةَ إِلَىٰ هَذَا المَذْهَبِ أَنَّ الأُدَبَاءَ يَسْتَطِيعُونَ بِوَسَاطَةِ المَجَازِ أَنْ يُصَوِّرُوا الحَقَائِقَ، وَأَنْ يُقَرِّبُوهَا إِلَىٰ القُرَّاءِ، وَأَنْ يُعَبِّرُوا عَنْهَا بِإِيجَازٍ رَائِعٍ يَخْدُمُ الحَقِيقَةَ، وَيُضْفِي عَلَيْهَا حُلَّةً زَاهِيَةً مِنَ الجَمَالِ، وَهُمْ حِينَ دَعَوْا إِلَىٰ ذَلِكَ خَرَجُوا عَلَىٰ مَبَادِئِ «أَرِسْطُو»، فَهُوَ قَدْ دَعَا إِلَىٰ اسْتِعْمَالِ المَجَازِ، وَرَأَىٰ فِيهِ أَمَارَاتِ النُّبُوغِ، وَأَنَّهُ العُنْصُرُ الوَحِيدُ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ الشَّاعِرُ، وَيَبْنِي شِعْرَهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ آيَةُ المَوْهِبَةِ الفِطْرِيَّةِ؛ لِأَنَّ إِحْكَامَ المَجَازِ يَعْنِي القُدْرَةَ عَلَىٰ إِحْكَامِ العَلَاقَاتِ بَيْنَ العَنَاصِرِ المُتَشَابِهَةِ.

هـ ـ الحَضُّ عَلَىٰ إِقْصَاءِ شَخْصِيَّةِ الأَدِيبِ عَنْ أَدَبِهِ ، وَهُوَ مَا دُعِيَ بـ « اللَّاشَخْصِيَةُ فِي الأَدَبِ » وَهُوَ مَبْدَأٌ دَعَا إِلَيْهِ « أَرِسْطُو » فِي المَلْحَمَةِ وَالمَسْرَحِيَّةِ ، فَعَمَّمَهُ الكَلَاسِيكِيُّونَ عَلَىٰ الشِّعْرِ الوِجْدَانِيِّ وَغَيْرِهِ ؛ مِمَّا جَعَلَ أَدَبَهُمْ مَوْضُوعِيًّا خَالِياً مِنْ هَمَسَاتِ النَّفْسِ ، وَنَبَضَاتِ القَلْبِ ، وَلَهَبِ المَشَاعِرِ .

و ـ تَصْوِيرُ النَّمَاذِجِ البَشَرِيَّةِ وَالأَحْدَاثِ الوَاقِعِيَّةِ كَمَا هِيَ ، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَمَّا فِيهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَتَرْكِ أَمْرِ الرَّغْبَةِ فِي الخَيْرِ وَالرَّهْبَةِ مِنَ الشَّرِّ لِلْقَارِئِ .

ز ـ وَأَخِيراً فَإِنَّ الأَدَبَ الكَلَاسِيكِيَّ إِنَّمَا هُوَ أَدَبُ الأَنَاقَةِ الأَنِيقَةِ ، وَالصَّنْعَةِ البَارِعَةِ الدَّقِيقَةِ ، وَالزُّخْرُفِ الجَمِيلِ ... إِنَّهُ أَدَبُ العِلْيَةِ مِنْ رُوَّادِ « الصَّالُونَاتِ » ، وَلَيْسَ بِأَدَبِ الحَيَاةِ وَالجَمَاعَاتِ .

* * *

نَظْرَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ فِي الـمَذْهَبِ الكَلَاسِيكِيِّ

إِنَّ بَيْنَ الـمَذْهَبِ الكَلَاسِيكِيِّ فِي الأَدَبِ وَفُنُونِهِ وَبَيْنَ الإِسْلَامِ فُرُوقاً جِذْرِيَّةً عَمِيقَةً، وَتَنَاقُضَاتٍ إِيمَانِيَّةً كَبِيرَةً، يُمْكِنُ إِجْمَالُهَا فِيمَا يَلِي:

أَوَّلاً: إِنَّ الـمَذْهَبَ الكَلَاسِيكِيَّ قَامَ - أَصْلاً - عَلَىٰ مُحَاكَاةِ أَدَبِ قُدَمَاءِ الإِغْرِيقِ وَالرُّومَانِ، وَهُوَ أَدَبٌ وَثَنِيٌّ يَدِينُ بِتَعَدُّدِ الآلِهَةِ، وَيُؤْمِنُ بِالصِّرَاعِ القَائِمِ بَيْنَهَا مِنْ جِهَةٍ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الإِنْسَانِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ. وَقَدْ بَلَغَ هَؤُلَاءِ الآلِهَةُ عِنْدَهُمْ حَدًّا لَا يَكَادُ يُحْصَىٰ، وَمِنْ أَشْهَرِهِمْ:

« كِيُوبِيدُ » Cupid: وَهُوَ إِلَهُ الحُبِّ، وَ« مَارِسُ » Mars: وَهُوَ إِلَهُ الحَرْبِ، وَ« أَبُولُّو » Apollo: وَهُوَ إِلَهُ الشَّمْسِ، وَ« بِلُوتُو » Pluto: وَهُوَ إِلَهُ جَهَنَّمَ.

وَكَمَا كَانَ عِنْدَهُمْ آلِهَةٌ فَقَدْ كَانَتْ عِنْدَهُمْ « إِلَاهَاتٌ » أَيْضاً، فَهُنَاكَ « فِينُوسُ » Venus: وَهِيَ إِلَهَةُ الجَمَالِ، وَ« دِيَانَا » Diana: وَهِيَ إِلَهَةُ القَمَرِ.

وَكَانَ هَؤُلَاءِ الأَرْبَابُ وَالرَّبَّاتُ يُسَيْطِرُونَ - فِي اعْتِقَادِهِمْ - عَلَىٰ شُئُونِ البَشَرِيَّةِ كُلِّهَا، وَكَانَ الصِّرَاعُ بَيْنَهُمْ دَائِماً لَا يَكَادُ يَتَوَقَّفُ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقِفُ مِنَ الإِنْسَانِ مَوْقِفَ العَدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ؛ وَلِذَا كَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَعْبُدَ هَذِهِ الآلِهَةَ خَوْفاً مِنْ بَطْشِهَا، أَوْ رَجَاءً لِعَوْنِهَا.

وَقَدْ دَارَتْ كَثِيرٌ مِنَ الأَسَاطِيرِ اليُونَانِيَّةِ حَوْلَ هَؤُلَاءِ الآلِهَةِ. وَأَقْدَمُ الشُّعَرَاءِ

الَّذِينَ كَتَبُوا هَذِهِ الأَسَاطِيرَ وَنَمَّوْهَا هُوَ « هُومِيرُوسُ » مُنْشِئُ « الإِلْيَاذَةِ » Iliad وَ« الأُودِيسةِ » Odyssey وَقَدْ قَامَ بِنَقْلِهَا إِلَىٰ العَرَبِيَّةِ الأَدِيبُ المِصْرِيُّ المُعَاصِرُ الأُسْتَاذُ « دِرِينِي خَشبَةُ » .

وَلَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ مُسْلِمٍ مَا فِي هَذَا الأَدَبِ مِنْ عِبَادَةٍ لِلأَوْثَانِ الَّتِي جَاءَ الإِسْلَامُ لِاجْتِثَاثِهَا مِنْ جُذُورِهَا ، وَالقَضَاءِ عَلَيْهَا إِلَىٰ غَيْرِ رَجْعَةٍ .

ثَانِياً : إِنَّ الكَلَاسِيكِيَّةَ اسْتَنبَطَتْ مِنْ أَدَبِ اليُونَانِ وَالرُّومَانِ قَوَاعِدَ مَرْسُومَةً وَقَوَالِبَ مَحْدُودَةً ، وَأَلْزَمَتِ الأُدَبَاءَ بِالسَّيْرِ عَلَيْهَا ، وَحَصَرَتْهُمْ فِي حُدُودِهَا ، فَمَا وَافَقَ مِنْ إِنْتَاجِهِمْ أَدَبَ اليُونَانِ وَالرُّومَانِ قُبِلَ ، وَمَا خَالَفَهُ رُفِضَ .

وَلَقَدْ أَذَاقُوا الخَارِجِينَ عَلَىٰ هَذَا الأَدَبِ مُرَّ العَذَابِ ، وَمَارَسُوا مَعَهُمْ ضُرُوبَ الإِرْهَابِ ، وَقَادُوهُمْ إِلَىٰ المَحَاكِمِ كَمَا يُقَادُ المُجْرِمُونَ !! .

وَالأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ الَّذِي نَدْعُو إِلَيْهِ لَا يَتَدَخَّلُ فِي الأَشْكَالِ ؛ فَحَسْبُهُ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ جَمِيلَةً ، وَإِنَّمَا يَتَدَخَّلُ فِي المَضَامِينِ فَيَرْفُضُ مِنْهَا مَا يُحَادُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحَارِبُ الإِسْلَامَ .

ثَالِثاً : إِنَّ الكَلَاسِيكِيَّةَ اسْتَمَدَّتْ أُصُولَ مَذْهَبِهَا مِنَ القَوَاعِدِ الَّتِي وَضَعَهَا « أَرِسْطُو » لِلشِّعْرِ ، وَقَوَاعِدُهُ هَذِهِ تَنْطَلِقُ مِنْ تَصَوُّرِهِ لِلْحَيَاةِ وَالكَوْنِ ، وَهُوَ تَصَوُّرٌ يَخْتَلِفُ عَنْ تَصَوُّرِنَا نَحْنُ مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ اخْتِلَافاً عَمِيقاً .

رَابِعاً : يَكَادُ الكَلَاسِيكِيُّونَ يَقْصُرُونَ أَعْمَالَهُمُ الأَدَبِيَّةَ عَلَىٰ الجَوَانِبِ المَادِيَّةِ مِنْ حَيَاةِ الإِنْسَانِ ، وَمَا يَدُورُ حَوْلَ هَذِهِ الجَوَانِبِ مِنَ العَوَاطِفِ وَالمَشَاعِرِ .

أَمَّا الجَوَانِبُ الرُّوحِيَّةُ وَمَا فِيهَا مِنْ تَأَلُّقٍ وَصَفَاءٍ فَهِيَ لَا تَحْظَىٰ بِشَيْءٍ مِنَ اهْتِمَامِهِمْ .

وَالْأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ يُعْطِي الحَيَاةَ المَادِيَّةَ حَقَّهَا ، كَمَا يُعْطِي الرُّوحَ حَقَّهَا أَيْضاً .

بَلْ إِنَّ حُقُوقَ الرُّوحِ عِنْدَ الأَدِيبِ المُسْلِمِ تَنَالُ الحَظَّ الأَوْفَىٰ مِنَ الِاهْتِمَامِ .

خَامِساً : ثُمَّ إِنَّ الْأَدَبَ الكَلَاسِيكِيَّ ـ كَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ ـ يَقُومُ عَلَىٰ تَصْوِيرِ النَّمَاذِجِ البَشَرِيَّةِ ، وَالأَحْدَاثِ الوَاقِعَةِ بِخَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، وَيُمَحِّضُ[1] فَنَّهُ لِلْإِبْدَاعِ فِي التَّصْوِيرِ مِنْ غَيْرِ تَمْييزٍ بَيْنَ الخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَإِنَّمَا يَتْرُكُ ذَلِكَ لِنَفْسِ القَارِئِ وَمُيُولِهِ .

وَالْأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ يُصَوِّرُ الخَيْرَ وَالشَّرَّ أَيْضاً ، وَلَكِنَّهُ يَهْدِفُ مِنْ ذَلِكَ ـ عَلَىٰ الدَّوَامِ ـ إِلَىٰ التَّرْغِيبِ بِالخَيْرِ وَالحَضِّ عَلَيْهِ وَتَزْيِينِهِ فِي النُّفُوسِ ، وَالتَّنْدِيدِ بِالشَّرِّ ، وَاجْتِثَاثِهِ مِنَ القُلُوبِ .

سَادِساً : عُزُوفُ الْأَدَبِ الكَلَاسِيكِيِّ عَنْ مُعَالَجَةِ المُشْكِلَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَالعَقَدِيَّةِ ، وَالسِّيَاسِيَّةِ وَنَحْوِهَا ، وَالِانْصِرَافُ إِلَىٰ تَحْلِيلِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ ، وَتَصْوِيرِ العَادَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ .

وَالْأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ أَدَبٌ وَاقِعِيٌّ عَمَلِيٌّ يُعَالِجُ مُشْكِلَاتِ المُجْتَمَعِ وَقَضَايَاهُ المُخْتَلِفَةَ ، كَمَا يُعَالِجُ أَشْوَاقَ النَّفْسِ وَمَطَامِحَهَا .

---

(١) يُمَحِّض فنّه : يخلِّصُهُ ويوقفه على نوعٍ معين.

سَابِعاً: ثُمَّ إِنَّ الكَلَاسِيكِيَّةَ قَدْ تَمَحَّضَتْ لِلْأَنَاقَةِ، وَالصَّنْعَةِ، وَالزُّخْرُفِ، وَهَدَفَتْ إِلَىٰ إِرْضَاءِ الطَّبَقَةِ العُلْيَا مِنَ النَّاسِ.

أَمَّا الْأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ فَهُوَ لِلنَّاسِ كُلِّ النَّاسِ، يُصَوِّرُ أَفْرَاحَهُمْ وَأَتْرَاحَهُمْ، وَيُعَالِجُ قَضَايَاهُمْ وَمُشْكِلَاتِهِمْ.

* * *

ثانياً : الرُّومَانْتِيكِيَّةُ Romanticism

« الإِبْدَاعِيَّةُ »

لَقَدْ فُتِنَ الإِنْسَانُ الأُورُبِّيُّ بِالكَلَاسِيكِيَّةِ رَدْحاً مِنَ الزَّمَنِ ، حَيْثُ أُخِذَ بِصَنْعَتِهَا الـمُتْقَنَةِ ، وَقَوَاعِدِهَا الدَّقِيقَةِ ، وَأُسْلُوبِهَا الرَّفِيعِ .

لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ ضَاقَ ذَرْعاً بِرَتَابَتِهَا الـمُمِلَّةِ ، وَقُيُودِهَا الثَّقِيلَةِ ، وَقَوَانِينِهَا الصَّارِمَةِ ، وَلِأَنَّهَا كَانَتْ أَدَبَ المَدِينَةِ ... وَكَانَتِ المَدِينَةُ تُعْنَىٰ بِالمَظَاهِرِ الخَدَّاعَةِ ، وَتَسْلُكُ سُبُلَ النِّفَاقِ الاِجْتِمَاعِيِّ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ ؛ فَضَجِرَ الشُّعَرَاءُ وَالأُدَبَاءُ مِنَ الحَيَاةِ فِيهَا ، وَعَمِلُوا عَلَىٰ التَّخَلُّصِ مِنْهَا .

وَمِنْ هُنَا كَانَ الأَدَبُ الكَلَاسِيكِيُّ أَدَبَ المَدِينَةِ ، وَكَانَ الأَدَبُ الرُّومَانْسِيُّ أَدَبَ الرِّيفِ ، حَيْثُ الطَّبِيعَةُ العَذْرَاءُ ذَاتُ اليَنَابِيعِ الثَّرَّةِ ، وَالأَجْوَاءُ الرَّحْبَةُ ، وَالغَابَاتُ المَعْرُوشَاتُ ... فَفِي الأَرْيَافِ تَصْفُو الأَذْوَاقُ السَّلِيمَةُ ، وَتَنْتَعِشُ الفِطَرُ القَوِيمَةُ ، وَيَتَخَلَّصُ الأُدَبَاءُ وَالفَنَّانُونَ مِنَ المُنْتَدَيَاتِ الَّتِي تَخْتَلِطُ فِيهَا العُطُورُ المَصْنُوعَةُ مَعَ دُخَانِ لَفَائِفِ التَّبْغِ المَسْمُومِ .

وَلَقَدْ مَهَّدَ لِلرُّومَانْسِيَّةِ عَدَدٌ مِنَ الأُدَبَاءِ وَالـمُفَكِّرِينَ مِنْ أَمْثَالِ « جَانْ جَاكْ رُوسُو »[1] وَ« شَاتُوبريَانَ »[2] وَغَيْرِهِمَا مِمَّنِ اسْتَنْكَرُوا الأَدَبَ الإِغْرِيقِيَّ القَائِمَ

(١) جان جاكْ روسو Jean Jacques Rousseau: فيلسوفٌ فرنسي واسعُ الأفق، متعددُ المعارف، ذُو صلةٍ وثيقةٍ بالأدب وفنونه، ورائدٌ للحركةِ الرومانسيةِ الحديثةِ، من آثارِهِ « العقدُ الاجتماعيُّ » و« إميل »، تُوفي سنة ١٧٧٨م.

(٢) شَاتوبريانُ Chateaubriand: كاتبٌ فرنسيٌّ فاق أدباءَ عصره. من جملةِ آثاره كتابُ « الشهداءُ » الذي صور فيه انتصار المسيحيةِ عَلَىٰ الوثنيةِ، و« رحلةٌ منْ باريسَ إِلَىٰ بيتِ المقدسِ » و« مذكراتُ ما وراءَ القبرِ » وهو يعتبرُ زعيمَ المدرسةِ الرُّومانسيةِ، تُوفي سنة ١٨٤٨م.

عَلَىٰ تَعَدُّدِ الآلِهَةِ تَعَدُّداً مَلأَ الطَّبِيعَةَ بِجِبَالِهَا وَسُهُولِهَا ، وَسَمَاوَاتِهَا وَأَرَاضِيهَا .

فَأَلَّفَ « شَاتُوبرِيَانُ » كِتَابَهُ الَّذِي سَمَّاهُ « عَبْقَرِيَّةُ المَسِيحِيَّةِ » وَنَفَىٰ فِيهِ تَعَدُّدَ الآلِهَةِ فَأَخَذَ الرُّومَانْسِيُّونَ بِدَعْوَتِهِ ، وَأَسْقَطُوا آلِهَةَ الإِغْرِيقِ مِنْ أَدَبِهِمْ ، وَلَمْ يَسْتَبْقُوا مِنْهَا غَيْرَ « رَبَّةِ الشِّعْرِ » .

وَكَانَ أَبْرَزَ الَّذِينَ تَبَنَّوْا هَذَا المَذْهَبَ الأَدَبِيَّ ؛ الشَّعْبَانِ الإِنْكِلِيزِيُّ وَالفَرَنْسِيُّ .

وَقَدِ امْتَازَتِ الرُّومَانْسِيَّةُ « الإِنْكِلِيزِيَّةُ » بِالعَاطِفَةِ الجَيَّاشَةِ وَالإِحْسَاسِ العَمِيقِ ، وَالفَرْدِيَّةِ المُتَطَرِّفَةِ ، وَالغُمُوضِ الشَّدِيدِ .

وَقَدْ بَلَغَتْ ذِرْوَتَهَا عَلَىٰ أَيْدِي « تُومَاسْ جِرَاي »[1] وَ« وِيلِيَمْ بِلِيك »[2] وَ« شِيلِّي »[3] وَ« كِيتْس »[4] وَ« بَايْرُون »[5].

أَمَّا الرُّومَانْسِيَّةُ « الْفَرَنْسِيَّةُ » ، فَقَدْ ظَهَرَتْ عَلَىٰ يَدِ رَائِدِهَا الكَبِيرِ « جَانْ جَاكْ رُوسُو » .

---

(١) تُوماسْ جِراي Thomas Gray: شاعرٌ إنكليزيٌّ يُعتبرُ من شعراءِ المرحلةِ الإنتقاليةِ بينَ الكلاسيكيةِ والرُّومانسيةِ . اتَّسم شعرهُ بالرُّومانسية القائمةِ عَلَىٰ الحزنِ والتأمُّلِ والوصفِ ، تُوفي سنة ١٧٧١م .

(٢) وِيليَمْ بِليك William Blake: شاعرٌ وفنانٌ إنكليزي ، أشهرُ مجموعاتِ قصائِده : « أغنياتُ البراءةِ » و« أغنياتُ التَّجربةِ » تمتازُ أشعارهُ بمزيجٍ فريدٍ من الرُّوحانيةِ مَع القُوَّةِ والوضُوحِ ، تُوفي سنة ١٨٢٧م .

(٣) شِيلِّي Shelley: شاعرٌ إنكليزي من أبرز شعراء المدرسة الرُّومانسيةِ . ابتعد عن الواقع فِي وصف الطبيعة ، كان يؤمن بأن الشاعر يخلق صوراً أكثر صدقاً وحقيقةً من الآخرين ، وأن أفكاره وليدة الخلود ، وقد كان ذا موهبة موسيقية فذة جعلت أشعاره أقرب إِلَىٰ الموسيقا منها إلىٰ الشعر ، تُوفي سنة ١٨٢٢م .

(٤) جُون كِيتس John Keats: شاعرٌ من أكبرِ شعراءِ المدرسةِ الرُّومانسيةِ وأكثرِهم تأثيراً فِي الأدب الإنكليزي ، وقد كان مثالاً للشَّخصيةِ الهائمةِ فِي الأدب ، كما كانَ يجمعُ بين الشعورِ بمشكلاتِ المجتمعِ ونشدَانِ الكمالِ ، تُوفي سنة ١٨٢١م .

(٥) جُورج جُوردن بَايرون George Gordon Byron: شاعرٌ إنكليزيٌّ من قادةِ الحركةِ الرُّومانسيةِ وأوسعِ شعراءِ إنجلترا شهرةً ، أخذَ عنْ « روسو » و« جوته » النزعةَ الرومانسيةَ . شِعْرهُ كثيرٌ منوَّعٌ ، يحبُّ الطبيعةَ وخاصَّةً البحرَ حَتَّىٰ أنكَ لتسمعُ هديرَ أمواجِ البحرِ فِي بعضِ أبياتِهِ ، من آثارهِ « النَّبيلُ هَارولْد » وهي قصةٌ شعريةٌ تُرجمتْ إِلَىٰ العربية ، تُوفي سنة ١٨٢٤م .

وَلِظُهُورِ الرُّومَانْسِيَّةِ « الْفَرَنْسِيَّةِ » أَسْبَابٌ ، أَهَمُّهَا انْدِلَاعُ الثَّوْرَةِ الفِرَنْسِيَّةِ ، ثُمَّ مَا تَمَخَّضَتْ عَنْهُ تِلْكَ الثَّوْرَةُ مِنْ أَحْدَاثٍ ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا ظُهُورُ « نَابُلْيُون بُونَابَرْت » وَمَا أَحْرَزَهُ مِنَ انْتِصَارَاتٍ شَغَلَتِ الدُّنْيَا ، وَأَفْعَمَتْ نُفُوسَ الشَّبَابِ الفَرَنْسِيِّينَ بِالأَحْلَامِ الكِبَارِ ، حَتَّىٰ خُيِّلَ لَهُمْ أَنَّ كُلَّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ قُرَاهُمْ سَيَقُودُهُمْ إِلَىٰ عَاصِمَةٍ مِنْ عَوَاصِمِ العَالَمِ .

وَلَقَدْ نَادَىٰ الرُّومَانْسِيُّونَ - فِي أَوَّلِ الأَمْرِ - بِطَائِفَةٍ مِنَ المَبَادِئِ وَالأُسُسِ الَّتِي دَعَتْ إِلَىٰ :

تَحْطِيمِ القَوَاعِدِ وَالقُيُودِ الَّتِي فَرَضَتْهَا الكَلَاسِيكِيَّةُ عَلَىٰ الأُدَبَاءِ فَكَتَمَتْ أَنْفَاسَهُمْ وَشَلَّتْ حَرَكَتَهُمْ ...

وَالإِعْرَاضِ عَنِ المَدِينَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ حُسْنٍ مَصْنُوعٍ ...

وَالاتِّجَاهِ إِلَىٰ الأَرْيَافِ وَمَا فِيهَا مِنْ جَمَالٍ مَطْبُوعٍ ...

وَالعِنَايَةِ بِالنَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ وَمَا تَزْخَرُ بِهِ مِنْ ضُرُوبِ العَوَاطِفِ وَصُنُوفِ المَشَاعِرِ ...

وَالتَّحَرُّرِ مِنْ قُيُودِ العَقْلِ وَالْوَاقِعِيَّةِ ، وَالانْطِلَاقِ فِي رِحَابِ الخَيَالِ المُجَنَّحِ ...

وَتَوَخِّي البَسَاطَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ : فِي التَّفْكِيرِ وَالتَّعْبِيرِ ، وَالبُعْدِ عَنِ التَّكَلُّفِ وَالتَّصَنُّعِ ، وَإِطْلَاقِ النَّفْسِ عَلَىٰ سَجِيَّتِهَا ، وَالِاسْتِجَابَةِ لِدَوَاعِيهَا وَأَهْوَائِهَا .

وَلَقَدْ وَضَعَ الرُّومَانْسِيُّونَ المُعْتَدِلُونَ طَائِفَةً مِنَ الأُسُسِ وَالقَوَاعِدِ لِتَقْوِيمِ الأَعْمَالِ الأَدَبِيَّةِ وَنَقْدِهَا ، فَقَالُوا :

إِنَّ جَمِيعَ الأَعْمَالِ الْأَدَبِيَّةِ يَجِبُ أَنْ تُدْرَسَ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ فِي كُلٍّ مِنْهَا فَائِدَةً لِلْأَدَبِ ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الجَهْلِ أَنْ نُوَلِّيَ ظُهُورَنَا لِلْقُرُونِ الوُسْطَىٰ .

وَإِنَّ لِكُلِّ عَصْرٍ طَبِيعَتَهُ ، وَخَصَائِصَهُ ، وَمَزَايَاهُ ؛ وَلِذَا فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ عَصْرٍ وَاحِدٍ قَوَاعِدَ وَمَبَادِئَ نَفْرِضُهَا عَلَىٰ الْأَدَبِ مَهْمَا كَانَ هَذَا العَصْرُ .

وَنَحْنُ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَضَعَ لِلْأَدَبِ أُصُولاً وَقَوَاعِدَ عَامَّةً ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الأُصُولُ وَالقَوَاعِدُ مَرِنَةً صَالِحَةً لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، كَمَا أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَنْ تَكُونَ مَحْدُودَةً مُقْتَصِرَةً عَلَىٰ المُحِيطِ الخَارِجِيِّ لِلْعَمَلِ الْأَدَبِيِّ ؛ أَمَّا إِذَا حَاوَلْنَا أَنْ نَنْفُذَ إِلَىٰ رُوحِ الأَثَرِ الْأَدَبِيِّ فَسَنُخْفِقُ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ المُرْهَفَةِ ، وَالذَّوْقِ الفِطْرِيِّ الرَّفِيعِ .

وَإِذَا كَانَ فِي الأَثَرِ الْأَدَبِيِّ بَعْضُ الأَوْرَادِ الزَّاهِيَةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُبَرِّرُ وُجُودَهُ ، وَلَا يَعْنِينَا بَعْدَ ذَلِكَ مَا فِيهِ مِنْ أَشْوَاكٍ ، فَالحَسَنَاتُ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .

ثُمَّ إِنَّ رُوحَ الْأَدَبِ الخَيَالُ ، وَإِنَّ جِسْمَهُ الأُسْلُوبُ ، وَإِنَّ الغَايَةَ مِنْهُ المُتْعَةُ .

وَإِنَّ لِكُلِّ أَدِيبٍ أَنْ يَهْتَمَّ بِمَا يَهْوَىٰ وَيُحِبُّ ...

وَإِنَّ لِكُلِّ مُتَلَقٍّ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ مَا تَمِيلُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ ...

وَإِنَّ عَلَىٰ النَّاقِدِ أَنْ يُرَاعِيَ ذَلِكَ عِنْدَ تَقْوِيمِ العَمَلِ الْأَدَبِيِّ .

وَلَكِنَّ الرُّومَانْسِيِّينَ لَمْ يَسِيرُوا جَمِيعاً عَلَىٰ طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ ، وَإِنَّمَا كَانَ فِيهِمُ المُعْتَدِلُونَ الَّذِينَ وَقَفْنَا عَلَىٰ مَبَادِئِهِمْ آنِفاً ، وَفِيهِمُ المُتَطَرِّفُونَ الَّذِينَ طَغَوْا عَلَيْهِمْ

وَطَفِقُوا يُنَادُونَ بِأَنَّ المَوْضُوعَ الَّذِي يَطْرُقُهُ الأَدِيبُ لَيْسَ بِذِي بَالٍ ، وَإِنَّمَا المُهِمُّ طَرِيقَةُ مُعَالَجَةِ المَوْضُوعِ .

وَأَنَّ الأَدَبَ لَا عَلَاقَةَ لَهُ بِالأَخْلَاقِ ؛ فَلَيْسَ ضَرُورِيًّا أَنْ يَكُونَ الأَدِيبُ الفَذُّ فَذَّ الخُلُقِ ، وَلَا أَنْ يَكُونَ الأَدَبُ الرَّائِعُ خَاضِعاً لِلْقَوَانِينِ الخُلُقِيَّةِ .

وَأَنَّ الأَعْمَالَ الأَدَبِيَّةَ المُتَّفِقَةَ مَعَ العَقْلِ جَيِّدَةٌ ، وَلَكِنَّ مَا لَا يَتَّفِقُ مَعَ العَقْلِ لَيْسَ رَدِيئًا بِالضَّرُورَةِ .

هَذَا ، وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الرُّومَانْسِيِّينَ قَدْ ثَارُوا فِي بِدَايَةِ نَشْأَتِهِمْ عَلَىٰ القَوَاعِدِ وَالقُيُودِ الَّتِي فَرَضَهَا الكَلَاسِيكِيُّونَ عَلَىٰ الأَدَبِ وَالنَّقْدِ ، فَإِنَّهُمْ أَوْجَدُوا لِلأُدَبَاءِ وَالنُّقَّادِ مَا يُشْبِهُ القَوَاعِدَ ، وَدَعَوْهُمْ لِأَنْ يَضَعُوا فِي حِسَابِهِمْ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ هِيَ :

مَرَضُ العَصْرِ ، وَاللَّوْنُ المَحَلِّيُّ ، وَالخَلْقُ الشِّعْرِيُّ ، وَالنَّغْمَةُ الخَطَابِيَّةُ .

وَهُمْ يُرِيدُونَ بِمَرَضِ العَصْرِ : ذَلِكَ التَّنَاقُضَ النَّفْسِيَّ الَّذِي يَتَوَلَّدُ مِنْ عَجْزِ الأَدِيبِ عَنِ التَّوفِيقِ بَيْنَ آمَالِهِ العَرِيضَةِ ، وَطَاقَاتِهِ الضَّئِيلَةِ ؛ فَيَشْقَىٰ بِهَذَا التَّنَاقُضِ الَّذِي لَا يَدَ لَهُ فِي وُجُودِهِ ، وَلَا قُدْرَةَ عِنْدَهُ عَلَىٰ تَغْيِيرِهِ .

وَأَمَّا اللَّوْنُ المَحَلِّيُّ : فَهُوَ يَقُومُ عَلَىٰ دَعْوَةِ الأُدَبَاءِ وَالنُّقَادِ إِلَىٰ صَبْغِ الأَدَبِ بِالصِّبْغَةِ المَحَلِّيَّةِ ، وَخَاصَّةً فِي الأَعْمَالِ القَصَصِيَّةِ وَالمَسْرَحِيَّةِ ؛ وَذَلِكَ بِأَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الأَدَبِ الَّذِي يَكْتُبُونَهُ لِلْفَرَنْسِيِّينَ وَالأَدَبِ الَّذِي يَكْتُبُونَهُ للإِنْكِلِيزِ ، وَالأَدَبِ الَّذِي يَكْتُبُونَهُ لِغَيْرِ هَؤُلَاءِ .

وَهُمْ يُرِيدُونَ بِالخَلْقِ الشِّعْرِيِّ : الإِبْدَاعَ وَالاِبْتِكَارَ القَائِمَيْنِ عَلَىٰ إِظْهَارِ أَسْرَارِ الحَيَاةِ وَنَوَامِيسِهَا ، المُنْبَعِثَيْنِ مِنْ قُوَّةِ الرُّؤْيَا وَوُضُوحِهَا .

وَذَلِكَ خِلَافاً لِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ «أَرِسْطُو» مِنْ أَنَّ عَمَلَ الأَدِيبِ كَعَدَسَةِ المُصَوِّرِ ؛ فَهُوَ يَقُومُ بِمُحَاكَاةِ الحَيَاةِ وَتَصْوِيرِهَا لَا أَكْثَرَ.

أَمَّا النَّغَمَةُ الخَطَابِيَّةُ : فَقَدْ قُصِرَتْ عَلَىٰ الأَعْمَالِ المَسْرَحِيَّةِ ، وَأُرِيدَ بِهَا اللَّهْجَةُ الجَهِيرَةُ ، وَالأَخْيِلَةُ المُجَنَّحَةُ المُثِيرَةُ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَىٰ غَلَيَانِ النُّفُوسِ ، وَهَيَجَانِ العَوَاطِفِ ، وَاتِّقَادِ الأَحَاسِيسِ .

* * *

نَظْرَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ فِي الرُّومَانْتِيكِيَّةِ

إِذَا كَانَ المَذْهَبُ الكَلَاسِيكِيُّ قَدْ ضَعُفَتْ سَطْوَتُهُ فِي العَالَمِ وَقَلَّ مُعْتَنِقُوهُ، فَإِنَّ المَذْهَبَ الرُّومَانْسِيَّ مَا يَزَالُ قَوِيًّا عَمِيقَ الجُذُورِ فِي العَالَمِ المَسِيحِيِّ.

وَإِذَا كَانَ بَيْنَ الإِسْلَامِ وَالكَلَاسِيكِيَّةِ تَنَاقُضٌ وَتَبَايُنٌ كَبِيرَانِ فَإِنَّ التَنَاقُضَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرُّومَانْسِيَّةِ أَكْبَرُ وَأَعْمَقُ.

وَفِيمَا يَلِي إِيضَاحٌ لِنَظْرَةِ الإِسْلَامِ إِلَىٰ الرُّومَانْتِيكِيَّةِ، وَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مِنْ فُرُوقٍ:

أَوَّلاً: لَقَدِ اسْتَنْكَرَ «شَاتُوبرْيَانُ»[1] المَذْهَبَ الكَلَاسِيكِيَّ لِأَنَّهُ اسْتَقَىٰ أُصُولَهُ مِنَ الْأَدَبِ الإِغْرِيقِيِّ القَائِمِ عَلَىٰ الوَثَنِيَّةِ، وَدَعَا إِلَىٰ صَبْغِ الْأَدَبِ «الرُّومَانْسِيِّ» بِالصِّبْغَةِ المَسِيحِيَّةِ، وَأَلَّفَ لِهَذَا الغَرَضِ كِتَاباً سَمَّاهُ «العَبْقَرِيَّةُ المَسِيحِيَّةُ»، وَقَدِ اسْتَجَابَ لِدَعْوَتِهِ كَثِيرٌ مِنْ أَنْصَارِ الرُّومَانْسِيَّةِ؛ فَوَجَّهُوا آثَارَهُمُ الْأَدَبِيَّةَ وِجْهَةً مَسِيحِيَّةً.

وَدُعَاةُ الْأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ الَّذِينَ يَسْتَنْكِرُونَ الكَلَاسِيكِيَّةَ الوَثَنِيَّةَ أَشَدَّ الاِسْتِنْكَارِ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَنْتَقِلُوا مِنْهَا إِلَىٰ الرُّومَانْسِيَّةِ الَّتِي تَنْبِضُ بِالرُّوحِ المَسِيحِيَّةِ، وَذَلِكَ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنَ الفَرْقِ الكَبِيرِ بَيْنَ الوَثَنِيَّةِ المُنَاقِضَةِ لِلْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ وَبَيْنَ المَسِيحِيَّةِ.

---

(١) شاتوبريانُ: «سبقت ترجمته».

ثَانِياً : لَقَدْ تَحَوَّلَ المَذْهَبُ الرُّومَانْسِيُّ عِنْدَ الشُّبَّانِ الفَرَنْسِيِّينَ - بَعْدَ هَزِيمَةِ « نَابُلِيُونَ بُونَابرتَ »[1] السَّاحِقَةِ - إِلَىٰ مَآتِمَ وَأَحْزَانٍ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الِانْطِوَاءَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ، وَمُدَاوَاةَ أَحْزَانِهِمْ بِمَا فِيهِ مِنْ سَلبِيَّةٍ .

وَالْأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ أَدَبٌ إِيجَابِيٌّ بَنَّاءٌ يُفْعِمُ نُفُوسَ قُرَائِهِ ثِقَةً بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَإِيمَاناً بِحِكْمَتِهِ ، وَرِضَاءً بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ .

ثَالِثاً : ثُمَّ إِنَّ الْأَدَبَ الرُّومَانْسِيَّ بُنِيَ عَلَىٰ تَحْرِيرِ الأَدِيبِ مِنْ قُيُودِ العَقْلِ وَالوَاقِعِيَّةِ ، وَالِانْطِلَاقِ فِي رِحَابِ الخَيَالِ المُجَنَّحِ .

وَالْأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ أَدَبٌ وَاقِعِيٌّ يَجُرُّهُ جَوَادَانِ اثْنَانِ لَا يَسْتَغْنِي بِأَحَدِهِمَا عَنِ الآخَرِ هُمَا : جَوَادُ العَاطِفَةِ وَجَوَادُ العَقْلِ ... فَالعَاطِفَةُ المَشْبُوبَةُ تَدْفَعُ حَرَكَتَهُ فِي دُرُوبِ الإِبْدَاعِ الفَنِّيِّ الأَصِيلِ ، وَالعَقْلُ الرَّصِينُ يَضْبِطُ خُطَاهُ ، وَيَحْفَظُ تَوَازُنَهُ فِي دُرُوبِ الخَيْرِ ، وَالبِرِّ ، وَالتَّقْوَىٰ .

رَابِعاً : ثُمَّ إِنَّ الرُّومَانْسِيَّةَ تَدِينُ بِأَنَّ الغَايَةَ مِنَ الْأَدَبِ هِيَ المُتْعَةُ .

أَمَّا الْأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَتَوَافَرَ فِيهِ الفَائِدَةُ العَمَلِيَّةُ وَالمُتْعَةُ النَّفْسِيَّةُ ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ نَافِعاً مُمْتِعاً فِي وَقْتٍ مَعاً .

خَامِساً : ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الرُّومَانْسِيِّينَ المُتَطَرِّفِينَ يَقُولُونَ :

إِنَّ المَوْضُوعَ عِنْدَنَا لَيْسَ بِذِي بَالٍ ، وَإِنَّمَا المُهِمُّ فِي نَظَرِنَا طَرِيقَةُ مُعَالَجَةِ المَوْضُوعِ .

---

(١) نَابليونُ بونابرتُ ، أَوْ نَابليونُ الأولُ Napoleon Bonaparte: عسكريٌّ فرنسيٌّ كبيرٌ ، خاضَ كثيراً من الحروبِ وانتصرَ فيهَا نصراً مؤزراً فبويع ملكاً لفرنسَا ، احتلَّ مصرَ وانطلقَ منها إِلَىٰ بلادِ الشَّامِ لكنهُ وقفَ أمامَ حصونِ « عكَّا » المنيعةِ . نالَ مِنَ الانتصاراتِ ما لم ينلْه أحدٌ قبلَه ، ثمَّ تتالتْ عَليْه الانهزاماتُ وأخذَ جنودهُ ينفَضُّونَ عنه فنزلَ عن عرشِ فرنسَا ، ونُفيَ إِلَىٰ « سَنت هيلانَ » وظلَّ فيها حَتَّىٰ ماتَ سنة ١٨٢١م .

وَالْأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ يَرْفُضُ هَذَا المَبْدَأَ ؛ فَالأَهَمِيَّةُ الأَسَاسِيَّةُ عِنْدَ الأَدِيبِ المُسْلِمِ تَنْصَبُّ عَلَىٰ المَوْضُوعِ ، أَمَّا طَرِيقَةُ مُعَالَجَتِهِ فَأَبْوَابُهَا مَفْتُوحَةٌ أَمَامَ الأُدَبَاءِ ، وَفِي وُسْعِ كُلٍّ مِنْهُمْ أَنْ يَخْتَارَ مِنْهَا الطَّرِيقَ الَّذِي يَحْلُو لَهُ .

سَادِساً : وَهُمْ يَقُولُونَ أَيْضاً : لَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يَكُونَ الْأَدِيبُ الفَذُّ فَذَّ الخُلُقِ ، وَلَيْسَ الْأَدَبُ عَبْداً خَاضِعاً لِقَوَانِينِ الأَخْلَاقِ .

وَالأَدِيبُ الإِسْلَامِيُّ يَدِينُ بِسِمُوِّ أَخْلَاقِ المُسْلِمِ ، وَيَعْمَلُ عَلَىٰ تَرَفُّعِهِ عَنِ الدَّنَايَا ، وَيَسْعَىٰ لِهَذِهِ المَنْقَبَةِ أَكْمَلَ السَّعْيِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَقُولُ : (أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً ...)[1].

كَمَا كَانَ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ يَسْأَلُ رَبَّهُ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ فَيَقُولُ : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَىٰ ، وَالتُّقَىٰ ، وَالعَفَافَ ...)[2].

سَابِعاً : وَهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ العَقْلَ الجَيِّدَ صِفَةٌ جَيِّدَةٌ ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَنَا أَنْ نُبَالِغَ فِي قِيمَتِهِ ؛ فَإِنَّ مَا لَا يَتَّفِقُ مَعَ العَقْلِ لَيْسَ رَدِيئاً بِالضَّرُورَةِ .

وَالأَدِيبُ المُسْلِمُ الَّذِي يَعِيشُ فِي رِحَابِ القُرْآنِ ، وَيَبْنِي أَدَبَهُ عَلَيْهِ لَا يَعْزُبُ[3] عَنْ بَالِهِ أَنَّ كَلِمَةَ العَقْلِ وَمَا يُشْتَقُّ مِنْهَا قَدْ وَرَدَتْ فِي الكِتَابِ العَزِيزِ نَحْواً مِنْ أَرْبَعِينَ مَرَّةً ، وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ دَعَا الإِنْسَانَ إِلَىٰ إِيقَاظِ عَقْلِهِ ، وَالِاعْتِمَادِ عَلَيْهِ فِي صِحَّةِ عَقِيدَتِهِ ، وَصَفَاءِ سُلُوكِهِ .

ثَامِناً : وَلَقَدْ قَامَ الْأَدَبُ الرُّومَانْسِيُّ عَلَىٰ فَلْسَفَةِ تَقْدِيسِ الأَلَمِ ، وَاعْتِبَارِهِ مُطَهِّراً لِلنَّفْسِ ... لَكِنَّ الأَلَمَ مَا لَبِثَ أَنْ غَدَا عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الرُّومَانْسِيِّينَ دَعَاوَىٰ

---

(١) رواه الترمذيُّ في كتاب الإيمانِ.

(٢) رواه مُسلمٌ.

(٣) يَعْزُبُ : يبعد.

كَاذِبَةً ، وَتَصَنُّعاً بَغِيضاً يُرَادُ مِنْهُ إِظْهَارُ النَّفْسِ بِمَظَاهِرِ البُطُولَةِ ، وَوَضْعُهَا فِي مَقَامِ الِاسْتِشْهَادِ الرَّخِيصِ ، أَوْ مُبَرِّراً لِلانْحِلَالِ الخُلُقِيِّ ، وَارْتِكَابِ الرَّذَائِلِ .

وَالإِسْلَامُ الَّذِي هُوَ دِينُ الفِطْرَةِ يَكْرَهُ التَّصَنُّعَ وَالتَّعَمُّلَ ، وَيُحَارِبُ الِانْحِلَالَ الخُلُقِيَّ ، وَيُكَافِحُ ارْتِكَابَ الرَّذَائِلِ .

تَاسِعاً : ثُمَّ إِنَّ الرُّومَانْسِيَّةَ تَقُومُ عَلَىٰ التَّحَلُّلِ مِنْ جَمِيعِ القَوَاعِدِ وَالقُيُودِ ، وَتُطْلِقُ لِلأَدِيبِ الحَبْلَ عَلَىٰ غَارِبِهِ .

وَالأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ يَقُومُ عَلَىٰ الِالْتِزَامِ وَيَدْعُو إِلَيْهِ ، وَيَتَمَسَّكُ بِهِ وَلَا يَخْرُجُ عَلَيْهِ .

* * *

ثَالِثاً : الوَاقِعِيَّةُ الأُورُبِيَّةُ Realism

اخْتَلَفَ مَفْهُومُ الوَاقِعِيَّةِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الأُدَبَاءِ وَالنُّقَّادِ ؛ فَبَعْضُهُمْ يَذْهَبُ إِلَىٰ أَنَّهَا تَقُومُ عَلَىٰ مُلَاحَظَةِ مَظَاهِرِ الحَيَاةِ وَتَسْجِيلِهَا كَمَا هِيَ ، بِحَيْثُ يَكُونُ قَلَمُ الأَدِيبِ كَعَدَسَةِ المُصَوِّرِ ، فَهُوَ يَحْصُرُ جَهْدَهُ فِي اخْتِيَارِ المَشْهَدِ الَّذِي يَرُوقُهُ ، وَيَقُومُ بِتَصْوِيرِهِ ... وَبَعْضُهُمْ يُضِيفُ إِلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ المَنَاظِرَ الَّتِي تَحْظَىٰ بِاهْتِمَامِ عَدَسَةِ الأَدِيبِ الوَاقِعِيِّ هِيَ تِلْكَ الَّتِي تَنْبَثِقُ مِنْ مُشْكِلَاتِ عَامَّةِ النَّاسِ وَقَضَايَاهُمْ ، وَتُبْرِزُ مَظَالِمَهُمْ وَمَآسِيَهُمْ .

وَهِيَ بِذَلِكَ تَخْتَلِفُ عَنِ الكَلَاسِيكِيَّةِ الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَىٰ المَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَحْظَىٰ بِاهْتِمَامِ الطَّبَقَاتِ العُلْيَا مِنَ النَّاسِ .

هَذَا ، وَإِنَّ الوَاقِعِيَّةَ الأَدَبِيَّةَ قَدِ اسْتُنْبِطَتْ مِنَ النَّظَرِيَّةِ الفَلْسَفِيَّةِ الَّتِي تَرَىٰ أَنَّ الحَيَاةَ قَدْ بُنِيَتْ عَلَىٰ الشَّرِّ ...

وَأَنَّ مَا يَبْدُو فِيهَا مِنْ مَظَاهِرِ الخَيْرِ لَيْسَ إِلَّا طِلَاءً زَائِفاً يُمَوِّهُ وَاقِعَ الحَيَاةِ ، وَيُخْفِي طَبِيعَةَ الإِنْسَانِ الحَقِيقِيَّةَ .

فَالشَّجَاعَةُ وَبَذْلُ النَّفْسِ رَخِيصَةً فِي مَيَادِينِ البُطُولَةِ لَيْسَا إِلَّا يَأْساً مِنَ الحَيَاةِ ، أَوْ خُضُوعاً لِمَوَاقِفَ دَفَعَتْ إِلَيْهَا الضَّرُورَةُ دَفْعاً .

وَالجُودُ وَالتَّسَامِي مَا هُمَا إِلَّا أَثَرَةٌ وَمُبَاهَاةٌ يُلْبِسُهُمَا الإِنْسَانُ لَبُوسَ الخَيْرِ وَالإِيثَارِ .

وَالعَمَلُ عَلَىٰ بُلُوغِ المَجْدِ ، وَالتَّطَلُّعُ إِلَىٰ مَعَالِي الأُمُورِ لَا يَزِيدُ عَنْ كَوْنِهِ

تَكَالُباً عَلَىٰ الحَيَاةِ ، وَتَحْقِيقاً لِرَغَبَاتِ النَّفْسِ فِي اسْتِدَامَتِهَا ، وَهَكَذَا ...

وَعَلَىٰ هَذَا فَإِنَّ كُلَّ مَا تَوَاطَأَ النَّاسُ عَلَىٰ تَسْمِيَتِهِ بِالفَضَائِلِ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ غِلَافاً رَقِيقاً مِنَ الرِّيَاءِ يُخْفِي تَحْتَهُ ذَلِكَ الوَحْشَ البَشَرِيَّ الكَامِنَ فِي أَعْمَاقِ الإِنْسَانِ .

وَلِذَا فَإِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَكُونَ وَاقِعِيِّينَ فِي نَظْرَتِنَا إِلَىٰ الإِنْسَانِ وَالحَيَاةِ ، وَأَلَّا نَكُونَ سَطْحِيِّينَ نَقْنَعُ بِالقُشُورِ .

وَقَدْ عَبَّرَ الفَيْلَسُوفُ الإِنْكِلِيزِيُّ « هُوبز »(١) عَنْ هَذَا الِاتِّجَاهِ بِقَوْلِهِ :

« إِنَّ الإِنْسَانَ ذِئبٌ لَا هَمَّ لَهُ إِلَّا الفَتْكُ بِالإِنْسَانِ » .

وَلَقَدْ وَقَفَتِ النَّظَرِيَّةُ الوَاقِعِيَّةُ فِي وَجْهِ النَّظَرِيَّةِ المِثَالِيَّةِ الَّتِي تُؤْمِنُ بِأَنَّ الإِنْسَانَ خَيِّرٌ بِطَبْعِهِ ، طَيِّبٌ بِفِطْرَتِهِ ، لَكِنَّ الحَيَاةَ الِاجْتِمَاعِيَّةَ الحَضَرِيَّةَ هِيَ الَّتِي تُفسِدُهُ .

ثُمَّ مَا لَبِثَتْ تِلْكَ النَّظَرِيَّةُ الفَلْسَفِيَّةُ أَنْ تَحَوَّلَتْ خِلَالَ القَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ إِلَىٰ تَيَّارٍ أَدَبِيٍّ قَوِيٍّ نَشِطٍ .

وَقَدِ اتَّجَهَ هَذَا التَّيَّارُ فِي الِاتِّحَادِ السُّوفْيِتِيِّ وِجْهَةً يَسَارِيَّةً تَتَّفِقُ مَعَ مَبَادِئِ الحِزْبِ الشُّيُوعِيِّ ، وَتُحَقِّقُ أَهْدَافَهُ(٢).

بَيْنَمَا حَافَظَ فِي بُلْدَانِ أُورُبَّا الغَرْبِيَّةِ عَلَىٰ الأُسُسِ الَّتِي أَوْضَحْنَاهَا آنِفاً .

---

(١) توماس هوبز Thomas Hobbes: فيلسوف إنكليزي، دافعَ عن حكم الملوك المطلق وقال: إن سلطانهم غير مقيد بشيء. وهو يدينُ بالفلسفة التجريبيةِ الّتي تَرُدُّ المعلوماتِ إلَىٰ الخبرةِ التجريبيةِ، تُوفي سنة ١٦٧٩م.

(٢) سنبسطُ القولَ في هذا الاتجاهِ عند الكلامِ عَلَىٰ قضيةِ الالتزامِ ص ١٤٩.

وَلَقَدْ تَرَكَ الأَدِيبُ الفَرَنْسِيُّ الكَبِيرُ « بِلْزَاكُ »[1] أَعْظَمَ مَوْسُوعَةٍ فِي الأَدَبِ الوَاقِعِيِّ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ قِصَّةً سَمَّاهَا « الكُومِيدِيَا الإِنْسَانِيَّةُ » ، وَلَقَدْ حَلَّلَ الأَدِيبُ النَّاقِدُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ مَنْدُورٍ فِي كِتَابِهِ « نَمَاذِجُ بَشَرِيَّةٌ » إِحْدَىٰ الشَّخْصِيَاتِ الَّتِي رَسَمَهَا « بِلْزَاكُ » فِي قِصَصِهِ ، وَأَوْضَحَ مِنْ خِلَالِهَا نَظْرَةَ الوَاقِعِيِّينَ إِلَىٰ الحَيَاةِ وَالنَّاسِ ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَلْتَزِمَ بِهِ الإِنْسَانُ مِنْ ضُرُوبِ السُّلُوكِ حَتَّىٰ يُحَقِّقَ لِنَفْسِهِ النَّجَاحَ .

وَفِيمَا يَلِي أَطْرَافٌ مِنَ الحَدِيثِ الَّذِي وَجَّهَهُ « فُوتْرَاكُ » الهَارِبُ مِنْ سِجْنِهِ إِلَىٰ الشَّابِّ الغِرِّ الَّذِي تَرَكَ قَرْيَتَهُ الصَّغِيرَةَ وَرَحَلَ إِلَىٰ « بَارِيسَ » ، وَغَرِقَ فِي مُجْتَمَعِهَا الصَاخِبِ ، وَالْتَحَقَ بِكُلِّيَّةِ الحُقُوقِ ، وَأَخَذَتْ نَفْسُهُ تَطْمَحُ إِلَىٰ المَجْدِ وَالشُّهْرَةِ ، حَيْثُ قَالَ لَهُ :

« إِنَّ الثَّرْوَةَ العَاجِلَةَ هِيَ الهَدَفُ الَّذِي يَسْعَىٰ إِلَيْهِ خَمْسُونَ أَلْفَ شَابٍّ مِثْلِكَ مِمَّنْ يَقِفُونَ مَوْقِفَكَ هَذَا ، وَأَنْتَ وَاحِدٌ مِنْ هَذَا العَدَدِ الكَبِيرِ ، فَفَكِّرْ فِي الجَهْدِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَبْذُلَهُ ، وَفِي عُنْفِ المَعْرَكَةِ الَّتِي سَتَخُوضُهَا ...

وَلَا يَفُتْكَ أَنَّ بَعْضَكُمْ - مَعْشَرَ الشَّبَابِ - سَيَأْكُلُ بَعْضَكُمُ الآخَرَ ... ذَلِكَ لِأَنَّهُ مِنَ المُسْتَحِيلِ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ خَمْسُونَ أَلْفَ مَرْكَزٍ كَبِيرٍ ...

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّكَ لَا تَدْرِي - أَيُّهَا الشَّابُّ النَّاشِئُ - كَيْفَ يَشُقُّ النَّاسُ سُبُلَهُمْ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ ...

إِنَّهُمْ يَشُقُّونَهَا بِعَبْقَرِيَّتِهِمْ فِي الخِسَّةِ ، وَمَهَارَتِهِمْ فِي الدَّنَاءَةِ ؛ وَلِذَا فَإِنَّ

---

(١) أونوريه دِي بلزاك Honore De Balzac: روائي فرنسي ، عاش غارقاً في بؤسه وديونه. من آثاره الكبرىٰ « الكوميديا الإنسانيةُ » ، وقد برزتْ من خلالِها أحزانُه ونظرتُهُ المتشائِمةُ للحياةِ ، تُوفي سنة ١٨٥٠م .

عَلَيْكَ أَنْ تَسْقُطَ فِي جُمُوعِ النَّاسِ كَقُنْبُلَةٍ ... وَأَنْ تَتَسَلَّلَ بَيْنَهُمْ كَوَبَاءٍ ...

أَمَّا الشَّرَفُ فَلَا فَائِدَةَ مِنْهُ ... وَلَا يَغِيبَنَّ عَنْكَ أَنَّ النَّاسَ يَحْنُونَ رُؤُوسَهُمْ أَمَامَ تِلْكَ العَبْقَرِيَّةِ ، وَهُمْ يُحَاوِلُونَ النَّيْلَ مِنْهَا لِأَنَّهَا لَمْ تَمْنَحْهُمْ شَيْئًا مِمَّا ظَفِرَتْ بِهِ .

فَإِذَا مَضَتْ فِي طَرِيقِهَا صُعُداً غَيْرَ آبِهَةٍ بِهِمْ انْحَنَوْا أَمَامَهَا ... وَلَا يُخَامِرْكَ الشَّكُّ فِي أَنَّ النَّاسَ سَيَجْثُونَ أَمَامَهَا خَاضِعِينَ إِذَا عَجَزُوا عَنْ جَرِّهَا فِي الأَوْحَالِ ...

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُثْرِيَ فَلَا بُدَّ لَكَ مِنْ أَنْ تُلَوِّثَ يَدَيْكَ ، لَكِنْ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَ كَيْفَ تَغْسِلُهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ ، فَفِي هَذَا جِمَاعُ الأَخْلَاقِ فِي عَصْرِنَا ...

وَإِذَا كُنْتُ أُحَدِّثُكَ عَنِ الحَيَاةِ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ فَذَلِكَ لِأَنَّنِي أَعْرِفُهَا .

وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّنِي أُنْحِي عَلَيْهَا بِاللَّوْمِ ، فَقَدْ كَانَتْ ، وَمَا زَالَتْ كَذَلِكَ ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ الوُعَّاظُ ، وَرِجَالُ الدِّينِ تَغْيِيرَهَا ...» .

هَذِهِ هِيَ الفَلْسَفَةُ الَّتِي يَدِينُ بِهَا الوَاقِعِيُّونَ ، وَذَلِكَ هُوَ المِجْهَرُ الَّذِي يَنْظُرُونَ مِنْ خِلَالِهِ إِلَىٰ الحَيَاةِ وَالنَّاسِ .

لَقَدْ آمَنُوا بِأَنَّ مُهِمَّةَ وَاقِعِيَّتِهِمْ تَصْوِيرُ الجَانِبِ المُظْلِمِ مِنَ الحَيَاةِ ، وَقَالُوا إِنَّ غَرَضَهُمْ مِنْ ذَلِكَ تَبْصِيرُ النَّاسِ بِهَذَا الوَاقِعِ لِكَيْ لَا يَقَعَ الأَخْيَارُ فَرِيسَةً لِلأَشْرَارِ .

وَقَدْ فَاتَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ يَدْفَعُ مُعْتَنِقِي مَذْهَبِهِمْ ، وَقُرَّاءَ أَدَبِهِمْ إِلَىٰ التَّشَاؤُمِ العَمِيقِ ، وَيُحَطِّمُ آمَالَهُمْ بِالخَيْرِ ، وَيَشْحَنُ نُفُوسَهُمْ بِالشَّرِّ ، وَيُفْسِدُ عَلَيْهِمُ الحَيَاةَ .

وَلَمْ تَقْتَصِرْ أَعْمَالُهُمْ الأَدَبِيَّةُ عَلَىٰ مَا كَتَبَهُ « بِلْزَاكُ » ، وَإِنَّمَا جَرَىٰ عَلَىٰ نَهْجِهِ طَائِفَةٌ مِنَ الأُدَبَاءِ الفَرَنْسِيِّينَ وَالإِنْكِلِيزِ ، وَخَلَّفُوا مِئَاتٍ مِنَ الأَعْمَالِ الأَدَبِيَّةِ ، وَقَدْ تُرْجِمَ بَعْضُهَا إِلَىٰ العَرَبِيَّةِ(١).

وَبَعْدُ ، فَتِلْكَ خُلَاصَةٌ مُوجَزَةٌ لِلْوَاقِعِيَّةِ الأُورُبِيَّةِ ، أَمَّا الوَاقِعِيَّةُ الشُّيُوعِيَّةُ فَسَنَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا فِيمَا بَعْدُ كَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ .

* * *

(١) لقد قام فخري أبو السعود بترجمة طائفة من آثار الأديب الإنكليزي الواقعي « توماس هاردي » Thomas Hardy إلىٰ العربية .

نَظْرَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ فِي الوَاقِعِيَّةِ الغَرْبِيَّةِ

أَوَّلاً : إِنَّ مُهِمَةَ الأَدِيبِ الوَاقِعِيِّ لَا تَزِيدُ عَلَىٰ عَدسَةِ المُصَوِّرِ ، فَهُوَ يَبْحَثُ عَنِ المَنْظَرِ الَّذِي يَرُوقُهُ ، ثُمَّ يَقُومُ بِتَصْوِيرِهِ .

وَيَبْدُو تَفَنُّنُهُ وَتَفَوُّقُهُ فِي بَرَاعَةِ اخْتِيَارِ المَشْهَدِ ، وَالإِبْدَاعِ فِي تَصْوِيرِهِ .

وَالأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ لَا يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ تَصْوِيرِ الوَاقِعِ وَالإِبْدَاعِ فِيهِ ، وَإِنَّمَا يَهْدِفُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ إِلَىٰ اخْتِيَارِ المَشَاهِدِ الخَيِّرَةِ ، وَالإِبْدَاعِ فِي تَصْوِيرِ مَا فِيهَا مِنْ خَيْرٍ ؛ بُغْيَةَ تَحْبِيبِهِ إِلَىٰ النُّفُوسِ وَتَغْلِيقِهَا بِهِ .

وَاخْتِيَارِ المَشَاهِدِ الشِّرِيرَةِ ، وَالإِبْدَاعِ فِي تَصْوِيرِ مَا فِيهَا مِنْ شَرٍّ ؛ بُغْيَةَ اقْتِلَاعِهِ مِنَ القُلُوبِ وَتَكْرِيهِهَا بِهِ .

ثَانِياً : ثُمَّ إِنَّ الوَاقِعِيِّينَ - عَلَىٰ اخْتِلَافِ اتِّجَاهَاتِهِمْ - يَدِينُونَ بِأَنَّهُ « لَا إِلَهَ ، وَأَنَّ الحَيَاةَ مَادَّةٌ » وَلَا يُؤْمِنُونَ بِمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ .

وَالأَدِيبُ الإِسْلَامِيُّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وَيَدِينُ بِأَنَّ الطَّبِيعَةَ بِمَا فِيهَا وَبِمَنْ فِيهَا إِنَّمَا هِيَ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَأَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمُ .

ثَالِثاً : ثُمَّ إِنَّ الوَاقِعِيِّينَ يَدِينُونَ بِالنَّظَرِيَّةِ الفَلْسَفِيَّةِ الَّتِي تَقُولُ : « إِنَّ الحَيَاةَ قَدْ بُنِيَتْ عَلَىٰ الشَّرِّ ، وَإِنَّ مَا فِيهَا مِنْ مَظَاهِرِ الخَيْرِ لَيْسَ إِلَّا طِلَاءً زَائِفاً يُمَوِّهُ وَاقِعَهَا ، وَيُخْفِي حَقِيقَتَهَا » .

وَالمُسْلِمُ يَرْفُضُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ أَيْضاً كَمَا رَفَضَ النَّظَرِيَّتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ ؛ فَفِي الحَيَاةِ الخَيْرُ الجَزِيلُ الأَصِيلُ الَّذِي يُفِيضُ عَلَيْهَا الطُّمَأْنِينَةَ وَالرِّضَا وَالمَرْحَمَةَ .

وَفِي الحَيَاةِ الشَّرُّ المُسْتَطِيرُ الَّذِي يُقَاوِمُ هَذَا الخَيْرَ وَيُنَاضِلُهُ .

وَإِنَّ الإِسْلَامَ بِخَاصَّةٍ وَالأَدْيَانَ السَّمَاوِيَّةَ بِعَامَّةٍ إِنَّمَا جَاءَتْ لِتُكَافِحَ الشَّرَّ وَتُنَاضِلَهُ ، وَتُعَزِّزَ الخَيْرَ وَتُؤَازِرَهُ .

رَابِعاً : ثُمَّ إِنَّ أَرْبَابَ هَذَا المَذْهَبِ قَدْ حَوَّلُوا مَبَادِئَهُمْ هَذِهِ إِلَىٰ أَعْمَالٍ أَدَبِيَّةٍ شَوَّهَتْ صُورَةَ الإِنْسَانِ وَالإِنْسَانِيَّةِ ، وَعَبَثَتْ بِالقِيَمِ وَالمُثُلِ ، وَأَلَحَّتْ فِي دَعْوَةِ الشَّبَابِ وَالشَّابَّاتِ إِلَىٰ التَّحَلُّلِ مِنَ الأَخْلَاقِ إِذَا أَرَادُوا التَّفَوُّقَ وَالنَّجَاحَ .

ثُمَّ زَعَمُوا بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا دَعَوْا إِلَىٰ ذَلِكَ لِيَفْتَحُوا عُيُونَ الشَّبَابِ المُغْمَضَةِ ، وَيُبَصِّرُوهُمْ بِالحَقَائِقِ الَّتِي تَخْفَىٰ عَلَيْهِمْ .

وَالمُسْلِمُ يَرْفُضُ ذَلِكَ أَشَدَّ الرَّفْضِ ، وَلَا غَرْوَ فَمَتَىٰ كَانَتِ الخِسَّةُ ذَكَاءً وَعَبْقَرِيَّةً ، وَالدَّنَاءَةُ هَدَفاً وَمَطْمَحاً ، وَالتَّسَلُّلُ عَلَىٰ النَّاسِ كَالوَبَاءِ مَسْلَكاً يَدْعُو إِلَيْهِ الدُّعَاةُ ، وَيُنَادِي بِهِ الأُدَبَاءُ ؟! .

وَكَيْفَ يَحِقُّ لِلأَدِيبِ ـ مَهْمَا كَانَتْ مَقَاصِدُهُ ـ أَنْ يَدْعُوَ الشَّبَابَ ـ وَهُمْ فِي عُمُرِ الوَرْدِ ـ إِلَىٰ تَلْوِيثِ أَيْدِيهِمْ بِالخِسَّةِ إِذَا أَرَادُوا الثَّرَاءَ ، وَإِقْنَاعِهِمْ بِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ تُرْجَىٰ مِنَ العِفَّةِ ، وَلَا مَنْفَعَةَ تَتَحَقَّقُ مِنَ النَّبَالَةِ وَالشَّرَفِ ...

وَهَلْ مِنْ حَقِّ الأَدِيبِ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاشِئَةِ مِنَ الشَّبَابِ وَالشَّابَّاتِ :

« إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَبْلُغُوا الثَّرَاءَ فَلَا بُدَّ لَكُمْ مِنْ أَنْ تُلَوِّثُوا أَيْدِيَكُمْ ، وَكُلُّ مَا عَلَيْكُمْ ـ بَعْدَ ذَلِكَ ـ هُوَ أَنْ تَعْرِفُوا كَيْفَ تَغْسِلُونَهَا ؟! » .

خامساً : ثُمَّ إِنَّ الشَّبَابَ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ هَذَا الأَدَبَ فَرِيقَانِ :

فَرِيقٌ قَدْ تَأْبَىٰ عَلَيْهِ عِزَّتُهُ وَكَرَامَتُهُ وَسُمُوُّ أَخْلَاقِهِ أَنْ يَسْلُكَ هَذَا المَسْلَكَ المُشِينَ ، فَيَعْرُوهُ اليَأْسُ مِنَ الحَيَاةِ ، وَيَحِلُّ بِهِ القُنُوطُ مِنْ تَحْقِيقِ آمَالِهِ فِيهَا ؛ فَيَنْطَوِي عَلَىٰ نَفْسِهِ وَيَنْهَزِمُ هَزِيمَةً نَكْرَاءَ .

وَفَرِيقٌ يَدْفَعُهُ الطُّمُوحُ وَحُبُّ الذَّاتِ ، وَالرَّغْبَةُ المُلِحَّةُ فِي بُلُوغِ الثَّرَاءِ الفَاحِشِ مِنْ أَقْصَرِ السُّبُلِ ، فَيَسْلُكُ تِلْكَ المَسَالِكَ المُشِينَةَ الَّتِي زَيَّنَهَا لَهُ الأَدِيبُ ، وَأَغْرَاهُ بِهَا .

وَالإِسْلَامُ لَا يُحِبُّ اليَئُوسَ القَنُوطَ ، وَهُوَ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ يَكْرَهُ الَّذِينَ يُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا ، وَيُكَافِحُ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ لِلْحُصُولِ عَلَيْهِ مِنْ أَحَطِّ السُّبُلِ .

* * *

رَابِعاً : الطَّبِيعِيَّةُ Naturalism

أَوِ

المَذْهَبُ الطَّبِيعِيُّ

تُطْلَقُ « الطَّبِيعِيَّةُ » عَلَىٰ المَذْهَبِ الفَلْسَفِيِّ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ ، وَيَقِفُ فِي وَجْهِ الأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي تَدْعُو إِلَىٰ الإِيمَانِ بِإِلَٰهٍ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .

وَيَعْتَقِدُ أَصْحَابُ هَذَا المَذْهَبِ بِأَنَّ لِلطَّبِيعَةِ قَوَانِينَ ثَابِتَةً ، وَأَنَّ فِي وُسْعِ الإِنْسَانِ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ تِلْكَ القَوَانِينِ عَنْ طَرِيقِ دِرَاسَةِ الطَّبِيعَةِ نَفْسِهَا .

كَمَا يَعْتَقِدُونَ بِأَنَّ الإِنْسَانَ جُزْءٌ مِنْ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ ، وَأَنَّهُ إِلَٰهُ نَفْسِهِ .

وَقَدْ حَاوَلَ الدَّاعُونَ إِلَىٰ هَذَا المَذْهَبِ أَنْ يَبْسُطُوا سُلْطَانَهُمْ عَلَىٰ عِلْمَي الاِجْتِمَاعِ وَالتَّارِيخِ ، وَأَنْ يُسَخِّرُوهُمَا لِخِدْمَةِ مَذْهَبِهِمْ ... فَنَادَوْا بِأَنَّ سَائِرَ الأَحْدَاثِ الَّتِي تَقَعُ مِنْ حُرُوبٍ ، وَمَجَاعَاتٍ ، وَهَزَائِمَ ، وَانْتِصَارَاتٍ ، وَأَوْبِئَةٍ ، وَاكْتِشَافَاتٍ ، إِنَّمَا هِيَ ضَرْبٌ مِنَ الظَّوَاهِرِ الَّتِي تَنْبَثِقُ عَنِ الطَّبِيعَةِ وَتَخْضَعُ لِقَانُونِ النُّشُوءِ وَالاِرْتِقَاءِ .

وَقَدْ دَفَعَ الدَّاعِينَ إِلَىٰ هَذَا المَذْهَبِ أَمْرَانِ اثْنَانِ :

أَوَّلُهُمَا : الصِّرَاعُ العَنِيفُ الَّذِي احْتَدَمَ بَيْنَ العُقُولِ الأُورُبِّيَّةِ النَّاضِجَةِ مِنْ جِهَةٍ ، وَتَعَالِيمِ الكَنِيسَةِ المُتَقَهْقِرَةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ .

وَثَانِيهِمَا : التَّقَدُّمُ العِلْمِيُّ البَاهِرُ الَّذِي طَفِقَ يُحَقِّقُهُ الإِنْسَانُ الأُورُبِّيُّ .

أَمَّا القِيَمُ الأَخْلَاقِيَّةُ لِهَذَا المَذْهَبِ فَتَهْدِفُ إِلَىٰ المُحَافَظَةِ عَلَىٰ النَّوْعِ البَشَرِيِّ ، وَالتَّكَيُّفِ مَعَ مُتَطَلَّبَاتِ البِيئَةِ ، وَدَفْعِ عَجَلَةِ الحَيَاةِ إِلَىٰ الأَمَامِ ، وَاسْتِخْدَامِ القُوَّةِ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَتَذْلِيلِ العَقَبَاتِ فِي كُلِّ مَجَالٍ مِنْ مَجَالَاتِ الحَيَاةِ .

هَذَا ، وَإِنَّ الطَّبِيعِيَّةَ امْتِدَادٌ مُتَطَرِّفٌ لِلْوَاقِعِيَّةِ ، وَقَدْ بَلَغَتْ ذِرْوَتَهَا فِي نَظَرِيَّاتِ الفَيْلَسُوفِ الأَلْمَانِيِّ « نِيتْشَه »(١)، وَمَقَالَاتِ البَاحِثِ الإِنْكِلِيزِيِّ « هِرْبَرت سِبِنْسِرَ »(٢).

كَمَا أَنَّ تَطْبِيقَ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ فِي مَيَادِينِ الفَلْسَفَةِ وَالأَدَبِ قَدْ تَأَثَّرَ تَأَثُّراً كَبِيراً بِنَظَرِيَّاتِ « دَارْوِينَ »(٣).

وَلَقَدِ انْبَثَقَتْ عَنِ المَذْهَبِ الطَّبِيعِيِّ عِدَّةُ اتِّجَاهَاتٍ أَبْرَزُهَا الطَّبِيعِيَّةُ النَّفْعِيَّةُ الَّتِي حَمَلَ لِوَاءَهَا طَائِفَةٌ مِنَ الفَلَاسِفَةِ الإِنْكِلِيزِ ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ « فِرْدِينَانْدُ شِيلَّر »(٤)، وَ« جُونْ دِيوِي »(٥).

---

(١) فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche: فيلسوف ألماني هاجم الأخلاق المسيحية ، ورأىٰ أنَّها تعادي العباقرة المتفوقين ، وتناصر الضعفاء . من أهم مؤلفاته « مولد التراجيديا » و« هكذا تكلم زرادشت » ، وقد تُرجم إِلَىٰ العربية ، تُوفي سنة ١٩٠٠م .

(٢) هرْبَرت سبنسر Herbert Spencer: فيلسوف إنكليزي تخصص بالعلوم ، وكتب فِي « التطور » وطَبَّقَهُ عَلَىٰ سائر الظواهر ، فَدُعي بفيلسوف التطور ، تُوفي سنة ١٩٠٣م .

(٣) تشارلز روبرت داروين Charles Robert Darwin: عالم طبيعي إنكليزي ، وصاحب نظرية « التطور » المعروفة بالداروينية . من كتبه « أصل الأنواع » ، وقد وَضَع فيه أسس نظريته والأدلَّة عَلَيْهَا ، تُوفي سنة ١٨٨٢م .

(٤) فرديناند شيلر Ferdinand Schiller: فيلسوف إنكليزي يدين بالمذهب الإنساني الذي يَرَىٰ أن الإنسان معيار الأشياء جميعها . من أهم مؤلفاته « ألغاز أبي الهول » و« المذهب الإنساني » و« مشكلات الاعتقاد » ، تُوفي سنة ١٩٣٧م .

(٥) جون دِيوِي John Dewey: فيلسوف أمريكي ، وأستاذ جامعي . من آثاره « كيف نفكر » ، و« الديمقراطية والتربية » ، و« التجديد في الفلسفة » ، و« البحث عن اليقين » . وقد تُرجم أكثر كتبه إِلَىٰ العربية ، تُوفي سنة ١٩٥٢م .

هَذَا ، وَإِنَّ بَيْنَ الفَلْسَفَةِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالمَذْهَبِ الْأَدَبِيِّ الَّذِي انْبَثَقَ عَنْهَا عُرًى لَا تَنْفَصِمُ .

فَالفَلْسَفَةُ اعْتَمَدَتْ عَلَىٰ العَقْلِ فِي تَفْسِيرِ الطَّبِيعَةِ الإِنْسَانِيَّةِ ، وَالْأَدَبُ اعْتَمَدَ عَلَىٰ الإِبْدَاعِ الفَنِّيِّ فِي إِبْرَازِ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ ... وَمِنْ هُنَا قِيلَ :

إِنَّ الْأَدَبَ وَالفَلْسَفَةَ عِنْدَ الطَّبِيعِيِّينَ وَجْهَانِ اثْنَانِ لِدِينَارٍ وَاحِدٍ ، وَإِنَّ الفَصْلَ بَيْنَ هَذَيْنِ الوَجْهَيْنِ مُسْتَحِيلٌ .

وَقَدْ آلَتْ زَعَامَةُ المَذْهَبِ الطَّبِيعِيِّ إِلَىٰ العَالِمِ الفَرَنْسِيِّ « إِمِيلْ زُولَا »[١] الَّذِي عَاشَ فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ القَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ ، وَأَدْرَكَ بِضْعَ سَنَوَاتٍ مِنَ القَرْنِ العِشْرِينَ .

وَهُوَ أَحَدُ عُلَمَاءِ الطَّبِيعَةِ البَارِزِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْثِرُونَ الِاسْتِمَاعَ إِلَىٰ صَوْتِ التَّجْرِبَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَيَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ السَّبِيلُ الوَحِيدُ لِلْمَعْرِفَةِ .

وَلَقَدْ كَشَفَ « إِمِيلْ زُولَا » عَنْ مَذْهَبِهِ الْأَدَبِيِّ فِي عِدَّةِ مَقَالَاتٍ نَشَرَهَا فِي إِحْدَىٰ المَجَلَّاتِ ، ثُمَّ جَمَعَهَا فِي كِتَابٍ سَمَّاهُ « القِصَّةُ التَّجْرِيبِيَّةُ » .

هَذَا وَإِنَّ المُتَعَمِّقِينَ بِالمَذْهَبِ الطَّبِيعِيِّ يَرَوْنَ أَنَّ « إِمِيلْ زُولَا » قَدْ تَأَثَّرَ فِي بِنَاءِ مَذْهَبِهِ بِالوَاقِعِيِّينَ مِنْ جِهَةٍ ، وَبِالفَلْسَفَةِ الوَصْفِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ ، وَبِالنَّزْعَةِ العِلْمِيَّةِ الجَبْرِيَّةِ عِنْدَ « تِين »[٢] مِنْ جِهَةٍ ثَالِثَةٍ .

---

(١) إميل زُولَا Emile Zola: روائي فرنسي ، يؤمن بالمذهب الطبيعي ، ويعد المدافعَ الأولَ عنه . وقد نادَىٰ بوجوبِ قيام القصةِ عَلَىٰ التفكيرِ العلميِّ ، عارضَ المذهبَ الكاثوليكيَّ ، وهاجمَ رجالَ الكنيسةِ . ألَّفَ عدداً كبيراً من القصصِ ، وماتَ مختنقاً سنة ١٩٠٢م .

(٢) هيبوليت أدولف تين Hippolyte Adolphe Taine: مُؤرخٌ وناقدٌ فرنسيٌّ . من مؤلفاته « دراسةٌ لحكاياتِ لَافونتينَ » الَّتي نالَ عَليْهَا الدُّكتُوراه ، كتبَ قِصَّةَ حياتِهِ بعُنوان « أَتِين مازبان » . شُهِر بآرائِهِ الَّتي أثَّرت فِي المدْرسةِ الطَّبيعيةِ وخُلَاصَتُهَا أَنَّ الإنسانَ صُنْعُ الوراثةِ والبيئةِ والزَّمان ، تُوفي سنة ١٨٩٣م .

كَمَا تَأَثَّرَ أَشَدَّ التَّأَثُّرِ بِالمَنَاهِجِ التَّجْرِيبِيَّةِ فِي الطِّبِّ وَعُلُومِ الحَيَاةِ ، وَخَاصَّةً بِكِتَابِ « كُلودْ بِرْنَارْد »[1] الَّذِي سَمَّاهُ : « مُقَدِّمَةٌ فِي عِلْمِ الطِّبِّ التَّجْرِيبِيِّ » .

وَالمَذْهَبُ الطَّبِيعِيُّ يَقُومُ ـ عِنْدَ زُولَا ـ عَلَىٰ رَدِّ وَاقِعِ كُلِّ فَرْدٍ إِلَىٰ حَيَاتِهِ العُضْوِيَّةِ ، كَمَا يَقُومُ عَلَىٰ أَنَّ الإِنْسَانَ حَيَوَانٌ تُسَيِّرُهُ غَرَائِزُهُ ، وَحَاجَاتُهُ الجَسَدِيَّةُ .

أَمَّا حَيَاتُهُ الشُّعُورِيَّةُ وَالعَقْلِيَّةُ فَلَا تَزِيدُ عَلَىٰ كَوْنِهَا ظَاهِرَةً طُفَيْلِيَّةً تَسَلَّقَتْ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ العُضْوِيَّةِ ، وَلِذَا كَانَتْ تَابِعَةً لِوَضْعِهِ العُضْوِيِّ مُتَأَثِّرَةً بِهِ ... وَعَلَىٰ هَذَا فَإِنَّ اخْتِلَافَ البَشَرِ فِي التَّفْكِيرِ وَالسُّلُوكِ وَالمَشَاعِرِ وَالأَخْلَاقِ إِنَّمَا مَرَدُّهُ إِلَىٰ اخْتِلَافِ تَكْوِينِهِمُ العُضْوِيِّ ، وَإِنَّ إِطْلَاقَ « إِمِيلْ زُولَا » عَلَىٰ إِحْدَىٰ قِصَصِهِ اسْمَ « الحَيَوَانُ البَشَرِيُّ » يُلْقِي الأَضْوَاءَ عَلَىٰ مَذْهَبِهِ .

وَلَقَدْ كَانَ « زُولَا » يَسْلُكُ فِي بِنَاءِ أَعْمَالِهِ الأَدَبِيَّةِ الطَّرِيقَةَ الَّتِي يَسْلُكُهَا العُلَمَاءُ التَّجْرِيبِيُّونَ .

فَكَمَا كَانَ العَالِمُ التَّجْرِيبِيُّ يَقِفُ أَمَامَ أَنَابِيبِهِ مَازِجاً بَعْضَ العَنَاصِرِ وَالمَوَادِّ بِبَعْضِهَا الآخَرِ ، مُتَرَقِّباً النَّتَائِجَ ، مُسَجِّلاً التَّطَوُّرَاتِ وَالوَقَائِعَ ، كَانَ « زُولَا » يُحَلِّلُ الأَوْضَاعَ الاِجْتِمَاعِيَّةَ الَّتِي مَرَّ بِهَا أَبْطَالُ قِصَّتِهِ ، وَيَمْزُجُ بَعْضَهَا بِبَعْضِهَا الآخَرِ ، وَيَتَرَقَّبُ النَّتَائِجَ أَيْضاً .

وَكَثِيراً مَا كَانَ يُضِيفُ إِلَىٰ ذَلِكَ المَزِيجِ عَنَاصِرَ جَدِيدَةً مِنْ عِنْدِهِ كَإِدْمَانِ

---

(١) كُلود برنَارْد Claude Bernard: فِسيولوجي فرنسي وأحدُ عظماءِ البحثِ العلميّ . اشْتُهِرَ بأنَّهُ مؤسسُ الطِّبِّ التجريبيِّ ، وبكتابهِ المتعلقِ بهذا الموْضوعِ وعنوانُهُ « مقدمةٌ لدراسةِ الطبِّ التجريبيِّ » الذي تُرجِم إلَىٰ العربيةِ ، تُوفي سنة ١٨٧٨م.

الخَمْرِ ، أَوِ التَرَدِّي فِي الرَّذِيلَةِ ، أَوِ الشَّهْوَةِ الحَيَوَانِيَّةِ ، ثُمَّ يُرَاقِبُ آثَارَ ذَلِكَ عَلَىٰ السُّلُوكِ .

وَلَقَدْ عَلَّقَ الدُّكْتُور مُحَمَّدُ مَنْدُورٍ عَلَىٰ هَذَا المَسْلَكِ الَّذِي كَانَ يَسْلُكُهُ « إِمِيلْ زُولَا » بِقَوْلِهِ : « إِنَّ هَذَا المَسْلَكَ إِذَا جَازَ التَّعَصُّبُ لَهُ فِي مَجَالِ الفَلْسَفَةِ الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَىٰ النَّظَرِيَّاتِ وَالتَّعْمِيمَاتِ فَإِنَّ مِنَ الخَطَرِ التَّعَصُّبَ لَهُ فِي مَجَالِ الْأَدَبِ ، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ أَدَباً وَاقِعِيًّا »[1].

* * *

(١) الأدب ومذاهبُهُ : ١٠٠.

نَظْرَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ فِي الـمَذْهَبِ الطَّبِيعِيِّ

أَوَّلاً : إِنَّ الطَّبِيعِيَّةَ مَذْهَبٌ فَلْسَفِيٌّ إِلْحَادِيٌّ ، يَتَصَدَّىٰ لِلأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ جَمِيعِهَا ، وَيَعْمَلُ عَلَىٰ اجْتِثَاثِهَا مِنْ جُذُورِهَا ، وَإِحْلَالِ الطَّبِيعَةِ مَحَلَّ الإِلَٰهِ وَاسْتِبْدَالِهَا بِهِ ... وَالـمُسْلِمُ لَا يَتَحَقَّقُ إِسْلَامُهُ إِلَّا إِذَا آمَنَ بِاللَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَبِرَسُولِهِ خَاتَمِ الرُّسُلِ .

وَإِنَّ مِنْ مُهِمَّاتِ الأَدِيبِ الإِسْلَامِيِّ الوُقُوفَ فِي وَجْهِ الـمَذَاهِبِ الأَدَبِيَّةِ الـمُنْحَرِفَةِ ، وَاقْتِلَاعَهَا مِنْ جُذُورِهَا ، وَإِنْشَاءَ أَدَبٍ إِسْلَامِيٍّ بَدِيلٍ يُـمَتِّعُ النُّفُوسَ ، وَيُغْنِي العُقُولَ ، وَيُرَسِّخُ الإِيمَانَ ، وَيَحُضُّ عَلَىٰ الـخَيْرِ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الشَّرِّ .

ثَانِياً : ثُمَّ إِنَّ أَرْبَابَ هَذَا الـمَذْهَبِ قَدْ حَارُوا فِي أَمْرِ « الإِنْسَانِ » ، فَهَلْ يَجْعَلُونَ الطَّبِيعَةَ إِلَهاً لَهُ كَمَا جَعَلُوهَا إِلَهاً لِغَيْرِهِ ، مَعَ أَنَّهُ أُوتِيَ مِنَ الطَّاقَاتِ ، وَمَلَكَ مِنَ العَبْقَرِيَّاتِ ، مَا مَكَّنَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الطَّبِيعَةِ نَفْسِهَا ، وَتَسْخِيرِهَا لِخِدْمَتِهِ خَاصَّةً ، وَخِدْمَةِ الإِنْسَانِيَّةِ عَامَّةً .

وَلِلْخُرُوجِ مِنْ هَذَا الـخَطَأِ الـجَسِيمِ الَّذِي وَقَعُوا فِيهِ ؛ نَادَوْا بِأَنَّ الإِنْسَانَ إِلَهُ نَفْسِهِ .

وَقَدْ فَاتَهُمْ أَنَّ هَذَا الإِلَهَ البَشَرِيَّ ـ الَّذِي زَعَمُوهُ ـ يَصِحُّ وَيَـمْرَضُ ، وَيَنْجَحُ وَيُخْفِقُ ، وَيَغْنَىٰ وَيَفْتَقِرُ ... وَلَوْ كَانَ إِلَهاً لَـمَا مَرِضَ ، وَأَخْفَقَ ، وَافْتَقَرَ .

ثَالِثاً : لَقَدْ دَفَعَ إِلَىٰ قِيَامِ الـمَذْهَبِ الطَّبِيعِيِّ ذَلِكَ الصِّرَاعُ العَنِيفُ الَّذِي احْتَدَمَ بَيْنَ عَقْلِ الإِنْسَانِ الـمُتَفَتِّحِ ، وَعَبْقَرِيَّتِهِ الـمُبْدِعَةِ ، وَبَيْنَ تَعَالِيمِ الكَنِيسَةِ الَّتِي

أَغْلَقَتِ الأَبْوَابَ فِي وَجْهِهِ ، وَوَضَعَتْ حَاجِزاً كَبِيراً بَيْنَ العِلْمِ وَالدِّينِ .

وَالـمُسْلِمُ لَيْسَتْ لَدَيْهِ كَنِيسَةٌ تُسَيْطِرُ عَلَيْهِ ، وَلَا رِجَالُ دِينٍ يَتَصَرَّفُونَ فِي أَمْرِهِ وَفْقَ هَوَاهُمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ خَاضِعٌ لِكِتَابِ اللَّهِ وَحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهُمَا قَدْ أَلَحَّا فِي دَعْوَتِهِ إِلَىٰ النَّظَرِ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا مِنْ أَسْرَارٍ ، وَتَسْخِيرِهِمَا لِخِدْمَةِ الإِنْسَانِ .

رَابِعاً : وَالـمَذْهَبُ الطَّبِيعِيُّ يَرَىٰ أَنَّ الـحَيَاةَ النَّفْسِيَّةَ لَا تَزِيدُ عَلَىٰ كَوْنِهَا ظَاهِرَةً طُفَيْلِيَّةً تَسَلَّقَتْ عَلَىٰ جِسْمِ الإِنْسَانِ .

وَالإِسْلَامُ يَدِينُ بِالـحَيَاةِ النَّفْسِيَّةِ ، وَيَعُدُّهَا الرَّكِيزَةَ الأُولَىٰ فِي بِنَاءِ هَذَا الكَائِنِ الـمُكَرَّمِ حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْـهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَـقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** ﴾[1].

وَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ : ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْـمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾[2].

وَلَقَدْ جَعَلَ الإِسْلَامُ النُّفُوسَ أَصْنَافاً ثَلَاثَةً :

- أَسْمَاهَا رُتْبَةً وَأَعْلَاهَا مَقَاماً « النَّفْسُ الـمُطْمَئِنَّةُ » ، الرَّاضِيَةُ الـمَرْضِيَّةُ ، الَّتِي تُدْخِلُ صَاحِبَهَا فِي زُمْرَةِ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ ، وَتَـجْعَلُهُ يَحْظَىٰ بِجَنَّاتِهِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ .

- ثُمَّ تَلِيهَا « النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ » ، وهِيَ النَّفْسُ الـمُتَيَقِّظَةُ الـخَائِفَةُ الَّتِي تَـحْذَرُ مِنْ خِدَاعِ ذَاتِهَا ، وَتَدْأَبُ عَلَىٰ تَقْوِيمِ أَعْمَالِهَا .

---

(١) سورة الشمس: ٧ - ١٠.

(٢) سورة الفجر: ٢٧ - ٣٠.

• ثُمَّ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ بِآمَادٍ[1] بَعِيدَةٍ « النَّفْسُ الأَمَّارَةُ » ، وَهِيَ الَّتِي تُعْرِضُ عَنِ الهُدَىٰ ، وَتَأْمُرُ بِالسُّوءِ ، وَتَحُضُّ عَلَىٰ الضَّلَالِ .

خَامِساً : ثُمَّ إِنَّ « إِمِيلْ زُولَا » أَطْلَقَ عَلَىٰ الإِنْسَانِ اسْمَ « الحَيَوَانِ البَشَرِيِّ » وَاعْتَمَدَ فِي تَقْوِيمِهِ عَلَىٰ التَّجَارِبِ العِلْمِيَّةِ وَالعَمَلِيَّةِ الَّتِي أَجْرَاهَا عَلَىٰ بَعْضِ الأَفْرَادِ ، ثُمَّ عَمَّمَهَا عَلَىٰ جَمِيعِ النَّاسِ .

وَالإِسْلَامُ رَفَعَ مِنْ شَأْنِ الإِنْسَانِ ، وَأَعْلَىٰ مِنْ قَدْرِهِ ، وَكَرَّمَهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنَ المَخْلُوقَاتِ ، فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ...** ﴾[2] .

كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾[3] .

وَالنَّاسُ فِي نَظَرِ الإِسْلَامِ ضُرُوبٌ ، فَمِنْهُمُ الشَّاكِرُ وَالكَفُورُ ، وَفِيهِمُ البَرُّ وَالفَاجِرُ .

وَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ رُسُلَهُ لِتَقْوِيمِ مُعْوَجِّهِمْ ، وَإِصْلَاحِ فَاسِدِهِمْ .

سَادِساً : وَلَقَدْ رَدَّ « إِمِيلْ زُولَا » سُلُوكَ الإِنْسَانِ وَمُيُولَهُ إِلَىٰ عَوَامِلَ عُضْوِيَّةٍ ، وَأَخْضَعَهُ إِلَىٰ قَانُونِ الوِرَاثَةِ ، وَبَنَىٰ أَعْمَالَهُ الأَدَبِيَّةَ عَلَىٰ هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ .

وَقَدْ كَتَبَ نَحْواً مِنْ عِشْرِينَ قِصَّةً دَارَتْ حَوْلَ أُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَذَلِكَ لِيُؤَيِّدَ مَذْهَبَهُ .

وَالإِسْلَامُ يُنَادِي بِأَنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ ، وَيَعْنِي بِالفِطْرَةِ الصَّفَاءَ وَالنَّقَاءَ الخَالِصَيْنِ مِنْ جَمِيعِ شَوَائِبِ الشَّرِّ ، المُوَجَّهَيْنِ إِلَىٰ سَائِرِ ضُرُوبِ الخَيْرِ ،

---

(١) آماد : جمع مفرده أمد ، وهو الغاية والنهاية والمراد هنا الزمن البعيد .

(٢) سورة الإسراء : ٧٠.

(٣) سورة التين : ٤.

وَذَلِكَ إِذَا لَمْ يُعَوِّقْهُ مُعَوِّقٌ ، أَوْ يَعْمَلْ عَلَىٰ إِفْسَادِهِ مُفْسِدٌ .

سَابِعاً : إِنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ الفَلْسَفِيَّةَ الَّتِي تَبَنَّاهَا الطَّبِيعِيُّونَ قَدْ أَفْسَدَتِ الْأَدَبَ حِينَ أُقْحِمَتْ فِيهِ ...

وَإِنَّ دَعْوَةَ الأُدَبَاءِ إِلَىٰ أَنْ يَخِيطُوا أَثْوَابَ أَدَبِهِمْ عَلَىٰ قُدُودِ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ قَدْ ضَيَّقَ الخِنَاقَ عَلَيْهِمْ وَكَبَّلَهُمْ بِالقُيُودِ ، وَقَضَىٰ عَلَىٰ رِسَالَتِهِمْ فِي الحَيَاةِ .

أَمَّا الْأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ فَقَدْ فَتَحَ الأَبْوَابَ رَحْبَةً أَمَامَ الأَدِيبِ ، وَعَبَّدَ لَهُ المَسَالِكَ ، وَوَسَّعَ لَهُ الآفَاقَ .

فَفِي وُسْعِهِ أَنْ يُصَوِّرَ الخَالِقَ وَمَخْلُوقَاتِهِ ، وَجَنَّتَهُ وَنَارَهُ ، وَثَوَابَهُ وَعِقَابَهُ ، وَمَا أَبْدَعَهُ مِنْ رِيَاضٍ غَنَّاءَ ، وَمَا خَلَقَهُ مِنْ طَيْرٍ سَابِحٍ ، وَحَيَوَانٍ سَارِحٍ ، وَرَبِيعٍ جَمِيلٍ ، وَشِتَاءٍ عَاصِفٍ .

كَمَا فِي وُسْعِهِ أَنْ يَتَنَاوَلَ الإِنْسَانَ بِعَوَاطِفِهِ وَأَشْوَاقِهِ ، وَآمَالِهِ وَآلَامِهِ ، وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ ، وَخَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، وَصَلَاحِهِ وَطَلَاحِهِ ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مِنْ قَيْدٍ يُقَيِّدُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ هَادِفاً فِي أَدَبِهِ ، بَعِيداً عَمَّا يُجَافِي الإِسْلَامَ وَيُنَاقِضُهُ .

* * *

خَامِساً : مَذْهَبُ « الفَنُّ لِلْفَنِّ » Arbism

لَقَدْ بُنِيَتْ نَظَرِيَّةُ « الفَنُّ لِلْفَنِّ » عَلَىٰ قَوْلِ أَرِسْطُو[1]:

« إِنَّهُ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ الأَثَرِ الكَبِيرِ لِلْأَخْلَاقِ فِي الحَيَاةِ ، وَالفَائِدَةِ الجُلَّىٰ[2] مِنَ الإِرْشَادِ وَالتَّوْجِيهِ فِي بِنَاءِ المُجْتَمَعَاتِ ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لِهَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ أَنْ يَمُدَّا يَدَيْهِمَا إِلَىٰ الشِّعْرِ ، وَأَنَّ يَمَسَّا فَنِّيَّتَهُ ...

وَلِذَا كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَضَعَ حَدًّا فَاصِلاً بَيْنَ التَّوْجِيهِ وَالنُّصْحِ المُبَاشِرَيْنِ ، وَبَيْنَ الإِبْدَاعِ الفَنِّيِّ فِي الشِّعْرِ ، وَأَنْ نَمْنَعَ المَزْجَ بَيْنَهُمَا » .

ثُمَّ أَخَذَتْ نَظَرِيَّةُ « الفَنُّ لِلْفَنِّ » تَنْمُو شَيْئًا فَشَيْئًا ، فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهَا وَقَفَتْ فِي وَجْهِ الدَّعَوَاتِ إِلَىٰ تَسْخِيرِ الفُنُونِ لِخِدْمَةِ المَبَادِئِ وَالمُثُلِ الَّتِي تَسْعَىٰ الإِنْسَانِيَّةُ إِلَيْهَا وَتَحْرِصُ عَلَيْهَا .

وَطَفِقَتْ تُنَادِي بِأَنَّ الشِّعْرَ هُوَ الَّذِي يُكْتَبُ مِنْ أَجْلِ الشِّعْرِ ...

أَمَّا الشِّعْرُ الَّذِي يَرْمِي إِلَىٰ تَحْقِيقِ أَيِّ غَرَضٍ مِنَ الأَغْرَاضِ ، مَهْمَا كَانَ ذَلِكَ الغَرَضُ جَلِيلاً نَبِيلاً فَفِي وُسْعِكَ أَنْ تُطْلِقَ عَلَيْهِ أَيَّ شَيْءٍ غَيْرَ الشِّعْرِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ المُهِمَّةَ الأَسَاسِيَّةَ لِلشِّعْرِ هِيَ إِمْتَاعُ القَارِئِ ، وَتَغْذِيَةُ نَفْسِهِ ، وَتَجْدِيدُ حَيَاتِهِ ، وَلَا يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ بِالتَّوْجِيهَاتِ السَّاذَجَةِ ، وَالأَوَامِرِ المُبَاشِرَةِ ، وَإِنَّمَا يَتَحَقَّقُ بِالمُتْعَةِ الفَنِّيَّةِ وَحْدَهَا .

---

(١) كتاب الشعر لأرسطو.

(٢) الجُلَّىٰ : الكبرىٰ والعظمىٰ .

وَلَقَدْ أَقَامَ أَنْصَارُ « الفَنِّيَّةِ » الدَّلِيلَ عَلَىٰ ضَعْفِ النَّظَرِيَّةِ الَّتِي تُنَادِي بِاتِّخَاذِ الشِّعْرِ وَسِيلَةً لِلتَّعْلِيمِ ، فَقَالُوا :

إِنَّ الإِلْحَاحَ عَلَىٰ الفَائِدَةِ الجُلَّىٰ مِنَ الشِّعْرِ فِي تَعْلِيمِ النَّاشِئَةِ وَتَوْجِيهِهِمْ ، وَتَكْرَارَ الكَلَامِ عَلَىٰ الضَّرُورَةِ القُصْوَىٰ لِذَلِكَ ، لَيَدُلَّانِ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَىٰ هُزَالِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ ، وَضَعْفِ الثِّقَةِ بِهَا .

وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الفَائِدَةُ الَّتِي يَزْعُمُهَا الشُّعَرَاءُ التَّعْلِيمِيُّونَ أَمْراً وَاقِعاً لَمَا احْتَاجَتْ إِلَىٰ هَذَا التَّأْكِيدِ كُلِّهِ ، وَلَمَا دَعَتْ إِلَىٰ الإِلْحَاحِ الشَّدِيدِ عَلَيْهَا .

ثُمَّ إِنَّ كِبَارَ دُعَاةِ « الفَنِّيَّةِ » يُوَازِنُونَ بَيْنَ العِلْمِ وَالفَنِّ فَيَقُولُونَ :

إِنَّ هَدَفَ الإِنْسَانِ البَحْثُ عَنِ السَّعَادَةِ ، وَتَحْقِيقُهَا ، وَإِنَّ القَصِيدَةَ الشِّعْرِيَّةَ تُحَقِّقُ لَهُ هَذَا الهَدَفَ العَظِيمَ بِسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ ، أَمَّا التَّعْلِيمُ فَلَا تَزِيدُ فَائِدَتُهُ عَلَىٰ إِيضَاحِ الطَّرِيقِ لِبُلُوغِ هَذَا الهَدَفِ ؛ وَعَلَىٰ هَذَا فَإِنَّ الفَنَّ يُحَقِّقُ لِلبَشَرِيَّةِ فِي لَحَظَاتٍ مَا تَسْعَىٰ إِلَيْهِ فِي قُرُونٍ .

وَكَمَا عَارَضَ أَصْحَابُ هَذَا المَذْهَبِ الشُّعَرَاءَ التَّعْلِيمِيِّينَ فَقَدْ عَارَضُوا الرُّومَانْسِيِّينَ أَيْضاً .

حَيْثُ رَأَوْا أَنَّ الرُّومَانْسِيَّةَ تَدْعُو إِلَىٰ عَرْضِ أَفْرَاحِ الشَّاعِرِ وَأَتْرَاحِهِ عَلَىٰ النَّاسِ ، وَبِذَلِكَ تَجْعَلُ الشِّعْرَ وَسِيلَةً إِلَىٰ غَايَةٍ .

وَهُمْ يَدِينُونَ بِأَنَّ الشِّعْرَ غَايَةٌ فِي ذَاتِهِ ، وَأَنَّ غَايَتَهُ إِبْدَاعُ الجَمَالِ ، وَذَلِكَ بِاسْتِخْرَاجِهِ مِنْ رَوَائِعِ الطَّبِيعَةِ ، أَوْ خَلْعِهِ عَلَىٰ مَظَاهِرِهَا .

وَلَقَدِ انْتَهَىٰ المَذْهَبُ الفَنِّيُّ إِلَىٰ « لُوكُونْتَ دِي لِيلْ » ، وَهُوَ شَاعِرٌ فَرَنْسِيٌّ

كَفَرَ بِالـمَسِيحِيَّةِ ، وَتَعَلَّقَ بِالبُوذِيَّةِ ، وَآمَنَ بِفَلْسَفَتِهَا الَّتِي تَقُومُ عَلَىٰ السُّخْرِ مِنَ الأَلَمِ ، وَاحْتِقَارِ البُكَاءِ ، وَحَضِّ الإِنْسَانِ عَلَىٰ الـخَلَاصِ مِنَ الشُّرُورِ وَالآثَامِ ، وَإِرْشَادِهِ إِلَىٰ تَحْقِيقِ السَّعَادَةِ ، وَذٰلِكَ بِإِمَاتَةِ الرَّغَبَاتِ فِي نَفْسِهِ .

وَقَدْ تَلَهَّفَ « دِي لِيلْ » فِي أَشْعَارِهِ عَلَىٰ الـمَوْتِ أَشَدَّ التَلَهُّفِ ، وَقَدَّسَهُ أَعْظَمَ التَّقْدِيسِ ، وَغَبَطَ الـمَوْتَىٰ الَّذِينَ سَعِدُوا بِالفَنَاءِ ، وَنَعِمُوا بِأَكْلِ الدِّيدَانِ لِأَجْسَادِهِمْ ، وَتَخَلَّصُوا مِنَ الزَّمَانِ وَالـمَكَانِ وَالأَرْقَامِ .

وَسَأَلَ الـمَوْتَ الَّذِي يَنْتَهِي كُلُّ شَيْءٍ إِلَىٰ رِحَابِهِ أَنْ يَتَقَبَّلَ أَطْفَالَهُ ، وَأَنْ يَضُمَّهُمْ إِلَىٰ صَدْرِهِ الـمُرَصَّعِ بِالنُّجُومِ ...

وَقَدْ نَشَرَ « دِي لِيلْ » أَشْعَارَهُ هَٰذِهِ فِي دِيوَانٍ سَمَّاهُ : « قَصَائِدُ هَمَجِيَّةٌ » أَوْ « قَصَائِدُ بَرْبَرِيَّةٌ » .

* * *

نَظْرَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ فِي مَذْهَبِ « الفَنُّ لِلْفَنِّ »

أَوَّلاً : إِنَّ نَظَرِيَّةَ « الفَنُّ لِلْفَنِّ » تَرْجِعُ فِي أُصُولِهَا البَعِيدَةِ إِلَىٰ مَا دَعَا إِلَيْهِ « أَرِسْطُو » مِنْ وُجُوبِ اسْتِبْعَادِ الأَخْلَاقِ عَنِ الشِّعْرِ .

وَالْأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ أَدَبٌ أَخْلَاقِيٌّ مِنْ قِمَّةِ رَأْسِهِ إِلَىٰ أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ ، فَفِي مَنَابِتِهِ تُغْرَسُ الأَخْلَاقُ ، وَمِنْ آثَارِهِ تُجْتَنَىٰ .

ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَرْوِي الأَخْلَاقَ بِتَعَالِيمِ الدِّينِ الثَّرَّةِ ، وَيُغَذِّيهَا بِتَوْجِيهَاتِهِ الفَذَّةِ .

أَمَّا الأَعْمَالُ الْأَدَبِيَّةُ الَّتِي تُجَافِي الأَخْلَاقَ النَّبِيلَةَ فَهِيَ مَرْفُوضَةٌ عِنْدَ الأَدِيبِ المُسْلِمِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِنَّمَا بُعِثَ لِيُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ .

ثَانِياً : وَكَمَا ذَهَبَ الفَنِّيُّونَ إِلَىٰ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ « أَرِسْطُو » مِنْ ضَرُورَةِ اسْتِبْعَادِ الأَخْلَاقِ عَنِ الشِّعْرِ ، فَقَدْ جَرَوْا مَجْرَاهُ فِي ضَرُورَةِ اسْتِبْعَادِ الإِرْشَادِ وَالتَّوْجِيهِ عَنْ هَذَا الفَنِّ أَيْضاً .

وَالْأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ أَدَبٌ هَادِفٌ ، وَفِي قِمَّةِ أَهْدَافِهِ الإِرْشَادُ وَالتَّوْجِيهُ .

وَلَا أَدَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ أَنَّ الكِتَابَ العَزِيزَ قَدْ اشْتَمَلَ عَلَىٰ سِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةِ دَعْوَةٍ إِلَىٰ هَذَا الغَرَضِ النَّبِيلِ(١)...

---

(١) انظر كتاب « تفصيل آيات القرآن الحكيم » الذي ألفه بالفرنسية « جول لابوم » ونقله إلىٰ العربية مُحمّد فؤاد عبد الباقي ، وطبعته مطبعة عِيسَىٰ البابي الحلبي وشركاه بمصر ، باب تهذيب الأخلاق .

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ :

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[1].

وَقَوْلُهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ...

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ... ﴾[2].

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3].

ثَالِثاً : وَقَدْ نَادَىٰ الشُّعَرَاءُ « الفَنِّيُّونَ » بِأَنَّ الْمُهِمَّةَ الأَسَاسِيَّةَ لِلشِّعْرِ تَقْتَصِرُ عَلَىٰ « الإِمْتَاعِ » وَتَرْفُضُ « الإِقْنَاعَ » ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَحَقَّقُ عَنْ طَرِيقِ التَّوْجِيهَاتِ السَّاذَجَةِ ، وَالأَوَامِرِ الْمُبَاشِرَةِ .

وَفُنُونُ الأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ جَمِيعُهَا تَقُومُ عَلَىٰ الِانْتِفَاعِ الْمَقْرُونِ بِالإِمْتَاعِ ، وَتَرَىٰ أَنَّ الْمُتْعَةَ الَّتِي لَا نَفْعَ فِيهَا تَقْضِي عَلَىٰ رِسَالَةِ الأَدِيبِ الْمُبْدِعِ ، وَتَهْبِطُ بِقِيمَةِ الأَدَبِ ، وَتُحَوِّلُ الأَدِيبَ إِلَىٰ إِنْسَانٍ تَافِهٍ لَا فَائِدَةَ تُرْجَىٰ مِنْهُ فِي إِغْنَاءِ

---

(١) سورة فصلت : ٣٤ - ٣٥.

(٢) سورة المائدة : ٢.

(٣) سورة التوبة : ٧١.

الحَيَاةِ ، وَإِسْعَادِ الإِنْسَانِ .

رَابِعاً : ثُمَّ إِنَّ أَحَدَ زُعَمَاءِ هَذَا المَذْهَبِ قَدْ وَازَنَ بَيْنَ العِلْمِ وَالفَنِّ ، وَانْتَهَىٰ إِلَىٰ أَنَّ الإِنْسَانَ يُحَقِّقُ عَنْ طَرِيقِ الفَنِّ مِنَ السَّعَادَةِ فِي لَحَظَاتٍ مَا لَا يَسْتَطِيعُ تَحْقِيقَهُ عَنْ طَرِيقِ العِلْمِ فِي الكَثِيرِ مِنَ السَّنَوَاتِ .

وَالإِسْلَامُ يَرْفُضُ هَذِهِ الفِكْرَةَ القَائِمَةَ عَلَىٰ تَرْجِيحِ الفَنِّ عَلَىٰ العِلْمِ ، وَيُنَادِي بِأَنَّ العِلْمَ هُوَ السَّبِيلُ إِلَىٰ إِسْعَادِ البَشَرِيَّةِ وَتَقَدُّمِهَا ، وَأَنَّ الفُنُونَ المُبَاحَةَ إِنَّمَا هِيَ رَدِيفٌ لَهُ .

ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ فَاتَ هَؤُلَاءِ « الفَنِّيِّينَ » أَنَّ أُورُبَّا لَمْ تَبْلُغْ مَا بَلَغَتْهُ مِنْ سُلْطَانٍ مَادِيٍّ عَلَىٰ العَالَمِ إِلَّا بِالْعِلْمِ ، وَلَوْ أَنَّهَا اقْتَصَرَتْ عَلَىٰ الفُنُونِ لَبَقِيَتْ فِي مُؤَخِّرَةِ الرَّكْبِ .

خَامِساً : ثُمَّ إِنَّ هَذَا المَذْهَبَ قَدْ دَفَعَ أَحَدَ كِبَارِ زُعَمَائِهِ وَهُوَ « لُوكُونْت دِي لِيلْ » إِلَىٰ أَنْ يَكْفُرَ بِالمَسِيحِيَّةِ ، وَأَنْ يَدِينَ بِالبُوذِيَّةِ ، وَأَنْ يَتَلَهَّفَ فِي أَشْعَارِهِ عَلَىٰ المَوْتِ أَشَدَّ التَلَهُّفِ ، وَأَنْ يَغْبِطَ المَوْتَىٰ الَّذِينَ سَعِدُوا بِالفَنَاءِ ، وَأَنْ يَسْأَلَ المَوْتَ بِأَنْ يَتَقَبَّلَهُ بِقَبُولٍ حَسَنٍ ، وَأَنْ يَضُمَّهُ إِلَىٰ صَدْرِهِ المُرَصَّعِ بِالنُّجُومِ .

وَالأَدِيبُ الإِسْلَامِيُّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَرَسُولِهِ ، وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وَيَدِينُ بِالحِسَابِ وَالعِقَابِ ، وَيَعْمَلُ لِدُنْيَاهُ كَأَنَّهُ يَعِيشُ أَبَداً ، وَيَعْمَلُ لِأُخْرَاهُ كَأَنَّهُ يَمُوتُ غَداً .

سَادِساً : وَدُعَاةُ « الفَنِّ لِلْفَنِّ » يَبْغُونَ مِنْ قَرْضِ الشِّعْرِ إِثَارَةَ مَشَاعِرِ القَارِئِ ، وَإِلْهَابَ إِحْسَاسِهِ إِلْهَاباً يُمَكِّنُهُ مِنْ تَذَوُّقِ العَالَمِ السِّحْرِيِّ المَصْنُوعِ مِنْ مَادَّةِ الخَيَالِ .

وَالأُدَبَاءُ الإِسْلَامِيُّونَ يَسْعَوْنَ لِجَعْلِ القَارِئِ يَتَذَوَّقُ العَالَمَ أَيْضاً ، لَكِنَّهُمْ

يُرِيدُونَ أَن يَرْبِطُوا هَذَا العَالَمَ بِخَالِقِهِ بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَأَنْ يَفْتَحُوا أَمَامَ القُرَّاءِ أَبْوَابَ التَّأَمُّلِ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَأَنْ يُوَسِّعُوا بِهَذَا التَّأَمُّلِ آفَاقَهُمْ ، وَيُثِيرُوا مَشَاعِرَهُمْ ، وَيُفْعِمُوهُمْ يَقِيناً بِقُدْرَةِ اللَّهِ ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ...**﴾[1].

* * *

(١) سورة السجدة : ٧.

سَادِساً: الرَّمْزِيَّةُ Symbolism

أ ـ تَحْدِيدُ مَعْنَىٰ الرَّمْزِ عِنْدَ غَيْرِ الأُدَبَاءِ:

الرَّمْزُ عِنْدَ العُلَمَاءِ عَلَامَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ شَيْءٍ لَهُ وُجُودٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ. وَقَدِ اسْتُخْدِمَ الرَّمْزُ فِي كَثِيرٍ مِنَ المَجَالَاتِ رَغْبَةً بِالإِيجَازِ...

فَالْكِيمْيَائِيُّونَ رَمَزُوا إِلَىٰ «الهِيدْرُوجِينِ» بِالحَرْفِ H، وَإِلَىٰ «الأُوكْسُوجِينِ» بِالحَرْفِ O2، وَإِلَىٰ «الكَالْسِيُومِ» بِالحَرْفَيْنِ Ca. وَعُلَمَاءُ الهَنْدَسَةِ وَالجَبْرِ رَمَزُوا إِلَىٰ الأَرْقَامِ وَالزَّوَايَا وَالخُطُوطِ بِالحُرُوفِ أَيْضاً.

وَالدُّوَلُ رَمَزَتْ بِالأَعْلَامِ إِلَىٰ مَا تَدِينُ بِهِ وَتُقَدِّسُهُ، وَالمَتَاجِرُ وَالمَصَانِعُ كَثِيراً مَا اتَّخَذَتْ لِنَفْسِهَا وَلِمَصْنُوعَاتِهَا رُمُوزاً تُشِيرُ إِلَيْهَا وَتُمَيِّزُهَا عَنْ غَيْرِهَا.

ب ـ تَحْدِيدُ مَعْنَىٰ الرَّمْزِ عِنْدَ الأُدَبَاءِ:

أَمَّا الرَّمْزُ عِنْدَ الأُدَبَاءِ وَالنُّقَّادِ فَهُوَ وَسِيلَةٌ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ التَّجَارِبِ الأَدَبِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ بِوَسَاطَةِ الرَّمْزِ. وَقَدْ دُعِيَ هَذَا الاتِّجَاهُ بِالمَدْرَسَةِ الرَّمْزِيَّةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ الحَرَكَةَ الأَدَبِيَّةَ اتَّخَذَتْ مِنَ الإِشَارَةِ وَاللَّمْحِ أَدَاةً لِلتَّعْبِيرِ عَنْ الانْطِبَاعَاتِ النَّفْسِيَّةِ، وَأَحَلَّتْهَا مَحَلَّ الأُسْلُوبِ الحَقِيقِيِّ المُبَاشِرِ الَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ الأُدَبَاءُ.

جـ ـ جُذُورُ الرَّمْزِيَّةِ:

لَقَدِ انْبَثَقَتِ الرَّمْزِيَّةُ عَنْ نَظَرِيَّةِ المُثُلِ عِنْدَ «أَفْلَاطُونَ»[١]، وَهِيَ نَظَرِيَّةٌ

(١) أفلاطون Plato: فيلسوف يوناني تلميذ سقراط Socrates، يُعتبران هما وأرسطو واضعي أسس الثقافة الغربية، أشهر كُتبِ أفلاطونَ «الجمهورية»، تُوفي سنة ٣٤٧ قبل الميلاد.

تَقُومُ عَلَىٰ فِكْرَتَيْنِ أَسَاسِيَّتَيْنِ :

أُولَاهُمَا : إِنْكَارُ الحَقَائِقِ المَحْسُوسَةِ الَّتِي لَا تَزِيدُ عَلَىٰ كَوْنِهَا صُوَراً تَرْمُزُ إِلَىٰ حَقَائِقَ مِثَالِيَّةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ عَالَمِنَا المَحْسُوسِ .

وَثَانِيَتُهُمَا : أَنَّ عَقْلَ الإِنْسَانِ الظَّاهِرَ الوَاعِيَ عَقْلٌ مَحْدُودٌ ، وَأَنَّ الإِنْسَانَ يَمْلِكُ عَقْلاً بَاطِناً غَيْرَ وَاعٍ أَرْحَبَ مِنْ ذَلِكَ العَقْلِ ، وَأَحْفَلَ بِعَشَرَاتِ المَرَّاتِ .

وَقَدْ آمَنَ الرَّمْزِيُّونَ بِهَذِهِ النَّظَرِيَّةِ ، وَنَادَوْا بِأَنَّ العَالَمَ الخَارِجِيَّ الوَاقِعِيَّ لَيْسَ جَدِيراً بِأَنْ يَكُونَ مَجَالاً لِلشِّعْرِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ ، وَأَنَّ العَقْلَ الوَاعِيَ غَيْرُ صَالِحٍ لِأَنْ يَكُونَ مُقَوِّماً لِهَذَا الشِّعْرِ ، أَوْ حَكَماً عَلَيْهِ .

فَإِذَا وَصَفَ الشَّاعِرُ البَحْرَ بِأَمْوَاهِهِ[1]، وَأَمْوَاجِهِ وَشُطْآنِهِ ، فَإِنَّ وَصْفَهُ هَذَا لَا يُعَدُّ أَدَباً مَهْمَا أَبْدَعَ فِي الوَصْفِ .

وَإِذَا كَتَبَ الأَدِيبُ قِصَّةً مِنْ رَوَائِعِ قِصَصِ التَّارِيخِ ؛ فَإِنَّ قِصَّتَهُ لَا تَكُونُ أَدَباً مَهْمَا كَانَتْ مُثِيرَةً لِلْقُرَّاءِ مُؤَثِّرَةً فِي نُفُوسِهِمْ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُمَا عَرَضَا الوَاقِعَ أَوْ مَا يُشْبِهُهُ ... وَالوَاقِعُ لَا وُجُودَ حَقِيقِيًّا لَهُ ، وَكَذَلِكَ إِذَا عَبَّرَ الأَدِيبُ عَنْ شُعُورِهِ تَعْبِيراً صَادِقاً ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُعَدُّ أَدَباً لِأَنَّهُ شُعُورٌ وَاقِعِيٌّ ، وَهُمْ يُرِيدُونَ مِنَ الشَّاعِرِ أَنْ يُعَبِّرَ عَمَّا وَرَاءَ الوَاقِعِ .

وَعَلَىٰ هَذَا فَإِنَّ الرَّمْزِيِّينَ يَعْتَقِدُونَ بِأَنَّ العَالَمَ الَّذِي نَرَىٰ مَشَاهِدَهُ ، وَنَسْمَعُ أَصْوَاتَهُ ، وَنَتَذَوَّقُ طُعُومَهُ ، وَنَشُمُّ رَوَائِحَهُ ، وَنَلْمَسُ أَشْيَاءَهُ ، لَيْسَ هُوَ فِي الحَقِيقَةِ إِلَّا صُورَةً مُشَوَّهَةً لِلْعَالَمِ الحَقِيقِيِّ الَّذِي نَسْتَطِيعُ أَنْ نَسْتَشِفَّهُ مِنْ وَرَاءِ الحُجُبِ .

---

(١) بأمواهه : أي بمياهه .

فَأَنْتَ إِذَا نَظَرتَ إِلَىٰ الإِنْسَانِ رَأَيْتَ فِيهِ النَّقْصَ وَالسُّوءَ وَالرَّذِيلَةَ .

وَلَكِنَّكَ إِذَا تَعَمَّقْتَ فِي نَظْرَتِكَ إِلَيْهِ فَسَتَرَىٰ مِنْ خِلَالِ مَا وَجَدْتَهُ فِيهِ مِنْ نَوَاقِصَ كَيْفَ يَكُونُ الإِنْسَانُ الكَامِلُ .

وَإِذَا كُنْتَ أَدِيباً حَقًّا فَإِنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَرْمُزَ بِكِتَابَاتِكَ إِلَىٰ العَالَمِ الأَبَدِيِّ الكَامِلِ مِنْ خِلَالِ المَوْجُودَاتِ الخَارِجِيَّةِ النَّاقِصَةِ .

هَذَا ، وَإِنَّ الفَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الفَيْلَسُوفِ هُوَ أَنَّهُ يَبْذُلُ جَهْدَهُ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ عَالَمِ العَقْلِ وَالمَنْطِقِ ، أَمَّا أَنْتَ فَتَسْعَىٰ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ عَالَمِ الرُّوحِ وَالمُثُلِ ، أَوْ عَالَمِ « اللَّاشُعُورِ » .

وَهُوَ عَالَمٌ يَقُومُ عَلَىٰ أُمُورٍ لَا يُدْرِكُهَا الفَهْمُ ، وَلَا تَخْضَعُ لِلْعَقْلِ . وَالعَلَامَةُ الَّتِي تُمَكِّنُكَ مِنَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الشِّعْرِ الصَّحِيحِ وَغَيْرِ الصَّحِيحِ هِيَ أَنَّ الصَّحِيحَ هُوَ الَّذِي تَشْعُرُ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَفْهَمَهُ .

وَعَلَىٰ هَذَا فَإِنَّ اللُّغَةَ لَيْسَتْ وَسِيلَةً لِنَقْلِ المَعَانِي الوَاضِحَةِ ، وَالصُّوَرِ البَيِّنَةِ إِلَىٰ المُتَذَوِّقِ .

وَإِنَّمَا هِيَ وَسِيلَةٌ لِنَشْرِ العَدْوَىٰ ، وَنَقْلِ الحَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ مِنَ الكَاتِبِ إِلَىٰ القَارِئِ ، أَوِ الإِيحَاءِ بِهَا إِلَيْهِ بِعِبَارَةٍ أَصَحَّ .

د ـ المِيلَادُ الفِعْلِيُّ لِلرَّمْزِيَّةِ :

فِي سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ وَأَلْفٍ لِلْمِيلَادِ أَصْدَرَ عِشْرُونَ كَاتِباً فَرَنْسِيًّا بَيَاناً فِي جَرِيدَةِ « الفِيجَارُو » أَعْلَنُوا فِيهِ المِيلَادَ الفِعْلِيَّ لِلْمَدْرَسَةِ الرَّمْزِيَّةِ . وَقَالُوا فِي بَيَانِهِمُ الطَّوِيلِ الشَّامِلِ :

« إِنَّ الشِّعْرَ الرَّمْزِيَّ يَقُومُ عَلَىٰ إِلْبَاسِ الأَفْكَارِ المُجَرَّدَةِ أَثْوَاباً هِيَ الوَسِيلَةُ الوَحِيدَةُ القَادِرَةُ عَلَىٰ تَشْكِيلِ وِجْدَانِ القَارِئِ » .

وَعَلَىٰ هَذَا يُمْكِنُ القَوْلُ : إِنَّ جَمِيعَ الظَّوَاهِرِ المَادِيَّةِ فِي الكَوْنِ لَيْسَتْ غَيْرَ تَعْبِيرٍ مُجَسَّدٍ عَنِ الأَفْكَارِ المُجَرَّدَةِ الَّتِي لَمْ نَصِلْ إِلَىٰ كُنْهِهَا[1] بَعْدُ .

وَلَقَدْ تَأَثَّرَ المَذْهَبُ الرَّمْزِيُّ - إِلَىٰ حَدٍّ كَبِيرٍ - بِكُلٍّ مِنْ « بِرْجِسُون »[2] وَ« فرُويد »[3] اللَّذَيْنِ تَحَدَّثَا عَنِ العَقْلِ البَاطِنِ ، وَمَا يَصْطَخِبُ[4] فِي دَاخِلِهِ مِنْ إِحْسَاسَاتٍ شَتَّىٰ ، وَصِرَاعٍ دَائِمٍ مُتَنَوِّعٍ .

ثُمَّ إِنَّ الرَّمْزِيِّينَ يَذْهَبُونَ إِلَىٰ أَنَّ العَالَمَ خُلِقَ أَوَّلاً عَلَىٰ شَكْلٍ رُوحِيٍّ نَقِيٍّ ، ثُمَّ مَا فَتِئَ أَنْ خَلَعَ أَثْوَابَهُ الرُّوحِيَّةَ النَّقِيَّةَ ، وَارْتَدَىٰ بَدَلاً مِنْهَا الأَثْوَابَ المَادِيَّةَ الَّتِي يَعِيشُ بِهَا اليَوْمَ .

وَقَدْ نَادَىٰ الرَّمْزِيُّونَ بِنَظَرِيَّةِ إِدْرَاكِ الأَشْيَاءِ مِنْ خِلَالِ الحَوَاسِّ الخَمْسِ ، وَقَالُوا : إِنَّ الأَلْوَانَ ، وَالرَّوَائِحَ ، وَالأَصْوَاتَ ، تَتَدَاخَلُ وَتَتَجَاوَبُ ، وَتَتَعَاوَنُ ، وَبِذَلِكَ تَسْتَطِيعُ الحَوَاسُّ أَنْ تُوَلِّدَ عِنْدَ الإِنْسَانِ وَاقِعاً نَفْسِيًّا مُوَحَّداً .

---

(١) كُنْهِهَا : الكُنه هو جوهر الشيء وحقيقته وأصله وقدره .

(٢) هنري برجسون Henri Bergson: فيلسوفٌ فرنسيٌ ظفرَ بجائزة نوبل في الأَدب ، وتَعتمِدُ فلسفتُه عَلَىٰ الثنائية القائمةِ عَلَىٰ أَنَّ فِي العالم اتجاهيْن متضاربيْن ، همَا الحياةُ والمادَّة . من مؤلفاتِهِ « الزمنُ والإرادةُ الحرَّة » و« المادَّة والذَّاكرة » و« التطورُ الخلَّاق » و« الضَّحكُ » ، وقد نُقِلَ بعضُ كتبه إِلَىٰ العربية ، تُوفي سنة ١٩٤١م .

(٣) سيجموند فرُويد Sigmund Freud: طبيبٌ نمساويٌّ . أسَّسَ مدرسةَ التحليلِ النفسيِّ ، وهُوَ يرىٰ أن « الهستريَا » تعبيرٌ عضويٌّ عن صَدماتٍ مكبوتةٍ ، وصراعٌ نفسيٌّ لَا شعوريٌّ يرجعُ إِلَىٰ الطفولة ، ولقدْ سَخطَ أطباءُ الأمراضِ العقليةِ عليْه ، وانفضَّ عنهُ كثيرٌ ممن انْضمُّوا إِلَىٰ حركَتِهِ ، لضَعفِ ثِقَتِهِمْ بآرائِهِ ، وانعدَامِ إيمانهم بِهَا . ترَكَ عدَداً كبيراً من المقالاتِ والكُتُبِ ، ونُقِلَ كثيرٌ منْها إِلَىٰ العَربيةِ ، تُوفي سنة ١٩٣٩م .

(٤) يَصْطَخِب : يموج ويتلاطم فيه كموج البحر .

فَإِذَا أَرَادَ الشَّاعِرُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ حَالَةٍ مِنَ الحَالاَتِ فَلاَ بُدَّ لَهَا مِنْ أَنْ تَمْتَزِجَ عَبْرَ مُدْرَكَاتِهِ البَّصَرِيَّةِ ، وَالصَّوْتِيَّةِ ، وَالشَّمِّيَّةِ ، وَالذَّوْقِيَّةِ ، وَاللَّمْسِيَّةِ كُلِّهَا أَوْ جُلِّهَا .

وَكَمَا يَعْتَمِدُ الشِّعْرُ الرَّمْزِيُّ عَلَىٰ الصُّوَرِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا الخَيَالُ ، فَإِنَّهُ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ مُوسِيقَا الشِّعْرِ وَالإِيحَاءِ الصَّوْتِيِّ لِلأَلْفَاظِ وَالتَّرَاكِيبِ أَيْضاً .

هَذَا ، وَقَدْ أَخَذَتِ الرَّمْزِيَّةُ تَنْتَقِلُ مِنْ « فَرَنْسَا » إِلَىٰ أَقْطَارِ « أُورُبَّا » عَامَّةً وَإِلَىٰ « إِنْكِلْتَرَا » خَاصَّةً .

وَلَقَدْ أَدْخَلَ عَلَيْهَا بَعْضُ الأُدَبَاءِ فِي « إِنْكِلْتَرَا » ضَرْباً مِنَ التَّجْدِيدِ ، حَيْثُ صَبَغُوهَا بِالصِّبْغَةِ الصُّوفِيَّةِ المُنْتَشِرَةِ عِنْدَهُمْ ، وَطَفِقَ شُعَرَاؤُهُمْ يُحَوِّلُونَ الشِّعْرَ الرَّمْزِيَّ إِلَىٰ صَلاَةٍ خَاشِعَةٍ تَنْتَشِي بِهَا النُّفُوسُ الهَائِمَةُ .

وَقَدْ أَدَّتْ هَذِهِ المَدْرَسَةُ « الإِنْكِلِيزِيَّةُ » إِلَىٰ ظُهُورِ كَثِيرٍ مِنَ المَدَارِسِ المُنْبَثِقَةِ عَنِ الرَّمْزِيَّةِ ، وَذَلِكَ كَالسِّرْيَالِيَّةِ ، وَالتَّجْرِيدِيَّةِ ، وَالتَّعْبِيرِيَّةِ .

وَبَعْدُ ، فَيَجْدُرُ بِنَا أَنْ نَخْتِمَ هَذَا المَوْضُوعَ بِعَرْضِ إِحْدَىٰ القَصَائِدِ الرَّمْزِيَّةِ ، وَذَلِكَ لإِيضَاحِ المَسْلَكِ الَّذِي يَسْلُكُهُ الرَّمْزِيُّونَ فِي قَرْضِ الشِّعْرِ ، وَالوُقُوفِ عَلَىٰ القَوَاعِدِ الَّتِي يَتَبَنَّوْنَهَا فِي هَذَا المَجَالِ .

وَقَدِ اخْتَرْنَا لِهَذَا الغَرَضِ قَصِيدَةً قَالَهَا الشَّاعِرُ « سِتِيفَانْ مَالاَرْمِيه » وَنَقَلَهَا إِلَىٰ العَرَبِيَّةِ الدُّكْتُور مُحَمَّدُ مَنْدُورٍ ، وَهِيَ :

« لَقَدْ طَرَدَ الرَّبِيعُ الشَّاحِبُ فِي حُزْنِ الشِّتَاءِ ... الضَّاحِي ، وَفِي جِسْمِي الَّذِي يُسَيْطِرُ عَلَيْهِ الدَّمُ القَاتِمُ يَتَمَطَّىٰ الفَجْرُ فِي تَثَاؤُبٍ طَوِيلٍ ...

إِنَّ شَفَقاً أَبْيَضَ يَبْرُدُ تَحْتَ جُمْجُمَتِي الَّتِي تَعْصِبُهَا حَلَقَةٌ مِنْ حَدِيدٍ ، وَكَأَنَّهَا قَبْرٌ قَدِيمٌ ...

وَأَهِيمُ حَزِيناً خَلْفَ حُلْمٍ غَامِضٍ جَمِيلٍ ...

خِلَالَ الحُقُولِ الَّتِي يَزْدَهِرُ بِهَا عَصِيرٌ لَا نِهَايَةَ لَهُ

ثُمَّ أَخِرُّ مَنْهُوكَ العَصَبِ بِعِطْرِ الأَشْجَارِ ...

وَأَحْفِرُ بِرَأْسِي قَبْراً لِحُلْمِي

وَأَعَضُّ الأَرْضَ السَّاخِنَةَ الَّتِي تُنْبِتُ النَّرْجِسَ

وَأَغُوصُ مُنْتَظِراً أَنْ يَنْهَضَ عَنِّي المَلَلُ

وَمَعَ ذَلِكَ فَزُرْقَةُ السَّمَاءِ تَبْتَسِمُ فَوْقَ سِيَاجِ الشَّجَرِ المُسْتَيْقِظِ

حَيْثُ تُرَفْرِفُ العَصَافِيرُ كَالزَّهْرِ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ » .

فَالشَّاعِرُ يُعَبِّرُ فِي القَصِيدَةِ عَنْ نَفْسِهِ المَكْدُودَةِ ، وَيُصَوِّرُ مَشَاعِرَهُ المُتْعَبَةَ الَّتِي أَضْنَاهَا العَنَاءُ وَأَنْهَكَهَا المَلَلُ .

وَهُوَ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ الرَّمْزِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ تِلْكَ المَشَاعِرِ ، فَتَارَةً يُصَوِّرُ لَكَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مِنَ انْسِجَامٍ ، وَأُخْرَىٰ يُبْرِزُ لَكَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مِنْ صِدَامٍ ، وَالشِّعْرُ ـ كَمَا رَأَيْتَ ـ غَامِضٌ مُتَنَاقِضٌ .

وَالسَّبَبُ فِي غُمُوضِهِ وَتَنَاقُضِهِ تِلْكَ الِاحْتِمَالَاتُ المُخْتَلِفَةُ الَّتِي تَكْمُنُ خَلْفَ الرُّمُوزِ المُتَنَاقِضَةِ ، وَتُفْلِتُ مِنْ قَبْضَةِ العَقْلِ الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَىٰ الوُضُوحِ وَالدِّقَّةِ ، وَيَسْلُكُ السَّبِيلَ الجَامِعَ لِعَنَاصِرِ الفِكْرَةِ المَانِعَ مِمَّا يُنَاقِضُهَا .

وَلِيَتَّضِحَ لَكَ ذَلِكَ الَّذِي أَسْلَفْنَاهُ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ أَنْ تَسْتَعِيدَ مَا وَرَدَ فِي القَصِيدَةِ مِنَ المَعَانِي وَالصُّوَرِ.

فَالرَّبِيعُ عِنْدَ الشَّاعِرِ شَاحِبٌ، وَالفَجْرُ مُتَثَائِبٌ، وَالشَّفَقُ بَارِدٌ...

وَجُمْجُمَةُ الشَّاعِرِ كَأَنَّهَا قَبْرٌ قَدِيمٌ...

وَهُوَ يَهِيمُ حَزِيناً خَلْفَ حُلْمٍ جَمِيلٍ...

وَأَعْصَابُهُ مَنْهُوكَةٌ بِعِطْرِ الأَشْجَارِ؛ وَلِذَلِكَ فَهُوَ يَعَضُّ الأَرْضَ السَّاخِنَةَ الَّتِي تُنْبِتُ النَّرْجِسَ.

* * *

نَظْرَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ فِي الرَّمْزِيَّةِ

أَوَّلاً : لَقَدِ انْبَثَقَتِ الرَّمْزِيَّةُ عَنْ نَظَرِيَّةِ المُثُلِ عِنْدَ أَفْلَاطُونَ ، وَنَادَتْ بِأَنَّ عَقْلَ الإِنْسَانِ الظَّاهِرَ الوَاعِيَ مَحْدُودٌ ضَيِّقٌ ، وَأَنَّهُ يَمْلِكُ عَقْلاً غَيْرَ وَاعٍ أَرْحَبَ مِنْ عَقْلِهِ الوَاعِي بِعَشَرَاتِ المَرَّاتِ وَأَحْفَلَ .

وَالإِسْلَامُ يَرْفُضُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ أَشَدَّ الرَّفْضِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الكِتَابَ العَزِيزَ قَدْ حَفِلَ أَشَدَّ الاحْتِفَالِ بِالعَقْلِ الوَاعِي ، وَدَعَا إِلَىٰ الاعْتِمَادِ عَلَيْهِ ، وَالِاسْتِنَارَةِ بِهِ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ الحَقَائِقِ ، فَقَالَ تَعَالَىٰ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ، فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ؛ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الأَبْصَارُ ، وَلَـٰكِنْ تَعْمَىٰ القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[1].

كَمَا حَذَّرَ القُرْآنُ الكَرِيمُ الإِنْسَانَ المُتَعَقِّلَ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَوَّالاً غَيْرَ فَعَّالٍ ، فَيَأْمُرَ النَّاسَ بِالخَيْرِ وَلَا يَأْتِيَهُ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الشَّرِّ وَيَقَعَ فِيهِ ؛ فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2].

ثُمَّ إِنَّ الإِسْلَامَ وَجَّهَ الإِنْسَانَ إِلَىٰ اسْتِعْمَالِ العَقْلِ فِي النَّظَرِ إِلَىٰ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، وَحَضَّهُ عَلَىٰ اسْتِخْدَامِ ذَلِكَ الجَوْهَرِ الثَّمِينِ فِي إِدْرَاكِ آلَاءِ اللَّهِ

---

(١) سورة الحج : ٤٦.

(٢) سورة البقرة : ٤٤.

تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ، وَإِمْعَانِ النَّظَرِ فِي نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَىٰ وَلَا تُعَدُّ ، وَبَنَىٰ ذَٰلِكَ عَلَىٰ قَوْلِهِ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

ثَانِياً : وَلَقَدْ نَادَىٰ الرَّمْزِيُّونَ بِأَنَّ العَالَمَ الخَارِجِيَّ الوَاقِعِيَّ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ مَجَالاً لِلشِّعْرِ .

وَالْأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ يُنَاقِضُ هَذِهِ الدَّعْوَةَ وَيُنَاهِضُهَا ، وَيَدْعُو الْأُدَبَاءَ الإِسْلَامِيِّينَ إِلَىٰ أَنْ يَجْعَلُوا أَدَبَهُمْ رَحْبَ الآفَاقِ بِحَيْثُ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ الكَوْنِ بَرِّهِ وَبَحْرِهِ ، وَأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ ، كَمَا يَشْتَمِلُ عَلَىٰ الطَّبِيعَةِ بِرَبِيعِهَا الجَمِيلِ ، وَشِتَائِهَا العَاصِفِ ، وَرِيَاضِهَا الغَنَّاءِ ، وَمُرُوجِهَا الخُضْرِ ، وَطَيْرِهَا السَّابِحِ ، وَحَيَوَانِهَا السَّارِحِ ، وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ .

ثَالِثاً : ثُمَّ إِنَّ الرَّمْزِيِّينَ قَالُوا ـ فِي جُمْلَةِ مَا قَالُوهُ ـ : إِنَّ الأَدِيبَ إِذَا عَرَضَ قِصَّةً مِنْ رَوَائِعِ قِصَصِ التَّارِيخِ فَإِنَّ قِصَّتَهُ هَذِهِ لَا تَدْخُلُ فِي رِحَابِ الْأَدَبِ مَهْمَا كَانَتْ مُثِيرَةً لِلقُرَّاءِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهَا قَامَتْ عَلَىٰ عَرْضِ الوَاقِعِ ، وَالوَاقِعُ لَا يَتَّسِمُ بِالوُجُودِ الحَقِيقِيِّ عِنْدَنَا .

وَالقُرْآنُ الكَرِيمُ وَالحَدِيثُ الشَّرِيفُ حَفَلَا بِالقِصَصِ الوَاقِعِيَّةِ الَّتِي لَا يَأْتِيهَا البَاطِلُ .

فَفِي الكِتَابِ العَزِيزِ نَحْوٌ مِنْ خَمْسِينَ قِصَّةً ، وَفِي الحَدِيثِ الشَّرِيفِ قَرِيبٌ مِن مِائَةٍ وَخَمْسِينَ قِصَّةً .

---

(١) سورة الروم : ٢٤.

وَهَٰذِهِ القِصَصُ لَمْ تُعْرَضْ لِلتَّسْلِيَةِ وَسَدِّ الفَرَاغِ ، وَإِنَّمَا عُرِضَتْ لِتَحْقِيقِ غَرَضٍ مِنْ أَنْبَلِ الأَغْرَاضِ .

وَفِي قِمَّةِ مَا هَدَفَتْ إِلَيْهِ بَثُّ رُوحِ الإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي نُفُوسِ القُرَّاءِ ، وَالانْتِصَارُ لِلْخَيْرِ فِي صِرَاعِهِ مَعَ الشَّرِّ ، وَمَا إِلَىٰ ذَٰلِكَ مِنَ الأَغْرَاضِ الجَلِيلَةِ النَّبِيلَةِ .

رَابِعاً : ثُمَّ إِنَّ الرَّمْزِيِّينَ يَرَوْنَ أَنَّ اللُّغَةَ لَيْسَتْ وَسِيلَةً لِنَقْلِ المَعَانِي الوَاضِحَةِ ، وَعَرْضِ الصُّوَرِ البَيِّنَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ وَسِيلَةٌ لِنَقْلِ العَدْوَىٰ مِنَ الكَاتِبِ إِلَىٰ القَارِئِ .

وَالأَدِيبُ الإِسْلَامِيُّ يَدِينُ بِأَنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ هُوَ كِتَابُ العَرَبِيَّةِ الأَكْبَرُ ، وَأَنَّ الحَدِيثَ الشَّرِيفَ يَحْتَلُّ مَنْزِلَةً وَسَطاً بَيْنَ كَلَامِ الخَالِقِ وَكَلَامِ المَخْلُوقَاتِ .

وَأَنَّ هَذَيْنِ المَصْدَرَيْنِ الكَبِيرَيْنِ لَيْسَا وَسِيلَتَيْنِ لِنَقْلِ العَدْوَىٰ إِلَىٰ القَارِئِ ، وَإِنَّمَا هُمَا وَسِيلَتَانِ إِلَىٰ إِرْشَادِهِ وَتَوْجِيهِهِ ، وَأَدَاتَانِ لِوَضْعِ قَوَاعِدِ حَيَاتِهِ الخَاصَّةِ وَالعَامَّةِ .

* * *

سَابعاً : الْوُجُودِيَّةُ Existentialism

الْوُجُودِيَّةُ مَذْهَبٌ فَلْسَفِيٌّ أَدَبِيٌّ يَقْصِرُ وُجُودَ الإِنْسَانِ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ اليَقِينِيَّةِ الوَحِيدَةِ الَّتِي نَادَىٰ بِهَا « دِيكَارْتُ »[1]، وَهِيَ تَقُولُ :

« أَنَا أُفَكِّرُ فَإِذاً أَنَا مَوْجُودٌ » وَبِذَلِكَ يَنْحَصِرُ الْوُجُودُ اليَقِينِيُّ لِلإِنْسَانِ فِي تَفْكِيرِهِ الذَّاتِيِّ الَّذِي لَا يُوجَدُ شَيْءٌ سَابِقٌ لَهُ ، أَوْ خَارِجٌ عَلَيْهِ .

وَعَلَىٰ هَذَا فَإِنَّهُ لَا يُوجَدُ عِنْدَ الإِنْسَانِ إِلَهٌ يُعْبَدُ ، كَمَا لَا تُوجَدُ عِنْدَهُ مُثُلٌ مُتَوَارَثَةٌ ، أَوْ قِيَمٌ أَخْلَاقِيَّةٌ لَهَا صِفَةُ اليَقِينِ .

وَإِنَّ كُلَّ مَا يَتَنَاقَلُهُ النَّاسُ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ ، وَمَا يَتَوَارَثُونَهُ مِنْ قِيَمٍ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ تُرَاثاً بَالِياً يَجْدُرُ بِالإِنْسَانِيَّةِ أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنْهُ ، وَأَنْ تَنْعَتِقَ مِنْ إِسَارِهِ ، حَتَّىٰ يَتَمَكَّنَ الإِنْسَانُ مِنَ الانْطِلَاقِ فِي دُرُوبِ الحَيَاةِ حُرًّا قَادِراً عَلَىٰ أَنْ يُحَقِّقَ ذَاتَهُ ، وَيُمَارِسَ وجُودَهُ ، وَيَغْدُوَ سَيِّدَ نَفْسِهِ .

وَبِنَاءً عَلَىٰ مَا تَقَدَّمَ دَانَ الْوُجُودِيُّونَ وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ « سَارْتَر »[2] بِأَنَّ الإِلَهَ لَيْسَ خُرَافَةً فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا هُوَ خُرَافَةٌ ضَارَّةٌ .

---

(١) رينه دِيكارت Rene Descartes: فيلسوفٌ فرنسيٌّ ظهرَ بكتابِهِ : « مقَالة الطَّريقَةِ » الذي كانَ له الأثرُ البليغُ في الفكرِ الغربيِّ ، وفيه مَبدؤه المعروفُ « أنَا أفكرُ إذًا أنَا موجودٌ » وهو مصدرُ الفلسفةِ الحديثةِ ، نُقل « مقالةُ الطريقةِ » إِلَىٰ العربيةِ جميل صليبا ، تُوفي ديكارت سنة ١٦٥٠م .

(٢) جان بولْ سَارْتَر Jean Paul Sartre: فيلسوفٌ وأديبٌ فرنسيٌّ معاصِرٌ، اقترنتِ الفلسفةُ الوجوديةُ باسمِهِ . أنشأَ مجلةَ « العصورُ الحديثةُ » الَّتي تتضمَّنُ أبحاثًا وجوديةً في الأدَبِ ، أهمُّ مؤلفاتِهِ « الوجود والعدم » ومن رواياتِهِ « الغثَيان » ومِنْ مسرحياتِهِ « الفاضِلةُ » و« موتَىٰ بلا مَدفَنٍ » وَ« الذُّبابُ » . وُلد سنة ١٩٠٥م .

كَمَا أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ « نِيتْشَه »[1] مِنْ أَنَّ الأَخْلَاقَ لَيْسَتْ إِلَّا خُرَافَاتٍ اخْتَرَعَهَا الضُّعَفَاءُ لِيَتَّقُوا بِهَا سَطْوَةَ الأَقْوِيَاءِ فِي مَعْرَكَةِ الحَيَاةِ .

لَكِنَّ الْوُجُودِيَّةَ بَعْدَ أَنْ تَخَلَّصَتْ مِنَ التُّرَاثِ الأَخْلَاقِيِّ المُتَوَارَثِ ، وَبَعْدَ أَنْ رَفَضَتِ المَبَادِئَ الَّتِي وَضَعَتْهَا الرِّسَالَاتُ السَّمَاوِيَّةُ لِلحَيَاةِ ، وَجَدَتْ نَفْسَهَا مُحْتَاجَةً لِأَنْ تَبْحَثَ لِلإِنْسَانِ عَنْ هَدَفٍ يَعِيشُ مِنْ أَجْلِهِ ، وَغَايَةٍ يُحَقِّقُهَا فِي حَيَاتِهِ ؛ فَقَرَّرَتْ أَنَّ هَدَفَ الإِنْسَانِ وَغَايَتَهُ يَتَمَثَّلَانِ فِي تَحْقِيقِ الوُجُودِ ذَاتِهِ .

وَيَتِمُّ ذَلِكَ بِمُمَارَسَةِ الحَيَاةِ الفَرْدِيَّةِ بِحُرِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ ، ثُمَّ التَّضَامُنِ مَعَ أَفْرَادِ البَشَرِ ؛ لِأَنَّ حَيَاتَهُ مُرْتَبِطَةٌ بِحَيَاتِهِمْ مُؤَثِّرَةٌ فِيهَا .

وَبِنَاءً عَلَىٰ مَا تَقَدَّمَ أَصْبَحَ عَلَىٰ كُلِّ وُجُودِيٍّ أَنْ يُصْدِرَ حُكْماً صَرِيحاً عَلَىٰ كُلِّ حَادِثَةٍ مِنَ الحَوَادِثِ ، وَأَنْ يَكُونَ حُكْمُهُ عَلَيْهَا حُرًّا صَادِراً عَنْ تَقْدِيرِهِ الشَّخْصِيِّ ، غَيْرَ مُسْتَنِدٍ إِلَىٰ أَيِّ قِيمَةٍ سَابِقَةٍ .

وَلَقَدْ نَادَىٰ « سَارْتَر » بِأَنَّ الْوُجُودِيَّةَ تَقُومُ عَلَىٰ ثَلَاثِ دِعَامَاتٍ هِيَ :

الحُرِّيَّةُ ...

وَالمَسْئُولِيَّةُ ...

وَالِالْتِزَامُ ...

وَقَدْ نَتَجَ عَنْ هَذِهِ العَنَاصِرِ الثَّلَاثَةِ ثَلَاثُ مُشْكِلَاتٍ ، أَوْ ثَلَاثَةُ مَشَاعِرَ هِي :

القَلَقُ ...

وَالهِجْرَانُ ...

---

(١) فِردرِكُ نِيتْشه : « سبقت ترجمته » .

وَاليَأْسُ ...

أَمَّا القَلَقُ فَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ بِالنِّسْبَةِ لِإِنْسَانٍ لَا يَسْتَنِدُ فِي حَيَاتِهِ وَمُشْكِلَاتِهِ إِلَىٰ إِلَهٍ يَرْجِعُ إِلَيْهِ وَيَعْتَمِدُ عَلَيْهِ .

وَلَا يُؤْمِنُ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ يَتْرُكُ لَهُمَا التَّصَرُّفَ فِي شُئُونِهِ .

وَلَا يَدِينُ بِضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ القِيَمِ الأَخْلَاقِيَّةِ وَالسُّلُوكِيَّةِ الَّتِي وَرِثَهَا عَنْ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ .

وَأَمَّا الهِجْرَانُ فَهُوَ نَاجِمٌ عَنْ إِحْسَاسِهِ بِأَنَّهُ وَحِيدٌ لَا عَوْنَ لَهُ غَيْرَ نَفْسِهِ ، وَلَا سَنَدَ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ سِوَىٰ ذَاتِهِ ، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَمَّلَ بِسَبَبِ ذَلِكَ أَفْدَحَ المَسْئُولِيَاتِ ، وَأَنْ يُنْقِذَ نَفْسَهُ مِنَ الغَرَقِ بَعْدَ أَنْ أَلْقَاهَا فِي هَذَا البَحْرِ اللُّجِّيِّ .

وَأَمَّا اليَأْسُ فَقَدْ كَانَ نَتِيجَةً طَبِيعِيَّةً لِلْقَلَقِ وَالهِجْرَانِ ، وَأَثَراً حَتْمِيًّا مِنْ آثَارِهِمَا .

وَلَقَدْ رَأَىٰ « سَارْتَر » خَطَرَ اليَأْسِ عَلَىٰ نُفُوسِ مُرِيدِيهِ ؛ فَعَالَجَ ذَلِكَ بِأَنْ جَعَلَ لِلْوُجُودِ هَدَفاً يَعِيشُونَ مِنْ أَجْلِهِ هُوَ العَمَلُ ، وَحَضَّ عَلَيْهِ ، وَنَادَىٰ بِأَنَّهُ غَايَةٌ فِي ذَاتِهِ ، وَلَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يَكُونَ وَسِيلَةً لِتَحْقِيقِ أَيِّ غَرَضٍ مِنَ الأَغْرَاضِ أَوْ بُلُوغِ أَيِّ غَايَةٍ مِنَ الغَايَاتِ ؛ فَحَسْبُ الوُجُودِيِّ أَنْ يَعِيشَ لِيَعْمَلَ ، وَأَنْ يَلْقَىٰ جَزَاءَهُ فِي العَمَلِ نَفْسِهِ لَا فِيمَا يَنَالُهُ مِنْ ثَمَرَاتِهِ .

وَبِذَلِكَ يُصْبِحُ كَالصَّائِدِ الَّذِي يَجِدُ لَذَّتَهُ فِي الصَّيْدِ نَفْسِهِ لَا فِيمَا يَجْنِيهِ مِنْهُ .

وَلَقَدْ كَتَبَ « سَارْتَر » عَدَداً مِنَ المَسْرَحِيَّاتِ الَّتِي وَازَنَ فِيهَا بَيْنَ الإِنْسَانِ الْوُجُودِيِّ وَغَيْرِ الْوُجُودِيِّ .

فَأَشَادَ بِالأَوَّلِ ، وَأَعْلَىٰ مِنْ شَأْنِهِ ، وَأَظْهَرَهُ بِمَظْهَرِ الإِنْسَانِ المُتَفَوِّقِ الَّذِي تَحَرَّرَ مِنَ القُيُودِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الثَّقِيلَةِ ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَنْهَضَ بِالمَسْئُولِيَاتِ العُظْمَىٰ تُجَاهَ نَفْسِهِ وَمُجْتَمَعِهِ .

أَمَّا الثَّانِي فَخَلَعَ عَلَيْهِ صِفَاتِ الشَّخْصِ الضَّعِيفِ المُتَرَدِّدِ الجَبَانِ الَّذِي أَثْقَلَتْهُ التَّقَالِيدُ المَوْرُوثَةُ ، وأَنْهَكَتْهُ العَادَاتُ وَالإِلْتِزَامَاتُ المُتَعَارَفَةُ مِمَّا جَعَلَ الأَوَّلَ يَحْظَىٰ بِإِعْجَابِ النَّظَّارَةِ وَجَعَلَ الثَّانِيَ يَسْقُطُ فِي عُيُونِهِمْ .

* * *

نَظْرَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ فِي الْوُجُودِيَّةِ

لَيْسَ بَيْنَ المَذَاهِبِ الأَدَبِيَّةِ الَّتِي وَقَفْنَا عَلَيْهَا ، وَالَّتِي لَمْ نَقِفْ عَلَيْهَا مَذْهَبٌ أَشَدُّ عَدَاوَةً لِلأَدْيَانِ ، وَأَقْوَىٰ عُنْفاً فِي مُكَافَحَتِهَا ، وَالحَظُّ مِنْ شَأْنِهَا مِنَ الْوُجُودِيَّةِ .

وَسَنُلْقِي بَعْضَ الأَضْوَاءِ عَلَىٰ نَظْرَةِ الإِسْلَامِ إِلَىٰ هَذَا المَذْهَبِ الَّذِي تَعَلَّقَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الشَّبَابِ ، فَأَفْسَدَ دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ .

أَوَّلاً : الْوُجُودِيَّةُ مَذْهَبٌ هَدَّامٌ ، وَآيَةُ هَدْمِهِ أَنَّهُ يَدْعُو الإِنْسَانَ إِلَىٰ القَضَاءِ عَلَىٰ الجُهُودِ الَّتِي بَذَلَتْهَا الْبَشَرِيَّةُ عَبْرَ تَارِيخِهَا الطَّوِيلِ لِلارْتِقَاءِ بِالشَّخْصِيَّةِ الإِنْسَانِيَّةِ مِنْ طَوْرِ الإِبَاحِيَّةِ وَالحَيَوَانِيَّةِ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الكَائِنِ السَّوِيِّ الَّذِي تَنْشُدُهُ الرِّسَالَاتُ السَّمَاوِيَّةُ بِعَامَّةٍ وَالإِسْلَامُ بِخَاصَّةٍ .

ثَانِياً : ثُمَّ إِنَّ أَتْبَاعَ هَذَا المَذْهَبِ يَرَوْنَ أَنَّ الْوُجُودَ الحَقِيقِيَّ لِلإِنْسَانِ لَا يَتِمُّ إِلَّا إِذَا أَطْلَقَ العِنَانَ لِرَغَبَاتِهِ ، وَأَفْسَحَ المَجَالَ أَمَامَ شَهَوَاتِهِ ، غَيْرَ مُتَقَيِّدٍ بِدِينٍ أَوْ عُرْفٍ أَوْ سُلُوكٍ .

وَالأَدْيَانُ السَّمَاوِيَّةُ ، وَعَلَىٰ رَأْسِهَا الإِسْلَامُ تَحُضُّ الإِنْسَانَ عَلَىٰ السَّيْطَرَةِ عَلَىٰ رَغَبَاتِهِ ، وَشَهَوَاتِهِ ، وَأَطْمَاعِهِ ، وَتَوْجِيهِهَا وِجْهَةً تَنْفَعُ الفَرْدَ ، وَتَنْهَضُ بِالمُجْتَمَعِ .

فَهِيَ لَمْ تُغْلِقْ فِي وَجْهِ الإِنْسَانِ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ المُحَرَّمَاتِ إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ المُبَاحَاتِ ؛ فَهِيَ حِينَ حَرَّمَتْ عَلَيْهِ الرِّبَا أَبَاحَتْ لَهُ الكَسْبَ الحَلَالَ

عَنْ طَرِيقِ التِّجَارَةِ وَغَيْرِهَا .

وَحِينَ حَرَّمَتْ عَلَيْهِ غَصْبَ أَمْوَالِ النَّاسِ وَأَكْلَهَا بِالبَاطِلِ أَبَاحَتْ لَهُ التَّمَلُّكَ .

وَحِينَ حَرَّمَتْ عَلَيْهِ الزِّنَا أَبَاحَتْ لَهُ الزَّوَاجَ وَدَعَتْهُ إِلَيْهِ وَحَضَّتْهُ عَلَيْهِ .

ثَالِثاً : وَالْوُجُودِيُّونَ يُنَادُونَ بِأَنَّهُ لَا جَبْرَ لِلأَشْخَاصِ ، وَلَا إِلْزَامَ لَهُمْ ، وَلَا دِينَ يَحْكُمُهُمْ ، وَلَا سُلْطَةَ يَخْضَعُونَ لَهَا سِوَىٰ سُلْطَةِ الضَّمِيرِ .

وَقَدْ فَاتَهُمْ أَنَّ الضَّمَائِرَ تَخْتَلِفُ مِنْ إِنْسَانٍ إِلَىٰ إِنْسَانٍ ، وَتَتَبَدَّلُ مِنْ حِينٍ إِلَىٰ آخَرَ .

وَأَنَّ العُقُولَ قَد تَرَىٰ الخَيْرَ شَرًّا ، وَالمُنْكَرَ مَعْرُوفاً ، وَأَنَّ الحُكْمَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ .

رَابِعاً : ثُمَّ إِنَّ الْوُجُودِيَّةَ تَدْعُو كُلَّ فَرْدٍ مِنْ مُعْتَنِقِيهَا إِلَىٰ التَّخَلُّصِ مِنَ القِيَمِ المُتَوَارَثَةِ ... البَالِيَةِ ، وَإِبْدَاعِ قِيَمٍ جَدِيدَةٍ يَخْتَارُهَا الإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ بِنَفْسِهِ وَيَلْتَزِمُ بِهَا .

وَذَلِكَ سَيَبْتَدِعُ لِلوُجُودِيِّينَ آلَافَ القِيَمِ ، وَسَيُمَزِّقُهُمْ شَرَّ مُمَزَّقٍ .

وَالإِسْلَامُ يُلْزِمُ المُسْلِمِينَ بِأَحْكَامٍ رَبَّانِيَةٍ ثَابِتَةٍ رَاسِخَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ أُسُسُهَا وَلَا تَتَبَدَّلُ ، وَكُلُّ مَا يُضَافُ إِلَيْهَا هُوَ مَا يَجِدُّ فِي الحَيَاةِ مِنْ أُمُورٍ يَعْتَمِدُ المُسْلِمُ فِي مُعَالَجَتِهَا عَلَىٰ المَصَالِحِ المُرْسَلَةِ .

خَامِساً : وَلَعَلَّ أَخْطَرَ مَا فِي هَذَا المَذْهَبِ هُوَ أَنَّ كَثِيراً مِنَ الشَّبَابِ المُنْحَلِّينَ وَجَدُوا فِيهِ سَنَداً فَلْسَفِيًّا يُسَوِّغُ انْحِلَالَهُمْ وَيُفَلْسِفُهُ ؛ فَانْطَلَقُوا فِي

دُرُوبِ الرَّذِيلَةِ مُجاهِرِينَ غَيْرَ هَيَّابِينَ .

وَقَدْ كَانَ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يَخْجَلُوا مِنَ النَّاسِ لَوْلَا احْتِمَاؤُهُمْ بِهَذِهِ الفَلْسَفَةِ .

وَالَّذِي يَرَىٰ جُمُوعَهُمْ فِي « سَانْ جِرمَان » فِي « بَارِيسَ » ، وَهُمْ يَسْكَرُونَ وَيَخْمُرُونَ ، وَيَأْتُونَ الفَوَاحِشَ تَحْتَ حِمَايَةِ الدَّوْلَةِ وَعَلَىٰ مَلأٍ مِنَ النَّاسِ يَأْخُذُهُ العَجَبُ العُجَابُ .

وَالإِسْلَامُ يَحْرِصُ أَشَدَّ الحِرْصِ عَلَىٰ الشَّبَابِ ، وَالرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَحُضُّهُمْ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَحَادِيثِهِ عَلَىٰ مَا فِيهِ سَعَادَتُهُمْ فِي الدَّارَيْنِ .

فَيَقُولُ : (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ[١] فَلْيَتَزَوَّجْ ...)[٢].

وَيَقُولُ : (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ...)[٣].

سَادِساً : وَالْوُجُودِيَّةُ تَقْصِرُ وُجودَ الإِنْسَانِ عَلَىٰ المَرْحَلَةِ الَّتِي تَبْدَأُ بِسَاعَةِ المِيلَادِ ، وَتَنْتَهِي بِضَجْعَةِ القَبْرِ ، وَلِذَا كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُقْبِلَ عَلَىٰ مُتَعِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا أَشَدَّ الإِقْبَالِ ، وَأَنْ يَعُبَّ مِنْهَا عَبًّا .

وَالمُسْلِمُ يَدِينُ بِأَنَّ الدُّنْيَا لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ سَبِيلاً إِلَىٰ الآخِرَةِ ...

﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾[٤].

* * *

---

(١) الباءةُ : النكاحُ ، والأصل فيه المنزلُ ، ثم استعمِلَ في التزويجِ لأنَّ من تزوَّج امرأة بوَّأها منزلاً تسكنُ فيه .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه الترمذي .

(٤) آل عمران : ١٨٥.

المَذْهَبُ الأَدَبِيُّ الَّذِي نَسْعَىٰ لَهُ

١ ـ حَاجَتُنَا إِلَىٰ مَذْهَبٍ أَدَبِيٍّ

فِي العَالَمِ الَّذِي نَحْيَا فِيهِ اليَوْمَ تَيَّارَانِ اجْتِمَاعِيَّانِ كَبِيرَانِ يَسْعَىٰ كُلٌّ مِنْهُمَا جَاهِداً لِبَسْطِ نُفُوذِهِ عَلَىٰ المَعْمُورَةِ وَمُقَاوَمَةِ نُفُوذِ التَّيَّارِ الآخَرِ...

هَذَانِ التَّيَّارَانِ هُمَا: تَيَّارُ «الاشْتِرَاكِيَةِ» الَّذِي يَرْفَعُ لِوَاءَهُ «الاتِّحَادُ السُّوفْيِتِيُّ» وَ«الصِّينُ الشَّعْبِيَّةُ»، وَتَيَّارُ «الرَّأْسِمَالِيَةِ» الَّذِي تَقُودُهُ «الوِلَايَاتُ المُتَّحِدَةُ الأَمْرِيكِيَةُ» وَدُوَلُ أُورُبَّا الغَرْبِيَّةِ.

ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ هَذَيْنِ التَّيَّارَيْنِ الاجْتِمَاعِيَّيْنِ الكَبِيرَيْنِ طَائِفَةٌ مِنَ الاتِّجَاهَاتِ الفِكْرِيَّةِ وَالفَلْسَفِيَّةِ وَالأَدَبِيَّةِ، ظَهَرَتْ فِي أُورُبَّا الغَرْبِيَّةِ وَأَمْرِيكَا أَكْثَرَ مِنْ ظُهُورِهَا فِي «الاتِّحَادِ السُّوفْيِتِيِّ»، لِمَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الفَرْدُ مِنْ حُرِّيَّاتٍ حُرِمَ مِنْهَا مُوَاطِنُو «الاتِّحَادِ السُّوفْيِتِيِّ».

وَأَبْرَزُ هَذِهِ الاتِّجَاهَاتِ الفِكْرِيَّةِ هِيَ: الوُجُودِيَّةُ، Existentialism، وَالطَّبِيعِيَّةُ Naturalism، وَالوَاقِعِيَّةُ Realism، وَالفَنِّيَّةُ Arbism، وَالرَّمْزِيَّةُ Symbolism.

وَلَقَدْ عَمَدَتْ هَذِهِ الاتِّجَاهَاتُ الاجْتِمَاعِيَّةُ وَالفِكْرِيَّةُ إِلَىٰ الأَدَبِ؛ فَاتَّخَذَتْ مِنْهُ سِلَاحاً تُنَاضِلُ بِهِ عَنْ نَفْسِهَا، وَمِنْبَراً تُعْلِنُ مِنْ فَوْقِهِ مَبَادِئَهَا وَأَهْدَافَهَا، وَمِثَالاً تَصُوغُ عَلَىٰ غِرَارِهِ أَبْنَاءَهَا وَمُؤَيِّدِيهَا حَتَّىٰ قَالَ «سْتَالِينُ» عَنِ الأُدَبَاءِ:

« إِنَّهُمْ مُهَنْدِسُو الْبَشَرِيَّةِ »[1].

وَلَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ عَلَىٰ خَطَأٍ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنَ اعْتِمَادِهِمْ عَلَىٰ الْأَدَبِ فِي نَشْرِ مَبَادِئِهِمْ وَالتَّرْوِيجِ لِمَذَاهِبِهِمْ ، فَلِلْكَلِمَةِ سِحْرُهَا الَّذِي لَا يُقَاوَمُ ، وَلِلْأَدَبِ قُدْرَتُهُ الَّتِي - لَا تُدْفَعُ - عَلَىٰ غَزْوِ النُّفُوسِ ، وَالتَّأْثِيرِ فِي الْعُقُولِ ، وَصِيَاغَةِ الوِجْدَانَاتِ ، وَتَوْجِيهِ السُّلُوكِ .

أَلَمْ يَعْتَمِدِ الإِسْلَامُ مِنْ قَبْلُ عَلَىٰ الكَلِمَةِ فِي إِيصَالِ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ القُلُوبِ وَغَرْسِهَا فِي الأَفْئِدَةِ ؟ .

أَلَمْ تَكُنْ مُعْجِزَةُ الرَّسُولِ الأَعْظَمِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بَيَانِيَّةً ؟ .

أَلَمْ يُسْلِمْ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ أَشِدَّاءِ العَرَبِ بِفِعْلِ القُرْآنِ وَقُدْرَتِهِ الفَذَّةِ عَلَىٰ اسْتِلَانَةِ القُلُوبِ القَاسِيَةِ ؟ .

أَلَمْ يَصِفِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[2].

وَقَدْ كَانَ مِنْ ثَمَرَةِ هَذِهِ التَّيَّارَاتِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ وَالمَذَاهِبِ الْفِكْرِيَّةِ ظُهُورُ طَائِفَةٍ مِنَ المَذَاهِبِ الأَدَبِيَّةِ ذَوَاتِ الأُصُولِ المُؤَصَّلَةِ وَالقَوَاعِدِ المُقَرَّرَةِ .

وَنَحْنُ لَوْ أَمْعَنَّا النَّظَرَ فِي هَذِهِ التَّيَّارَاتِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ وَالاِتِّجَاهَاتِ الْفِكْرِيَّةِ

---

(١) انظر كتاب « من اصطلاحات الأدب العربي » للدكتور ناصر الخاني ، وغيره من الكتب .

(٢) سورة إبراهيم : ٢٤ - ٢٥.

لَوَجَدْنَاهَا جَمِيعاً قَدِ انْبَثَقَتْ عَنْ نَظْرَةِ أَصْحَابِهَا إِلَىٰ الإِنْسَانِ وَالحَيَاةِ ...

فَدُعَاةُ « الرَّأْسِمَالِيَةِ » وَأَغْلَبُ زُعَمَاءِ الاِتِّجَاهَاتِ الْفِكْرِيَّةِ القَائِمَةِ فِي أُورُبَّا الْغَرْبِيَّةِ وَأَمْرِيكَا يَدِينُونَ بِفَرْدِيَّةِ الإِنْسَانِ وَحُرِّيَتِهِ الَّتِي تَمْتَدُّ إِلَىٰ حَدِّ الحَيْفِ عَلَىٰ الآخَرِينَ ، وَيُطْلِقُونَ لَهُ العِنَانَ إِطْلَاقاً لَا تَحَرُّجَ فِيهِ وَلَا تَأَثُّم ، وَيُتِيحُونَ لَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي أَمْوَالِهِ تَصَرُّفاً رُبَّمَا أَدَّىٰ إِلَىٰ اسْتِغْلَالِ الآخَرِينَ وَإِعْنَاتِهِمْ[1] ، وَيَفْتَحُونَ لَهُ الأَبْوَابَ لِيَلِجَ مِنْهَا إِلَىٰ الثَّرَاءِ الفَاحِشِ الَّذِي يُفْسِدُ العَلَاقَةَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَيُشِيعُ فِيهِمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ .

وَيَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِ الإِنْسَانِ ، وَتَعْبِيرٌ عَنْ ذَاتِهِ ، وَتَأْكِيدٌ لِوُجُودِهِ .

وَالاِشْتِرَاكِيُّونَ عَلَىٰ النَّقِيضِ مِنْ ذَلِكَ ، فَهُمْ يَدِينُونَ بِجَمَاعِيَّةِ الفَرْدِ ، وَأَنَّهُ ذَرَّةٌ صَغِيرَةٌ فِي كَوْنٍ كَبِيرٍ ، وَيَرَوْنَ أَنَّ مِنْ حَقِّ الجَمَاعَةِ المُمَثَّلَةِ فِي الحِزْبِ وَالدَّوْلَةِ أَنْ تَفْرِضَ سُلْطَانَهَا عَلَىٰ الأَفْرَادِ إِلَىٰ حَدٍّ يُمَكِّنُهَا مِنْ أَنْ تُحَدِّدَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ ، وَتَفْرِضَ عَلَيْهِ أَفْكَارَهُ وَطَرِيقَةَ نَظْرَتِهِ إِلَىٰ الحَيَاةِ .

وَلَسْنَا الآنَ فِي صَدَدِ مُنَاقَشَةِ هَذِهِ النَّظَرَاتِ إِلَىٰ الإِنْسَانِ وَالحَيَاةِ فَهِيَ - جَمِيعاً فِي نَظَرِنَا مَعْشَرَ الإِسْلَامِيِّينَ - خَاطِئَةٌ وَمُخَالِفَةٌ لِسُنَنِ الحَيَاةِ وَفِطْرَةِ الإِنْسَانِ .

وَلَكِنَّنَا نُرِيدُ أَنْ نَتَسَاءَلَ عَنِ المَلَايِينِ الَّذِين يَنْتَشِرُونَ عَلَىٰ أَوْسَعِ رُقْعَةٍ مِنَ المَعْمُورَةِ تَمْتَدُّ مِنَ المُحِيطِ الأَطْلَسِيِّ غَرْباً إِلَىٰ الهِنْدِ شَرْقاً وَيَدِينُونَ بِالإِسْلَامِ ، وَيُؤْمِنُونَ بِنَظْرَتِهِ الرَّبَّانِيَّةِ إِلَىٰ الإِنْسَانِ وَالكَوْنِ وَالحَيَاةِ ... مَا شَأْنُهُمْ فِي هَذَا

---

(١) أعنته : أوقعه في مشقة وشدة ، وأفسد عليه أمره .

المِضْمَارِ ؟ ... وَمَا المَذْهَبُ الأَدَبِيُّ الَّذِي يَنْتَمُونَ إِلَيْهِ ؟ ...

أَلَيْسَ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مَذْهَبٌ أَدَبِيٌّ مُتَمَيِّزُ القَسَمَاتِ ، وَاضِحُ الغَايَاتِ ، لِيُعَبِّرَ عَنْ نَظْرَتِهِمْ إِلَىٰ الإِنْسَانِ وَالكَوْنِ ، وَيُوَضِّحَ عَقِيدَتَهُمْ فِي خَالِقِهِمَا ، وَيُحَدِّدَ مَوْقِفَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَلِيَتَّخِذُوا مِنْهُ وَسِيلَةً لِنَشْرِ دَعْوَتِهِمْ فِي الآفَاقِ ، وَلِيُقَدِّمُوا مِنْ خِلَالِهِ لِلإِنْسَانِيَّةِ بِعَامَّةٍ وَلِأَجْيَالِهِمُ المُؤْمِنَةِ بِخَاصَّةٍ أَدَباً نَافِعاً مُمْتِعاً فَتَشْتَعِلَ نُفُوسُهُمْ بِمَا فِيهِ مِنْ حَرَارَةِ الإِيمَانِ ، وَتُغَذَّىٰ عُقُولُهُمْ بِمَا حَفِلَ بِهِ مِنْ فِكْرٍ نَيِّرٍ ، وَتَوْجِيهٍ خَيِّرٍ ، وَيَنْصَرِفُوا بِرَوْعَتِهِ وَجَمَالِهِ وَنَقَائِهِ وَسَامِي تَوْجِيهِهِ عَنْ ذَلِكَ الأَدَبِ التَّافِهِ الَّذِي تَقْذِفُ بِهِ المَطَابِعُ فِي كُلِّ صَبَاحٍ .

إِنَّنَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ بِحَاجَةِ اليَوْمَ ـ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ يَوْمٍ مَضَىٰ ـ إِلَىٰ مَنْهَجٍ لِأَدَبِنَا الإِسْلَامِيِّ المَنْشُودِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّنَا نَتَعَرَّضُ فِي هَذَا العَصْرِ لِغَزْوٍ فِكْرِيٍّ وَوِجْدَانِيٍّ وَحَضَارِيٍّ مَا عَرَفْنَا لَهُ نَظِيراً مِنْ قَبْلُ .

وَالأَدَبُ الأَصِيلُ الهَادِفُ مِنْ أَمْضَىٰ أَسْلِحَتِنَا لِمُقَاوَمَةِ هَذَا الغَزْوِ وَالوُقُوفِ فِي وَجْهِ تَيَّارِهِ الجَارِفِ .

إِنَّ الحَرَكَاتِ الإِسْلَامِيَّةَ المُعَاصِرَةَ قَدْ أَسْدَتْ لِلإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ يَداً مَذْكُورَةً مَشْكُورَةً ؛ فَهِيَ إِذَا كَانَتْ لَمْ تُحَقِّقْ لِنَفْسِهَا كَسْباً سِيَاسِيًّا فِي مَجَالِ الحُكْمِ ، فَقَدِ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُحَقِّقَ لِلمُسْلِمِينَ كَسْباً فِكْرِيًّا فِي مَجَالِ تَوْضِيحِ أُصُولِ الإِسْلَامِ وَتَحْدِيدِ مَوَاقِفِهِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ القَضَايَا المُعَاصِرَةِ ، وَالكَشْفِ عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ اسْتِيعَابِ الحَيَاةِ المُتَطَوِّرَةِ المُتَجَدِّدَةِ وَالتَّصَدِّي لِخُصُومِهِ المُنْتَشِرِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ .

لَكِنَّ هَذِهِ الحَرَكَاتِ نَسِيَتْ أَوْ تَنَاسَتْ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ اللَّهِ لَا تَقْتَصِرُ عَلَىٰ البُحُوثِ العِلْمِيَّةِ ، وَالدِّرَاسَاتِ المَنْهَجِيَّةِ ، وَالحُجَجِ المَنْطِقِيَّةِ وَحْدَهَا ... وَإِنَّمَا هِيَ بِحَاجَةٍ أَيْضاً لِأَنْ تُقَدِّمَ مَبَادِئَهَا لِلنَّاسِ فِي حُلَلٍ مِنَ الأَدَبِ الرَّفِيعِ الَّذِي تَلَذُّهُ النُّفُوسُ ، وَتَشْتَاقُهُ القُلُوبُ ، وَتُقْبِلُ عَلَيْهِ إِقْبَالَ الظِّمَاءِ عَلَىٰ المَاءِ البَرُودِ فِي اليَوْمِ القَائِظِ .

وَهُوَ أَمْرٌ فَطِنَ إِلَيْهِ أَسْلَافُنَا الكِرَامُ ، وَسِلَاحٌ أَحْسَنُوا اسْتِخْدَامَهُ ...

يُحَدِّثُنَا التَّارِيخُ كَيْفَ اسْتَعْمَلَ المُسْلِمُونَ هَذَا السِّلَاحَ فِي سَاعَاتِ الشِّدَّةِ أَحْكَمَ اسْتِعْمَالٍ وَأَذْكَاهُ وَأَبْعَدَهُ تَأْثِيراً فِي النُّفُوسِ .

فَفِي « القَادِسِيَّةِ » ـ مَثَلاً ـ جَمَعَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ القُرَّاءَ وَذَوِي الرَّأْيِ وَأَصْحَابَ النَّجْدَةِ وَالمُرُوءَةِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَيْهِمْ وَحْدَهُمْ وَإِنَّمَا جَمَعَ مَعَهُمُ الشُّعَرَاءَ وَالخُطَبَاءَ أَيْضاً ، وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الشُّعَرَاءِ : الشَّمَّاخُ ، وَالحُطَيْئَةُ ، وَأَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ ، وَعَبْدَةُ بْنُ الطَّيِّبِ ، وَدَفَعَ بِهِمْ إِلَىٰ سَاحَاتِ القِتَالِ ، وَقَالَ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُرْسِلَهُمْ :

« انْطَلِقُوا فَقُومُوا فِي النَّاسِ بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكُمْ وَيَحِقُّ لَهُمْ عِنْدَ مَوَاطِنِ البَأْسِ ... إِنَّكُمْ شُعَرَاءُ العَرَبِ وَخُطَبَاؤُهُمْ وَذَوُو رَأْيِهِمْ وَنَجْدَتِهِمْ وَسَادَتُهُمْ ؛ فَسِيرُوا فِي النَّاسِ فَذَكِّرُوهُمْ وَحَرِّضُوهُمْ عَلَىٰ القِتَالِ » ... فَسَارُوا فِيهِمْ[1] .

وَتَتَابَعَ الخُطَبَاءُ وَالشُّعَرَاءُ عَلَىٰ كَتَائِبِ المُسْلِمِينَ يُلْهِبُونَ المَشَاعِرَ ، وَيُثِيرُونَ الحَفَائِظَ ، وَيَشُدُّونَ العَزَائِمَ .

---

(١) الطبري : ٣/ ٥٣٣.

وَتَوَّجَ سَعْدٌ تِلْكَ الحَمْلَةَ الأَدَبِيَّةَ الرَّائِعَةَ بِأَنْ أَمَرَ أَحَدَ القُرَّاءِ بِأَنْ يَقْرَأَ فِي النَّاسِ سُورَةَ الجِهَادِ[1] - وَكَانَ المُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ يَتَعَلَّمُونَهَا - فَقَرَأَهَا عَلَىٰ الكَتِيبَةِ الَّتِي تَلِيهِ؛ فَقُرِئَتْ فِي كُلِّ كَتِيبَةٍ؛ فَهَشَّتْ قُلُوبُ النَّاسِ وَعُيُونُهُمْ، وَعَرَفُوا السَّكِينَةَ مَعَ قِرَاءَتِهَا[2].

وَفِي عَهْدِ النُّبُوَّةِ المُبَارَكِ اسْتَخْدَمَ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ الأَدَبَ فِي الانْتِصَارِ لِلإِسْلَامِ وَشِرْعَتِهِ، وَالذَّوْدِ عَنِ المُسْلِمِينَ وَنَبِيِّهِمْ، وَالإِشَادَةِ بِالانْتِصَارَاتِ، وَالتَّخْفِيفِ مِنْ وَقْعِ الهَزِيمَةِ.

وَلَقَدْ كَانَ الفَنَّانِ الأَدَبِيَّانِ المَعْرُوفَانِ لَدَىٰ أَسْلَافِنَا هُمَا الشِّعْرُ وَالخَطَابَةُ فَاسْتَخْدَمُوهُمَا أَحْكَمَ اسْتِخْدَامٍ.

وَإِنِّي لَعَلَىٰ يَقِينٍ لَوْ أَنَّهُمْ عَرَفُوا هَذِهِ الفُنُونَ الجَدِيدَةَ المُسْتَحْدَثَةَ لَانْتَفَعُوا بِهَا فِي بَثِّ دَعْوَتِهِمْ عَلَىٰ أَوْسَعِ نِطَاقٍ.

وَمِنْ سُوءِ الحَظِّ أَنْ أُدَبَاءَنَا الإِسْلَامِيِّينَ فِي العَصْرِ الحَدِيثِ قَدْ تَخَلَّوْا لِغَيْرِهِمْ عَنِ الفُنُونِ الأَدَبِيَّةِ الحَدِيثَةِ، وَانْصَرَفُوا إِلَىٰ قَرْضِ الشِّعْرِ، وَكِتَابَةِ المَقَالَاتِ، وَإِعْدَادِ البُحُوثِ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ بَيْنَ الدِّينِ وَبَيْنَ القِصَّةِ وَالمَسْرَحِيَّةِ جَفْوَةً تَصِلُ إِلَىٰ حَدِّ القَطِيعَةِ.

وَقَدْ غَفَلَ أُدَبَاؤُنَا عَنْ أَنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ اسْتَخْدَمَ الفَنَّ القَصَصِيَّ لِتَحْقِيقِ مَقَاصِدِهِ السَّامِيَةِ أَوْفَىٰ اسْتِخْدَامٍ، وَاعْتَمَدَهُ وَسِيلَةً نَاجِعَةً لِلإِرْشَادِ وَالتَّوْجِيهِ وَالعِظَةِ وَالعِبْرَةِ.

---

(١) سُورة الجهاد: سورة الأنفال.

(٢) الطَّبري: ٣/ ٥٣٦.

لَقَدْ كَانَ جَدِيراً بِأُدَبَائِنَا الإِسْلَامِيِّينَ أَنْ يَنْتَزِعُوا هَذَا الفَنَّ القَصَصِيَّ لِصِلَتِهِمُ الوُثْقَىٰ بِالقُرْآنِ ، وَوُقُوفِهِمُ الدَّائِمِ عَلَىٰ مَا قَدَّمَهُ مِنْ نَمَاذِجَ رَائِعَةٍ لِلقِصَّةِ .

وَلَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ مَدَىٰ النَّكْبَةِ الَّتِي حَلَّتْ بِالأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ مِنْ جَرَّاءِ هَذَا التَّخَلِّي ، وَلَا مَبْلَغَ الخَسَارَةِ الَّتِي لَحِقَتْ بِالمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ ذَلِكَ .

لَقَدْ غُصَّتْ مَكْتَبَاتُنَا الخَاصَّةُ وَالعَامَّةُ خِلَالَ النِّصْفِ الثَّانِي مِنْ هَذَا القَرْنِ بِآلَافِ القِصَصِ المَوْضُوعَةِ ، وَالمُتَرْجَمَةِ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا أَبْنَاؤُنَا وَبَنَاتُنَا إِقْبَالاً فَاقَ كُلَّ تَقْدِيرٍ ، وَعَبُّوا مِنْ سُمُومِهَا وَمُوبِقَاتِهَا الشَّيْءَ الكَثِيرَ ، فَفَسَدَتْ أَخْلَاقُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ ، وَتَزَعْزَعَ إِيمَانُهُمْ ، وَاتَّجَهُوا اتِّجَاهَاتٍ تَسُرُّ العَدُوَّ وَتُحْزِنُ الصَّدِيقَ .

لَقَدْ آنَ الأَوَانُ لِأَنْ نَرْجِعَ إِلَىٰ أَنْفُسِنَا ، وَنُجَنِّدَ طَاقَاتِ شَبَابِنَا المَوْهُوبِينَ لِاقْتِحَامِ هَذِهِ السَّاحَةِ ... فَمَا يَزَالُ فِيهَا حَتَّىٰ اليَوْمِ مَوْطِئٌ لِأَقْدَامِنَا ، وَمَا تَزَالُ بَيْنَ جَمَاهِيرِ القُرَّاءِ أَفْئِدَةٌ تَهْفُو لِلأَدَبِ النَّظِيفِ .

إِنَّ عَلَيْنَا ، عَلَىٰ مُفَكِّرِينَا ، عَلَىٰ مُؤَسَّسَاتِنَا العِلْمِيَّةِ وَالأَدَبِيَّةِ ، عَلَىٰ أُدَبَائِنَا الَّذِينَ يَغَارُونَ عَلَىٰ الإِسْلَامِ وَأَبْنَائِهِ أَنْ نُدْرِكَ أَنَّنَا إِذَا لَمْ نُلَبِّ حَاجَاتِ النُّفُوسِ المُؤْمِنَةِ إِلَىٰ أَدَبٍ نَظِيفٍ يُغَذِّي إِيمَانَهَا وَيُزَكِّي فِطَرَهَا ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَبْحَثَ لِنَفْسِهَا عَنْ أَدَبٍ آخَرَ قَدْ تَجِدُهُ عِنْدَ فُلَانٍ أَوْ فُلَانٍ مِمَّنْ مَلَأُوا الدُّنْيَا بِالآثَارِ الَّتِي تُفْسِدُ الفِطَرَ السَّلِيمَةَ ، وَتُقَوِّضُ الأَخْلَاقَ الكَرِيمَةَ ، وَتَعْمَلُ عَلَىٰ إِشَاعَةِ الفَاحِشَةِ فِي الَّذِينَ آمَنُوا .

إِنَّ إِقْبَالَ جَمَاهِيرِ القُرَّاءِ عَلَىٰ الفُنُونِ الأَدَبِيَّةِ الحَدِيثَةِ ، وَخَاصَّةً القِصَّةَ وَالأُقْصُوصَةَ وَالمَسْرَحِيَّةَ يَجِبُ أَنْ يَفْتَحَ أَعْيُنَنَا عَلَىٰ هَذَا السِّلَاحِ الخَطِيرِ الَّذِي يَتَسَلَّحُ بِهِ الشَّرُّ لِيُثَبِّتَ قَدَمَيْهِ فِي حَيَاةِ أُمَّتِنَا ، وَأَنْ يُحَفِّزَنَا لِأَنْ نَنْتَزِعَ مِنْهُ هَذَا

السِّلَاحَ وَأَنْ نَضَعَهُ فِي الأَيْدِي الخَيِّرَةِ القَادِرَةِ عَلَىٰ اسْتِعْمَالِهِ فِي سُبُلِ الخَيْرِ وَالبِرِّ وَالإِحْسَانِ .

لَقَدْ سَمِعْنَا أَكْثَرَ مِنْ دَعْوَةٍ أُطْلِقَتْ عَلَىٰ المَنَابِرِ لِمُقَاطَعَةِ الْمَجَلَّاتِ الخَلِيعَةِ وَالقِصَصِ الفَاجِرَةِ ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الدُّعَاةَ قَدْ غَفَلُوا عَنْ أَنَّ تِلْكَ الشُّرُورَ لَا تُقَاوَمُ بِخُطْبَةٍ يُلْقُونَهَا عَلَىٰ المَنَابِرِ ، أَوْ صَرْخَةِ اسْتِنْكَارٍ يُطْلِقُونَهَا فِي المَحَافِلِ ، وَإِنَّمَا تَتِمُّ بِالعَمَلِ الإِيجَابِيِّ البَنَّاءِ ؛ فَلأَنْ تُوقِدَ شَمْعَةً وَاحِدَةً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَسُبَّ الظَّلَامَ أَلْفَ مَرَّةٍ .

وَإِذَا كُنَّا نُرِيدُ التَّصَدِّيَ لِهَذَا الغَزْوِ الهَائِلِ مِنَ الفُنُونِ المُنْحَرِفَةِ المُدَمِّرَةِ الَّتِي تُشِيعُ الإِبَاحِيَّةَ وَالِانْحِلَالَ بَيْنَ النَّاسِ فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ بِاسْتِنْكَارِهَا أَوِ الإِعْرَاضِ عَنْهَا ، وَلَا يَتَحَقَّقُ بِالصُّرَاخِ وَالعَوِيلِ - كَمَا يَقُولُ الدُّكْتُور نَجِيبُ الكِيلَانِيُّ[1] - وَإِنَّمَا يَكُونُ بِالعَمَلِ الإِيجَابِيِّ البَنَّاءِ ؛ وَذَلِكَ بِأَنْ نُوَاجِهَ الأَدَبَ الَّذِي لَا نُرِيدُ بِالأَدَبِ الَّذِي نُرِيدُ .

وَبِكَلِمَةٍ مُوجَزَةٍ لَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نُقَدِّمَ لِلنَّاسِ البَدِيلَ ، وَلْنَكُنْ عَلَىٰ ثِقَةٍ بِأَنَّ هَذَا البَدِيلَ الخَيِّرَ الطَّيِّبَ الأَصِيلَ سَيَلْقَىٰ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ القَبُولَ وَالإِقْبَالَ ، لِأَنَّ النَّاسَ مَيَّالُونَ بِفِطَرِهِمْ إِلَىٰ الخَيْرِ مُؤْثِرُونَ لَهُ .

وَنَحْنُ حِينَ نَدْعُو إِلَىٰ أَدَبٍ إِسْلَامِيٍّ يُعَبِّرُ عَنْ رُوحِ العَصْرِ وَيُعَالِجُ قَضَايَا المُسْلِمِ المُعَاصِرِ ، وَيُصَوِّرُ أَشْوَاقَهُ ، لَا نُرِيدُ أَنْ نُوَلِّيَ ظُهُورَنَا لِأَدَبِنَا الإِسْلَامِيِّ

---

(١) اقرأ المقالَ النفيسَ الَّذِي كتبه الدكتور الكيلاني في كُتيبه الَّذِي عنوانه : «حولَ الدينِ والدَّولةِ» وطبعته دار النفائس في بيروت .

القَدِيمِ وَإِنَّمَا نُرِيدُ أَنْ نَسْتَمِدَّ مِنْهُ ، وَأَنْ نَبْنِيَ عَلَيْهِ ، وَأَنْ نَصِلَ حَاضِرَ هَذَا الأَدَبِ بِمَاضِيهِ .

وَمِنَ الحَقِّ عَلَيْنَا أَنْ نُقَرِّرَ بِأَنَّ أَدَبَنَا الإِسْلَامِيَّ القَدِيمَ قَدْ أَدَّىٰ رِسَالَتَهُ فِي المَاضِي أَدَاءً يُثِيرُ الإِعْجَابَ ، فَلَقَدْ وَقَفَ مُنْذُ فَجْرِ الإِسْلَامِ سَنَداً لِلدَّعْوَةِ ، وَظَلَّ عَلَىٰ مَرِّ التَّارِيخِ يُهَاجِمُ الأَوْضَاعَ الفَاسِدَةَ ، وَيَتَصَدَّىٰ لِلفِرَقِ الزَّائِغَةِ ، وَيُخْلِصُ النَّصِيحَةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِعَامَّةِ المُسْلِمِينَ .

وَقَدِ ارْتَبَطَ الأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ فِي كُلِّ زَمَنٍ مَعَ قَضَايَا عَصْرِهِ ، وَتَلَاحَمَ مَعَهَا تَلَاحُماً مُثِيراً لِلدَّهْشَةِ ؛ فَقَدْ تَصَدَّىٰ لِلزَّنْدَقَةِ وَالزَّنَادِقَةِ ، وَوَقَفَ فِي مِحْنَةِ خَلْقِ القُرْآنِ مَوْقِفاً صُلْباً كَرِيماً ، وَقَالَ فِيهَا كَلِمَتَهُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُقَالَ ، وَمَجَّدَ البُطُولَاتِ الإِسْلَامِيَّةَ ، وَنَوَّهَ بِالأَبْطَالِ وَالمَوَاقِفِ .

فَلَمَّا غَزَا « الصَّلِيبِيُّونَ » دِيَارَ المُسْلِمِينَ هَبَّ هَذَا الأَدَبُ يُثِيرُ العَزَائِمَ وَيُضَمِّدُ الجِرَاحَ ، وَيُهَنِّئُ المُسْلِمِينَ بِالنَّصْرِ إِذَا انْتَصَرُوا ، وَيُخَفِّفُ مِنْ أَثَرِ هَزِيمَتِهِمْ إِذَا انْهَزَمُوا ، وَيَدْعُو إِلَىٰ مُوَاصَلَةِ الكِفَاحِ وَيَحُضُّ عَلَيْهِ وَيُرَغِّبُ فِيهِ .

وَلَمْ يَكُنْ مَوقِفُهُ مِنْ غَزْوِ « التَّتَارِ » بِأَقَلَّ مِنْ مَوقِفِهِ مِنَ الغَزْوِ « الصَّلِيبِيِّ » .

وَإِذَا كَانَ أَدَبُنَا الإِسْلَامِيُّ القَدِيمُ قَدْ عَبَّرَ بِكِفَايَةٍ عَنْ عُصُورِهِ وَمُشْكِلَاتِهَا وَقَضَايَاهَا وَنَاسِهَا ، فَمِنَ الخَطَأِ أَنْ نَطْلُبَ مِنْهُ التَّعْبِيرَ عَنْ عَصْرِنَا وَمُشْكِلَاتِنَا وَقَضَايَانَا وَنَاسِنَا ...

إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ المَنْطِقِ فِي شَيْءٍ أَنْ نَطْلُبَ مِنْ أَدَبِنَا الإِسْلَامِيِّ القَدِيمِ أَنْ يُعَالِجَ أَوْضَاعَنَا الحَاضِرَةَ ، وَإِنَّ فِي هَذَا الطَّلَبِ تَعَسُّفاً يُشْبِهُ تَعَسُّفَنَا فِيمَا لَو طَلَبْنَا مِنْ أَدَبِنَا المُعَاصِرِ أَنْ يُعَالِجَ الأَوْضَاعَ الَّتِي سَتَجِدُّ بَعْدَ أَلْفِ عَامٍ .

وَكَمَا نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ أَدَبٍ إِسْلَامِيٍّ مُعَاصِرٍ يُوَاكِبُ حَيَاتَنَا، وَيُعَبِّرُ عَنْهَا؛ فَنَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ نَقْدٍ إِسْلَامِيٍّ مُعَاصِرٍ يُوَاكِبُ هَذَا الْأَدَبَ وَيُؤَصِّلُ لَهُ أُصُولَهُ وَيَضَعُ لَهُ مَعَالِمَهُ وَصُوَاهُ[1].

نَعَمْ، نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ مَذْهَبٍ إِسْلَامِيٍّ فِي الْأَدَبِ وَنَقْدِهِ.

٢ ـ الدَّاعُونَ السَّابِقُونَ إِلَىٰ هَذَا الْمَذْهَبِ

نَحْنُ لَسْنَا بِأَوَّلِ مَنْ دَعَا إِلَىٰ إِقَامَةِ مَذْهَبٍ إِسْلَامِيٍّ فِي الْأَدَبِ، وَإِنَّمَا اقْتَفَيْنَا آثَارَ طَائِفَةٍ مِنْ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ، وَأُدَبَائِهِمُ الْمَوْهُوبِينَ، وَقَدْ كَانَ أَوَّلَ مَنْ كَتَبَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ وَنَبَّهَ إِلَيْهِ فَضِيلَةُ الْعَالِمِ الْعَامِلِ الشَّيْخِ «أَبِي الْحَسَنِ النَّدْوِيِّ»، وَذَلِكَ حِينَ اخْتِيرَ عُضْواً فِي الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعَرَبِيِّ فِي «دِمَشْقَ». حَيْثُ قَدَّمَ بَحْثاً دَعَا فِيهِ إِلَىٰ إِقَامَةِ أَدَبٍ إِسْلَامِيٍّ، وَالْعِنَايَةِ بِهِ، فَكَانَ أَوَّلَ الدَّاعِينَ إِلَىٰ ذَلِكَ وَطَلِيعَةَ الْمُنَبِّهِينَ إِلَيْهِ.

ثُمَّ تَلَاهُ شَهِيدُ الإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ «سَيِّدُ قُطْبٍ» فَكَتَبَ مَقَالاً فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ ثُمَّ نُشِرَ فِي كِتَابِهِ «التَّارِيخُ فِكْرَةٌ وَمِنْهَاجٌ». وَقَدْ نَبَّهَ فِي هَذَا الْمَقَالِ إِلَىٰ وُجُودِ أَدَبٍ إِسْلَامِيٍّ مُتَمَيِّزٍ، وَدَعَا إِلَيْهِ وَحَضَّ عَلَيْهِ.

وَلَقَدْ كَانَ أَوَّلَ مَنِ اسْتَجَابَ لِدَعْوَتِهِ أَخُوهُ الأُسْتَاذُ «مُحَمَّدُ قُطْبٍ» ـ مَدَّ اللَّهُ فِي عُمْرِهِ ـ حَيْثُ أَلَّفَ كِتَابَهُ «مَنْهَجُ الفَنِّ الإِسْلَامِيِّ»، فَكَانَ كِتَابُهُ أَوَّلَ كِتَابٍ نُشِرَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ.

ثُمَّ تَلَاهُ الطَّبِيبُ الأَدِيبُ الدُّكْتُورُ «نَجِيبُ الكِيلَانِيُّ»؛ فَأَلَّفَ كِتَابَهُ

(١) الصُّوىٰ: علامات علىٰ الطريق، تُرشد إليه وتُبين مسافاته.

« الإِسْلَامِيَّةُ وَالمَذَاهِبُ الأَدَبِيَّةُ » . وَاتَّجَهَ فِيهِ وِجْهَةً أَدَبِيَّةً إِسْلَامِيَّةً ، بَيْنَمَا اتَّجَهَ كِتَابُ الأُسْتَاذِ « مُحَمَّدِ قُطْبٍ » وِجْهَةً إِسْلَامِيَّةً بَحْتَةً .

ثُمَّ تَلَاهُمَا الدُّكْتُورُ « عِمَادُ الدِّينِ خَلِيلٌ » ، فَخَطَا خُطْوَةً رَائِدَةً فِي هَذَا الطَّرِيقِ حِينَ نَشَرَ كِتَابَهُ « فِي النَّقْدِ الإِسْلَامِيِّ المُعَاصِرِ » ثُمَّ أَتْبَعَ خُطْوَتَهُ هَذِهِ بِخُطُوَاتٍ أُخْرَىٰ لِاسْتِكْمَالِ المَوْضُوعِ .

ثُمَّ كَثُرَتِ المَقَالَاتُ وَالدَّعَوَاتُ إِلَىٰ تَبَنِّي هَذَا الأَدَبِ ، فَكَانَتْ جَامِعَةُ الإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سُعُودٍ الإِسْلَامِيَّةُ أَوَّلَ مَنِ اسْتَجَابَ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ وَعَمِلَ عَلَىٰ نَقْلِهَا مِنْ نِطَاقِ الدَّعَوَاتِ وَالنَّظَرِيَّاتِ إِلَىٰ مَجَالِ التَّطْبِيقِ وَالتَّنْفِيذِ ، فَأَقَرَّتْ مَادَّتَهَا فِي كُلِيَّةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ ، وَجَعَلَتْهَا عُنْصُراً أَسَاساً مِنْ عَنَاصِرِ قِسْمِ البَلَاغَةِ وَالنَّقْدِ .

وَلَقَدْ أَقْبَلَ طُلَّابُ الدِّرَاسَاتِ العُلْيَا عَلَىٰ هَذِهِ المَادَّةِ إِقْبَالاً كَبِيراً ، فَسُجِّلَتْ فِيهَا أَرْبَعُ رَسَائِلَ لِلْمَاجِسْتِيرِ وَرِسَالَتَانِ لِلدُّكْتُورَاه .

وَإِنَّ أَمَلَنَا كَبِيرٌ فِي أَنْ تَتَحَوَّلَ هَذِهِ المَادَّةُ إِلَىٰ مَرْكَزٍ مُسْتَقِلٍّ لِلْأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ بِعَامَّةٍ وَلِأَدَبِ الأَطْفَالِ وَاليَافِعِينَ وَالشَّبَابِ بِخَاصَّةٍ .

٣ ـ تَعْرِيفُ الأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ وَتَحْدِيدُ مَعَالِمِهِ الأَسَاسِيَّةِ

الأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ : « **هُوَ التَّعْبِيرُ الفَنِّيُّ الهَادِفُ عَنْ وَقْعِ الحَيَاةِ وَالكَوْنِ وَالإِنْسَانِ عَلَىٰ وِجْدَانِ الأَدِيبِ تَعْبِيراً يَنْبُعُ مِنَ التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ لِلْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَخْلُوقَاتِهِ** » .

وَالمُرَادُ بِفَنِّيَّةِ التَّعْبِيرِ جَمَالُهُ وَرَوْعَتُهُ ...

وَلَا غَرْوَ فَإِشْرَاقُ العِبَارَةِ وَجَمَالُهَا شَرْطَانِ أَسَاسَانِ لَازِمَانِ لِكُلِّ أَدَبٍ ،

فَكَيْفَ إِذَا كَانَ إِسْلَامِيًّا نَابِعاً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مُتَأَسِّياً بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ ...

ثُمَّ إِنَّنَا اشْتَرَطْنَا فِي هَذَا الأَدَبِ أَنْ يَكُونَ هَادِفاً ؛ لِأَنَّ أَفْعَالَ المُسْلِمِ وَأَقْوَالَهُ مَصُونَةٌ عَنِ اللَّغْوِ وَالعَبَثِ ، بَعِيدَةٌ عَمَّا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ .

وَعَلَىٰ هَذَا فَالأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ لَا يَكْتَفِي بِجَمَالِ التَّعْبِيرِ وَإِبْدَاعِ التَّصْوِيرِ ، وَإِنَّمَا يُشْتَرَطُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مُمْتِعاً نَافِعاً فِي وَقْتٍ مَعاً ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الأَكْوَابَ الفَارِغَةَ لَا تَرْوِي العِطَاشَ .

ثُمَّ إِنَّ مَوْضُوعَ هَذَا الأَدَبِ رَحْبُ الآفَاقِ ، مُتَعَدِّدُ الجَوَانِبِ ، فَهُوَ يَشْمَلُ الإِنْسَانَ بِعَوَاطِفِهِ وَأَشْوَاقِهِ ، وَآمَالِهِ وَآلَامِهِ ، وَحَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ ، وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ ...

كَمَا يَشْمَلُ الحَيَاةَ بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ سَعَادَةٍ وَشَقَاءٍ ، وَمُقَوِّمَاتٍ وَقِيَمٍ ، وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ الكَوْنِ بَرِّهِ وَبَحْرِهِ ، وَأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ ، كَمَا يَشْتَمِلُ عَلَىٰ الطَّبِيعَةِ بِطَيْرِهَا السَّابِحِ ، وَحَيَوَانِهَا السَّارِحِ ، وَرَبِيعِهَا الجَمِيلِ ، وَشِتَائِهَا العَاصِفِ ، وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ .

وَعَلَىٰ هَذَا فَإِنَّ الأَدَبَ الإِسْلَامِيَّ لَيْسَ مَقْصُوراً عَلَىٰ المَوْضُوعَاتِ الدِّينِيَّةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ وَأَشْمَلُ .

وَلِكَيْ تَتَّضِحَ لَنَا صُورَةُ الأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ وَيَبْدُوَ الفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَدَبِ الَّذِي يُنَاقِضُ الإِسْلَامَ وَيُجَافِيهِ ، لَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نَعْرِضَ طَائِفَةً مِنَ النَّمَاذِجِ الأَدَبِيَّةِ الَّتِي تُبْرِزُ هَذَيْنِ اللَّوْنَيْنِ .

تَأَمَّلْ هَذِهِ القِطَعَ الرَّائِعَةَ مِنَ الشِّعْرِ الَّذِي صَفَتْ فِيهِ رُوحُ الإِسْلَامِ وَتَأَلَّقَ بِأَلَقِ الإِيمَانِ .

فَهَذِهِ « عُثَامَةُ » زَوْجَةُ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَدْ تَقَدَّمَ بِهَا السِّنُّ ؛ فَثَقُلَ سَمْعُهَا ، وَكُفَّ بَصَرُهَا ، وَفِي ذَاتِ صَبَاحٍ دَخَلَ عَلَيْهَا ابْنُهَا فَقَالَتْ : أَصَلَّيْتُمْ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، فَتَحَسَّرَتْ عَلَىٰ تَأْخِيرِ الصَّلَاةِ ، وَكَانَتْ مِنَ العَابِدَاتِ القَانِتَاتِ ، فَقَالَتْ تُخَاطِبُ نَفْسَهَا(١) :

عُثَامُ مَالَكِ لَاهِيَهْ حَلَّتْ بِدَارِكِ دَاهِيَهْ
إِبْكِي الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا إِنْ كُنْتِ يَوْماً بَاكِيَهْ
وَابْكِي القُرْآنَ إِذَا تُلِي قَدْ كُنْتِ يَوْماً تَالِيَهْ
تَتْلِينَهُ بِتَفَكُّرٍ وَدُمُوعُ عَيْنِكِ جَارِيَهْ
فَالْيَوْمَ لَا تَتْلِينَهُ إِلَّا وَعِنْدَكِ تَالِيَهْ
لَهَفِي عَلَيْكِ صَبَابَةً مَا عِشْتُ طُولَ حَيَاتِيَهْ

وَهَذَا الشَّاعِرُ المُعَاصِرُ « أَحْمَدُ مُحَرَّم »(٢) يُبْرِزُ لَكَ صُورَةً فَذَّةً لِلصَّحَابِيَّةِ الجَلِيلَةِ « رُفَيْدَةَ الأَسْلَمِيةِ » الَّتِي أَقَامَتْ خَيْمَةً فِي نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ لِمُدَاوَاةِ جَرْحَىٰ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ أَهْلِيهِمْ وَذَوِي قَرَابَتِهِمْ مَنْ يَقُومُ عَلَيْهِمْ ، حَيْثُ يَقُولُ :

« رُفَيْدَةُ » عَلِّمِي النَّاسَ الحَنَانَا وَزِيدِي قَوْمَكِ العَالِينَ شَانَا
حَبَاكِ اللَّهُ مِنْ تَقْوَاهُ قَلْباً وَسَوَّىٰ مِنْ مَرَاحِمِهِ البَنَانَا
خُذِي الجَرْحَىٰ إِلَيْكِ فَأَكْرِمِيهِمْ وَطُوفِي حَوْلَهُمْ آناً فَآنَا

---

(١) كتاب «الزهد» لأحمد بن حنبل : ١٧٠.

(٢) أحمد محرم : شاعر إسلامي موهوب تفوق عَلَىٰ شعراء عصره في ديوانه «مجد الإسلام» ، تُوفي سنة ١٣٦٦ للهجرة.

وَإِنْ هَجَعَ النِّيَامُ فَلَا تَنَامِي عَنِ الصَّوْتِ المُرَدَّدِ حَيْثُ كَانَا

أَعِينِي السَّاهِرِينَ عَلَىٰ كُلُومٍ تُؤَرِّقُهُمْ فَمِثْلُكِ مَنْ أَعَانَا[1]

ضُيُوفُ اللَّهِ عِنْدَكِ فِي مَحِلٍّ تُذَكِّرُنَا مَحَاسِنُهُ الجِنَانَا

« رُفَيْدَةُ » جَاهِدِي وَدَعِي الهُوَيْنَا فَمَا شَرَفُ الحَيَاةِ لِمَنْ تَوَانَىٰ

وَهَذَا الشَّاعِرُ الإِسْلَامِيُّ الأُسْتَاذُ « يُوسُفُ العَظْمُ » يَكْتُبُ لِابْنِ عَمِّهِ وَصَدِيقِهِ « هِشَامِ العَظْمِ » هَذِهِ القِطْعَةَ الرَّائِعَةَ ، وَيَبْعَثُ بِهَا إِلَيْهِ وَهُوَ فِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، وَقَدْ تَصَوَّرَهُ وَهُوَ يَسْعَىٰ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ وَيَطُوفُ بِالبَيْتِ العَتِيقِ[2]:

« هِشَامُ » سَمِعْتُكَ وَسْطَ الحَجِيجِ وَرُوحُكَ عِنْدَ الصَّفَا تَهْتِفُ

فَصَافَحْتُ فِيكَ التُّقَىٰ وَالحِجَا وَكَفُّكَ مِنْ زَمْزَمٍ تَغْرِفُ

وَبَيْنَ ضُلُوعِكَ قَلْبٌ يَرِفُّ يُلَبِّي ، وَبِالبَيْتِ يَطُوفُ

وَتَضْرَعُ لِلَّهِ مُسْتَرْحِماً وَفِي كَفِّكَ الآيُ وَالمُصْحَفُ

وَقَلْبِي يُنَاجِيكَ عَبْرَ الأَثِيرِ هَنِيئًا لَكَ الحَجُّ وَالمَوْقِفُ

أَمَّا الأَدَبُ الَّذِي يُجَافِي الإِسْلَامَ وَيُنَاقِضُهُ فَهُوَ كَثِيرٌ ، وَخَاصَّةً فِي مَيْدَانِ الشِّعْرِ .

اسْتَمِعْ إِلَىٰ « أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي » وَهُوَ يَقُولُ مُعْتَزًّا بِذَاتِهِ[3]:

(١) أعيني : ساعديهم علىٰ تخفيف كُلُومهم أي جراحهم .

(٢) يوسف العظم : شاعر أردني معاصر ، ونائب في مجلس النواب ، ومؤسس لمدارس الأقصىٰ في الأردن والمدير العام لها . من آثاره الشعرية « رباعيات من فلسطين » و « ديوان شعر الجهاد » ومنه أخذنا هذه المقطوعة .

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري : ٢/ ٣٤١.

أَيُّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي ، أَيُّ عَظِيمٍ أَتَّقِي ؟!

وَكُلُّ مَا قَدْ خَلَقَ اللَّهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقِ

مُحْتَقَرٌ فِي هِمَّتِي كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي

فَالشَّاعِرُ ـ كَمَا يَقُولُ العُكْبَرِيُّ ـ قَدْ لَزِمَهُ الكُفْرُ بِاحْتِقَارِهِ لِخَلْقِ اللَّهِ وَفِيهِمُ الأَنْبِيَاءُ المُرْسَلُونَ وَالمَلَائِكَةُ المُقَرَّبُونَ .

وَشَوقِي يَقُولُ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي عُنْوَانُهَا « دِمَشْقُ »[1]:

آمَنْتُ بِاللَّهِ وَاسْتَثْنَيْتُ جَنَّتَهُ دِمَشْقُ رَوْحٌ وَجَنَّاتٌ وَرَيْحَانُ

وَقَدْ فَاتَهُ أَنَّ عَلَىٰ المُسْلِمِ أَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ[2].

وَهَذَا « خَيْرُ الدِّينِ الزِّرِكْلِيُّ » يَقُولُ فِي قَصِيدَتِهِ « نَجْوَىٰ »[3]:

لَوْ مَثَّلُوا لِي مَوْطِنِي وَثَناً لَهَمَمْتُ أَعْبُدُ ذَلِكَ الوَثَنَا

وَفِي هَذَا البَيْتِ اسْتِخْفَافٌ بِدِينِ اللَّهِ ، وَإِغْفَالٌ لِمَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَالْخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ[4].

وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ أَنَّ المُرَادَ بِالأَنْصَابِ إِنَّمَا هُوَ الأَصْنَامُ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الشَّاعِرُ .

هَذَا ، وَإِنَّنَا حِينَ اخْتَرْنَا مَا اخْتَرْنَاهُ مِنَ الشِّعْرِ الَّذِي يُنَاقِضُ الإِسْلَامَ حَرَصْنَا

---

(١) الشوقيات : ٢/ ١٠٠.

(٢) انظر البخاري في باب التوحيد وباب الإيمان .

(٣) ديوان الزركلي : ٢٠.

(٤) انظر الآية ٩٠ من سورة المائدة .

عَلَىٰ أَنْ نُقَدِّمَ أَقَلَّ نَمَاذِجِهِ بُعْداً عَنْ دِينِ اللَّهِ وَخُرُوجاً عَلَيْهِ، وَنَيْلاً مِنْهُ، وَابْتَعَدْنَا أَشَدَّ البُعْدِ عَنْ شِعْرِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ، وَحَمَّادِ عَجْرَدٍ، وَوَالِبَةِ بْنِ الحُبَابِ، وَأَبِي نُوَاسٍ، وَالحُسَيْنِ بْنِ الضَّحَّاكِ، فَفِي هَذَا الشِّعْرِ وَفِي نَقَائِضِ جَرِيرٍ وَالأَخْطَلِ وَالفَرَزْدَقِ مَا يَهُزُّ مَشَاعِرَ المُسْلِمِ هَزًّا.

وَأَخِيراً، فَرُبَّ قَائِلٍ يَقُولُ:

مَا مَوْقِفُكُمْ مِنْ هَذَا الفَيْضِ الزَّاخِرِ مِنَ الشِّعْرِ الَّذِي لَا يَنْبُعُ مِنْ رُوحِ الإِسْلَامِ وَلَا يُعَبِّرُ عَنْ مَرَامِيهِ، وَلَكِنَّهُ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ لَا يُنَاقِضُهُ وَلَا يُجَافِيهِ؟.

وَلِلإِجَابَةِ عَنْ ذَلِكَ نَقُولُ:

إِنَّنَا نَقِفُ مِنْ هَذَا الأَدَبِ مَوْقِفَ المُحَايِدِ، فَلَا نَمْنَعُهُ وَلَا نَسْخَطُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا نَجِدُ فِيهِ ثَرْوَةً فَنِّيَّةً ثَرَّةً نَلْجَأُ إِلَيْهَا عِنْدَ الحَاجَةِ، وَنَعْتَمِدُ عَلَيْهَا فِي سَدِّ الفَرَاغِ.

* * *

التَّصَوُّرُ الإِسْلَامِيُّ
لِلخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَخْلُوقَاتِهِ

- التَّصَوُّرُ الإِسْلَامِيُّ لِلخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ
- التَّصَوُّرُ الإِسْلَامِيُّ لِلْكَونِ
- التَّصَوُّرُ الإِسْلَامِيُّ لِلإِنْسَانِ

التَّصَوُّرُ الإِسْلَامِيُّ لِلخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَخْلُوقَاتِهِ

أ ـ التَّصَوُّرُ الإِسْلَامِيُّ لِلخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ

إِنَّ التَّصَوُّرَ الإِسْلَامِيَّ لِلَّهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ يَتَّسِمُ بِالوُضُوحِ وَالصِّحَّةِ وَاليُسْرِ بِشَكْلٍ لَا نَعْهَدُ لَهُ نَظِيراً فِي المُعْتَقَدَاتِ الأُخْرَىٰ، فَهُوَ تَصَوُّرٌ قَدْ بَرِئَ مِنْ وَثَنِيَّةِ الرُّومَانِ وَاليُونَانِ وَالفُرْسِ، كَمَا بَرِئَ مِنَ انْحِرَافَاتِ اليَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَتَعْقِيدَاتِهَا وَفَلْسَفَاتِهَا.

وَلِنُدْرِكَ ذَلِكَ تَمَامَ الإِدْرَاكِ يَجْدُرُ بِنَا أَنْ نَتَمَلَّأَ مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ «لِيونُ كَايْتَانِي» أَحَدُ كِبَارِ المُسْتَشْرِقِينَ النَّصَارَىٰ فِي كِتَابِ «الدَّعْوَةِ إِلَىٰ الإِسْلَامِ» حَيْثُ قَالَ[1]:

«إِنَّ الجَدَلَ المَذْهَبِيَّ، وَالسَّفْسَطَةَ[2] العَقَدِيَّةَ بَيْنَ رِجَالِ اللَّاهُوتِ المَسِيحِيِّ، أَدَّيَا إِلَىٰ زَعْزَعَةِ أُصُولِ الفِكْرِ الدِّينِيِّ عِنْدَ النَّصَارَىٰ. وَلَمَّا أَهَلَّتْ ـ آخِرَ الأَمْرِ ـ أَنْبَاءُ الوَحْيِ الجَدِيدِ مِنَ الصَّحْرَاءِ لَمْ تَعُدِ المَسِيحِيَّةُ قَادِرَةً عَلَىٰ

---

(١) ليون كيتاني Leone Caetani: مستشرقٌ إيطاليٌّ مؤرخٌ من أهْلِ «روما»، تَعَلَّمَ فِي جامعَاتِها، وقامَ برحلاتٍ إِلَىٰ الشرقِ فزَارَ الهندَ وإيرَانَ ومصرَ والشَّامَ، وجمعَ مكتبةً عربيةً عظيمةً. كانَ يُحسِنُ سبعَ لغاتٍ مِنْها الفارسيةُ والعربيةُ. أَلَّف بالإيطَاليةِ كتابَ «تاريخ الإِسْلام» وطبعَ منهُ ثمانيةَ مجلداتٍ ضخمةً انتهَىٰ فِيها إِلَىٰ سَنةِ أربعين لِلهجرةِ، وقد وردَ قولُه الَّذِي أَثبتنَاهُ فِي مقدِّمةِ كتابِ «الدعوةِ إِلَىٰ الإِسْلام». انظر: «الأعلام للزركلي»: ليون كايتاني.

(٢) السَّفْسَطَة: قياس مركب من الوهميات، أي كلام وهمي الغرض منه إسكات الخصم وإفحامه.

إِغْرَاءِ هَذَا الدِّينِ الَّذِي بَدَّدَ بِضَرْبَةٍ مِنْ ضَرَبَاتِهِ جَمِيعَ الشُّكُوكِ التَّافِهَةِ ، وَقَدَّمَ لِلنَّاسِ كَثِيراً مِنَ المَزَايَا الجَلِيلَةِ ، وَذَلِكَ إِلَىٰ جَانِبِ مَبَادِئِهِ الوَاضِحَةِ البَسِيطَةِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الجَدَلَ ...

وَعِنْدَ ذَلِكَ تَرَكَ الشَّرْقُ المَسِيحِيُّ المَسِيحَ وَارْتَمَىٰ فِي أَحْضَانِ نَبِيِّ العَرَبِ » .

فَمَا هَذَا التَّصَوُّرُ الإِسْلَامِيُّ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ نَصَارَىٰ الشَّرْقِ يَتْرُكُونَ عَقِيدَتَهُمْ وَيَرْتَمُونَ فِي أَحْضَانِ النَّبِيِّ العَرَبِيِّ ؟ .

إِنَّ هَذَا التَّصَوُّرَ يَقُومُ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنَ الأُسُسِ :

أَحَدُهَا : أَنَّ اللَّهَ مَوْجُودٌ ، وَأَنَّ وُجُودَهُ حَقٌّ ثَابِتٌ ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَا عَدَاهُ مِنَ المَوْجُودَاتِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ صَنِيعِهِ ، وَأَنَّهُ ظَاهِرُ الوُجُودِ ، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ إِلَّا وَفِيهِ شَاهِدٌ عَلَىٰ وُجُودِ اللَّهِ ، وَقُدْرَتِهِ ، وَعِلْمِهِ ، وَحِكْمَتِهِ ، وَكَمَالِهِ ، وَبَدِيعِ صُنْعِهِ .

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَةِ[1] :

أَيَا عَجَباً كَيْفَ يَعْصِي الإِلَهَ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ، ... وَتَسْكِينَةٍ ، أَبَداً شَاهِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ، ... تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

وَكَمَا أَنَّهُ نَعَتَ نَفْسَهُ بِالظَّاهِرِ فَقَدْ نَعَتَهَا بِالبَاطِنِ ، ذَلِكَ لِأَنَّ العُقُولَ وَالحَوَاسَّ تَعْجِزُ عَنْ إِدْرَاكِ سِرِّهِ جَلَّ وَعَلَا ، فَهِيَ صَغِيرَةٌ مَحْدُودَةٌ ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَبِيرٌ ، بَلْ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ كَبِيرٍ .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز: ٢٠٧.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ فَلَّانٍ التِّرْمِذِيُّ[1]:

تَبَارَكَ مَنْ لَا يَعْلَمُ الغَيْبَ غَيْرُهُ ... وَمَنْ لَمْ يَزَلْ يُثْنَىٰ عَلَيْهِ وَيُذْكَرُ

إِذَا فِيهِ فَكَّرْنَا اسْتَحَالَتْ عُقُولُنَا ... فَأُبْنَا[2] حَيَارَىٰ، وَاضْمَحَلَّ التَّفَكُّرُ

وَإِنْ نَقَّرَ المَخْلُوقُ فِي عِلْمِ ذَاتِهِ ... وَعَنْ كَيْفَ كَانَ الأَمْرُ ضَلَّ المُنَقِّرُ[3]

فَلَوْ وَصَفَ النَّاسُ البَعُوضَةَ وَحْدَهَا ... بِعِلْمِهِمْ لَمْ يُحْكِمُوهَا، وَقَصَّرُوا

فَكَيْفَ بِمَنْ لَا يَقْدِرُ الخَلْقُ قَدْرَهُ ... وَمَنْ هُوَ لَا يَبْلَىٰ وَلَا يَتَغَيَّرُ؟

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَتَصِفُ بِالقُدْرَةِ، وَلَكِنَّ قُدْرَتَهُ لَا تُشْبِهُ قُدْرَةَ البَشَرِ، وَلِتَتَّضِحَ لَنَا حَقِيقَةُ هَذِهِ القُدْرَةِ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ نُلِمَّ بِبَعْضِ الأَسْمَاءِ الَّتِي سَمَّىٰ بِهَا ذَاتَهُ.

فَمِنْ أَسْمَائِهِ: القَوِيُّ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَلَا يَمَسُّهُ نَصَبٌ ...

وَهُوَ المَتِينُ، وَالعَزِيزُ، وَالغَالِبُ ...

وَهُوَ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ ذَلِكَ: مَالِكُ المُلْكِ، المُتَصَرِّفُ بِالأَمْرِ وَالنَّهْيِ ...

وَهُوَ المَلِكُ الَّذِي إِذَا قَالَ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ ...

وَقَدْ بَرَزَتْ هَذِهِ المَعَانِي فِي الشِّعْرِ الإِسْلَامِيِّ بِوُجُوهٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَصُوَرٍ شَتَّىٰ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ « هُدْبَةَ بْنِ الخُشْرُمِ » فِي الاسْتِسْلَامِ لِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ[4]:

---

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي: ٤٧٥ - ٤٧٦.

(٢) فَأُبْنَا: رَجَعْنَا.

(٣) المُنَقِّر: المفتش والباحث عن الخفايا.

(٤) هُدبةُ بنُ الخشرمِ: شاعرٌ فصيحٌ راويةٌ من أهلِ بَاديةِ الحجَازِ، وقدْ وردتْ أبياتُهُ هذِهِ فِي الكَامِلِ للمبردِ: ٨٧/٤ مع خبرٍ طويلٍ عن مناسَبَتِهَا.

أَذَا العَرْشِ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مُؤْمِنٌ مُقِرٌّ بِزَلَّاتِي، إِلَيْكَ فَقِيرُ
وَإِنِّي - وَإِنْ قَالُوا أَمِيرٌ مُسَلَّطٌ وَحُجَّابُ أَبْوَابٍ لَهُنَّ صَرِيرُ -
لَأَعْلَمُ أَنَّ الأَمْرَ أَمْرُكَ إِنْ تُدِنْ فَرَبٌّ، وَإِنْ تَغْفِرْ فَأَنْتَ غَفُورُ

وَقَوْلُ أَبِي العَتَاهِيَةِ[١]:

سُبْحَانَ مَنْ تَجْرِي قَضَايَاهُ عَلَىٰ مَا شَاءَ مِنْهَا غَائِبٌ وَعِيَانُ
مَلِكٌ عَزِيزٌ لَا يُفَارِقُ عِزَّهُ يُعْصَىٰ وَيُرْجَىٰ عِنْدَهُ الغُفْرَانُ
مَلِكٌ لَهُ ظَهْرُ الفَضَاءِ وَبَطْنُهُ لَمْ تُبْلِ جِدَّةَ مُلْكِهِ الأَزْمَانُ
يَبْلَىٰ لِكُلِّ مُسَلَّطٍ سُلْطَانُهُ وَاللَّهُ لَا يَبْلَىٰ لَهُ سُلْطَانُ

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ، وَلَا فِي الأَنْفُسِ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ...

فَهُوَ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ...

كَمَا يَعْلَمُ هَمَسَاتِ النُّفُوسِ، وَخَلَجَاتِ القُلُوبِ، عِلْماً لَا يَخْشَىٰ مَعَهُ مُؤْمِنٌ أَنْ يَضِيعَ عَلَيْهِ ثَوَابٌ، كَمَا لَا يَطْمَئِنُّ أَنْ يُفْلِتَ مِنْ عِقَابٍ...

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٢].

وَقَدْ بَرَزَتْ هَذِهِ الحَقَائِقُ فِي الشِّعْرِ الإِسْلَامِيِّ - قَدِيمِهِ وَحَدِيثِهِ - بُرُوزاً

---

(١) أبو العتاهية أشعاره وأخباره: ٣٧٠.

(٢) سورة الزلزلة: ٧ - ٨.

وَاضِحاً، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ «السُّهَيْلِيِّ الأَنْدَلُسِيِّ»[1]:

يَا مَنْ يَرَىٰ مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ ... أَنْتَ المُعَدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ

يَا مَنْ يُرَجَّىٰ لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا ... يَا مَنْ إِلَيْهِ المُشْتَكَىٰ وَالمَفْزَعُ

يَا مَنْ خَزَائِنُ رِزْقِهِ فِي قَوْلِ «كُنْ» ... امْنُنْ، فَإِنَّ الخَيْرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ رَحْمَانٌ رَحِيمٌ ...

وَهَّابٌ كَرِيمٌ، فَتَّاحٌ رَزَّاقٌ، لَطِيفٌ حَلِيمٌ ...

سَمِيعٌ مُجِيبٌ، عَفُوٌّ غَفُورٌ، بَرٌّ وَدُودٌ، وَاسِعٌ تَوَّابٌ.

وَقَدْ أَبْرَزَ الأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ هَذِهِ الصُّوَرَ كُلَّهَا إِبْرَازاً وَاضِحاً، وَجَلَّاهَا أَعْظَمَ تَجْلِيَةٍ.

فَاسْتَمِعْ إِلَىٰ «النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ الأَنْصَارِيِّ»، وَهُوَ يَجْلُو لَكَ طَرَفاً مِنْ هَذِهِ الصُّورَةِ فَيَقُولُ[2]:

كُلُّ شَيْءٍ سِوَىٰ المَلِيكِ يَبِيدُ ... لَا يَبِيدُ المُسَبَّحُ المَحْمُودُ

مَالِكُ المُلْكِ لَا يُشَارَكُ فِيهِ ... وَلَهُ الحُكْمُ فَاعِلاً مَا يُرِيدُ

وَلَهُ الشِّيبُ وَالشَّبَابُ جَمِيعاً ... كُلُّهُمْ، وَالمُرَشَّحُ المَوْلُودُ

وَلَهُ الجَارِيَاتُ فِي لُجَجِ البَحْـ ... ـرِ، فَمِنْهَا مَوَاخِرٌ وَرُكُودُ

---

(١) هو عبدُ الرحمن السهيليُّ الإمامُ المشهورُ، وصاحبُ «الرَّوض الأُنُف» في سيرةِ الرَّسُولِ الأعظمِ ﷺ، وكانَ ذَا حظٍّ وَافرٍ منَ العلْمِ والأدبِ، وقَدْ وردَتْ أبياتُهُ في «نَكتِ الهَميانِ».

(٢) النُّعمانُ بن بشيرٍ: صحابيٌّ جليلٌ، وأميرٌ شجاعٌ، وشاعرٌ خطيبٌ، لحِق بجوارِ ربِّه سنة ٦٥ للهجرةِ، جمعَ شعره وحقَّقهُ نعمانُ الجبُوريُّ ومنهُ أخذنَا هذه القطعةَ.

وَلَهُ الطَّيْرُ فِي السَّمَاءِ تَرَاهُنَّ   قَرِيباً ، وَدُونَهُنَّ صُعُودُ
لَيْسَ لِلَّهِ ذِي المَعَارِجِ فِيمَنْ   تَحْمِلُ الأَرْضُ وَالسَّمَاءُ نَدِيدُ

وَهَذَا « أَبُو العَتَاهِيَةِ » يَجْلُو طَرَفاً آخَرَ مِنَ الصُّورَةِ فَيَقُولُ(١):

أَأُخَيَّ إِنَّ الخَلْقَ فِي طَبَقَاتِهِ   يُمْسِي وَيُصْبِحُ لِلإِلَهِ عِيَالا
وَاللَّهُ أَكْبَرُ مَنْ رَجَوْتَ نَوَالَهُ   وَاللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ يُنِيلُ نَوَالا
مَلِكٌ تَوَاضَعَتِ المُلُوكُ لِعِزِّهِ   وَجَلَالِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ
لَا شَيْءَ مِنْهُ أَدَقُّ لُطْفَ إِجَابَةٍ   بِالعَالَمِينَ ، وَلَا أَجَلُّ جَلَالا

وَهَذَا « الحَسَنُ بْنُ هَانِئٍ » يَجْلُو طَرَفاً ثَالِثاً مِنَ الصُّورَةِ فَيَقُولُ(٢):

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْماً فَلَا تَقُلْ :   خَلَوْتُ ، وَلَكِنْ قُلْ : عَلَيَّ رَقِيبُ
لَهَوْنَا ـ لَعَمْرُ اللَّهِ ـ حَتَّىٰ تَتَابَعَتْ   ذُنُوبٌ عَلَىٰ آثَارِهِنَّ ذُنُوبُ
فَيَالَيْتَ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ مَا مَضَىٰ   وَيَأْذَنُ فِي تَوْبَاتِنَا فَنَتُوبُ

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاحِدٌ أَحَدٌ ، فَرْدٌ صَمَدٌ ، وَمِنْ خِلَالِ هَذِهِ الوَحْدَانِيَّةِ يَبْدُو الفَرْقُ الكَبِيرُ بَيْنَ التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ لِلخَالِقِ ، وَبَيْنَ التَّصَوُّرَاتِ الأُخْرَىٰ .

فَالمَجُوسُ ـ مَثَلاً ـ يَعْتَقِدُونَ بِثُنَائِيَّةِ الرَّبِّ ، فَهُنَاكَ إِلَهُ الظُّلْمَةِ وَإِلَهُ النُّورِ .

وَالنَّصَارَىٰ يَجْعَلُونَ اللَّهَ ثَلَاثَةً ...

---

(١) أبو العتاهية « أشعاره وأخباره » ٣٠٩.

(٢) ديوان أبي نُوَاس : صنعة الغزالي : ٦١٥، وقد نسبت هذه الأبيات لأبي العتاهية وهي بشعره أشبه ، انظر ديوان أبي العتاهية تحقيق الدكتور شكري فيصل .

وَاليُونَانُ يَدِينُونَ بِعَدَدٍ لَا يُحْصَىٰ مِنَ الآلِهَةِ ...

أَمَّا الإِسْلَامُ فَقَدْ لَخَّصَ حَقِيقَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلَاصِ ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ .

وَإِنَّ فِي وُسْعِ الأَدِيبِ الإِسْلَامِيِّ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ كُلِّ صِفَةٍ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ طَائِفَةً مِنَ الأَعْمَالِ الأَدَبِيَّةِ الفَذَّةِ الَّتِي تُفَتِّحُ العُقُولَ ، وَتُغْنِي النُّفُوسَ ، وَتَصْقُلُ المَشَاعِرَ ، وَتَمْلَؤُهَا إِيمَاناً بِفَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَإِذْعَاناً بِوُجُودِهِ ، وَاعْتِزَازاً بِطَاعَتِهِ .

* * *

ب ـ التَّصَوُّرُ الإِسْلَامِيُّ لِلْكَوْنِ

الكَوْنُ فِي التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الكُبْرَىٰ ، وَصُورَةٌ فَذَّةٌ مِنْ صُوَرِ قُدْرَتِهِ العُظْمَىٰ ، وَشَاهِدٌ مَا بَعْدَهُ مِنْ شَاهِدٍ عَلَىٰ وُجُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ .

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّكَ تَمَلَّيْتَ مِنَ ﴿ **الشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا** ﴾[١].

وَرَأَيْتَ كَيْفَ تَتَحَرَّكُ جَمِيعُهَا فِي إِحْكَامٍ حَكِيمٍ ، وَتَمْضِي كُلُّهَا بِحُسْبَانٍ دَقِيقٍ فـ ﴿ **لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدرِكَ القَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾[٢].

وَلَا بُدَّ أَنَّكَ تَأَمَّلْتَ البِذْرَةَ الجَامِدَةَ وَهِيَ تَسْتَقِرُّ فِي بَاطِنِ الأَرْضِ كَمَا تَسْتَقِرُّ النُّطَفُ فِي الأَرْحَامِ ، فَإِذَا دَبَّتْ فِيهَا الحَيَاةُ ـ بِإِذْنِ رَبِّهَا ـ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَغَدَتْ زَهْرَةً نَضِرَةً تَسُرُّ العُيُونَ ، أَوْ سُنْبُلَةً حَافِلَةً تُشْبِعُ البُطُونَ ، أَوْ ثَمَرَةً شَهِيَّةً تَلَذُّ الأَفْوَاهَ .

إِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ مِرْآةٌ مَصْقُولَةٌ تُبْرِزُ قُدْرَةَ العَلِيِّ الحَكِيمِ بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَآيَةٌ عَلَىٰ وُجُودِهِ ، وَثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ فَضْلِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ[٣].

---

(١) سورة الشمس: ١ ـ ٤.

(٢) سورة يس: ٤٠.

(٣) انظر «منهج الفن الإسلامي» لمحمد قطب: ٢٣ وما بعدها.

وَقَدْ أَلَحَّ القُرْآنُ الكَرِيمُ فِي دَعْوَتِنَا إِلَىٰ الوُقُوفِ فِي مِحْرَابِ هَذَا الكَوْنِ، وَحَضَّنَا عَلَىٰ التَّأَمُّلِ فِي رَوَائِعِ بَدَائِعِهِ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِنْ مَآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ، وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

وَلَقَدِ اسْتَجَابَ كَثِيرٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ لِتِلْكَ الدَّعْوَةِ الصَّافِيَةِ ... دَعْوَةِ الوُقُوفِ فِي مِحْرَابِ الكَوْنِ الفَسِيحِ، وَالتَّمَلِّي مِنْ رَوَائِعِ مَا فِيهِ، فَهَذَا الشَّاعِرُ الأَنْدَلُسِيُّ «ابْنُ خَفَاجَةَ»، يَصِفُ لَنَا جَبَلاً مِنْ شَوَامِخِ الجِبَالِ فَيَقُولُ[2]:

وَأَرْعَنَ طَمَّاحِ الذُّؤَابَةِ[3] بَاذِخٍ ... يُطَاوِلُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِغَارِبِ[4]

يَسُدُّ مَهَبَّ الرِّيحِ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ ... وَيَزْحَمُ لَيْلاً شُهْبَهُ بِالمَنَاكِبِ

وَقُورٌ عَلَىٰ ظَهْرِ الفَلَاةِ كَأَنَّهُ ... طَوَالَ اللَّيَالِي مُفْكِرٌ بِالعَوَاقِبِ

يَلُوثُ عَلَيْهِ الغَيْمُ سُودَ عَمَائِمٍ[5] ... لَهَا مِنْ وَمِيضِ البَرْقِ حُمْرُ ذَوَائِبِ[6]

ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَىٰ الكَلَامِ عَمَّا أَفْضَىٰ إِلَيْهِ ذَلِكَ الجَبَلُ العَرِيقُ مِنْ أَخْبَارٍ، وَمَا كَشَفَ لَهُ مِنْ أَسْرَارٍ، وَمَا أَثَارَ فِيهِ مِنْ مَشَاعِرَ فَيَقُولُ:

---

(١) سورة البقرة: ١٦٤.

(٢) شعرُ ابن خفاجة، تحقيق وشرح كرم البستاني: ١٧٤.

(٣) وأرعن طماح الذؤابة: رُبَّ جبلٍ شاهقٍ شامخ القمة.

(٤) أعنان السماء: نواحي السماء، الغارب: العنق، وأَعْلَىٰ كل شيء.

(٥) يلوث: يلف ويعصب، ولاث العمامة عَلَىٰ رأسه: لفها وعصبها.

(٦) الذوائب: جمع ذؤابة وهي الشعر المضفور.

أَصَخْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ أَخْرَسُ صَامِتٌ فَحَدَّثَنِي لَيْلَ السُّرَىٰ[1] بِالعَجَائِبِ

وَقَالَ : أَلَا كَمْ كُنْتُ مَلْجَأَ قَاتِلٍ وَمَوْطِنَ أَوَّاهٍ[2] تَبَتَّلَ تَائِبِ

وَكَمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدْلِجٍ وَمُؤَوِّبٍ[3] وَقَالَ بِظِلِّي[4] مِنْ مَطِيٍّ وَرَاكِبِ

وَلَاطَمَ مِنْ نُكْبِ الرِّيَاحِ مَعَاطِفِي وَزَاحَمَ مِنْ خُضْرِ البِحَارِ جَوَانِبِي

فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوَتْهُمْ يَدُ الرَّدَىٰ وَطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النَّوَىٰ وَالنَّوَائِبِ

فَمَا خَفْقُ أَيْكِي[5] غَيْرُ رَجْفَةِ أَضْلُعٍ وَلَا نَوْحُ وُرْقِي[6] غَيْرُ صَرْخَةِ نَادِبِ

وَمَا غَيَّضَ السُّلْوَانُ دَمْعِي وَإِنَّمَا نَزَفْتُ دُمُوعِي فِي فِرَاقِ الصَّوَاحِبِ

فَحَتَّىٰ مَتَىٰ أَبْقَىٰ وَيَظْعَنُ صَاحِبٌ أُوَدِّعُ مِنْهُ رَاحِلاً غَيْرَ آيِبِ

وَحَتَّىٰ مَتَىٰ أَرْعَىٰ الكَوَاكِبَ سَاهِراً فَمِنْ طَالِعٍ أُخْرَىٰ اللَّيَالِي وَغَارِبِ

فَرُحْمَاكَ يَا مَوْلَايَ دَعْوَةَ ضَارِعٍ يَمُدُّ إِلَىٰ نُعْمَاكَ رَاحَةَ رَاغِبِ

ثُمَّ يَخْتِمُ الشَّاعِرُ قَصِيدَتَهُ الفَذَّةَ بِمَا زَوَّدَهُ بِهِ ذَلِكَ الجَبَلُ الوَقُورُ مِنْ عِبَرٍ وَعِظَاتٍ ، وَمَا أَثَارَ فِي نَفْسِهِ مِنْ عَوَاطِفَ وَمَشَاعِرَ فَيَقُولُ :

فَأَسْمَعَنِي مِنْ وَعْظِهِ كُلَّ عِبْرَةٍ يُتَرْجِمُهَا عَنْهُ لِسَانُ التَّجَارِبِ

فَسَلَّىٰ بِمَا أَبْكَىٰ ، وَسَرَّىٰ بِمَا شَجَا وَكَانَ عَلَىٰ لَيْلِ السُّرَىٰ خَيْرَ صَاحِبِ

وَقُلْتُ ـ وَقَدْ نَكَّبْتُ عَنْهُ لِطِيَّةٍ[7] سَلَامٌ فَإِنَّا مِنْ مُقِيمٍ وَذَاهِبِ

---

(١) السُّرَىٰ : السَّيْرُ فِي الليل .

(٢) الأواه : الكثير التوجّع .

(٣) المدلج : السائر في الليل ، والمؤوِّب : العائد .

(٤) وقال بظلي : استراح في ظلّي وقت القيلولة التي هي أوسط النهار .

(٥) الأَيْكُ : جمع مفرده أيكة ، وهي الشجر الكثير الملتف .

(٦) الوُرْقُ : جمع مفرده ورقاء ، وهي الحمامة .

(٧) نكبت عنه لطية : عدلت إِلَىٰ ناحية أخرىٰ .

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الكَوْنَ بِبِحَارِهِ الزَّاخِرَةِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَأَرْضِهِ الحَافِلَةِ بِالغِذَاءِ وَالنَّمَاءِ ، وَسَمَاوَاتِهِ المُرَصَّعَةِ بِالنُّجُومِ هِدَايَةً لِلإِنْسَانِ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ ، وَجِبَالِهِ الشَّاهِقَةِ المُعَانِقَةِ لِلْغُيُومِ ، وَطَيْرِهِ السَّابِحِ بِاللَّحْمِ الشَّهِيِّ ، وَحَيَوَانِهِ السَّارِحِ بِالمَنَافِعِ الَّتِي لَا تُحْصَىٰ ...

كُلُّ ذَلِكَ مُسَخَّرٌ لِهَذَا الإِنْسَانِ - بِنِعْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ - مَوْضُوعٌ فِي تَصَرُّفِهِ لِيَنْتَفِعَ بِهِ وَيَسْتَمْتِعَ ...

فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي ﴿ **سَخَّرَ البَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحماً طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَىٰ الفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[1]...

وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي ﴿ **سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ، وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ...** ﴾[2].

وَقَدْ تَنَاوَلَ « أَبُو الفَرَجِ الهَمَذَانِيُّ » طَرَفاً مِنْ هَذِهِ الصُّوَرِ فَقَالَ[3]:

فِي ظَلَامِ الدُّجَىٰ وَضَوْءِ النَّهَارِ ... آيَةٌ لِلْمُهَيْمِنِ الجَبَّارِ
فَلَكٌ دَائِرٌ وَقُطْبٌ مُقِيمٌ ... وَنُجُومٌ تَجْرِي بِغَيْرِ اخْتِيَارِ
وَسَمَاءٌ قَامَتْ بِغَيْرِ عِمَادٍ ... فَوْقَ أَرْضٍ رَسَتْ بِغَيْرِ قَرَارِ
وَصَعِيدٌ يَحُولُ نَبْتاً نَضِيراً ... مُونِقَ الرَّوْضِ مُورِقَ الأَشْجَارِ
شِرْبُهُ وَاحِدٌ وَأَلْوَانُهُ شَتَّـ ... ـىٰ ، فَمِنْ أَصْفَرٍ وَمِنْ جُلَّنَارِ[4]

---

(١) سورة النحل: ١٤.
(٢) سورة الجاثية : ١٣.
(٣) يتيمة الدهر : ٩٨/٢ من قصيدة بلغت سبعة عشر بيتاً .
(٤) الجلَّنار : زهر الرمان.

شَهِدَ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ طُرًّا أَنَّ هَـذَا مِـنْ صَـنْـعَـةِ الـجَـبَّـارِ

ثُمَّ إِنَّ العَلَاقَةَ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَالكَوْنِ عَلَاقَةُ صَدَاقَةٍ وَتَعَاطُفٍ وَصَفَاءٍ، لَا عَلَاقَةَ خُصُومَةٍ وَقَهْرٍ وَبَغْضَاءَ ...

فَالإِنْسَانُ يُعَمِّرُ هَذَا الكَوْنَ وَيُثَمِّرُهُ وَيُنَمِّيهِ، وَالكَوْنُ يَبْذُلُ لِلإِنْسَانِ خَيْرَهُ وَبِرَّهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ.

هَذَا، وَإِنَّ الكَوْنَ الَّذِي يَبْدُو لِغَيْرِ المُسْلِمِ جَامِداً هَامِداً، لَهُ فِي التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ حَيَاةٌ وَإِحْسَاسٌ، وَقَبُولٌ وَرَفْضٌ ـ عَلَىٰ وَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ ـ فَهُوَ يُنَادَىٰ فَيُجِيبُ، وَيُعْرَضُ عَلَيْهِ بَعْضُ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِ فَيَأْبَاهُ. وَإِذَا أَرَدْتَ دَلِيلاً عَلَىٰ ذَلِكَ فَاسْتَمِعْ إِلَىٰ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا: أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1].

وَاسْتَمِعْ أَيْضاً إِلَىٰ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَىٰ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْـجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ...﴾[2].

وَأَخِيراً فَإِنَّ هَذَا الكَوْنَ يُشَارِكُ الإِنْسَانَ فِي أَسْمَىٰ حَالَاتِهِ، وَيُشَاطِرُهُ أَعَزَّ أَفْرَاحِ رُوحِهِ، وَيَلْتَقِي مَعَهُ فِي الغَايَةِ الَّتِي خُلِقَ مِنْ أَجْلِهَا، أَلَا وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ الوَاحِدِ الأَحَدِ، وَتَسْبِيحُهُ، وَتَنْزِيهُهُ وَالتَّقْدِيسُ لَهُ. وَإِذَا أَرَدْتَ دَلِيلاً عَلَىٰ ذَلِكَ فَاسْتَمِعْ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ

---

(١) سورة فصلت: ١١. (٢) سورة الأحزاب: ٧٢.

كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[1].

وَقَدْ يَظُنُّ ظَانٌّ أَنَّ الصَّلَاةَ وَالتَّسْبِيحَ الوَارِدَيْنِ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ إِنَّمَا يُرَادُ بِهِمَا غَيْرُ مَعْنَاهُمَا الحَقِيقِيِّ ، وَهُوَ أَمْرٌ دَفَعَهُ أَسْلَافُنَا دَفْعاً لَا يَقْبَلُ الشَّكَّ ، حَيْثُ يَقُولُ « ابْنُ قَيِّمِ الجوزِيَّةِ » فِي كِتَابِهِ « مِفتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ »[2] فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ :

﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾[3]:

إِنَّ النَّجْمَ مَا لَيسَ لَهُ سَاقٌ مِنَ النَّبَاتِ ، وَإِنَّ الشَّجَرَ مَا لَهُ سَاقٌ ، وَإِنَّهَا كُلَّهَا سَاجِدَةٌ لِلَّهِ مُسَبِّحَةٌ بِحَمْدِهِ ، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ ...

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ...﴾[4].

ثُمَّ يُتَابِعُ قَائِلاً :

وَلَعَلَّكَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ غَلُظَ حِجَابُهُ ، فَذَهَبَ إِلَىٰ أَنَّ المُرَادَ بِتَسْبِيحِهَا « دَلَالَتُهَا عَلَىٰ صَانِعِهَا فَقَطْ » ، فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا القَوْلَ يَظْهَرُ بُطْلَانُهُ مِنْ أَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ وَجْهاً .

ثُمَّ قَالَ : فَفِي أَيِّ لُغَةٍ تُسَمَّىٰ الدَّلَالَةُ عَلَىٰ الصَّانِعِ تَسْبِيحاً وَسُجُوداً وَصَلَاةً وَتَأْوِيباً[5] وَهُبُوطاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ ؟! .

---

(١) سورة النور: ٤١.

(٢) ١/ ٢٧٧.

(٣) سورة الرحمن: ٦.

(٤) سورة الإسراء: ٤٤.

(٥) التأويب: ترجيع الصوت وترديده، والمقصود هنا ترديد الصوت بالذكر والدعاء.

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُخْبِرُ عَنْهَا تَارَةً بِالتَّسْبِيحِ ، وَتَارَةً بِالسُّجُودِ ، وَتَارَةً بِالصَّلَاةِ حَيْثُ يَقُولُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ ...

﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ...﴾[1].

أَفَيَقْبَلُ عَقْلُكَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَىٰ الآيَةِ : « قَدْ عَلِمَ اللَّهُ دَلَالَتَهُ عَلَيْهِ ثُمَّ سَمَّىٰ تِلْكَ الدَّلَالَةَ صَلَاةً وَتَسْبِيحاً » ؟ .

وَبَعْدُ ، أَفَتَحْسَبُ بَعْدَ هَذَا أَنَّ فَلْسَفَةً مِنَ الفَلْسَفَاتِ ، أَوْ نَظْرَةً مِنَ النَّظَرَاتِ تَصَوَّرَتِ الكَوْنَ مِثْلَ هَذَا التَّصَوُّرِ ؟ ...

فَكَمْ هُوَ رَائِعٌ وَنَافِعٌ وَمُمْتِعٌ فِي وَقْتٍ مَعاً أَنْ يَشْعُرَ الإِنْسَانُ بِأَنَّ سَائِرَ مَا حَوْلَهُ صَدِيقٌ لَهُ ، حَبِيبٌ إِلَىٰ قَلْبِهِ ، وَأَنَّهُ يُغْدِقُ عَلَيْهِ خَيْرَاتِهِ مِنْ غَيْرِ مَنٍّ وَلَا أَذًى ، وَأَنَّهُ يُشَارِكُهُ فِي أَرْقَىٰ مَسَرَّاتِهِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي تَتَجَلَّىٰ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَلَقَدْ أَبْرَزَتِ الشَّاعِرَةُ المِصْرِيَّةُ المُعَاصِرَةُ السَّيِّدَةُ « شَرِيفَةُ فَتْحِي » أَهَمَّ عَنَاصِرِ التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ لِلكَوْنِ فِي قَصِيدَتِهَا الرَّائِعَةِ الَّتِي تَقُولُ فِيهَا[2]:

تَبَارَكْتَ يَا رَبُّ مِنْ خَالِقٍ صَنَعْتَ فَأَبْدَعْتَ أَبْهَىٰ الصُّوَرْ

أَلَا كَيْفَ أَحْيَيْتَ هَذَا التُّرَابَ ، وَأَنْبَتَّ فِيهِ ظَلِيلَ الشَّجَرْ

وَنَسَّقْتَ - يَا رَبُّ - حُسْنَ الزُّهُورِ ، وَأَخْرَجْتَ مِنْهَا الجَنَىٰ وَالثَّمَرْ

---

(١) سورة النور : ٤١.

(٢) شريفة فتحي : شاعرة معاصرة لها ديوانان هما : « لهب وأمواج » و« في محراب الجمال » وقد توجت ديوانها الأول بهذه القصيدة.

وَأَنْطَقْتَ بِاللَّحْنِ تِلْكَ الطُّيُورَ، تُغَرِّدُ شَادِيَةً فِي السَّحَرْ
وَسَوَّيْتَ - يَا أَحْكَمَ الحَاكِمِينَ - مِنَ الطِّينِ وَالمَاءِ هَذَا البَشَرْ
وَعَلَّمْتَهُ مِنْ لَدُنْكَ البَيَانَ، وَأَوْدَعْتَ عَيْنَيْهِ نُورَ البَصَرْ
وَكَمْ ذَا تُغَيِّرُ مِنْ حَالِهِ، وَكَمْ مِنْ قَضَاءٍ وَكَمْ مِنْ قَدَرْ
فَطَوْراً شِتَاءٌ وَطَوْراً رَبِيعٌ، وَحِيناً رِيَاحٌ وَحِيناً مَطَرْ
أَضَاءَتْ لَهُ الأَرْضَ - يَا ذَا الجَلَالِ - فَشَمْسٌ نَهَاراً، وَلَيْلاً قَمَرْ
تَعَالَيْتَ يَا بَاعِثَ النَّارِ نُوراً، وَيَا مَنْ يُفَجِّرُ قَلْبَ الحَجَرْ
وَيَا مَنْ إِذَا أَمْرُهُ قَالَ: كُنْ يَكُونُ بِقُدْرَتِهِ مَا أَمَرْ

ذَلِكُمْ هُوَ التَّصَوُّرُ الإِسْلَامِيُّ لِلْكَوْنِ، وَهُوَ تَصَوُّرٌ يَهُزُّ مَشَاعِرَ الأُدَبَاءِ وَالشُّعَرَاءِ هَزًّا، وَيَفْتَحُ أَمَامَهُمُ الآفَاقَ لِإِبْدَاعِ أَلْوَانٍ مِنَ الأَدَبِ الَّذِي نَرْنُو إِلَيْهِ وَنَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي أَدَبِنَا الإِسْلَامِيِّ المَنْشُودِ.

* * *

ج ـ التَّصَوُّرُ الإِسْلَامِيُّ لِلإِنْسَانِ

الإِنْسَانُ فِي التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ جَسَدٌ وَرُوحٌ ، أَوْ قَبْضَةٌ مِنْ طِينٍ وَنَفْخَةٌ مِنْ رُوحِ اللَّهِ .

وَلَا تَتِمُّ إِنْسَانِيَّةُ الإِنْسَانِ إِلَّا بِهَذَيْنِ العُنْصُرَيْنِ ، وَلَا يَتَحَقَّقُ كَمَالُهُ إِلَّا بِتَوَازُنِهِمَا ، فَلَيْسَ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَبْخَسَ الجَسَدَ حَقَّهُ لِيَزِيدَ مِنْ حَقِّ الرُّوحِ ، وَلَيْسَ لَهُ أَيْضاً أَنْ يَبْخَسَ الرُّوحَ حَقَّهَا لِمَرْضَاةِ الجَسَدِ .

وَعَلَىٰ هَذَا فَإِنَّ الإِسْلَامَ لَا يُؤْمِنُ بِحَيَوَانِيَّةِ الإِنْسَانِ كَمَا تَرَاهُ النَّظْرَةُ الدَّارِوِينِيَّةُ ، وَلَا يُؤْمِنُ بِرَهْبَنَةِ الإِنْسَانِ كَمَا تَرَاهُ النَّظْرَةُ البُوذِيَّةُ وَالهِنْدُوكِيَّةُ ، وَإِنَّمَا تَتَجَلَّىٰ عَبْقَرِيَّةُ الإِنْسَانِ ـ فِي التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ ـ حِينَ نَجِدُهُ يَسِيرُ بِجِسْمِهِ عَلَىٰ الأَرْضِ ، وَيَسْمُو بِرُوحِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ .

إِنَّ هَذِهِ هِيَ الرَّكِيزَةُ الأُولَىٰ مِنْ رَكَائِزِ التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ لِلإِنْسَانِ ، وَلَقَدْ عَبَّرَ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ الإِسْلَامِيِّينَ فِي القَدِيمِ وَالحَدِيثِ .

فَاسْتَمِعْ إِلَىٰ الأُسْتَاذِ « عُمَرَ بَهَاءِ الدِّين الأَمِيري » ، وَهُوَ يُصَوِّرُ لَكَ هَذَيْنِ الجَانِبَيْنِ فَيَشْكُو أَحْيَاناً مِنْ طُغْيَانِ أَحَدِهِمَا عَلَىٰ الآخَرِ حَيْث يَقُولُ[1] :

تُسَائِلُنِي ـ يَا عَقْلُ ـ كَشْفَ حَقِيقَتِي ... وَكَيْفَ أَرَىٰ ـ يَا عَقْلُ ـ مَا اللَّهُ مُخْفِيهِ ؟

يُحِسُّ كَيَانِي حِينَ يَصْفُو وَيَرْتَقِي ... بِرُوحٍ سَنِيٍّ يَنْتَشِي فِي مَجَالِيهِ[2]

---

(١) ديوان « مع الله » : ٩٤ . (٢) السني : الوضاء البهي ... وينتشي في مجاليه : ينعم في رحابه وبهنأ .

وَحِينَ يُغَشِّيهِ مِنَ التُّرْبِ عِثْيَرٌ يَدِبُّ عَلَىٰ الأَرْضِينَ يَعْمَهُ فِي تِيهِ[1]
تَذَبْذَبَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالطِّينِ عُنصُرِي فَلَا الطِّينُ يُرْدِيهِ وَلَا الرُّوحُ يُعْلِيهِ[2]
تَرَكْتُ شِرَاعِي فِي العُبَابِ مُسَلِّماً لَعَلَّ رِيَاحَ اللَّهِ بِاللُّطْفِ تُزْجِيهِ[3]
وَوَجَّهْتُ أَعْمَاقِي وَرُوحِي وَطِينَتِي إِلَىٰ اللَّهِ أَرْجُو عِنْدَهُ خَيْرَ تَوْجِيهِ
فَطَافَ بِقَلْبِي طَائِفٌ مِنْ سَكِينَةٍ يَعِزُّ عَلَىٰ عَقْلِي اكْتِنَاهُ مَعَانِيهِ

وَلَقَدْ وَصَفَ القُرْآنُ الكَرِيمُ الإِنْسَانَ بِغَايَةِ الحَمْدِ، كَمَا وَصَفَهُ بِغَايَةِ الذَّمِّ، فَهُوَ - مِنْ نَاحِيَةٍ - الكَائِنُ المُكَرَّمُ المَخْلُوقُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَأَكْمَلِ صُورَةٍ.

وَهُو مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ الظَّلُومُ، الكَفَّارُ، الكَنُودُ، المُحِبُّ لِلشَّهَوَاتِ...

فَهُوَ - آناً - يَتَغَلَّبُ عَلَىٰ شَهَوَاتِهِ فَيَرْتَفِعُ مُحَلِّقاً فِي أَجْوَازِ[4] الفَضَاءِ، مُحَقِّقاً أَرْقَىٰ مَا فِيهِ مِنْ طَاقَاتٍ فَيَكُونُ مَمْدُوحاً.

وَآناً ثَانِياً يَخْضَعُ لِشَهَوَاتِهِ فَتَرْكَبُهُ وَتَسْتَذِلُّهُ وَتَقُودُهُ مِنْ خِطَامِهِ كَمَا يُقَادُ البَعِيرُ فَيَكُونُ مَذْمُوماً.

وَآناً ثَالِثاً يَعِيشُ فِي صِرَاعٍ بَيْنَ طِينَةِ الأَرْضِ وَنَفْخَةِ اللَّهِ العُلْوِيَّةِ فَيُعَانِي مِنْ هَذَا الصِّرَاعِ مَا يُعَانِي، وَتَشْتَدُّ مُعَانَاتُهُ إِذَا أَلَمَّتْ بِهِ لَحْظَةُ ضَعْفٍ فَسَقَطَ فِي حَمْأَةِ الطِّينِ، وَتَمَرَّغَ فِي تُرَابِ الشَّهْوَةِ. وَلَا تَخِفُّ عَنْهُ هَذِهِ المُعَانَاةُ إِلَّا بِالأَوْبَةِ إِلَىٰ رَبِّهِ، وَالتَّوْبَةِ مِنْ ذَنْبِهِ، وَالأَمَلِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:

---

(١) العِثْير: الغبار... يَعْمَه في تيه: يتحير في أرض قفر تضلّ النّاس.
(٢) تذبذب: تردد متحيراً بين أمرين، والردىٰ: هو الهلاك.
(٣) تُزجيه: تسوقه وتوجهه... والعباب: أمواج البحر العالية. (٤) أَجوَاز: جوف الفضاء الواسع البعيد.

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ، أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَآؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ ﴾[1].

وَفِي هَذَا التَّصَوُّرِ لِلإِنْسَانِ وَاقِعِيَّةٌ انْفَرَدَ بِهَا الفِكْرُ الإِسْلَامِيُّ عَنِ الأَفْكَارِ الأُخْرَىٰ .

وَفِيهِ ـ فَوْقَ ذَلِكَ ـ فَيْضٌ غَزِيرٌ مِنَ الصُّوَرِ الفَنِّيَّةِ الَّتِي تَمُدُّ الأَدِيبَ الإِسْلَامِيَّ ـ نَاثِراً كَانَ أَمْ شَاعِراً ـ بِيَنَابِيعَ مِنَ الإِبْدَاعِ الأَدَبِيِّ الرَّائِعِ الَّذِي يَهُزُّ النُّفُوسَ هَزًّا .

وَفِيهِ تَعْوِيضٌ كَبِيرٌ عَنْ ذَلِكَ الصِّرَاعِ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَبَيْنَ القُوَىٰ المُغَيَّبَةِ الَّذِي اعْتَمَدَتْ عَلَيْهِ الأَعْمَالُ الأَدَبِيَّةُ العَالَمِيَّةُ وَلَا سِيَّمَا فِي القِصَصِ ، وَالمَسْرَحِيَّاتِ .

وَلَقَدْ تَفَنَّنَ الشُّعَرَاءُ الإِسْلَامِيُّونَ أَيَّمَا تَفَنُّنٍ فِي تَصْوِيرِ هَذَا الجَانِبِ مِنَ الإِنْسَانِ ، وَأَبْدَعُوا مِنَ الآثَارِ مَا يَسْتَلِينُ القُلُوبَ القَاسِيَةَ وَيَسْتَدِرُّ الدُّمُوعَ العَاصِيَةَ .

اسْتَمِعْ إِلَىٰ « مَعْرُوفِ الكَرْخِيِّ »[2] وَهُوَ يَئِنُّ مِنْ صِرَاعِهِ مَع ذُنُوبِهِ أَنِيناً يُقَطِّعُ نِيَاطَ القُلُوبِ حَيْثُ يَقُولُ :

(١) سورة آل عمران : ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) هو معروف بن فيروز الكرخي الزاهد الورع ، ولد في كرخ بغداد ، ونشأ وتوفي هناك سنة ٢٠٠ للهجرة ، اشتهر بالصلاح ، وقصده الناس للتبرك به ، وكان الإمام أحمد بن حنبل في جملة من يختلف إليه ، والبيتان في « طبقات الأولياء » : ٢٢٣ انظر ترجمته في « سير أعلام النبلاء » وفي غيره .

أَيُّ شَيْءٍ تُرِيدُ مِنِّي الذُّنُوبُ ؟ شُغِفَتْ بِي ، فَلَيْسَ عَنِّي تَغِيبُ
مَا يَضُرُّ الذُّنُوبَ لَوْ أَعْتَقَتْنِي رَحْمَةً بِي ؟ فَقَدْ عَلَانِي المَشِيبُ

ثُمَّ اسْتَمِعْ « لِسَعِيدِ بْنِ وَهْبٍ » ، وَهُوَ يَمْضِي إِلَىٰ البَيْتِ الحَرَامِ مَشْياً عَلَىٰ الأَقْدَامِ ؛ لِيَغْسِلَ الحَوْبَةَ بِالتَّوْبَةِ حَيْثُ يَقُولُ :

قَدَمَيَّ اعْتَوِرَا رَمْلَ الكَثِيبِ وَاطْرُقَا الآجِنَ مِنْ مَاءِ القَلِيبِ
رُبَّ يَوْمٍ رُحْتُمَا فِيهِ عَلَىٰ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَفِي وَادٍ خَصِيبِ
فَاحْسِبَا ذَاكَ بِهَذَا ، وَاصْبِرَا وَخُذَا مِنْ كُلِّ فَنٍّ بِنَصِيبِ
إِنَّمَا أَمْشِي لِأَنِّي مُذْنِبٌ فَلَعَلَّ اللَّهَ يَعْفُو عَنْ ذُنُوبِي

وَأَخِيراً فَهَذَا أَبُو الخَاطِئِينَ « أَبُو نُوَاسٍ » يَقُولُ[1]:

حَتَّىٰ مَتَىٰ يَا نَفْسُ تَغْتَرِّينَ بِالأَمَلِ الكَذُوبِ
يَا نَفْسُ تُوبِي قَبْلَ أَلَّا تَسْتَطِيعِي أَنْ تَتُوبِي
وَاسْتَغْفِرِي لِذُنُوبِكِ الرَّحْمَنَ غَفَّارَ الذُّنُوبِ
إِنَّ الحَوَادِثَ كَالرِّيَاحِ عَلَيْكِ دَائِمَةُ الهُبُوبِ
وَالمَوْتُ شَرْعٌ وَاحِدٌ ، وَالخَلْقُ مُخْتَلِفُو الضُّرُوبِ
وَالسَّعْيُ فِي طَلَبِ التُّقَىٰ مِنْ خَيْرِ مَكْسَبَةِ الكَسُوبِ

ثُمَّ إِنَّ الإِنْسَانَ فِي التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ هُوَ الكَائِنُ الوَحِيدُ المُكَلَّفُ ، وَهُوَ الكَائِنُ ذُو الضَّمِيرِ المَسْئُولُ الَّذِي يَحْمِلُ تَبِعَةَ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ ، وَيَكُونُ رَهِيناً

---

(١) ديوانُ أبي نُوَاس تحقيق الغزالي: ٦١٦... والأبيات نسبت لأبي العتاهية أيضاً، انظر ديوانه ص ٤٤.

بِمَا كَسَبَ ، وَلَا تُغْنِي عَنْهُ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ .

وَالإِسْلَامُ لَمْ يُمَيِّزِ الإِنْسَانَ بِخَاصَّةِ التَّكْلِيفِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ مَيَّزَهُ بِخَاصَّةِ العَقْلِ بِأَوْسَعِ مَعَانِي هَذِهِ الخَاصَّةِ ، وَأَغْنَىٰ وَظَائِفِهَا ، فَلَا تَكْلِيفَ مِنْ غَيْرِ عَقْلٍ ، ذَٰلِكَ لِأَنَّ العَقْلَ يَصِلُ بِالإِنْسَانِ - بِإِذْنِ رَبِّهِ - إِلَىٰ حَقَائِقِ الأُمُورِ ، وَهُوَ المُرْشِدُ الَّذِي يُمَكِّنُهُ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الهِدَايَةِ وَالضَّلَالِ .

وَالنَّاسُ فِي التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ - بَعْدَ هَذَا - إِخْوَةٌ فِي البَشَرِيَّةِ ؛ وَذَٰلِكَ لِأَنَّهُمْ نَشَأُوا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَاشْتَرَكُوا فِي المَبْدَإِ وَالمَصِيرِ .

وَالمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ إِخْوَةٌ فِي الإِسْلَامِ ، لَا يَفْضُلُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَداً إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ ، فَأَبُوهُمُ الإِسْلَامُ وَأُمُّهُمْ شِرْعَتُهُ ، وَمُثُلُهُ وَقِيَمُهُ ، وَأَفْضَلُهُمْ فِي هَذَا النَّسَبِ أَتْقَاهُمْ .

وَلَعَلَّ أَجْمَلَ مَا قِيلَ فِي هَذَا المَعْنَىٰ أَبْيَاتُ « نَهَارِ بْنِ تَوْسِعَةَ » الَّتِي يَقُولُ فِيهَا(١):

أَبِي الإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ ... إِذَا فَخَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيمِ

دَعِيُّ القَوْمِ يَنْصُرُ مُدَّعِيهِ ... فَيُلْحِقُهُ بِذِي الحَسَبِ الصَّمِيمِ

وَمَا كَرَمٌ وَلَوْ شَرُفَتْ جُدُودٌ ... وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ الكَرِيمِ

ثُمَّ اسْتَمِعْ إِلَىٰ الأُسْتَاذِ « عُمَرَ بَهَاءِ الدِّين الأَمِيرِيِّ » وَهُوَ يُجَلِّي لَكَ عُنْصُراً آخَرَ مِنْ عَنَاصِرِ هَذَا التَّصَوُّرِ حَيْثُ يَقُولُ(٢):

---

(١) نهار بن توسعة : من بني بكر بن وائل ، وقد وردت قطعته هذه في كتاب « الشعر والشعراء » ١/ ٥٣٧، وفي كتاب « معجم الشعراء » : ٩٦ .

(٢) ديوان « مع الله » : ٦٩ .

كَيْفَ لَا أُومِنْ بِاللَّـــهِ وَهَلْ لِذَوِي الأَلْبَابِ فِيهِ مُلْتَبَسْ ؟
كَيْفَ لَا أُبْصِرُهُ فِي خَلْقِهِ فِي الضُّحَىٰ فِي الفَجْرِ فِي جُنْحِ الغَلَسْ
كَيْفَ لَا أَحْيَا بِهِ وَالرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ ، فِي غَوْرِ ذَرَّاتِي انْبَجَسْ ؟
كَيْفَ لَا تسْعَدُ نَفْسِي بِسَنَا نُورِهِ فِي كُلِّ تَرْدِيدِ نَفَسْ ؟
وَأَنَا فِي سِرِّ كُنْهِي مَنْ أَنَا أَنَا مِنْ إِبْدَاعِهِ السَّامِي قَبَسْ

وَأَخِيراً ، فَالتَّصَوُّرُ الإِسْلَامِيُّ لِلإِنْسَانِ يَقُومُ عَلَىٰ الوَاقِعِيَّةِ ، فَهُوَ يَتَنَاوَلُ الإِنْسَانَ مِنْ جَوَانِبِهِ كُلِّهَا ، وَلَا يُهْمِلُ شَيْئًا مِنْهَا ، كَمَا لَا يَفْرِضُ عَلَيْهِ شَيْئًا خَارِجاً عَنْ طَبِيعَتِهِ ، فَالطَّاقَاتُ الجِنْسِيَّةُ ، وَنَزْعَةُ التَّمَلُّكِ ، وَالحُبُّ وَالكُرْهُ ، وَالنُّزُوعُ إِلَىٰ القُوَّةِ ، وَالرَّغْبَةُ فِي التَّغَلُّبِ وَالغَلَبِ ، وَالطُّمُوحُ إِلَىٰ الغَايَاتِ الكُبْرَىٰ ذَوَاتِ الشَّأْنِ ... حَقَائِقُ يَعْتَرِفُ بِهَا الإِسْلَامُ .

وَكُلُّ مَا فِي الأَمْرِ هُوَ أَنَّهُ يَضَعُ لَهَا الضَّوَابِطَ وَالقَوَاعِدَ حَتَّىٰ لَا تَتَحَوَّلَ الرَّغَبَاتُ الجِنْسِيَّةُ إِلَىٰ فَوَاحِشَ ، وَلَا تَنْقَلِبَ نَزْعَةُ التَّمَلُّكِ إِلَىٰ اغْتِصَابٍ ، وَلَا يَنْحَدِرَ الحُبُّ وَالكُرْهُ إِلَىٰ التَّسَفُّلِ وَالأَذَىٰ ، وَلَا تَتَحَوَّلَ القُوَّةُ وَالرَّغْبَةُ وَالغَايَاتُ الكُبْرَىٰ إِلَىٰ العُدْوَانِ .

ذَلِكَ هُوَ التَّصَوُّرُ الإِسْلَامِيُّ لِلإِنْسَانِ ، إِنَّهُ تَصَوُّرٌ شَامِلٌ ، مُتَوَازِنٌ ، وَاقِعِيٌّ ...

وَمِنْ هَذَا الشُّمُولِ ، وَالتَّوَازُنِ ، والوَاقِعِيَّةِ يُمْكِنُ أَنْ يَنْبَثِقَ أَدَبٌ إِسْلَامِيٌّ رَفِيعُ المُسْتَوَىٰ ، يَشْمَلُ حَيَاةَ الإِنْسَانِ كُلَّهَا ... بَاطِنَهَا وَظَاهِرَهَا ...

وَيُصَوِّرُ سَائِرَ حَالَاتِ قُوَّتِهَا وَضَعْفِهَا ، وَسُمُوِّهَا وانْحِدَارِهَا ، وَقَلَقِهَا وَطُمَأْنِينَتِهَا . كَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الأَدَبُ أَعْظَمَ أَدَبٍ نَعِمَتْ بِهِ البَشَرِيَّةُ .

* * *

الـخَصَائِصُ العَامَّةُ لِلأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ
وَالـمِيزَاتُ الَّتِي تُـمَيِّزُهُ عَنِ الآدَابِ الأُخْرَىٰ

إِنَّ لِلأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ خَصَائِصَ تُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الآدَابِ، وَيُمْكِنُ تَحْدِيدُ هَذِهِ الخَصَائِصِ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الأُمُورِ.

أَوَّلُهَا: أَنَّهُ أَدَبٌ غَائِيٌّ هَادِفٌ؛ ذَلِكَ أَنَّ الأَدِيبَ الإِسْلَامِيَّ لَا يَجْعَلُ الأَدَبَ غَايَةً لِذَاتِهِ ـ كَمَا يَدْعُو أَصْحَابُ «الفَنُّ لِلفَنِّ» ـ وَإِنَّمَا يَجْعَلُهُ وَسِيلَةً إِلَىٰ غَايَةٍ.

وَتَتَلَخَّصُ هَذِهِ الغَايَةُ فِي تَرْسِيخِ الإِيمَانِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الصُّدُورِ، وَتَأْصِيلِ القِيَمِ الفَاضِلَةِ فِي النُّفُوسِ، وَتَفْجِيرِ مَا يَكْمُنُ فِي الذَّاتِ الإِنْسَانِيَّةِ مِنْ طَاقَاتِ الخَيْرِ وَالصَّلَاحِ.

وَثَانِيهَا: أَنَّهُ أَدَبٌ مُلْتَزِمٌ، وَلَكِنَّ الْتِزَامَنَا مُغَايِرٌ لِالْتِزَامِ الشُّيُوعِيِّينَ وَالوُجُودِيِّينَ.

فَهُوَ الْتِزَامٌ بِالإِسْلَامِ وَقِيَمِهِ، وَتَصَوُّرَاتِهِ، وَتَقَيُّدٌ بِمَبَادِئِهِ وَمُثُلِهِ وَغَايَاتِهِ.

وَهُوَ مَسْؤُولِيَّةٌ وَرِيَادَةٌ فِي وَقْتٍ مَعاً؛ فَالمَسْؤُولِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ أَمَامَ اللَّهِ الَّذِي لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

وَالرِّيَادَةُ إِنَّمَا هِيَ إِخْلَاصُ التَّوْجِيهِ لِعَامَّةِ المُسْلِمِينَ وَخَاصَّتِهِمْ، وَكِبَارِهِمْ وَصِغَارِهِمْ.

وَثَالِثُهَا : أَنَّهُ أَدَبٌ أَصِيلٌ ، وَتَتَجَلَّىٰ هَذِهِ الأَصَالَةُ فِي انْصِبَابِ أَدَبِ الأَدِيبِ عَلَىٰ الأَصِيلِ مِنْ خَصَائِصِ أُمَّتِهِ ، وَالنَّقِيِّ الصَّافِي مِنْ صِفَاتِهَا ، وَالرَّفِيعِ الثَّمِينِ مِنْ قِيَمِهَا وَمَزَايَاهَا .

وَرَابِعُهَا : أَنَّهُ أَدَبٌ مُتَكَامِلٌ ، وَلَا يَتِمُّ هَذَا التَّكَامُلُ إِلَّا بِتَآزُرِ المَضْمُونِ مَعَ الشَّكْلِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ المَضْمُونَ وَحْدَهُ لَا يُبْدِعُ أَدَباً إِسْلَامِيًّا يُغْنِي الأَفْئِدَةَ وَيُثِيرُ المَشَاعِرَ ... وَلَا الشَّكْلَ وَحْدَهُ يُنْتِجُ أَدَباً إِسْلَامِيًّا ثَمِيناً يُثْرِي العُقُولَ .

وَالأَدِيبُ الإِسْلَامِيُّ لَا يَسْتَطِيعُ تَحْقِيقَ هَذَا الغَرَضِ السَّامِي إِلَّا إِذَا كَانَ مِمَّنِ اتَّسَعَتْ ثَقَافَتُهُمْ ، وَغَنِيَتْ أَفْكَارُهُمْ ، وَمَلَكُوا فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ الطَّاقَاتِ الفَنِّيَّةَ المُبْدِعَةَ وَالمَشَاعِرَ الإِسْلَامِيَّةَ النَّبِيلَةَ .

وَخَامِسُهَا : الِاسْتِقْلَالُ ، وَذَلِكَ حِينَ يَتَخَلَّصُ الأُدَبَاءُ الإِسْلَامِيُّونَ بِعَامَّةٍ وَالشَّبَابُ مِنْهُمْ بِخَاصَّةٍ مِنْ تَأْثِيرِ الأُدَبَاءِ وَالنُّقَّادِ المَشْهُورِينَ الَّذِينَ يَجْذِبُونَ إِلَيْهِمْ مَنْ دُونَهُمْ جَذْباً شَدِيداً ، وَيَتَحَكَّمُونَ فِي رُؤْيَتِهِمْ لِلأَشْيَاءِ ، وَنَظْرَتِهِمْ إِلَىٰ الحَيَاةِ وَالكَوْنِ وَمُبْدِعِهِمَا نَظْرَةً تُجَافِي الإِسْلَامَ .

وَهَذَا الِاسْتِقْلَالُ يَتِمُّ بِالتَّصْمِيمِ مِنْ جِهَةٍ ، وَبِتَكْوِينِ الشَّخْصِيَّةِ الأَدَبِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ ، بِحَيْثُ لَا يَرَىٰ الأَدِيبُ المُسْلِمُ إِلَّا بِعَيْنِ الإِسْلَامِ ، وَلَا يُحِسُّ إِلَّا بِإِحْسَاسِهِ .

وَإِنَّ ذَلِكَ يَصْدُقُ ـ مَثَلاً ـ عَلَىٰ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ عَمِلَ عَلَىٰ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ الشَّخْصِيَّةِ الأَدَبِيَّةِ الجَاهِلِيَّةِ ، وَأَنْ يَسْتَبْدِلَ بِهَا الشَّخْصِيَّةَ الإِسْلَامِيَّةَ الجَدِيدَةَ .

كَمَا يَنْطَبِقُ فِي عَصْرِنَا الحَدِيثِ عَلَىٰ « سَيِّد قُطْب » فِي نَقْلَتِهِ الكَبِيرَةِ الَّتِي

مَحَّضَ فِيهَا طَاقَاتِهِ الْأَدَبِيَّةَ الثَّمِينَةَ لِمَا يُرْضِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَقَصَرَهَا عَلَيْهِ .

وَسَادِسُهَا : أَنَّهُ أَدَبٌ فَعَّالٌ مُؤَثِّرٌ ، وَلَا يَتَحَقَّقُ هَذَا الغَرَضُ الكَبِيرُ مِنْ أَغْرَاضِ الْأَدَبِ إِلَّا إِذَا كَانَ الأَدِيبُ الَّذِي يُبْدِعُهُ مِمَّنْ تَفَتَّحَتْ قُلُوبُهُمْ لِلإِسْلَامِ ، وَنَمَتْ عُقُولُهُمْ بِغِذَائِهِ ، وَعَاشَتْ نُفُوسُهُمْ فِي أَتْرَاحِ المُسْلِمِينَ وَأَفْرَاحِهِمْ .

فَإِذَا حَرَّكَتْ أَعْمَالُهُ الْأَدَبِيَّةُ المَشَاعِرَ العُلْيَا عِنْدَ القُرَّاءِ ، وَأَثَارَتْ تَفْكِيرَهُمُ السَّامِيَ ، وَأَيْقَظَتِ الرُّوحَ الإِسْلَامِيَّةَ فِي نُفُوسِهِمْ حَظِيَ بِالِانْتِسَابِ إِلَى الْأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ ،وَعُدَّ مِنَ الأُدَبَاءِ الإِسْلَامِيِّينَ .

* * *

قَضِيَّةُ الِالْتِزَامِ فِي الْأَدَبِ

اخْتَلَفَ النَّاسُ كَثِيراً فِي قَضِيَّةِ حُرِيَّةِ الأَدِيبِ وَالْتِزَامِهِ، وَمَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، لِأَنَّ هَذِهِ القَضِيَّةَ وَأَمْثَالَهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَهِيَ النَّاسُ فِيهَا إِلَىٰ رَأْيٍ يَحْظَىٰ بِالإِجْمَاعِ.

فَمَا قَضِيَّةُ الِالْتِزَامِ هَذِهِ، وَأَيْنَ يَقِفُ الْأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ مِنْهَا؟.

لَعَلَّهُ يَحْسُنُ بِنَا وَنَحْنُ فِي صَدَدِ الإِجَابَةِ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ أَنْ نَنْبُشَ هَذَا المَوْضُوعَ مِنْ جُذُورِهِ، فَنُحَدِّدَ مَعْنَىٰ الِالْتِزَامِ فِي اللُّغَةِ وَالِاصْطِلَاحِ، وَنُلِمَّ بِتَارِيخِ نَشْأَتِهِ، وَمَوْقِفِ الحَرَكَاتِ الْأَدَبِيَّةِ مِنْهُ، فَذَلِكَ أَعْوَنُ لَنَا عَلَىٰ تَحْدِيدِ مَوْقِفِ الْأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ مِنْ هَذِهِ القَضِيَّةِ.

لِذَا نَبْدَأُ عَلَىٰ اسْمِ اللَّهِ وَبَرَكَتِهِ فَنَقُولُ: الِالْتِزَامُ فِي اللُّغَةِ هُوَ التَّعَلُّقُ وَعَدَمُ المُفَارَقَةِ حَيْثُ يُقَالُ: الْتَزَمَ فُلَانٌ فُلَاناً، وَالْتَزَمَ الأَمْرَ أَيْ تَعَلَّقَ بِهِ، وَلَمْ يُفَارِقْهُ[١].

أَمَّا الِالْتِزَامُ فِي اصْطِلَاحِ الأُدَبَاءِ وَالنُّقَّادِ: فَهُوَ أَنْ يَلْتَزِمَ الأَدِيبُ فِي كُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ أَدَبٍ فِكْراً مُحَدَّداً مِنَ الأَفْكَارِ، أَوْ عَقِيدَةً مِنَ العَقَائِدِ، أَوْ نَظَرِيَّةً مِنَ النَّظَرِيَّاتِ، أَوْ فَلْسَفَةً مِنَ الفَلْسَفَاتِ سَوَاءٌ أَكَانَ مَا يَلْتَزِمُ بِهِ دِينِيًّا أَمْ سِيَاسِيًّا أَمِ اجْتِمَاعِيًّا أَمْ نَحْوَ ذَلِكَ، بِحَيْثُ يَكُونُ أَدَبُهُ نَابِعاً مِمَّا اعْتَقَدَهُ، مُمَثِّلاً لِمَا اعْتَنَقَهُ، غَيْرَ حَائِدٍ عَنْهُ، أَوْ خَارِجٍ عَلَيْهِ.

وَقَدْ نَشَأَتْ قَضِيَّةُ الِالْتِزَامِ فِي الْأَدَبِ فِي العِشْرِينَاتِ مِنْ هَذَا القَرْنِ

(١) انظر لسان العرب وغيره من المعاجم.

المِيلَادِيِّ عِنْدَ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الشُّيُوعِيَّةِ فِي « الِاتِّحَادِ السُّوفْيِتِيِّ » ؛ ذَلِكَ أَنَّ أَقْطَابَ الشُّيُوعِيَّةِ أَدْرَكُوا أَثَرَ الفُنُونِ بِعَامَّةٍ ، وَالأَدَبِ بِخَاصَّةٍ فِي بِنَاءِ المُجْتَمَعَاتِ وَتَكْوِينِ العُقُولِ ، وَصِيَاغَةِ الوِجْدَانَاتِ ، وَوَعَوْا أَثَرَهَا فِي دَعْمِ الأَنْظِمَةِ وَالمَذَاهِبِ ، حَتَّىٰ قَالَ « سْتَالِينُ »[1] :

« الفَنَّانُونَ وَالأُدَبَاءُ مُهَنْدِسُو البَشَرِيَّةِ »[2] .

وَلَمَّا كَانَ النِّظَامُ الشُّيُوعِيُّ لَا يَكْتَفِي بِامْتِلَاكِ وَسَائِلِ الإِنْتَاجِ المَادِيِّ ، وَإِنَّمَا يَرَىٰ أَنَّ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَمْتَلِكَ وَسَائِلَ الإِنْتَاجِ المَعْنَوِيِّ أَيْضاً ، فَقَدْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ الأُدَبَاءِ ، وَمَا يُبْدِعُونَهُ مِنْ أَدَبٍ ، وَأَلْزَمَهُمْ إِلْزَاماً بِأَنْ يُصْدِرُوا فِي سَائِرِ مَا يَقُولُونَهُ أَوْ يَكْتُبُونَهُ عَنِ العَقِيدَةِ الشُّيُوعِيَّةِ المَارْكَسِيَّةِ .

وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ حَرَّمَ عَلَىٰ كُلِّ أَدِيبٍ أَنْ يُنْتِجَ أَيَّ لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ الأَدَبِ يُعَارِضُ المَذْهَبَ الَّذِي اعْتَنَقَتْهُ الدَّوْلَةُ وَارْتَضَتْهُ لِلشَّعْبِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهَا وَصِيَّةٌ عَلَيْهِ ، مَسْئُولَةٌ عَنْ تَوْجِيهِهِ وَتَثْقِيفِهِ ، وَحِمَايَتِهِ مِنَ الأَفْكَارِ الضَّارَّةِ .

وَبِذَلِكَ عُدَّ الأَدِيبُ المُعَارِضُ لِلعَقِيدَةِ المَارْكَسِيَّةِ خَائِناً لِأُمَّتِهِ وَقَضَايَاهَا ، مُنْحَازاً إِلَىٰ أَعْدَائِهَا[3] .

وَلِذَا كَانَ الأَدِيبُ الحَقُّ عِنْدَ الشُّيُوعِيِّينَ وَعِنْدَ مَنْ تَأَثَّرَ بِاتِّجَاهِهِمْ - عَنْ

---

(١) جوزف ستالينُ Joseph Stalin: دكتاتورُ روسيّا الفردُ. انضمّ إِلَىٰ الحزبِ البلْشفيّ سنة ١٩٠٣م، وقبضتْ عَليْهِ السلطاتُ القيصَريةُ أكثرَ مِن مرّةٍ ، وحكمَتْ عَليْه بالنّفي إِلَىٰ « سِيبيريا » مدَىٰ الحياةِ ، ولـمّا آلَ الحكمُ إِلَىٰ « لينين » Lenin عيّنهُ وزيراً للقوميّاتِ ، ثُم خَلَفَه بعدَ موتهِ فحكمَ البلادَ حُكماً مطلقاً وقضَىٰ عَلَىٰ الآلافِ المؤلّفةِ من المعَارضِينَ ، وقدْ تُوفيَ سنة ١٩٥٣م. ولـمّا حلّ « خُروتشوفُ » محلّه نقمَ عَليْه ونقلَ جُثمانَهُ من الضّريحِ الكَبيرِ ودَفنهُ فِي مقابرِ عَامّةِ النّاسِ (انظرْ الموسوعةَ العربيةَ المُيَسّرةَ) .

(٢) انظرْ كتابَ « من اصطلاحَاتِ الأدَبِ الغربيِّ » للدكتور ناصرِ الخاني ، وغيره .

(٣) انظرْ « الأدبَ الشيوعيَّ » لماهِر نَسِيم : ٣٤.

وَعْيٍ أَوْ غَيْرِ وَعْيٍ - هُوَ الَّذِي يَلْتَزِمُ بِقَضَايَا أُمَّتِهِ، وَيُعَبِّرُ عَنْ وَاقِعِ شَعْبِهِ، وَيَتَغَلْغَلُ فِي مُشْكِلَاتِ مُوَاطِنِيهِ وَيُبْرِزُهَا، وَيُشَخِّصُ أَمْرَاضَهَا وَيُدَاوِيهَا(١).

أَمَّا أُولَئِكَ الأُدَبَاءُ الَّذِينَ يَنْطَوُونَ عَلَىٰ ذَوَاتِ نُفُوسِهِمْ، فَيُغَنُّونَ أَفْرَاحَهَا وَأَتْرَاحَهَا، وَيُعَبِّرُونَ عَنْ أَشْوَاقِهَا فَهُمْ - فِي نَظَرِهِمْ - أَشْخَاصٌ أَنَانِيُّونَ حَكَمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْعُزْلَةِ عَنْ أُمَّتِهِمْ، وَالغُرْبَةِ عَنْ مُجْتَمَعَاتِهِمْ. وَمَنْ كَانَ هَٰذَا شَأْنُهُ مَا اسْتَحَقَّ أَنْ يُولَدَ.

وَلَقَدْ أَخَذَتِ المَارْكَسِيَّةُ تُشَدِّدُ قَبْضَتَهَا عَلَىٰ الأُدَبَاءِ شَيْئًا فَشَيْئًا، فَأَحَاطَتْهُمْ بِسِيَاجَيْنِ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ:

أَمَّا التَّرْغِيبُ فَبَدَا فِي إِغْدَاقِ النِّعَمِ عَلَىٰ المُلْتَزِمِينَ مِنْهُمْ إِغْدَاقاً فَاقَ كُلَّ تَقْدِيرٍ، حَيْثُ مُنِحُوا - فِي جُمْلَةِ مَا مُنِحُوهُ مِنَ امْتِيَازَاتٍ - قُصُوراً رِيفِيَّةً مِنْ تِلْكَ القُصُورِ الفَاخِرَةِ المُصَادَرَةِ مِنْ أَرْبَابِ الإِقْطَاعِ، بِحُجَّةِ أَنَّ هَٰذِهِ القُصُورَ مِنْ دَوَاعِي الوَحْيِ وَالإِلْهَامِ.

وَذَلِكَ فِي الوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ العُلَمَاءِ وَالمُبْتَكِرِينَ لَا يَحْظَوْنَ بِالمَنْزِلِ الصَّغِيرِ الَّذِي يَعِيشُونَ فِيهِ مَعَ زَوْجَاتِهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ(٢).

وَأَمَّا التَّرْهِيبُ فَأَقَلُّ مَا فِيهِ هُوَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُطْلِقُونَ أَلْسِنَةَ النُّقَّادِ فِي تَجْرِيحِ إِنْتَاجِ الأُدَبَاءِ غَيْرِ المُلْتَزِمِينَ، وَالعَمَلِ عَلَىٰ إِسْقَاطِهِ مَهْمَا تَوَافَرَ لَهُ مِن عَنَاصِرِ الإِبْدَاعِ، وَنَعْتِ أَصْحَابِهِ بِالأَنَانِيَّةِ وَحُبِّ الذَّاتِ(٣).

---

(١) انظر مجمل تاريخ الأدب الروسي: ٢١٥.

(٢) لقد سمعت ذلك من أحد كبار موظفي وزارة التربية في الاتحاد السوفيتي حين زار سوريا بدعوة من وزارة التربية والتعليم في دمشق.

(٣) انظر مجمل التاريخ الروسي لمارك سلونيم، ترجمه إلى العربية صفوت عزيز جرجس.

ثُمَّ أَنْشَأَ الإتِّحَادُ السُّوفِيتِيُّ مَا دَعَاهُ « بِالكُومنتْرِنِ »[1] فَانْتَقَلَتْ بِذَلِكَ قَضِيَّةُ الإِلْتِزَام مِنْ نِطَاقِ الأَرْضِ الَّتِي وُلِدَتْ فِيهَا إِلَىٰ أَرْجَاءِ المَعْمُورَةِ كُلِّهَا ، وَغَدَتْ قَضِيَّةً مِنْ أَكْبَرِ قَضَايَا الأَدَبِ وَالنَّقْدِ فِي العَصْرِ الحَاضِرِ .

وَلَمْ تَقْتَصِرْ نَظَرِيَّةُ الإِلْتِزَامِ فِي الأَدَبِ عَلَىٰ الشُّيُوعِيِّينَ المَارْكَسِيِّينَ وَحْدَهُمْ وَإِنَّمَا نَادَىٰ بِهَا الوُجُودِيُّونَ أَيْضاً .

غَيْرَ أَنَّ مَفْهُومَ الإِلْتِزَامِ عِنْدَ الوُجُودِيِّينَ مُخْتَلِفٌ أَشَدَّ الاِخْتِلَافِ عَنْ مَفْهُومِهِ لَدَىٰ الشُّيُوعِيِّينَ أَوْ أَصْحَابِ « المَذْهَبِ الوَاقِعِيِّ الاشْتِرَاكِيِّ » .

فَدُعَاةُ الوَاقِعِيَّةِ الإِشْتِرَاكِيَّةِ تَقُومُ فَلْسَفَتُهُمْ فِي الإِلْتِزَامِ عَلَىٰ الدِّفَاعِ عَنْ مَبَادِئِ الدَّوْلَةِ السِّيَاسِيَّةِ والإِجْتِمَاعِيَّةِ وَالإِقْتِصَادِيَّةِ سَوَاءٌ آمَنَ بِهَا الأَدِيبُ أَمْ لَمْ يُؤْمِنْ .

أَمَّا الإِلْتِزَامُ لَدَىٰ الوُجُودِيِّينَ فَيَقُومُ عَلَىٰ القَنَاعَةِ النَّابِعَةِ مِنْ ذَاتِ الأَدِيبِ[2] .

وَمِنْ هُنَا كَانَ لَهُ مُطْلَقُ الحُرِّيَّةِ فِي أَنْ يَخْتَارَ المَوْقِفَ الَّذِي يَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يَلْتَزِمَ بِهِ ، وَأَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ مَسْؤُولَةً عَنْهُ أَمَامَ نَفْسِهِ .

ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ فَرْقاً ثَانِياً بَيْنَ الْتِزَامِ الشُّيُوعِيِّينَ والوُجُودِيِّينَ هُوَ أَنَّ الوُجُودِيِّينَ حَصَرُوا الإِلْتِزَامَ فِي النَّثْرِ دُونَ الشِّعْرِ ، ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ رَأَوا فِي النَّثْرِ أَدَاةً طَيِّعَةً لِنَقْلِ الأَفْكَارِ إِلَىٰ الآخَرِينَ ، وَتَوجِيهِهِمُ الوِجْهَةَ الَّتِي يَرْمِي إِلَيْهَا الأَدِيبُ .

فَالأَدِيبُ حِينَ يُعَبِّرُ عَنْ مَشَاعِرِهِ بِالنَّثْرِ يَزِيدُهَا إِيضَاحاً ، وَذَلِكَ عَلَىٰ

---

(١) الكُومنترن Comintern: اسم مركز إدارة الحركة الشيوعية الدولية ، ألغيت سنة ١٩٤٣م وحلت محلها دائرة كومنفرم ١٩٤٧م وألغيت سنة ١٩٥٦م .

(٢) انظر دراسات في الفسلفة الوجودية للدكتور عبد الرحمن بدوي : ٢٦٢ وما بعدها .

النَّقِيضِ مِنَ الشَّاعِرِ ، فَهُوَ حِينَ يَصُبُّ مَشَاعِرَهُ فِي القَصِيدَةِ تَنْقَطِعُ الصِّلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ، وَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ التَّعَرُّفُ عَلَيْهَا ، ذَلِكَ لِأَنَّ الكَلِمَاتِ تَتَأَثَّرُ بِهَذِهِ المَشَاعِرِ ، وَتَتَشَبَّعُ بِهَا ، وَتُحَوِّلُهَا إِلَىٰ شَيْءٍ جَدِيدٍ كُلَّ الجِدَّةِ .

ثُمَّ إِنَّهُمْ يُضِيفُونَ إِلَىٰ ذَلِكَ قَوْلَهُمْ : إِنَّ جَوْهَرَ الشِّعْرِ وَجَوْهَرَ النَّثْرِ مُخْتَلِفَانِ ، فَالهَدَفُ مِنَ النَّثْرِ الفَائِدَةُ ، أَمَّا الشِّعْرُ فَلَا هَدَفَ لَهُ ، ذَلِكَ لِأَنَّهُ تَرْوِيحٌ عَنِ النَّفْسِ ، وَتَخْفِيفٌ عَمَّا يَعْتَمِلُ فِيهَا[(١)].

هَذَا ، وَبِمِقْدَارِ مَا وُجِدَ لِنَظَرِيَّةِ الِالْتِزَامِ فِي الأَدَبِ مُؤَيِّدُونَ فَقَدْ وَقَفَ فِي وَجْهِهَا مُعَارِضُونَ يَدْعُونَ إِلَىٰ حُرِّيَّةِ الأَدِيبِ ، وَيَتَمَثَّلُ هَؤُلَاءِ المُعَارِضُونَ بِدُوَلِ أُورُبَّا الغَرْبِيَّةِ ، وَالوِلَايَاتِ المُتَّحِدَةِ الأَمْرِيكِيَّةِ ، وَمَنْ لَفَّ لَفَّهُمْ .

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقِفَ عَلَىٰ وِجْهَةِ نَظَرِ هَؤُلَاءِ فِي رَفْضِهِمْ لِمَبْدَإِ الِالْتِزَامِ فَيَجْدُرُ بِنَا أَنْ نَسْتَمِعَ إِلَىٰ رَأْيِ أَحَدِ كِبَارِ النُّقَّادِ الأَمْرِيكِيِّينَ وَهُوَ « آلَنْ تِيتْ »[(٢)].

فَلَقَدْ تَأَمَّلَ هَذَا النَّاقِدُ الأَمْرِيكِيُّ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ دُعَاةُ الِالْتِزَامِ مِنْ أَنَّ الشُّعَرَاءَ وَالأُدَبَاءَ لَوْ قَامُوا بِمَسْؤُولِيَاتِهِمُ الأَدَبِيَّةِ تُجَاهَ مُجْتَمَعَاتِهِمْ لَمَا وَقَعَ النِّظَامُ الدَّوْلِيُّ فِيمَا أَصَابَهُ مِنْ مَخَاطِرَ ، وَلَمَا تَفَاقَمَتْ تِلْكَ الحَمَاقَاتُ السِّيَاسِيَّةُ الَّتِي تُعَانِي مِنْهَا البَشَرِيَّةُ اليَوْمَ ، وَلَمَا كُنَّا تَعَرَّضْنَا لِلحَرْبِ العَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ ، ورُبَّمَا لَمْ تَحْدُثِ الحَرْبُ العَالَمِيَّةُ الأُولَىٰ .

---

(١) انظر المصدر السابق للدكتور عبد الرحمن بدوي .

(٢) آلن تيت Allan Tit: ناقد وشاعر أمريكي ولد عام ١٨٩٩م ، وشغل كرسي الأدب الإنكليزي في جامعة برنستون . من أهم آثاره بحثه النقدي عن حدود الشعر ، وكتابه « دراسات في النقد » وقد ترجمه إلى العربية الدكتور عبد الرحمن ياغي ، ونشرته دار المعارف في بيروت ومنه استقينا كلامه هذا بتصرف يسير في التعبير .

كَمَا نَظَرَ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ قِيَامَ الحَرَكَةِ « الهِتْلَرِيَّةِ »[1] دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَىٰ إِخْفَاقِ عَصْرِنَا فِي الدِّفَاعِ عَنِ القِيَمِ الدِّيمُوقْرَاطِيَّةِ ، وَهُوَ إِخْفَاقٌ سَبَبُهُ فِقْدَانُ الشُّعُورِ بِالمَسْئُولِيَّةِ لَدَىٰ الأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ « اللُّغَةَ » الَّتِي هِيَ أَهَمُّ وَسَائِلِ التَّأْثِيرِ ، وَهُمُ الكُتَّابُ بِعَامَّةٍ وَالشُّعَرَاءُ بِخَاصَّةٍ .

ثُمَّ أَجَابَ « آلنْ تيتْ » عَنْ هَذِهِ الأَسْئِلَةِ جَمِيعِهَا بِقَوْلِهِ :

حَقًّا إِنَّ البِلَادَ الغَرْبِيَّةَ قَدْ أُصِيبَتْ بِفِقْدَانِ الشُّعُورِ الأَخْلَاقِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ ، كَمَا أُصِيبَتْ بِعَدَمِ المُبَالَاةِ ، فَلَمْ تَقِفْ مَوْقِفاً حَازِماً فِي وَجْهِ « النَّازِيَّةِ » .

وَلَكِنْ هَلْ كَانَ ذَلِكَ وَقْفاً عَلَىٰ الشُّعَرَاءِ وَالأُدَبَاءِ ؟ .

ثُمَّ قَالَ : إِنَّنَا نُجِيبُ عَنْ ذَلِكَ بِطَرْحِ سُؤَالَيْنِ اثْنَيْنِ ...

أَوَّلُهُمَا : هَلْ هُنَاكَ فِي طَبِيعَةِ الشِّعْرِ مَا يُبَرِّرُ إِلْقَاءَ هَذَا العِبءِ الثَّقِيلِ عَلَىٰ أَرْبَابِهِ مِنْ ذَوِي الخَيَالِ ؟ .

وَثَانِيهِمَا : أَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ طَوَائِفُ أُخْرَىٰ فِي العَالَمِ مِنَ المُفَكِّرِينَ ، وَالعُلَمَاءِ ، وَالفَلَاسِفَةِ ، وَالسِّيَاسِيِّينَ يُمْكِنُ أَنْ نَضَعَهُمْ فِي قَفَصِ الِاتِّهَامِ وَنَسْتَوْقِفَهُمْ لِلمُحَاسَبَةِ ؟ .

ثُمَّ خَتَمَ « آلنْ تيتْ » هَذِهِ التَّسَاؤُلَاتِ بِقَوْلِهِ : « إِنِّي آسِفٌ أَنْ أَبْدُوَ أَمَامَ القَارِئِ طَائِشاً ، فَأَنَا أَعْتَرِفُ بِأَنَّ إِلْقَاءَ المَسْئُولِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ عَلَىٰ الشَّاعِرِ يُضَايِقُنِي ،

---

(١) الحركة الهتلرية : هي الَّتي قام بها هتلر Adolf Hitler، وهو دكتاتور ألماني وزعيم للحزب النازي ، عادىٰ اليهود والشيوعيين ، وألحق بهم كثيراً من الضر والأذىٰ ، أثار الحرب العالمية الثانية ، وأجج نارها واستولىٰ عَلَىٰ أكثر دول أوربا الغربية وأخضعها لسلطانه ، وفي سنة ١٩٤٥م هزمه الحلفاء ومعهم الروس هزيمة نكراء واحتلوا بلاده ، فانتحر هو وزوجته حَتَّىٰ لَا يقعا في قبضة المحتلين . « الموسوعة العربية المُيَسَّرة » .

وَأَنَّنِي مَا بَحَثْتُهَا إِلَّا لِأَنَّهَا تُثِيرُنِي وَتُضْجِرُنِي .

نَعَمْ إِنَّهَا تُثِيرُنِي لِأَنَّنِي أَعْتَقِدُ أَنَّ لَدَىٰ الشَّاعِرِ مَسْئُولِيَّةً عَظِيمَةً خَاصَّةً بِهِ ...

إِنَّهَا المَسْئُولِيَّةُ بِأَنْ يَكُونَ شَاعِراً ...

وَأَنْ يَنْظِمَ القَصَائِدَ ...

لَا أَنْ يَحُومَ حَوْلَ اسْتِغْلَالِ الضَّجِيجِ فِي شِعْرِهِ لِكَيْ يُسَوِّغَ لِنَفْسِهِ الوُقُوفَ عَلَىٰ المَنَابِرِ ...

إِنَّ عِنْدِي شَكًّا عَمِيقاً وَاعْتِقَاداً سَيِّئًا فِي هَؤُلَاءِ الشُّعَرَاءِ وَالخُطَبَاءِ ، وَقَنَاعَةً صَادِقَةً بِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالشِّعْرِ » ...

ثُمَّ خَتَمَ فِكْرَتَهُ هَذِهِ بِقَوْلِهِ :

« إِنَّهُ لَمِنَ الخَطَإِ الفَاحِشِ أَنْ نَطْلُبَ مِنَ الشَّاعِرِ أَلَّا يَكُونَ شَاعِراً ... وَأَنْ يُصْبِحَ دَاعِيَةً إِلَىٰ مُثُلٍ سِيَاسِيَّةٍ حَتَّىٰ وَلَوْ كَانَ يَعْتَقِدُ بِأَنَّهَا مُثُلٌ ثَمِينَةٌ ... » .

وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَدْ أَخَذَ الِالْتِزَامُ يَحْتَلُّ مَقَاماً رَفِيعاً فِي نُفُوسِ الأُدَبَاءِ فِي العَالَمِ الحُرِّ ، وَذَٰلِكَ دِفَاعاً عَنِ الذَّاتِ وَتَصَدِّياً لِلِاتِّجَاهِ اليَسَارِيِّ الَّذِي فَرَضَ سُلْطَانَهُ عَلَىٰ مَيَادِينَ فَسِيحَةٍ مِنَ العَالَمِ .

فَمَا مَوْقِفُ الأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ مِنْ قَضِيَّةِ الِالْتِزَامِ هَذِهِ ؟ .

لَا رَيْبَ فِي أَنَّ الأَدَبَ الإِسْلَامِيَّ وُلِدَ عَلَىٰ الِالْتِزَامِ ، وَنَبَتَ فِي مَنَابِتِهِ مُنْذُ انْطَلَقَتْ أَوَّلُ قَافِيَةٍ عَلَىٰ لِسَانِ أَوَّلِ شَاعِرٍ مِنْ شُعَرَاءِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي « يَثْرِبَ » ، ثُمَّ عَاشَ مُلْتَزِماً طَوَالَ تِلْكَ القُرُونِ الَّتِي

خَلَتْ ، وَسَيَظَلُّ مُلْتَزِماً - بِتَوْفِيقِ اللَّهِ - إِلَىٰ أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .

فَالْتِزَامُ الأُدَبَاءِ الإِسْلَامِيِّينَ تَمَّ قَبْلَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ قَرْناً وَرُبُعِ القَرْنِ مِنْ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الشُّيُوعِيَّةِ ودَعْوَتِهَا إِلَىٰ الأَخْذِ بِمَبْدَإِ الِالْتِزَامِ فِي الأَدَبِ .

فَلَقَدْ أُرْسِيَتْ قَوَاعِدُ هَذَا الِالْتِزَامِ مُنْذُ نَزَلَتِ الآيَاتُ الكَرِيمَاتُ :

﴿ وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً ، وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾[1] .

فَالشُّعَرَاءُ الإِسْلَامِيُّونَ مُلْتَزِمُونَ بِأَنْ يَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَأَهْلُ الصَّلَاحِ لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا خَيْراً ...

وَالشُّعَرَاءُ الإِسْلَامِيُّونَ مُلْتَزِمُونَ بِأَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً ، وَمَنْ كَانَ لِسَانُهُ رَطْباً بِذِكْرِ اللَّهِ لَا يُزَيِّفُ الكَلِمَةَ ، وَلَا يُلَوِّثُهَا ...

وَالشُّعَرَاءُ الإِسْلَامِيُّونَ مُلْتَزِمُونَ بِالِانْتِصَارِ لِدِينِهِمْ ، وَالذَّوْدِ عَنْ عَقِيدَتِهِمْ بِمَا يَمْلِكُونَ مِنْ طَاقَاتٍ فَنِّيَّةٍ ، وَمَوَاهِبَ أَدَبِيَّةٍ ...

وَلَقَدْ أَعْلَنَ شُعَرَاءُ الصَّحَابَةِ - مُنْذُ فَجْرِ الدَّعْوَةِ - عَنِ الْتِزَامِهِمْ بِالإِسْلَامِ مَا بَقِيَ فِي صُدُورِهِمْ نَفَسٌ يَتَرَدَّدُ .

اسْتَمِعْ إِلَىٰ « نَوْفَلَ بْنِ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ » حَيْثُ يَقُولُ مُخَاطِباً المُشْرِكِينَ[2]:

---

(١) سورة الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧.

(٢) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد: ٤/٤٥ - ٤٦.

تَبَرَّأْتُ مِنْ دِينِ الشُّيُوخِ الأَكَابِرِ ... إِلَيْكُمْ ، إِلَيْكُمْ ... إِنَّنِي لَسْتُ مِنْكُمْ

وَمَا أَنَا إِذْ أَسْلَمْتُ يَوْماً بِكَافِرِ ... لَعَمْرُكَ مَا دِينِي بِشَيْءٍ أَبِيعُهُ

أَتَىٰ بِالهُدَىٰ مِنْ رَبِّهِ وَالبَصَائِرِ ... شَهِدْتُ عَلَىٰ أَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّداً

وَأَنَّ رَسُولَ اللَّـهِ لَيْسَ بِشَاعِرِ ... وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَدْعُو إِلَىٰ التُّقَىٰ

وَأَثْوِي عَلَيْهِ مَيِّتاً فِي المَقَابِرِ ... عَلَىٰ ذَاكَ أَحْيَا ثُمَّ أُبْعَثُ مُوقِناً

فَالشَّاعِرُ كَمَا تَرَىٰ يَتَبَرَّأُ مِنْ دِينِ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ ، وَيَعْتَنِقُ دِينَ القَيِّمَةِ ... وَهُوَ يَلْتَزِمُ بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي اعْتَنَقَهُ حَيًّا وَمَيِّتاً ، فَبِهِ يُوَاجِهُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا ، وَيَلْقَىٰ اللَّهَ فِي الآخِرَةِ ، وَعَلَىٰ شِرْعَتِهِ يَثْوِي فِي المَقَابِرِ بَيْنَ الدَّارَيْنِ .

ثُمَّ إِنَّ الشَّاعِرَ لَا يَنْسَىٰ أَنْ يُحَدِّدَ مَوْقِفَهُ مِنَ القَضِيَّةِ الكُبْرَىٰ المُثَارَةِ فِي زَمَنِهِ ، أَلَا وَهِيَ قَضِيَّةُ نُبُوَّةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، ذَلِكَ لِأَنَّ مَوْضُوعَ الأُلُوهِيَّةِ لَمْ يَكُنْ مَوْضِعَ جَدَلٍ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَالمُشْرِكِينَ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ رِسَالَةُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ هِيَ الَّتِي يَتَخَاصَمُ فِيهَا المُتَخَاصِمُونَ ، فَدَفَعَ بِهَذِهِ القَضِيَّةِ إِلَىٰ السَّاحَةِ حَيْثُ شَهِدَ أَنَّ مُحَمَّداً جَاءَ بِالهُدَىٰ وَالبَصَائِرِ ...

وَأَنَّهُ نَبِيٌّ وَلَيْسَ بِشَاعِرٍ ...

وَكَانَتْ شَاعِرِيَّةُ الرَّسُولِ ﷺ مِنَ الذَّرَائِعِ الَّتِي تَذَرَّعَ بِهَا المُشْرِكُونَ .

وَهَذَا شَاعِرٌ آخَرُ يَلْتَزِمُ بِالإِسْلَامِ بَعْدَ أَنْ طَلَّقَ صَنَمَهُ « فَرَّاضاً » فَيَقُولُ[1]:

وَخَلَّفْتُ فَرَّاضاً بِدَارِ هَوَانِ ... تَبِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالهُدَىٰ

(١) انظر الطبقات الكبرىٰ لابن سعد: ١/ ٣٤٢، ونهاية الأرب: ١٨/١٥٣ - ١٥٤.

شَدَدْتُ عَلَيْهِ شَدَّةً فَتَرَكْتُهُ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ، وَالدَّهْرُ ذُو حَدَثَانِ
فَلَمَّا رَأَيْتُ اللَّهَ أَظْهَرَ دِينَهُ أَجَبْتُ رَسُولَ اللَّهِ حِينَ دَعَانِي
فَأَصْبَحْتُ لِلإِسْلَامِ ـ مَا عِشْتُ ـ نَاصِراً وَأَلْقَيْتُ فِيهَا[1] كَلْكَلِي وَجِرَانِي[2]
فَمَنْ مُبْلِغٌ سَعْدَ العَشِيرَةِ أَنَّنِي شَرَيْتُ الَّذِي يَبْقَىٰ بِآخَرَ فَانِ

إِنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الأَبْيَاتِ هُوَ «ذَبَّانُ بْنُ الحَارِثِ السَّعْدِيُّ» مِنْ بَنِي «تَمِيمٍ». وَهُوَ حِينَ أَشْرَقَ نُورُ الإِيمَانِ فِي نَفْسِهِ هَبَّ إِلَىٰ صَنَمِهِ «فَرَّاضٍ» فَجَعَلَهُ هَبَاءً مَنْثُوراً.

وَكَانَ الشَّاعِرُ يَسْكُنُ مَعَ قَوْمِهِ بَنِي «تَمِيمٍ» فِي «نَجْدٍ»، فَخَلَّفَ دِيَارَ قَوْمِهِ وَرَاءَهُ وَمَضَىٰ إِلَىٰ دَارِ النُّبُوَّةِ فِي المَدِينَةِ، وَأَلْقَىٰ رَحْلَهُ فِيهَا، وَأَقَامَ فِي رِحَابِ النُّورِ وَالهُدَىٰ، وَطَفِقَ يَنْهَلُ مِنْ يَنَابِيعِ الرِّسَالَةِ الخَالِدَةِ، وَيَعِيشُ فِي أَلَقِ الإِيمَانِ.

وَهَلْ فَوْقَ هَجْرِ مَرَاتِعِ الطُّفُولَةِ وَمَرَابِعِ الشَّبَابِ، وَالاِسْتِقْرَارِ فِي دِيَارِ العَقِيدَةِ مِنَ الْتِزَامٍ؟.

وَهَذَا «عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُنَيْسٍ الجُهَنِيُّ»[3] يَفْخَرُ، وَيُعْلِنُ الْتِزَامَهُ بِجِهَادِ المُشْرِكِينَ بِلِسَانِهِ وَيَدِهِ فَيَقُولُ[4]:

---

(١) فيها: أي في المدينة المنورة.
(٢) كلكلي وجِرَاني... الكلكل: الصدر، والجران: باطن العنق.
(٣) هو أبو يحيىٰ المدني حليف بني «سلمة»، دأب عَلَىٰ كسر الأصنام في الظلام. شهد العقبة وما بعدها وتُوفي عام ٥٤ هـ: انظر الإصابة: ٢/ ٢٧٠.
(٤) ابن هشام: ٢/ ٣٥٨، ونهاية الأرب: ١٧/ ١٢٩.

تَرَكْتُ ابْنَ ثَوْرٍ كَالحُوَارِ وَحَوْلَهُ نَوَائِحُ تَفْرِي كُلَّ جَيْبٍ مُقَدَّدِ[1]
أَقُولُ لَهُ : ـ وَالسَّيْفُ يُعْجِمُ رَأْسَهُ ـ أَنَا ابْنُ أُنَيْسٍ فَارِساً غَيْرَ قُعْدُدِ[2]
وَقُلْتُ لَهُ: خُذْهَا بِضَرْبَةِ مَاجِدٍ حَنِيفٍ عَلَىٰ دِينِ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ
وَكُنْتُ إِذَا هَمَّ النَّبِيُّ بِكَافِرٍ سَبَقْتُ إِلَيْهِ بِاللِّسَانِ وَبِاليَدِ

وَكَمَا الْتَزَمَ بَعْضُهُمْ وَهُوَ عَلَىٰ القُرْبِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَدِ الْتَزَمَ بَعْضُهُمُ الآخَرُ وَهُوَ عَلَىٰ البُعْدِ .

اسْتَمِعْ إِلَىٰ « الجَارُودِ بْنِ المُعَلَّىٰ »[3]، وَقَدْ كَانَ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ وَالْتَزَمَ ، حَيْثُ يَقُولُ[4]:

شَهِدْتُ بِأَنَّ اللَّهَ حَقٌّ وَسَامَحَتْ بَنَاتُ فُؤَادِي بِالشَّهَادَةِ وَالنَّهْضِ[5]
فَأَبْلِغْ رَسُولَ اللَّهِ مِنِّي رِسَالَةً بِأَنِّي حَنِيفٌ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الأَرْضِ
فَإِنْ لَمْ تَكُنْ دَارِي بِيَثْرِبَ فِيكُمُ فَإِنِّي لَكُمْ عِنْدَ الإِقَامَةِ ، وَالخَفْضِ[6]
وَأَجْعَلُ نَفْسِي دُونَ كُلِّ مُلِمَّةٍ لَكُمْ جُنَّةً ، مِنْ دُونِ عِرْضِكُمْ عِرْضِي

وَهَذَا « عُرْوَةُ بْنُ زَيْدِ الخَيْلِ »[7] يُحَدِّثُكَ عَنْ مَآثِرِهِ قَبْلَ الإِسْلَامِ ، وَكَيْفَ

---

(١) الحوار: ولد الناقة ، والجيب من القميص: طوقه ، والمقدَّد: المشقَّق .
(٢) يعجم رأسه : يمتحن رأسه ويختبره ، والقُعدد : الجبان القاعد عن الحرب .
(٣) الجارود بن المعلّىٰ: كان نصرانيًا فأسلم وحسن إسلامه ، وقد استشهد بفارس سنة إحدىٰ وعشرين ، وسمي الجارود لأنه غزا قوماً وجردهم جرداً (الإصابة ١/ ٢١٩) .
(٤) الإصابة : ١/ ٢١٨، والاستيعاب : ١/ ٢١٥، وشرح النهج : ٤/ ٣١٤.
(٥) النهض: المبادرة إلىٰ لقاء الأعداء، ويريد بالأعداء المشركين وغيرهم من أعداء الإسلام .
(٦) عند الإقامة والخفض: حياً وميتاً .
(٧) هو عروة بن زيد الطائي ، أبوه الصَّحابي الجليل والفارس المشهور ، وقد كان عروة مقاتلاً مجاهداً . ناصَرَ عليًا وشهد صفين معه ، وتُوفي في خلافته (انظر الإصابة ٢/ ٤٦٩) .

جَنَّدَهَا لِلذَّوْدِ عَن دِينِ اللَّهِ ، وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَيَصِفُ لَكَ إِعْرَاضَهُ عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَالْتِزَامَهُ بِالأُخْرَىٰ الَّتِي يُرَجِّيهَا ؛ فَيَقُولُ[1] :

وَكَمْ كُرْبَةٍ فَرَّجْتُهَا وَكَرِيهَةٍ ... شَدَدْتُ لَهَا أَزْرِي إِلَىٰ أَنْ تَجَلَّتِ

وَقَدْ أَضْحَتِ الدُّنْيَا لَدَيَّ ذَمِيمَةً ... وَسَلَّيْتُ عَنْهَا النَّفْسَ حَتَّىٰ تَسَلَّتِ

وَأَصْبَحَ هَمِّي فِي الجِهَادِ وَنِيَّتِي ... فَلِلَّـهِ نَفْسٌ أَدْبَرَتْ وَتَوَلَّتِ[2]

فَلَا ثَرْوَةُ الدُّنْيَا تُرِيدُ اكْتِسَابَهَا ... أَلَا إِنَّهَا عَنْ وَفْرِهَا قَدْ تَخَلَّتِ[3]

وَمَاذَا أُرَجِّي مِنْ كُنُوزٍ جَمَعْتُهَا ... وَهَذِي المَنَايَا شُرَّعاً[4] قَدْ أَظَلَّتِ

وَنَحْنُ إِذَا أَرَدْنَا اسْتِقْصَاءَ الشَّوَاهِدِ عَلَىٰ الْتِزَامِ الشُّعَرَاءِ المُسْلِمِينَ السَّابِقِينَ فِي عَصْرِ النُّبُوَّةِ اتَّسَعَ المَقَالُ ، وَضَاقَ المَقَامُ ، فَشِعْرُهُمْ طَافِحٌ بِهَذِهِ الفِكْرَةِ ، مُتْرَعٌ بِهَذَا المَعْنَىٰ .

وَرُبَّ قَائِلٍ يَقُولُ :

هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ قَدِ اتَّفَقْتُمْ مَعَ الشُّيُوعِيِّينَ وَالوُجُودِيِّينَ فِي المُنَادَاةِ بِمَبْدَإِ الِالْتِزَامِ فِي الْأَدَبِ ، أَفَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ تَصَوُّرِكُمْ لِلِالْتِزَامِ وَتَصَوُّرِهِمْ لَهُ ، أَمْ إِنَّكُمْ تَلْتَقُونَ مَعَهُمْ فِي التَّصَوُّرِ أَيْضاً ؟ ...

وَنُبَادِرُ لِلإِجَابَةِ عَنْ ذَلِكَ فَنَقُولُ : إِنَّ تَصَوُّرَنَا لِلالْتِزَامِ فِي الْأَدَبِ يَخْتَلِفُ اخْتِلَافاً جِذْرِيًّا عَنْ تَصَوُّرِ الشُّيُوعِيِّينَ وَالوُجُودِيِّينَ لِهَذَا الأَمْرِ .

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري : ١٣٨.

(٢) أدبَرت وتولَّت ... أدبرت : ضدّ أقبلت ، وتولَّت : أعرضت وتركت .

(٣) عن وفرها قد تخلَّت ... الوفر : الغنىٰ وكثرة المال ، وتخلت عن وفرها : تركت مالها .

(٤) شُرَّعاً : رافعات رؤوسها .

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلشُّيُوعِيِّينَ فَيُمْكِنُ تَحْدِيدُ الِاخْتِلَافِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الأُمُورِ .

أَوَّلُهَا : الفَرْقُ بَيْنَ الإِلْزَامِ وَالِالْتِزَامِ .

فَالإِلْزَامُ يَأْتِي مِنَ الخَارِجِ ، وَالِالْتِزَامُ يَنْبُعُ مِنَ الدَّاخِلِ ... وَالإِلْزَامُ فِيهِ مَعْنَىٰ القَسْرِ وَالقَهْرِ وَالإِكْرَاهِ ... وَالِالْتِزَامُ فِيهِ مَعْنَىٰ الرَّغْبَةِ وَالتَّعَلُّقِ وَالطَّوَاعِيَةِ ... وَالإِلْزَامُ كَثِيراً مَا يَكُونُ ضِدَّ الطَّبْعِ ... وَالِالْتِزَامُ ابْنُ الطَّبْعِ ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ جُلَّ الأُدَبَاءِ المَارْكَسِيِّينَ مُلْزَمُونَ ، وَلَيْسُوا بِمُلْتَزِمِينَ ... وَأَنَّ الأُدَبَاءَ الإِسْلَامِيِّينَ مُلْتَزِمُونَ وَخَاصَّةً فِي هَذَا العَصْرِ الَّذِي لَا تُوجَدُ فِيهِ لِلإِسْلَامِ دَوْلَةٌ تُلْزِمُ أَحَداً مِنَ الأُدَبَاءِ بِشَيْءٍ .

ثُمَّ إِنَّ الْتِزَامَ الأَدِيبِ الإِسْلَامِيِّ يَنْبُعُ مِنْ أَعْمَاقِ نَفْسِهِ ، وَيُعَدُّ مُقَوِّماً مِنْ مُقَوِّمَاتِ وُجُودِهِ ، حَتَّىٰ إِنَّكَ لَوْ حَاوَلْتَ أَنْ تَحْرِفَهُ عَنْهُ لَمَا انْحَرَفَ ، أَوِ اجْتَهَدْتَ فِي أَنْ تَصْرِفَهُ إِلَىٰ مَا يُعَارِضُهُ لَعَصَاكَ فِيمَا تُحَاوِلُ ، وَنَاضَلَكَ عَمَّا تُرِيدُ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ بِهِ إِنَّمَا هُوَ جُزْءٌ مِنْ عَقِيدَتِهِ ... وَالعَقِيدَةُ تَعْدِلُ الحَيَاةَ عِنْدَ المُسْلِمِ ، بَلْ إِنَّ الحَيَاةَ كَثِيراً مَا تُبْذَلُ رَخِيصَةً فِي سَبِيلِ العَقِيدَةِ .

أَمَّا الْتِزَامُ الأَدِيبِ المَارْكَسِيِّ فَتَفْرِضُهُ عَلَيْهِ السُّلْطَةُ ، وَيَدْفَعُهُ إِلَيْهِ الرَّغَبُ أَوِ الرَّهَبُ كَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ[1].

وَثَانِيهَا : هُوَ أَنَّ المُلْزِمَ لِلأَدِيبِ المَارْكَسِيِّ إِنَّمَا هُوَ السُّلْطَةُ الحَاكِمَةُ ،

---

(١) انظر « قضايا معاصرة في الأدب والنقد » للدكتور محمد غنيمي هلال : ١٥٥، ومجمل التاريخ الروسي لمارك سلونيم.

وَالسُّلْطَةُ - كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ - يَتَصَارَعُ عَلَيْهَا الأَشْخَاصُ وَالفِئَاتُ أَشَدَّ التَّصَارُعِ وَأَقْسَاهُ .

وَكُلَّمَا تَرَبَّعَتْ عَلَىٰ قِمَّتِهَا فِئَةٌ لَعَنَتْ سَابِقَتَهَا ، وَقَالَتْ فِيهَا مَا لَا يَقُولُهُ العَدُوُّ فِي عَدُوِّهِ .

فَسْتَالِينُ - مَثَلاً - كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ حَاكِمَ « رُوسْيَا » الفَرْدَ ، وَسَيِّدَ الشُّيُوعِيِّينَ المُطَاعَ ، وَكَانَ تَبْجِيلُهُ أَمَانَةً ، وَالتَّعْرِيضُ بِهِ خِيَانَةً ، وَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الشُّيُوعِيِّينَ فِي العَالَمِ يَتَّسِمُونَ بِسِمَاتِهِ حَتَّىٰ فِي المَظْهَرِ ؛ فَيُقَلِّدُونَهُ فِي هَيْئَةِ شَارِبَيْهِ ، وَيَتَأَسَّوْنَ بِهِ فِي شَكْلِ بِزَّتِهِ ...

ثُمَّ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِ خَلَفٌ سَفَّهُوا آرَاءَهُ وَأَدَانُوا حُكْمَهُ ، وَقَبَّحُوا سُلُوكَهُ ، وَرَمَوْهُ بِأَبْشَعِ مِمَّا رَمَاهُ بِهِ خُصُومُ المَارْكَسِيَّةِ .

وَكَانَ عَلَىٰ الأُدَبَاءِ الَّذِينَ أَحَبُّوهُ أَنْ يَكْرَهُوهُ ، وَالكُتَّابِ الَّذِينَ عَظَّمُوهُ أَنْ يَنْتَقِصُوهُ ، وَإِلَّا حَلَّ بِهِمْ مِنَ المَكْرُوهِ مَا لَا يُطِيقُونَ .

وَجُلُّهُمْ - فِي وَاقِعِ الأَمْرِ - لَمْ يُحِبَّ وَلَمْ يَكْرَهْ ، وَإِنَّمَا أُمِرَ بِأَنْ يُحِبَّ فَأَحَبَّ ، ثُمَّ طُلِبَ مِنْهُ أَنْ يَسُبَّ فَسَبَّ .

لَقَدْ أَصْبَحَتْ لِلأُدَبَاءِ بِفَضْلِ هَذَا الإِلْتِزَامِ « مَشَاعِرُ تَحْتَ الطَّلَبِ » تُؤْمَرُ فَتَأْتَمِرُ ، وَتُنْهَىٰ فَتَزْدَجِرُ ، وَغَدَتْ لَهُمْ قُلُوبٌ كَالآلَاتِ تُدِيرُهَا السُّلْطَةُ يَمِيناً فَتَتَيَامَنُ ، وَتَعْطِفُهَا يَسَاراً فَتَتَيَاسَرُ(١) .

أَمَّا الأَدِيبُ المُسْلِمُ فَهُوَ مُلْتَزِمٌ أَمَامَ الحَيِّ البَاقِي الَّذِي لَا يَمُوتُ ، يَدِينُ

---

(١) انظر « تاريخ الأدب السوفيتي » : ٢/١٩٣، وقد أصدرته أكاديمية العلوم السوفيتية في موسكو خلال عامي ١٩٥٤ - ١٩٥٥م وترجمه إلى العربية هشام الدجاني وآخرون . وانظر مجمل تاريخ الأدب الروسي : ٢١٩.

بِالعَقِيدَةِ المُنْزَلَةِ ، وَيَسْتَمْسِكُ بِالشِّرْعَةِ الثَّابِتَةِ الرَّاسِخَةِ ، وَيَمْضِي عَلَىٰ المَحَجَّةِ البَيْضَاءِ .

وَمِنْ هُنَا كَانَ الأَدِيبُ الإِسْلَامِيُّ المُلْتَزِمُ اليَوْمَ لَا يَخْتَلِفُ مِنْ حَيْثُ اتِّجَاهَاتُهُ الفِكْرِيَّةُ ، وَمُثُلهُ الأَخْلَاقِيَّةُ ، وَمَوَازِينُهُ الَّتِي يَزِنُ بِهَا الجَمَالَ وَالقُبْحَ عَنِ الأَدِيبِ الإِسْلَامِيِّ المُلْتَزِمِ قَبْلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْناً مِنَ الزَّمَانِ .

وَمِنْ هُنَا فَإِنَّكَ لَنْ تَجِدَ فَرْقاً فِي المُنْطَلَقَاتِ وَالمَوَاقِفِ بَيْنَ مَا قَالَهُ حَسَّانُ ابْنُ ثَابِتٍ فِي صَدْرِ الإِسْلَامِ ، وَمَا قَالَهُ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ فِي عَصْرِنَا الحَاضِرِ .

وَخُلَاصَةُ القَوْلِ :

إِنَّ الأَدِيبَ المَارْكَسِيَّ مُلْتَزِمٌ أَمَامَ عَبْدٍ مَخْلُوقٍ زَائِلٍ ، وَإِنَّ الأَدِيبَ الإِسْلَامِيَّ مُلْتَزِمٌ أَمَامَ الإِلَٰهِ الحَيِّ البَاقِي الَّذِي لَا يَزُولُ .

وَثَالِثُ هَذِهِ الفُرُوقِ : هُوَ أَنَّ الِالْتِزَامَ الشُّيُوعِيَّ المَارْكَسِيَّ مُرْتَبِطٌ بِالنِّظَامِ الِاشْتِرَاكِيِّ مُقَيَّدٌ بِأُسُسِهِ وَمَفْهُومَاتِهِ[1] ، وَهُوَ نِظَامٌ يَتَنَاوَلُ الإِنْسَانَ مِنْ جَانِبِهِ المَادِّيِّ الحَيَوَانِيِّ البَحْتِ ، فَيَنْشُدُ لِمَعِدَتِهِ المَأْكَلَ ، وَيَبْغِي لِجَسَدِهِ المَلْبَسَ ، وَيَطْلُبُ لِمَرَضِهِ العِلَاجَ ، وَيَبْحَثُ لِأُسْرَتِهِ عَنِ المَأْوَىٰ ...

لَكِنَّ هَذَا النِّظَامَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ نَفْسِ الإِنْسَانِ وَتَزْكِيَتِهَا ، وَلَا إِلَىٰ عَقِيدَتِهِ وَتَصْفِيَتِهَا ، وَلَا إِلَىٰ آخِرَتِهِ وَإِعْمَارِهَا ، فَتِلْكَ أُمُورٌ لَا يَعْرِفُهَا الشُّيُوعِيُّونَ وَلَا تَعْرِفُهُمْ .

أَمَّا الْتِزَامُ الأَدِيبِ الإِسْلَامِيِّ فَمُرْتَبِطٌ بِعَقِيدَةٍ سَمَاوِيَّةٍ شَامِلَةٍ لِمَطَالِبِ الرُّوحِ

---

(١) انظر « تاريخ الأدب الروسي السوفيتي » : ١/٨٦ ، وحيرة الأدب في عصر العلم لعثمان نويه : ١١٥ وقد صدر عن دار الكاتب العربي للطباعة والنشر في القاهرة ، ومجمل تاريخ الأدب الروسي : ٢١٥ .

وَالجَسَدِ ، مُسْتَوْعِبَةٍ لِشُؤُونِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، تُحِلُّ لَهُ الطَّيِّبَاتِ كُلَّ الطَّيِّبَاتِ ، وَتُحَرِّمُ عَلَيْهِ الخَبَائِثَ جَمِيعَ الخَبَائِثِ .

وَمَنْ هُنَا كَانَ أُفُقُ الأَدِيبِ الإِسْلَامِيِّ أَرْحَبَ ، وَنَظْرَتُهُ إِلَىٰ الحَيَاةِ أَشْمَلَ ، وَدَوَاعِي الإِبْدَاعِ عِنْدَهُ أَكْثَرَ .

<u>وَرَابِعُ هَذِهِ الفُرُوقِ :</u> هُوَ أَنَّ الالْتِزَامَ الَّذِي انْبَثَقَ عَنِ المَذْهَبِ الوَاقِعِيِّ الاِشْتِرَاكِيِّ « الشُّيُوعِيِّ » قَدْ حَالَ دُونَ الأَدِيبِ وَدُونَ التَّعْبِيرِ عَنْ ذَاتِهِ ، وَصَرَفَهُ عَنْ بَثِّ نَجَاوَاهُ ، وَالبَوْحِ بِعَوَاطِفِهِ الذَّاتِيَةِ الَّتِي هِيَ صَدًى لِأَفْرَاحِهِ وَأَتْرَاحِهِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الأَدِيبَ عِنْدَ المَارْكَسِيِّينَ لَا يُعَدُّ مُلْتَزِماً إِلَّا إِذَا اتَّسَمَ أَدَبُهُ بِالوَاقِعِيَّةِ ، وَهُوَ لَا يَكُونُ وَاقِعِيًّا إِلَّا إِذَا آمَنَ بِأَنَّ أَسَاسَ الاِبْتِكَارِ الفَنِّيِّ إِنَّمَا يَنْبُعُ مِنَ الْتِزَامِ الأَدِيبِ بِمَبَادِئِ الحِزْبِ الشُّيُوعِيِّ ، وَقَرَارَاتِهِ وَبَيَانَاتِهِ[1] .

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَىٰ تَلَاشِي ذَاتِيَةِ الأَدِيبِ ، وَفَنَاءِ شَخْصِيَّتِهِ .

وَهُوَ أَمْرٌ يُنْكِرُهُ الأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ أَشَدَّ الإِنْكَارِ ، كَمَا تُنْكِرُهُ الاتِّجَاهَاتُ الأَدَبِيَّةُ الأُخْرَىٰ .

فَكَمَا أَنَّ هُنَاكَ وَاقِعاً يَتَّصِلُ بِالحَيَاةِ العَامَّةِ لِلأُمَّةِ ، فَإِنَّ هُنَاكَ وَاقِعاً آخَرَ يَتَّصِلُ بِالحَيَاةِ الخَاصَّةِ بِالأَدِيبِ .

<u>وَخَامِسُ هَذِهِ الفُرُوقِ :</u> هُوَ أَنَّ الفَلْسَفَةَ الشُّيُوعِيَّةَ تَجْعَلُ مَنْفَعَةَ الجَمَاعَةِ غَايَةَ الفَنِّ وَمُنْطَلَقَهُ[2] .

---

(١) انظر الأدب الشيوعي لماهر نسيم : ٣٣ وما بعدها ، و« الأدب وقيم الحياة المعاصرة » للدكتور محمد زكي العشماوي : ١٨٣ .

(٢) انظر المصدرين السابقين .

أَمَّا الِالْتِزَامُ الإِسْلَامِيُّ فَلَا يُوجِبُ عَلَىٰ الأَدِيبِ المُسْلِمِ أَنْ يَجْعَلَ أَدَبَهُ كُلَّهُ لِلْمَنْفَعَةِ بِمَفْهُومِهَا الَّذِي عَنَاهُ الشُّيُوعِيُّونَ. وَإِنَّمَا فِي وُسْعِهِ أَنْ يُجَنِّدَ طَاقَاتِهِ الفَنِّيَّةَ لِنَفْعِ الجَمَاعَةِ، كَمَا فِي وُسْعِهِ أَنْ يُجَنِّدَ هَذِهِ الطَّاقَاتِ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ أَفْرَاحِهِ وَأَتْرَاحِهِ، أَوْ تَصْوِيرِ حَالَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ، وَانْفِعَالَاتِهِ الوِجْدَانِيَّةِ وَتَحْلِيلِهَا.

ذَلِكَ لِأَنَّ مَنَاطَ الِالْتِزَامِ فِي الأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ لَيْسَ المَوْضُوعَ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا هُوَ البَوَاعِثُ الَّتِي بَعَثَتْ عَلَىٰ تَبَنِّي المَوْضُوعِ أَيْضاً، وَالغَايَاتُ الَّتِي يَرْنُو إِلَيْهَا الأَدِيبُ مِنْ مُعَالَجَتِهِ. فَقَصَائِدُ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ، وَكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ فِي الذَّوْدِ عَنْ دِينِ اللَّهِ وَمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ مُلْتَزِمَةٌ.

وَمِثْلُهَا فِي الِالْتِزَامِ تِلْكَ القَصَائِدُ الَّتِي يَتَغَنَّىٰ فِيهَا الشُّعَرَاءُ بِجَمَالِ الطَّبِيعَةِ وَيَرْبِطُونَ هَذَا الجَمَالَ بِبَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، أَوْ يَعْرِضُونَ مِنْ خِلَالِهَا حَالَاتِهِمُ النَّفْسِيَّةَ، وَيَقُومُونَ بِتَحْلِيلِهَا تَحْلِيلاً إِسْلَامِيًّا...

وَفِيمَا يَلِي نَمُوذَجٌ مِنَ الشِّعْرِ فِي وَصْفِ الطَّبِيعَةِ، وَنَمَاذِجُ أُخْرَىٰ مِنْ وَصْفِ الحَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ.

فَاسْتَمِعْ إِلَىٰ الشَّاعِرَةِ العِرَاقِيَّةِ السَّيِّدَةِ «عَاتِكَةَ الخَزْرَجِيِّ» وَهِيَ تَصِفُ لَكَ غُوطَةَ دِمَشْقَ الغَنَّاءَ حَيْثُ تَقُولُ[1]:

وَجَنَّةُ عَدْنٍ تَبَدَّتْ لَنَا ... وَقَدْ بَاغَمَ الحَوْرُ وِلْدَانَهَا[2]

فَسُبْحَانَ مَنْ ثَجَّ أَمْوَاهَهَا ... وَطَرَّزَ بِالوَشْيِ شُطْآنَهَا

---

(١) عاتكة الخزرجي: أديبة عراقية ولدت في بغداد سنة ١٩٢٦م، ونالت شهادة الدكتوراه من باريس، وهي أستاذة في جامعة بغداد. لها ديوانان في الشعر أحدهما «أنفاس الفجر» والثاني «لألاء القمر» ولها مسرحية شعرية باسم «مجنون ليلى»، ومن ديوانها الأول اقتطفنا هذه الأبيات.

(٢) باغم فلان فلاناً: حادثه بصوت رخيم... والحور: شجر باسق.

وَلَقَّنَ أَطْيَارَهَا حَمْدَهُ فَرَفَّتْ تُسَبِّحُ رَحْمَانَهَا

وَسُبْحَانَ خَالِقِ حَبَّاتِهَا لَآلِئَ تُبْهِرُ مَرْجَانَهَا

ثُمَّ اسْتَمِعْ إِلَىٰ « ابْنِ الرُّومِيِّ » فِي هَذِهِ القِطْعَةِ الوَصْفِيَّةِ التَّحْلِيلِيَّةِ الرَّائِعَةِ الَّتِي يَصِفُ فِيهَا عَابِداً انْتَصَبَ فِي مِحْرَابِهِ فِي عَتْمَةِ اللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، وَطَفِقَ يُنَاجِي رَبَّهُ حَيْثُ قَالَ[1]:

بَاتَ يَدْعُو الوَاحِدَ الصَّمَدَا فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ مُنْفَرِدَا

خَادِمٌ لَمْ تُبْقِ خِدْمَتُهُ مِنْهُ لَا رُوحاً وَلَا جَسَدَا

قَدْ جَفَتْ عَيْنَاهُ غُمْضَهُمَا وَالخَلِيُّ القَلْبِ قَدْ رَقَدَا

فِي حَشَاهُ مِنْ مَخَافَتِهِ حُرُقَاتٌ تَلْذَعُ الكَبِدَا

لَوْ تَرَاهُ وَهُوَ مُنْتَصِبٌ مُشْعِرٌ أَجْفَانَهُ السُّهْدَا

كُلَّمَا مَرَّ الوَعِيدُ بِهِ سَحَّ دَمْعَ العَيْنِ فَاطَّرَدَا

وَوَهَتْ أَرْكَانُهُ جَزَعاً وَارْتَقَتْ أَنْفَاسُهُ صُعُدَا

قَائِلٌ يَا مُنْتَهَىٰ أَمَلِي نَجِّنِي مِمَّا أَخَافُ غَدَا

أَنَا عَبْدٌ غَرَّنِي أَمَلِي وَكَأَنَّ المَوْتَ قَدْ وَرَدَا

وَخَطِيئَاتِي الَّتِي سَلَفَتْ لَسْتُ أُحْصِي بَعْضَهَا عَدَدَا

فَلِيَ الْوَيْلُ الطَّوِيلُ غَداً لَيْتَ عُمْرِي قَبْلَهَا نَفِدَا

وَيْحَ عَيْنِي سَاءَ مَا نَظَرَتْ وَيْحَ قَلْبِي سَاءَ مَا اعْتَقَدَا

---

(١) ديوان ابن الرومي : ٧٧٦/٢ مطبعة دار الكتب في القاهرة .

لَيْتَ عَيْنِي قَبْلَ نَظْرَتِهَا   كُحِلَتْ أَجْفَانُهَا رَمَدَا

ثُمَّ اسْتَمِعْ إِلَىٰ هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ التَّحْلِيلِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ أَوْرَدْنَاهُمَا فِي مَقَامٍ آخَرَ، وَاللَّذَيْنِ يُصَوِّرَانِ المُعَانَاةَ النَّفْسِيَّةَ الَّتِي يُكَابِدُهَا «مَعْرُوفٌ الكَرْخِيُّ» حَيْثُ يَقُولُ[1]:

أَيُّ شَيْءٍ تُرِيدُ مِنِّي الذُّنُوبُ؟   شُغِفَتْ بِي فَلَيْسَ عَنِّي تَغِيبُ

مَا يَضُرُّ الذُّنُوبَ لَوْ أَعْتَقَتْنِي   رَحْمَةً بِي؟ فَقَدْ عَلَانِي المَشِيبُ

فَالكَرْخِيُّ يُصَوِّرُ ذَلِكَ الصِّرَاعَ العَنِيفَ بَيْنَ النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ وَالنَّفْسِ الأَمَّارَةِ أَرْوَعَ تَصْوِيرٍ وَأَشَدَّهُ تَأْثِيراً.

هَذَا، وَلِبَيَانِ الفُرُوقِ العَمِيقَةِ الدَّقِيقَةِ بَيْنَ الأَدَبِ اليَسَارِيِّ وَالأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ، وَالتَّمَلِّي مِنَ الأَهْدَافِ الَّتِي يَرْنُو إِلَيْهَا الأُدَبَاءُ الشُّيُوعِيُّونَ فِي أَعْمَالِهِمُ الأَدَبِيَّةِ يَجْدُرُ بِنَا أَنْ نَقْرَأَ هَذِهِ القِطْعَةَ الشِّعْرِيَّةَ لِعَبْدِ الوَهَّابِ البَيَّاتِيِّ وَعُنْوَانُهَا «أَحْزَانُ البَنَفْسَجِ»[2]:

«المَلَايِينُ الَّتِي تَكْدَحُ، لَا تَحْلَمُ فِي مَوْتِ فَرَاشَه،
وَبِأَحْزَانِ البَنَفْسَجْ،
أَوْ شِرَاعٍ يَتَوَهَّجْ،
تَحْتَ ضَوْءِ القَمَرِ الأَخْضَرِ فِي لَيْلَةِ صَيف،
أَوْ غَرَامِيَّاتِ مَجْنُونٍ بِطَيف،

(١) انظر طبقات الأولياء: ٢٢٣.

(٢) «أشعار في المنفى» القصيدة الأولى - دار الديموقراطية الجديدة ١٩٥٨.

المَلَايِينُ الَّتِي تَكْدَحُ ،
تَعْرَىٰ ،
تَتَمَزَّق ،
المَلَايِينُ الَّتِي تَصْنَعُ لِلحَالِمِ زَوْرَق ،
المَلَايِينُ الَّتِي تَصْنَعُ مِنْدِيلاً لِمُغْرَم ،
المَلَايِينُ الَّتِي تَبْكِي ،
تُغَنِّي ،
تَتَأَلَّم .
فِي زَوَايَا الأَرْضِ فِي مَصْنَعٍ صُلْبٍ أَوْ بِمَنْجَم ،
إِنَّمَا تَمْضُغُ قُرْصَ الشَّمْسِ مِنْ مَوْتٍ مُحَتَّم ،
إِنَّهَا تَمْضُغُ مِنْ أَعْمَاقِهَا ،
تَضْحَك ،
تُغْرَمْ ،
لَا كَمَا يُغْرَمُ مَجْنُونٌ بِطَيْف ،
تَحْتَ ضَوْءِ القَمَرِ الأَخْضَرِ فِي لَيْلَةِ صَيْف ،
المَلَايِينُ الَّتِي تَبْكِي ،
تُغَنِّي ،
تَتَأَلَّمْ ،
تَحْتَ شَمْسِ اللَّيلِ بِاللُّقْمَةِ تَحْلَمْ » .

فَالشَّاعِرُ قَدْ جَنَّدَ شَاعِرِيَّتَهُ لِبُكَاءِ لُقْمَةِ الكَادِحِينَ ... أَمَّا الأَخْلَاقُ الفَاضِلَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَن يَلْتَزِمُوا بِهَا ... وَالمُثُلُ النَّبِيلَةُ الَّتِي يَجْدُرُ بِهِمْ أَنْ يَطْمَحُوا إِلَيْهَا ... وَالأَوْطَانُ الغَالِيَةُ الَّتِي غَدَتْ لُقْمَةً سَائِغَةً فِي أَفْوَاهِ الطَّامِعِينَ ... وَالعَقِيدَةُ الصَّافِيَةُ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ ، فَتِلْكَ أُمُورٌ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا الشَّاعِرُ ، لِأَنَّ الإِنْسَانَ ـ فِي نَظَرِهِ ـ قَدْ تَحَوَّلَ إِلَىٰ بَطْنٍ لَا أَكْثَرَ .

تِلْكَ هِيَ أَهَمُّ وُجُوهِ الِاخْتِلَافِ بَيْنَ الْتِزَامِنَا وَالْتِزَامِ الشُّيُوعِيِّينَ .

أَمَّا الوُجُودِيُّونَ فَيُمْكِنُ تَحْدِيدُ الِاخْتِلَافِ بَيْنَ الْتِزَامِنَا وَالْتِزَامِهِمْ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الأُمُورِ : أَوَّلُهَا أَنَّ الأَدِيبَ الإِسْلَامِيَّ ـ كَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ ـ مُلْتَزِمٌ أَمَامَ خَالِقِهِ الَّذِي آمَنَ بِهِ عَنْ طَوَاعِيَةٍ إِيمَاناً خَالَطَ شَعْرَهُ وَبَشَرَهُ وَلُبَّهُ .

وَهَذَا الخَالِقُ يَأْمُرُ عِبَادَهُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ... وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ .

وَقَدْ شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا يَضْبُطُ فِكْرَهُمْ مِنْ أَنْ يَنْحَرِفَ ، وَمَا يَحْفَظُ سُلُوكَهُمْ مِنْ أَنْ يُسِفَّ وَيَنْحَدِرَ .

أَمَّا الأَدِيبُ الوُجُودِيُّ فَهُوَ مُلْتَزِمٌ أَمَامَ نَفْسِهِ وَحْدَهَا ، ذَلِكَ لِأَنَّ الوُجُودِيِّينَ يَدِينُونَ بِأَنَّ الحَقِيقَةَ الوَحِيدَةَ عِنْدَ الإِنْسَانِ إِنَّمَا تَنْحَصِرُ فِي تَفْكِيرِ الفَرْدِ نَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يُوجَدُ شَيْءٌ خَارِجٌ عَنْ هَذَا التَّفْكِيرِ ، وَلَا سَابِقٌ لَهُ ، وَبِالتَّالِي فَإِنَّهُ لَا يُوجَدُ ـ فِي زَعْمِهِمْ ـ إِلَهٌ ... بَلْ إِنَّهُمْ يُوغِلُونَ فِي ذَلِكَ أَشَدَّ الإِيغَالِ ، فَيُنَادُونَ بِأَنَّ الإِلَهَ لَيْسَ خُرَافَةً نَافِعَةً ـ كَمَا ذَهَبَ « فُولْتِيرُ »[1] ـ وَإِنَّمَا هُوَ خُرَافَةٌ ضَارَّةٌ يَجِبُ عَلَىٰ

(١) فولتير Voltaire: مفكر وأديب فرنسي، أُدخل السجن أكثر من مرة لمخالفته رجال الدين. بلغت آثاره سبعين مجلداً فيها قصص ومسرحيات ودواوين وغيرها، تُوفي سنة ١٧٧٨م، انظر «الموسوعة العربية المُيَسَّرة» حرف الفاء.

الإِنْسَانِيَّةِ أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنْهَا حَتَّىٰ تَسْتَطِيعَ مُمَارَسَةَ وُجُودِهَا ، وَتَحْقِيقَ هَذَا الوُجُودِ .

وَالفَرْقُ وَاضِحٌ بَيْنَ مَنْ يَلْتَزِمُ أَمَامَ إِلَهٍ مُتَّصِفٍ بِصِفَاتِ الكَمَالِ كُلِّهَا ، مُنَزَّهٍ عَنْ صِفَاتِ النَّقْصِ جَمِيعِهَا ، وَبَيْنَ مَنْ يَلْتَزِمُ أَمَامَ نَفْسِهِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ .

ثُمَّ إِنَّ الأَدِيبَ الإِسْلَامِيَّ مُلْتَزِمٌ بِشَرِيعَةٍ مُقَرَّرَةٍ ثَابِتَةٍ ، وَمُثُلٍ مُحَدَّدَةٍ وَاضِحَةٍ لَمْ يَبْتَدِعْهَا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ابْتِدَاعاً ؛ وَإِنَّمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ عَنْ طَرِيقِ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ بِعَامَّةٍ وَرِسَالَةِ نَبِيِّهِ خَاتِمِ الرُّسُلِ بِخَاصَّةٍ .

وَهُوَ يَدِينُ بِأَنَّ الحَسَنَ مَا حَسَّنَهُ الشَّرْعُ ، وَأَنَّ القَبِيحَ مَا قَبَّحَهُ الشَّرْعُ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُقِيمَ مِنْ عَقْلِهِ نِدًّا لِدِينِ اللَّهِ ، فَيَسْتَحْسِنُ شَيْئًا مِمَّا يُنَاقِضُ الرِّسَالَةَ المُحَمَّدِيَّةَ ، أَوْ يَسْتَقْبِحُ شَيْئًا مِمَّا حَسَّنَتْهُ .

أَمَّا الأَدِيبُ الوُجُودِيُّ فَيُنْكِرُ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ قِيَمٌ أَخْلَاقِيَّةٌ مُتَوَارَثَةٌ ، ذَلِكَ لِأَنَّ الوُجُودِيَّةَ تَرْمِي إِلَىٰ جَعْلِ الإِنْسَانِ سَيِّداً لِنَفْسِهِ ، وَتَسْعَىٰ إِلَىٰ قَصْرِ حَقِيقَتِهِ عَلَىٰ وُجُودِهِ الفِعْلِيِّ .

وَالوُجُودُ الفِعْلِيُّ - عِنْدَهُمْ - إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ فِي مَجْمُوعِ مَا يَأْتِيهِ الفَرْدُ مِنْ أَفْعَالٍ ، وَمَا يُصْدِرُهُ مِنْ أَحْكَامٍ ، بِحُرِّيَّتِهِ المُطْلَقَةِ الَّتِي لَا يَتَحَكَّمُ فِيهَا إِلَهٌ ، أَوْ مُثُلٌ ، أَوْ قِيَمٌ مُتَوَارَثَةٌ ، أَوْ عَادَاتٌ مُتَعَارَفٌ عَلَيْهَا .

وَالوُجُودِيُّونَ يَضُمُّونَ أَصْوَاتَهُمْ إِلَىٰ سَابِقِيهِمْ مِمَّنْ قَالُوا : إِنَّ الأَخْلَاقَ لَيْسَتْ إِلَّا خُرَافَاتٍ ابْتَدَعَهَا الضُّعَفَاءُ لِيَتَّقُوا بِهَا شَرَّ الأَقْوِيَاءِ فِي مَعْرَكَةِ الحَيَاةِ .

وَقَدْ نَشَأَ عَنْ هَذَا المَفْهُومِ لِلالْتِزَامِ أَنِ اخْتَلَفَتْ مَوَاقِفُ الوُجُودِيِّينَ مِنَ القَضِيَّةِ الوَاحِدَةِ اخْتِلَافاً كَبِيراً .

فَقَدْ وَقَفَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضِ المُشْكِلَاتِ فِي أَقْصَىٰ اليَمِينِ ، بَيْنَمَا وَقَفَ البَعْضُ الآخَرُ فِي أَقْصَىٰ اليَسَارِ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ دَوَافِعِهِمُ الذَّاتِيَّةِ ، وَارْتِبَاطَاتِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ ، وَالمُؤَثِّرَاتِ المُحِيطَةِ بِهِمْ .

كَمَا نَشَأَ عَنْهُ وُقُوعُ بَعْضِهِمْ فِي التَّنَاقُضَاتِ الكُبْرَىٰ تُجَاهَ القَضَايَا المُتَمَاثِلَةِ .

فَزَعِيمُ الوُجُودِيِّينَ الْفَرَنْسِيِّين « جَانْ بُولْ سَارْتَرْ » يَعْتَبِرُ كُلَّ أَلْمَانِيٍّ سَكَتَ عَنِ الِاحْتِجَاجِ عَلَىٰ النِّظَامِ « النَّازِيِّ » مَسْئُولاً عَنْ ذَلِكَ النِّظَامِ ، لَكِنَّهُ يَقِفُ ـ بِاسْتِمْرَارٍ ـ بِجَانِبِ العُدْوَانِ الصُّهْيُونِيِّ عَلَىٰ بِلَادِ العَرَبِ . فَقَدْ وَقَّعَ عَلَىٰ البَيَانِ الَّذِي أَصْدَرَتْهُ طَائِفَةٌ مِنَ الفَرَنْسِيِّينَ ، وَأَيَّدَتْ فِيهِ العُدْوَانَ الثُّلَاثِيَّ عَلَىٰ « مِصْرَ » .

وَهُوَ كُلَّمَا ضَرَبَ مَثَلاً عَلَىٰ الجَوْرِ السِّيَاسِيِّ وَالاضْطِهَادِ الإِنْسَانِيِّ انْتَزَعَهُ مِمَّا تَعَرَّضَ لَهُ اليَهُودُ وَحْدَهُمْ دُونَ غَيْرِهِمْ .

وَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ ـ وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً ـ أَنْ يَنْظُرَ بِالعَيْنِ نَفْسِهَا إِلَىٰ الكَارِثَةِ الَّتِي أَنْزَلَتْهَا الصُّهْيُونِيَّةُ بِالشَّعْبِ الفِلَسْطِينِيِّ المُشَرَّدِ تَحْتَ كُلِّ نَجْمٍ ، وَلَا إِلَىٰ أَيْدِي اليَهُودِ المُلَوَّثَةِ بِدِمَاءِ الأَطْفَالِ وَالشُّيُوخِ وَالنِّسَاءِ . ذَلِكَ لِأَنَّ « جَانْ بُولْ سَارْتَرْ » وُجُودِيٌّ يُحَدِّدُ مَوَاقِفَهُ مِنَ القَضَايَا ، وَيُصْدِرُ أَحْكَامَهُ عَلَيْهَا مِنْ خِلَالِ ذَاتِهِ وَحْدَهَا .

وَخُلَاصَةُ القَوْلِ :

هِيَ أَنَّ الأَدَبَ الإِسْلَامِيَّ أَدَبٌ يَلْتَزِمُ بِقِيَمٍ رَبَّانِيَّةٍ وَيَدْعُو إِلَيْهَا وَيُبَشِّرُ بِهَا .

أَمَّا الأَدَبُ الوَاقِعِيُّ الِاشْتِرَاكِيُّ فَهُوَ مُلْتَزِمٌ بِالوَاقِعِ كَمَا يُحَدِّدُهُ الحِزْبُ

الشُّيُوعِيُّ ، وَأَمَّا الْأَدَبُ الوُجُودِيُّ فَهُوَ مُلْتَزِمٌ بِمَوْقِفِ الفَرْدِ ، وَحُرِّيَتِهِ فِي اتِّخَاذِ المَوْقِفِ الَّذِي يَخْتَارُهُ دُونَ ضَابِطٍ أَوْ رَابِطٍ .

* * *

حُرِّيَّةُ الأَدِيبِ

إِنَّ الكَلَامَ عَلَىٰ الِالْتِزَامِ فِي الْأَدَبِ يُثِيرُ دَائِماً قَضِيَّةً نَابِعَةً عَنْهُ مُتَصِلَةً بِهِ أَشَدَّ الِاتِّصَالِ ، أَلَا وَهِيَ قَضِيَّةُ حُرِّيَّةِ الأَدِيبِ ، وَأَثَرُهَا فِي الْأَدَبِ وَالنَّقْدِ ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْتِزَامَ الأَدِيبِ وَالنَّاقِدِ يُفْضِي إِلَىٰ تَقْيِيدِ هَذِهِ الحُرِّيَّةِ عَلَىٰ وَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ ...

وَلَعَلَّهُ يَحْسُنُ بِنَا قَبْلَ الدُّخُولِ فِي المَوْضُوعِ أَنْ نُمَهِّدَ لَهُ بِكَلِمَةٍ مُوجَزَةٍ عَنِ المَعْنَىٰ الفَلْسَفِيِّ لِلْحُرِّيَّةِ .

فَلَقَدْ كَانَتِ الحُرِّيَّةُ - بِالمَعْنَىٰ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ - مِنْ أَقْدَمِ القَضَايَا الَّتِي شَغَلَتِ الفَلَاسِفَةَ وَالمُفَكِّرِينَ ، وَتَبَايَنَتْ تَصَوُّرَاتُهُمْ لَهَا نَتِيجَةً لِاخْتِلَافِ تَصَوُّرَاتِهِمْ لِلإِنْسَانِ وَالوُجُودِ ، وَأَصْلِهِمَا ، وَمَصِيرِهِمَا .

وَقَدِ اتَّسَعَ الخِلَافُ بَيْنَهُمْ إِلَىٰ حَدٍّ جَعَلَ بَعْضَهُمْ يُثْبِتُ الحُرِّيَّةَ لِلإِنْسَانِ وَبَعْضَهُمُ الآخَرَ يَسْلُبُهَا مِنْهُ .

وَكَانَ مِنْ نَتَائِجِ الِاخْتِلَافِ فِي مَفْهُومِ الحُرِّيَّةِ أَنِ اخْتَلَفَتْ تَعْرِيفَاتُهُمْ لَهَا .

وَإِذَا كَانَ الوُصُولُ إِلَىٰ تَعْرِيفٍ مُوَحَّدٍ لِلْحُرِّيَّةِ أَمْراً صَعْبَ المَنَالِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ مِنَ اسْتِخْلَاصِ مَفْهُومٍ عَامٍّ لَهَا .

فَالحُرِّيَّةُ عِنْدَهُمْ - إِجْمَالاً - إِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ تُمَيِّزُ الإِنْسَانَ عَمَّا سِوَاهُ مِنَ الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ ، وَتُمَكِّنُهُ مِنَ اخْتِيَارِ الفِعْلِ الَّذِي يَأْتِيهِ عَنْ رَوِيَّةٍ ، مَعَ القُدْرَةِ عَلَىٰ اخْتِيَارِ ضِدِّهِ[1].

(١) « مشكلة الحرية » للدكتور إبراهيم زكريا : ١٦١.

وَعَلَىٰ هَذَا فَإِنَّ الحُرِّيَّةَ تَتَحقَّقُ - فِي نَظَرِهِمْ - عِنْدَ انْعِدَامِ القَسْرِ الخَارِجِيِّ .
وَقَدْ قَسَّمَ الفَلَاسِفَةُ الحُرِّيَّةَ أَقْسَاماً مُتَعَدِّدَةً تَبَعاً لِلْمَجَالِ الَّذِي تَتَحَقَّقُ فِيهِ .

فَهُنَاكَ **الحُرِّيَّةُ الاِجْتِمَاعِيَّةُ** الَّتِي تَرْتَبِطُ بِالوَضْعِ الاِجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يَنْتَمِي إِلَيْهِ الإِنْسَانُ ، وَتَبْرُزُ أَكْثَرَ مَا تَبْرُزُ فِي المُسَاوَاةِ بَيْنَ البَشَرِ فِي الكَرَامَةِ الإِنْسَانِيَّةِ .

وَهُنَاكَ **الحُرِّيَّةُ المَدَنِيَّةُ** الَّتِي تَجْعَلُ الشَّخْصَ أَهْلاً لِإِجْرَاءِ العُقُودِ وَتَحَمُّلِ الاِلْتِزَامَاتِ ، وَتَمَلُّكِ الأَشْيَاءِ ، وَالتَّصَرُّفِ بِهَا .

وَهُنَاكَ **الحُرِّيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ** وَتَتَحقَّقُ فِي أَنْ تَكُونَ الأُمَّةُ نَفْسُهَا مَصْدَرَ السُّلْطَاتِ بِحَيْثُ يَكُونُ لَهَا الحَقُّ فِي اخْتِيَارِ وَلِيِّ أَمْرِهَا .

وَهُنَاكَ **حُرِّيَّةُ الفِكْرِ وَالقَوْلِ** وَهِيَ الَّتِي تَعْنِينَا فِي مَجَالِ بَحْثِنَا هَذَا .

وَالحُرِّيَّةُ بِعَامَّةٍ وَحُرِّيَّةُ الفِكْرِ وَالقَوْلِ بِخَاصَّةٍ مِنْ أَعْظَمِ مَا أَكْرَمَ اللَّهُ بِهِ البَشَرِيَّةَ ، فَبِهَا يُؤَكِّدُ الإِنْسَانُ شَخْصِيَّتَهُ ، وَيَسْتَكْمِلُ وُجُودَهُ وَيُحَقِّقُ سَعَادَتَهُ .

وَفِي الاِنْتِقَاصِ مِنْهَا نَيْلٌ مِنْ ذَاتِهِ ، وَحَجْرٌ عَلَىٰ مَلَكَاتِهِ ، وَحِرْمَانٌ لَهُ مِنْ حَقٍّ أَصِيلٍ مِنْ حُقُوقِهِ .

وَإِذَا كَانَتْ حُرِّيَّةُ التَّصَرُّفِ فِي المَالِ وَغَيْرُهَا مِنَ الحُرِّيَّاتِ المَادِّيَّةِ مَطْلُوبَةً مَرْجُوَّةً ؛ فَإِنَّ حُرِّيَّةَ التَّعْبِيرِ وَالتَّفْكِيرِ ، وَالبَوْحِ بِالإِحْسَاسِ أَشَدُّ طَلَباً وَأَوْجَبُ تَوَافُراً ، وَالأُدَبَاءُ أَشَدُّ النَّاسِ حَاجَةً إِلَىٰ الظَّفَرِ بِتِلْكَ الحُرِّيَّةِ .

فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الإِبْدَاعَ مَعَ حِرْمَانِهَا ، وَلَا يَتَحَقَّقُ لَهُمُ الصِّدْقُ الأَدَبِيُّ بِدُونِهَا .

وَهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ وَسِيلَةٌ إِلَىٰ وَفْرَةِ إِنْتَاجِ الأَدِيبِ ، وَسَبَبٌ كَبِيرٌ فِي إِثْرَاءِ الأَدَبِ كَمّاً وَكَيْفاً .

أَمَّا إِذَا حُدِّدَتْ لِلأُدَبَاءِ مَذَاهِبُ القَوْلِ ، وَضُبِطَتْ لَهُمْ شِعَابُ الفِكْرِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ سَيُؤَدِّي إِلَىٰ عُقْمِ مَوَاهِبِهِمْ ، وَضِيقِ مَذَاهِبِهِمْ ، وَالهُبُوطِ بِقُدْرَاتِهِمْ عَلَىٰ الإِبْدَاعِ .

وَفِي طَبَائِعِ الأُدَبَاءِ نُفُورٌ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَفِي الأَدَبِ الَّذِي هُوَ فَنٌّ مِنَ الفُنُونِ نُبُوٌّ[1] عَنْ أَمْثَالِ هَذِهِ القُيُودِ .

فَمَا مَوْقِفُ الأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ مِنْ قَضِيَّةِ حُرِّيَّةِ الأَدِيبِ ؟ .

لِلإِجَابَةِ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ لَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نُحَدِّدَ مَوْقِفَ الإِسْلَامِ مِنْ حُرِّيَّةِ التَّفْكِيرِ وَالتَّعْبِيرِ . فَهَلْ مِنْ حَقِّ الإِنْسَانِ أَنْ يُفَكِّرَ تَفْكِيراً مُسْتَقِلًّا فِي جَمِيعِ مَا يَكْتَنِفُهُ مِنْ شُؤُونٍ ، وَمَا يَقَعُ تَحْتَ إِدْرَاكِهِ مِنْ ظَوَاهِرَ ، وَأَنْ يَأْخُذَ بِمَا يَهْدِيهِ إِلَيْهِ فَهْمُهُ ؟ .

إِنَّ المُتَتَبِّعَ لِمَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَمَا وَرَدَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَرَىٰ أَنَّ الإِسْلَامَ قَدْ أَقَرَّ هَذَا الحَقَّ فِي أَوْسَعِ نِطَاقٍ ، فَأَتَاحَ لِكُلِّ فَرْدٍ حُرِّيَّةَ التَّفْكِيرِ وَإِبْدَاءِ الرَّأْيِ ، وَقَدْ سَارَ الرَّسُولُ الأَعْظَمُ ﷺ عَلَىٰ هَذَا المَبْدَإِ ، كَمَا سَارَ عَلَيْهِ الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ مِنْ بَعْدِهِ ...

فَقَدْ كَانَتْ حُرِّيَّةُ الرَّأْيِ وَالتَّعْبِيرِ عَنْهُ فِي عَهْدِهِمْ جَمِيعاً مَكْفُولَةً ، كَمَا كَانَتْ مُحَاطَةً بِسِيَاجٍ مِنَ الحِمَايَةِ .

وَقَدْ بَقِيَ العَمَلُ بِهَذَا المَبْدَإِ مَرْعِيًّا فِي عَصْرِ بَنِي « أُمَيَّةَ » وَصَدْرٍ مِنْ عَصْرِ بَنِي « العَبَّاسِ » ، وَفِي عُهُودِ طَائِفَةٍ مِنَ المُلُوكِ وَالأُمَرَاءِ الَّذِينَ الْتَزَمُوا بِالإِسْلَامِ .

---

(١) نُبُوٌّ : بُعْدٌ .

فَقَدْ كَانَ الخُلَفَاءُ فِي هَذَيْنِ العَصْرَيْنِ يُقْصِرُونَ حَرْبَهُمْ عَلَىٰ الأَفْكَارِ الَّتِي يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا تُهَدِّدُ سَلَامَةَ الدَّوْلَةِ ، أَوْ تَنْشُرُ الفِتْنَةَ بَيْنَ النَّاسِ ، أَوْ تُشِيعُ الفَاحِشَةَ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ... بَلْ إِنَّ احْتِرَامَهُمْ لِحُرِّيَّةِ الرَّأْيِ بَلَغَ أَحْيَاناً حَدًّا جَعَلَ بَعْضَ النَّاسِ يُنَاقِشُونَهُمْ فِي أَحَقِيَّتِهِمْ فِي الخِلَافَةِ .

وَتَدْخُلُ فِي هَذِهِ الحُرِّيَّةِ حُرِّيَّةُ التَّفْكِيرِ العِلْمِيِّ الَّتِي تَجْعَلُ لِكُلِّ فَرْدٍ الحَقَّ فِي تَقْرِيرِ مَا يَرَاهُ بِصَدَدِ ظَوَاهِرِ الكَوْنِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ ، وَمَا عَلَىٰ الأَرْضِ مِنْ إِنْسَانٍ وَحَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ وَغَيْرِهَا ، وَالأَخْذِ بِمَا يَهْدِيهِ إِلَيْهِ تَفْكِيرُهُ مِنْ نَظَرِيَّاتٍ ، وَالتَّعْبِيرِ عَنْ رَأْيِهِ بِمُخْتَلِفِ وَسَائِلِ التَّعْبِيرِ .

ذَلِكَ لِأَنَّ الإِسْلَامَ لَمْ يُحَاوِلْ مُطْلَقاً أَنْ يَفْرِضَ نَظَرِيَّةً عِلْمِيَّةً مُعَيَّنَةً بِصَدَدِ أَيِّ ظَاهِرَةٍ مِنْ ظَوَاهِرِ الكَوْنِ ، وَلَمْ يَعْمِدِ القُرْآنُ الكَرِيمُ وَلَا السُّنَّةُ المُطَهَّرَةُ لِتَفْصِيلَاتِ هَذِهِ الأُمُورِ . وَكُلُّ مَا فَعَلَهُ الكِتَابُ العَزِيزُ أَنَّهُ اسْتَحَثَّ العُقُولَ عَلَىٰ النَّظَرِ فِي ظَوَاهِرِ الكَوْنِ ، وَحَفَزَهَا عَلَىٰ التَّأَمُّلِ فِيهَا ، وَاسْتِنْبَاطِ قَوَانِينِهَا العَامَّةِ .

وَفِي هَذَا يَقُولُ البَارِي سُبْحَانَهُ :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَآ أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِنْ مَآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1] ...

فَالقُرْآنُ الكَرِيمُ يَطُوِّفُ بِنَا فِي أَنْحَاءِ الكَوْنِ كُلِّهِ : سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ ، بَرِّهِ وَبَحْرِهِ ، حَيِّهِ وَمَيِّتِهِ ، حَيَوَانِهِ وَنَبَاتِهِ وَإِنْسَانِهِ ، وَيَحُثُّ عُقُولَنَا عَلَىٰ النَّظَرِ فِي ذَلِكَ

---

(١) سورة البقرة : ١٦٤.

كُلِّهِ وَتَدَبُّرِ ظَوَاهِرِهِ ، وَاسْتِنْبَاطِ القَوَانِينِ الدَّقِيقَةِ المُحْكَمَةِ الَّتِي تَحْكُمُ هَذِهِ الظَّوَاهِرَ وَتُسَيِّرُهَا لِنَتَّخِذَ مِنْ ذَلِكَ دَلِيلاً عَلَىٰ قُدْرَةِ مُبْدِعِ هَذَا الكَوْنِ وَإِحْكَامِ صُنْعِهِ .

وَأَنْتَ إِذَا جَمَعْتَ الآيَاتِ الكَرِيمَةَ الَّتِي تَدُورُ فِي هَذَا الفَلَكِ ، وَأَعَدْتَ النَّظَرَ فِيهَا - وَهِيَ كَثِيرَةٌ وَفِيرَةٌ - فَإِنَّكَ لَا تَشْتَمُّ أَيَّ رَائِحَةٍ لِفَرْضِ نَظَرِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ عَلَيْكَ ، وَإِنَّمَا تَشْعُرُ بِأَنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ قَدْ تَرَكَ لِكُلِّ امْرِئٍ كَامِلَ الحُرِّيَّةِ فِي تَقْرِيرِ مَا يَرَاهُ وَإِعْلَانِهِ ، وَاعْتِنَاقِ مَا يَقْتَنِعُ بِصِحَّتِهِ مِنْ نَظَرِيَّاتٍ .

وَلَقَدْ نَوَّهَ القُرْآنُ الكَرِيمُ بِالفِكْرِ ، وَعَوَّلَ عَلَيْهِ فِي أَمْرِ العَقِيدَةِ ، وَحَضَّ عَلَىٰ التَّفَكُّرِ ، وَأَشَادَ بِالمُتَفَكِّرِينَ ، وَذَكَرَهُمْ فِي مَقَامِ التَّعْظِيمِ وَالإِشَادَةِ بِمَا يَمْتَازُونَ بِهِ عَنْ غَيْرِهِمْ ، وَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ أُولُو الأَلْبَابِ ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

وَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ : **﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[2].

وَقَالَ تَعَالَىٰ : **﴿... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾**[3].

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٠ - ١٩١.
(٢) سورة النحل : ١١.
(٣) سورة الأنعام : ٥٠.

وَقَالَ أَيْضاً : ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ، مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ ...﴾[1].

فَالإِسْلَامُ - كَمَا يَقُولُ العَقَّادُ - دِينٌ بِلَا هَيْكَلٍ وَلَا كَهَانَةٍ .

وَدِينٌ هَذَا شَأْنُهُ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُطْلِقَ لِلعَقْلِ حُرِّيَّتَهُ ، وَأَنْ يَجْعَلَ هَذِهِ الحُرِّيَّةَ بَعِيدَةً عَنْ كُلِّ سُلْطَانٍ يَحُولُ بَيْنَ العَقْلِ وَبَيْنَ الفَهْمِ القَوِيمِ وَالتَّفْكِيرِ السَّلِيمِ .

وَكَمَا أَطْلَقَ الإِسْلَامُ حُرِّيَّةَ التَّفْكِيرِ فَقَدْ أَطْلَقَ حُرِّيَّةَ التَّعْبِيرِ أَيْضاً .

وَقَدْ مَارَسَ المُسْلِمُونَ هَذِهِ الحُرِّيَّةَ كَمَا لَمْ تُمَارِسْهَا أُمَّةٌ عَلَىٰ ظَهْرِ الأَرْضِ .

فَقَدْ مَارَسُوهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَىٰ فَرْطِ حُبِّهِمْ لَهُ ، وَجَزِيلِ إِجْلَالِهِمْ لِذَاتِهِ ، وَعَظِيمِ إِيمَانِهِمْ بِأَنَّ مَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِشُؤُونِ الدِّينِ إِنَّمَا هُوَ وَحْيٌ يُوحَىٰ .

وَمَارَسُوهَا عَلَىٰ عَهْدِ الرَّاشِدِينَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، كَمَا مَارَسُوهَا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ عُهُودِ الخُلَفَاءِ الأَقْوِيَاءِ الأَشِدَّاءِ الَّذِينَ كَانَتْ تَهْتَزُّ تِيجَانُ مُلُوكِ الأَرْضِ مِنْ شِدَّةِ وَطْأَتِهِمْ عَلَيْهِمْ .

فَهَا هُوَ ذَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَهُولُهُ أَمْرُ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ[2] فَيُقْبِلُ عَلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَقَدْ تَمَلَّكَتْهُ الغَضْبَةُ العُمَرِيَّةُ فَيَقُولُ :

---

(١) سورة الروم : ٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفىٰ السّقا ورفيقه : ٣٣١/٣ ومَا بعدها .

يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلَسْتَ بِرَسُولِ اللَّهِ ؟ .

قَالَ : (بَلَىٰ) .

قَالَ : أَوَ لَسْنَا بِالمُسْلِمِينَ ؟ .

قَالَ : (بَلَىٰ) .

قَالَ : أَوَ لَيْسُوا بِالمُشْرِكِينَ ؟ .

قَالَ : (بَلَىٰ) .

قَالَ : فَعَلَامَ نُعْطَىٰ الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا ؟! .

فَمَا زَادَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ أَنْ قَالَ :

(أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي) .

وَكَمَا اسْتَعْمَلَ عُمَرُ حَقَّهُ فِي مُمَارَسَةِ حُرِّيَّةِ القَوْلِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، فَقَدْ أَتَاحَ لِأَفْرَادِ رَعِيَّتِهِ أَنْ يُمَارِسُوا هَذَا الحَقَّ مَعَهُ يَوْمَ غَدَا خَلِيفَةً لِلْمُسْلِمِينَ .

فَلَقَدْ صَعَدَ المِنْبَرَ ذَاتَ يَوْمٍ لِيُحَدِّثَ المُسْلِمِينَ فِي شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِهِمْ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ وَصَلَّىٰ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ثُمَّ قَالَ : اسْمَعُوا يَرْحَمْكُمُ اللَّهُ ، فَنَهَضَ إِلَيْهِ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ وَقَالَ : وَاللَّهِ لَا نَسْمَعُ ، وَاللَّهِ لَا نَسْمَعُ .

فَقَالَ عُمَرُ فِي لَهْفَةٍ وَإِشْفَاقٍ : وَلِمَ يَا سَلْمَانُ ؟ ...

فَقَالَ : مَيَّزْتَ نَفْسَكَ عَلَيْنَا فِي الدُّنْيَا ...

فَأَعْطَيْتَ كُلًّا مِنَّا بُرْدَةً وَاحِدَةً ، وَأَخَذْتَ أَنْتَ بُرْدَتَيْنِ .

فَأَجَالَ الخَلِيفَةُ بَصَرَهُ فِي صُفُوفِ النَّاسِ ثُمَّ قَالَ : أَيْنَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَر ؟ .

فَنَهَضَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ وَقَالَ : هَأَنَذَا يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ - عَلَىٰ مَلإٍ مِنَ النَّاسِ - مَنْ صَاحِبُ البُرْدَةِ الثَّانِيَةِ ؟ .

فَقَالَ : أَنَا صَاحِبُهَا يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ .

وَهُنَا الْتَفَتَ عُمَرُ إِلَىٰ سَلْمَانَ وَقَالَ يُخَاطِبُهُ ، وَيُخَاطِبُ المُسْلِمِينَ مَعَهُ :

إِنَّنِي رَجُلٌ طُوَالٌ ، وَلَقَدْ جَاءَتْ بُرْدَتِي قَصِيرَةً فَأَعْطَانِي عَبْدُ اللَّهِ بُرْدَتَهُ فَأَطَلْتُ بِهَا بُرْدَتِي .

وَهُنَا طَفَرَتْ دُمُوعُ الفَرْحَةِ مِنْ عَيْنَيْ سَلْمَانَ وَقَالَ : الحَمْدُ لِلَّهِ ... الآنَ قُلْ نَسْمَعْ وَنُطِعْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ... وَاللَّهِ مَا خَامَرَنِي شَكٌّ فِيكَ ...

وَالإِسْلَامُ لَمْ يَقِفْ فِي أَمْرِ حُرِّيَّةِ القَوْلِ عِنْدَ حُدُودِ إِطْلَاقِهَا لِلمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّمَا خَطَا خَطْوَةً فِي هَذَا المَجَالِ جَاوَزَتْ كُلَّ تَقْدِيرٍ .

فَقَدْ جَعَلَ قَوْلَ كَلِمَةِ الحَقِّ أَمَانَةً فِي عُنُقِ كُلِّ مُسْلِمٍ ؛ وَعَدَّهَا مِنْ أَفْضَلِ ضُرُوبِ الجِهَادِ فِي بَعْضِ المَقَامَاتِ حَيْثُ يَقُولُ النَّبِيُّ الكَرِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(أَفْضَلُ الجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ «أَوْ حَقٍّ» عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ)[1].

وَلَقَدْ صَدَعَ عُلَمَاءُ المُسْلِمِينَ وَقَادَةُ الرَّأْيِ مِنْهُمْ بِكَلِمَةِ الحَقِّ هَذِهِ ، وَوَاجَهُوا بِهَا الخُلَفَاءَ وَالوُلَاةَ وَالقَادَةَ وَذَوِي الجَبَرُوتِ وَالسُّلْطَانِ ، وَلَمْ يَفْتُرُوا

---

(١) رواه أحمد بن حنبل في مسنده، وابن ماجة في سننه.

عَنْ ذَلِكَ فِي عَهْدٍ مِنَ العُهُودِ ابْتِدَاءً مِنْ عَصْرِ بَنِي «أُمَيَّةَ» وَاسْتِمْرَاراً إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا .

وَلَوْ شَاءَ أَحَدُ البَاحِثِينَ أَنْ يَجْمَعَ هَذِهِ الكَلِمَاتِ ، وَأَنْ يُدَوِّنَ المَوَاقِفَ الَّتِي قِيلَتْ فِيهَا لَظَفِرَ بِسِفْرٍ كَبِيرٍ مِنْ أَسْفَارِ الأَدَبِ الرَّفِيعِ الأَصِيلِ الَّذِي تَأَلَّقَتْ فِيهِ الكَلِمَةُ كَمَا تَتَأَلَّقُ النُّجُومُ الزُّهْرُ ، وَأَثْمَرَتْ أَطْيَبَ الثَّمَرِ ، وَشَرَّفَتْ فَنَّ القَوْلِ عَلَىٰ مَرِّ العُصُورِ ، وَزَانَتْ تَارِيخَ الحَضَارَةِ بِمَوَاقِفَ لَمْ تَحْظَ البَشَرِيَّةُ بِأَنْبَلَ مِنْهَا وَلَا أَعَزَّ وَلَا أَكْرَمَ .

وَحَسْبُكَ أَنْ تَقْرَأَ مَا خَلَّفَهُ لَنَا فِي هَذَا المَجَالِ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ ، وَالأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ ، وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وَسَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَالحَسَنُ البَصْرِيُّ ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، وَسَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ ، وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ ، وَسَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ ، وَرَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ[1] ، وَغَيْرُهُمْ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ لَا نُحْصِيهِمْ عَدَداً لِتَجِدَ مِصْدَاقَ مَا نَقُولُ .

هَذَا هُوَ مَوْقِفُ الإِسْلَامِ مِنْ حُرِّيَّةِ التَّفْكِيرِ وَالتَّعْبِيرِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ أَحَدٍ أَنَّ الإِسْلَامَ وَضَعَ قُيُوداً لِلْحُرِّيَّاتِ جَمِيعِهَا .

وَفِي وُسْعِنَا أَنْ نَسْتَشِفَّ تِلْكَ القُيُودَ مِنْ حَدِيثِ السَّفِينَةِ ، فَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ :

(إِنَّ قَوْماً رَكِبُوا فِي سَفِينَةٍ فَاقْتَسَمُوا ، فَصَارَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ مَوْضِعٌ ، فَنَقَرَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ بِفَأْسٍ ، فَقَالُوا : مَا تَصْنَعُ ؟ ... قَالَ :

---

(١) انظرهم في كتاب «صور من حياة التابعين» ، للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي .

هُوَ مَكَانِي أَصْنَعُ فِيهِ مَا أَشَاءُ ، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ يَدِهِ نَجَا وَنَجَوْا ، وَإِنْ تَرَكُوهُ هَلَكَ وَهَلَكُوا)[1].

وَالحَدِيثُ الشَّرِيفُ ـ كَمَا تَرَىٰ ـ يُقِرُّ مَبْدَأَ حُرِّيَّةِ تَصَرُّفِ الأَفْرَادِ فِيمَا خَوَّلَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَيُطْلِقُ لَهُمُ العِنَانَ فِي ذَلِكَ . حَتَّىٰ إِذَا أَسَاءُوا اسْتِعْمَالَ هَذِهِ الحُرِّيَّةِ عَلَىٰ وَجْهٍ يُضِرُّ بِأَنْفُسِهِمْ أَوْ بِغَيْرِهِمْ تَصَدَّىٰ لَهُمْ ، وَأَخَذَ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ ، وَحَالَ دُونَهُمْ وَدُونَ العَبَثِ بِهَذِهِ الحُرِّيَّةِ حِرْصاً عَلَىٰ مَصْلَحَتِهِمُ الفَرْدِيَّةِ أَوَّلاً ، وَمَصْلَحَةِ مُجْتَمَعِهِمْ ثَانِياً : (فَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ يَدِهِ نَجَا وَنَجَوْا وَإِنْ تَرَكُوهُ هَلَكَ وَهَلَكُوا) .

وَيَبْدُو لَنَا أَنَّ مِنْ وَاجِبِ المُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيِّ ـ مُمَثَّلاً بِوَلِيِّ الأَمْرِ ـ أَنْ يُصَادِرَ حُرِّيَّةَ القَوْلِ الَّتِي مُنِحَتْ لِلأُدَبَاءِ وَغَيْرِهِمْ إِذَا رَأَىٰ فِيهَا خَطَراً يُهَدِّدُ سَلَامَةَ المُجْتَمَعِ وَأَمْنَهُ العَقَدِيَّ ، أَوِ الأَخْلَاقِيَّ ، أَوِ الاجْتِمَاعِيَّ ، أَوِ الاقْتِصَادِيَّ ...

وَالحَدِيثُ الَّذِي أَوْرَدْنَاهُ فِي ذَمِّ الشِّعْرِ[2] صَرِيحٌ فِي أَنَّ الإِسْلَامَ يُكَافِحُ الأَدَبَ الهَدَّامَ ، وَيَجْعَلُ مِنْ وَاجِبِ وَلِيِّ الأَمْرِ أَنْ يُلْجِمَ أَصْحَابَهُ ، وَأَنْ يَخْتِمَ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ، وَأَنْ يَأْخُذَ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ ، حَتَّىٰ يُحَافِظَ عَلَىٰ بُنْيَةِ المُجْتَمَعِ نَقِيَّةً سَلِيمَةً ، وَيَصُونَهَا مِنْ عَبَثِ العَابِثِينَ وَضَلَالِ المُضِلِّينَ .

* * *

(١) انظر في هذا الخبر البخاري .

(٢) انظر « موقف الإسلام من الأدب بعامة ومن الشعر بخاصة » ص ١٣ .

مَوْقِفُ الأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ مِنْ مَسْأَلَةِ القَضَاءِ وَالقَدَرِ فِي الأَعْمَالِ القَصَصِيَّةِ وَالـمَسْرَحِيَّةِ وَغَيْرِهَا

القَدَرُ - كَمَا بَدَا لِلإِنْسَانِ الوَثَنِيِّ مُنْذُ وُجِدَ عَلَىٰ ظَهْرِ الأَرْضِ - قُوَّةٌ قَوِيَّةٌ هَائِلَةٌ جَبَّارَةٌ تُحْيِي وَتُمِيتُ، وَتُعْطِي وَتَمْنَعُ، وَتَخْفِضُ وَتَرْفَعُ، وَتُفْرِحُ وَتُتْرِحُ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الإِنْسَانِ العَاجِزِ الضَّعِيفِ قُدْرَةٌ عَلَىٰ تَغْيِيرِ مَا تَشَاؤُهُ لَهُ، أَوْ تَعْدِيلِ مَا تُحِلُّهُ بِهِ، فَهُوَ - بِالنِّسْبَةِ لَهَا - كَرِيشَةٍ صَغِيرَةٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا إِعْصَارٌ.

وَهَذِهِ القُوَّةُ القَوِيَّةُ الَّتِي تَتَحَكَّمُ بِالإِنْسَانِ كُلَّ هَذَا التَّحَكُّمِ، وَتَتَصَرَّفُ فِي شُئُونِهِ كُلَّ هَذَا التَّصَرُّفِ خَفِيَّةٌ عَنْهُ، غَامِضَةٌ بِالنِّسْبَةِ لَهُ.

وَهُوَ أَمْرٌ يَزِيدُ فِي خَوْفِ الإِنْسَانِ مِنْهَا وَرَهْبَتِهِ إِيَّاهَا.

وَهَذِهِ القُوَّةُ القَوِيَّةُ الهَائِلَةُ الـمَجْهُولَةُ الَّتِي لَيْسَ لِقُوَّتِهَا حُدُودٌ؛ تَعْتَمِدُ فِي تَصَرُّفِهَا مَعَ الإِنْسَانِ عَلَىٰ الـمُبَاغَتَةِ، ذَلِكَ أَنَّهَا تُطْلِقُ لَهُ العِنَانَ عَلَىٰ غَارِبِهِ دُونَ أَمْرٍ مِنْهَا أَوْ نَهْيٍ، فَيُدَبِّرُ لِنَفْسِهِ مَا يُدَبِّرُ، وَيَبْنِي لِتَحْقِيقِ أَحْلَامِهِ مَا يَبْنِي حَتَّىٰ إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ اسْتَوْثَقَ لِنَفْسِهِ، وَسَدَّ الثُّغَرَ الَّتِي يَنْفُذُ إِلَيْهِ مِنْهَا الـخَلَلُ أَتَاهُ أَمْرُهَا الغَامِضُ فِي لَحَظَاتٍ، فَقَوَّضَتْ مَا بَنَىٰ وَبَدَّدَتْ مَا جَمَعَ.

فَإِذَا بِهَذَا الإِنْسَانِ نَادِمٌ عَلَىٰ جُهْدِهِ الضَّائِعِ، يَائِسٌ مِنْ أَنْ يُعِيدَ الكَرَّةَ، قَاعِدٌ القُرْفُصَاءَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ حَسْرَةً عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ.

وَهَذِهِ القُوَّةُ القَوِيَّةُ الـمُسَيْطِرَةُ الـمُبَاغِتَةُ لَمْ تُطْلِعِ الإِنْسَانَ عَلَىٰ الـحِكْمَةِ فِيمَا

تَفْعَلُهُ ، لِذَا فَهُوَ يَرَاهَا تَخْبِطُ فِي تَصَرُّفَاتِهَا مَعَهُ خَبْطَ عَشْوَاءَ ، فَهُنَا شَرٌّ شِرِّيرٌ يَسُودُ وَيَنْتَصِرُ ، وَفِي مُقَابَلَتِهِ خَيْرٌ خَيِّرٌ يَذِلُّ وَيَنْدَحِرُ ...

وَذَلِكَ أَحْمَقُ كَسِلٌ مُتَوَانٍ يَهْبِطُ عَلَيْهِ الرِّزْقُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَيَنْبُعُ لَهُ مِنَ الأَرْضِ حَتَّىٰ لَو مَسَّ حَجَراً لَاسْتَحَالَ ذَهَباً ...

وَهَذَا عَاقِلٌ مُكَافِحٌ يَدْأَبُ وَيَشْقَىٰ ، ثُمَّ لَا يَحْظَىٰ بِمِثْلِ مَا حَظِيَ بِهِ ذَلِكَ الأَحْمَقُ الكَسِلُ .

وهَذِهِ القُوَّةُ القَوِيَّةُ القَاهِرَةُ القَادِرَةُ يَخَالُهَا الإِنْسَانُ قَدْ جَنَّدَتْ طَاقَاتِهَا ـ عَلَىٰ الدَّوَامِ ـ لِحَرْبِهِ ، فَهِيَ فِي حُدُودِ بَصَرِهِ ـ القَاصِرِ ـ لَا تَكُونُ مَرَّةً مَعَهُ وَمَرَّةً عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا هِيَ تَقِفُ ضِدَّهُ عَلَىٰ الدَّوَامِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَشْعُرُ بِهَا ، وَلَا يُؤْمِنُ بِوُجُودِهَا حِينَ تَجْرِي بِمَا يَهْوَاهُ وَتَصْنَعُ مَا يَشْتَهِيهِ .

إِنَّ مَثَلَهُ كَمَثَلِ النُّوتِيِّ الَّذِي لَا يَشْعُرُ بِالرِّيَاحِ الرَّخِيَّةِ وَهِيَ تَدْفَعُ شِرَاعَهُ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي يَبْتَغِيهِ ، وَلَكِنَّهُ يَشْعُرُ بِقَبْضَتِهَا القَاسِيَةِ حِينَ تَجْرِي بِمَا لَا تَشْتَهِي سَفِينَتُهُ ، وَذَلِكَ مَا يَزِيدُهُ غَمًّا وَمُعَانَاةً وَأَسًى .

وَقَدِ اتَّخَذَ الإِغْرِيقُ وَالرُّومَانُ مِنْ قَضِيَّةِ القَدَرِ هَذِهِ وَمِنْ صِرَاعِهِ مَعَ الإِنْسَانِ مَادَّةً غَنِيَّةً لِفُنُونِهِمُ القَصَصِيَّةِ وَالمَسْرَحِيَّةِ ، وَقُوَّةً مُحَرِّكَةً لَهَا ، وَأَبْدَعُوا فِي تَصْوِيرِ هَذَا الصِّرَاعِ مَا شَاءَتْ لَهُمُ العَبْقَرِيَّةُ أَنْ يُبْدِعُوا ، وَشَدَّتْ إِلَيْهِمْ مَلَايِينَ القُرَّاءِ فِيمَا يُقْرَأُ ، وَمَلَايِينَ النَّظَّارَةِ فِيمَا يُمَثَّلُ ، وَاسْتَدَرَّتْ ـ عَلَىٰ مَرِّ التَّارِيخِ ـ مِنَ العُيُونِ الدُّمُوعَ ، وَانْتَزَعَتْ مِنَ الصُّدُورِ الآهَاتِ ...

وَلَكِنَّهَا لَمْ تَشْفِ الإِنْسَانِيَّةَ مِنْ أَوْجَاعِهَا ، وَلَمْ تُعَالِجْ أَوْصَابَهَا[1]

(١) الأوصاب : جمع مفرده وصب ، وهو المرض والوجع الدائم ، ونحول الجسم .

وَأَدْوَاءَهَا ، وَإِنَّمَا أَفْسَدَتْ عَلَيْهَا حَيَاتَهَا حِينَ أَصَّلَتْ لَهَا هَذِهِ المَعَانِيَ الَّتِي تَئِنُّ مِنْ وَطْأَتِهَا ، وَأَكَّدَتْ لَهَا هَذِهِ المَفْهُومَاتِ الَّتِي جَعَلَتْ تَسْحَقُهَا سَحْقاً .

لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الأَعْمَالُ الأَدَبِيَّةُ تَهَبُ الإِنْسَانَ ومَضَاتٍ مِنَ الرَّاحَةِ ثُمَّ تَعْقُبُهَا كَوَابِيسُ مِنَ الأَلَمِ وَالشَّقَاءِ وَاليَأْسِ .

إِنَّ مَثَلَهَا كَمَثَلِ مَنْ يَحُكُّ لِلأَجْرَبِ جَسَدَهُ ، فَهُوَ يُرِيحُهُ بِذَلِكَ لَحْظَةَ يَحُكُّ لَهُ جِلْدَهُ بِأَظَافِرِهِ ، وَلَكِنَّهُ يُؤْذِيهِ وَيُشْقِيهِ بِالجِرَاحِ الَّتِي يُخَلِّفُهَا فِي جَسَدِهِ ، وَيُوئِسُهُ وَيُقْنِطُهُ بِتَرْسِيخِ الدَّاءِ فِيهِ وَتَأْصِيلِهِ فِي بَدَنِهِ .

لَقَدْ كَانَ الأَدَبَانِ اليُونَانِيُّ وَالرُّومَانِيُّ يَنْبَعِثَانِ فِي تَصْوِيرِ القَدَرِ مِنَ العَقِيدَةِ الوَثَنِيَّةِ القَائِمَةِ عَلَىٰ تَعَدُّدِ الآلِهَةِ ، حَتَّىٰ أَصْبَحَ عِنْدَهُمْ لِكُلِّ مَعْلَمٍ مِن مَعَالِمِ الحَيَاةِ المَادِيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّةِ إِلَهٌ .

ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الآلِهَةَ - عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنَ الصِّرَاعِ الدَّائِمِ الدَّائِبِ بَيْنَهُمْ - كَانَتْ عَلَاقَتُهُمْ بِالبَشَرِيَّةِ عَلَاقَةَ مُكَايَدَةٍ وَمُعَانَدَةٍ ومُبَاغَضَةٍ ، وَكَانُوا يَتَسَلَّحُونَ دَائِماً بِسُلْطَانِهِمُ الَّذِي - يَزْعُمُونَ بِأَنَّهُ - لَا يُقْهَرُ ، وَيُجَابِهُونَ بِهِ ضَعْفَ الإِنْسَانِ وَعَجْزَهُ . وَقَدْ كَانُوا عَلَىٰ الدَّوَامِ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ يَنْصُرُوا بَاطِلَهُمْ وَظُلْمَهُمْ عَلَىٰ حَقِّ هَذَا الإِنْسَانِ ، وَعَدَالَةِ مَطَالِبِهِ .

وَحِينَ سَادَ المَذْهَبُ الكَلَاسِيكِيُّ أُورُبَّا المَسِيحِيَّةَ ظَلَّ الأَدَبُ مُتَأَثِّراً بِهَذِهِ النَّظْرَةِ إِلَىٰ القَدَرِ ، وَصِرَاعِ الإِنْسَانِ مَعَهُ ، وَبَقِيَ الكَلَاسِيكِيُّونَ يَشْرَبُونَ مِنَ الكَأْسِ الَّتِي شَرِبَ مِنْهَا أُدَبَاءُ الإِغْرِيقِ وَالرُّومَانِ[1] .

---

(١) انظر كتاب « في الأدب والنقد » لمندور : الكلاسيكية أصلها وأصولها ، وكتاب « فن الشعر » للناقد الفرنسي « بوالو » .

وَلَقَدْ ظَلَّ الأَمْرُ كَذَلِكَ إِلَىٰ أَنْ تَـمَّ التَّحَوُّلُ الكَبِيرُ فِي أُورُبَّا مِمَّا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ إِلَىٰ الطَّبِيعَةِ ، وَمِنَ المُجَرَّدِ الذِّهْنِيِّ إِلَىٰ المُجَسَّدِ المَحْسُوسِ .

وَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَبْدَلَ الأُدَبَاءُ الأُورُبِيُّونَ بِقُوَىٰ عَالَمِ الغَيْبِ قُوًى مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ ، وَذَلِكَ كَقُوَّةِ الطَّبِيعَةِ أَوْ قُوَّةِ المُجْتَمَعِ ، أَوْ قُوَّةِ الطَّبَقَةِ .

وَحَافَظُوا عَلَىٰ الصِّرَاعِ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَبَيْنَ هَذِهِ القُوَىٰ الجَدِيدَةِ ، فَبَقِيَ الصِّرَاعُ كَمَا كَانَ مِنْ قَبْلُ ؛ غَيْرَ أَنَّ أَحَدَ طَرَفَيْهِ قَدْ طَرَأَ عَلَيْهِ التَّغْيِيرُ وَالتَّجْدِيدُ حَيْثُ غَدَا البَطَلُ فِي الأَدَبِ الحَدِيثِ لَا يُصَارِعُ الآلِهَةَ ، وَلَا يُصَارِعُ القَدَرَ المُغَيَّبَ ، وَإِنَّمَا يُصَارِعُ الطَّبِيعَةَ ، وَيَسْعَىٰ إِلَىٰ قَهْرِهَا عَلَىٰ الدَّوَامِ .

وَلَقَدْ غَدَا كُلُّ كَشْفٍ جَدِيدٍ يُحَقِّقُهُ الإِنْسَانُ انْتِصَاراً عَلَىٰ الطَّبِيعَةِ وَقَهْراً لَهَا ، فَهَذِهِ البَاخِرَةُ « قَاهِرَةُ البِحَارِ » ، وَتِلْكَ الدَّبَّابَةُ « قَاهِرَةُ الصَّحْرَاءِ » .

وَكَمَا يُصَارِعُ البَطَلُ الطَّبِيعَةَ فَهُوَ يُصَارِعُ المُجْتَمَعَ ، أَوِ الطَّبَقَةَ ، أَوِ الحَظَّ العَاثِرَ ...

وَهُوَ صِرَاعٌ يَشْحَنُ القُلُوبَ بِالحِقْدِ وَالكَرَاهِيَةِ ، وَيَسْلُبُهَا الأَمْنَ وَالطُّمَأْنِينَةَ وَالرِّضَىٰ .

وَلَقَدْ كَانَ مِنْ أَثَرِ هَذَا التَّحَوُّلِ الكَبِيرِ - كَمَا يَقُولُ الأُسْتَاذُ مُحَمَّدُ قُطْبٍ[1] - أَمْرَانِ خَطِيرَانِ :

أَوَّلُهُمَا : الغَضُّ مِنْ شَأْنِ الإِلَهِ ، وَذَلِكَ بِجَعْلِ القُوَّةِ وَالتَّأْثِيرِ لِغَيْرِهِ .

وَثَانِيهِمَا : الغَضُّ مِنْ شَأْنِ الإِنْسَانِ وَذَلِكَ بِجَعْلِهِ يَنْزِلُ مِنْ مَرْتَبَةِ مَنْ

---

(١) انظر كتاب « منهج الفنّ الإسلامي » لمحمد قطب .

يُصَارِعُ الآلِهَةَ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ مَنْ يُصَارِعُ الطَّبِيعَةَ وَالمُجْتَمَعَ وَالطَّبَقَةَ ...

لَقَدْ أَرَادَ هَذَا الاِتِّجَاهُ أَنْ يُلْغِيَ الإِلَهَ لِيَرْفَعَ مِنْ شَأْنِ الإِنْسَانِ ، فَإِذَا بِهِ يُلْغِي الإِلَهَ وَلَكِنَّهُ يَهْبِطُ بِالإِنْسَانِ وَيَنْتَقِصُ مِنْهُ .

لَقَدْ كَانَ الإِنْسَانُ عَظِيماً بِسَبَبِ عَظَمَةِ خَصْمِهِ فَغَدَا ضَئِيلاً خَائِفاً مَقْهُوراً أَمَامَ خَصْمٍ أَقَلَّ شَأْناً ، وَأَهْوَنَ خَطَراً .

هَذِهِ صُورَةُ القَدَرِ وَمَوْقِفِ الإِنْسَانِ مِنْهُ فِي الأَعْمَالِ الأَدَبِيَّةِ الغَرْبِيَّةِ ، وَالأَعْمَالِ الأَدَبِيَّةِ الَّتِي سَلَكَ فِيهَا بَعْضُ المُسْلِمِينَ مَسْلَكَ الغَرْبِ فِي عَصْرِنَا الحَدِيثِ .

فَمَا التَّصَوُّرُ الإِسْلَامِيُّ لِلْقَدَرِ ؟ ...

وَمَا مَوْقِفُ الأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ مِنْ هَذِهِ القَضِيَّةِ الَّتِي مَلَأَتِ الدُّنْيَا ، وَشَغَلَتِ النَّاسَ ؟ ... وَلِلإِجَابَةِ عَنْ ذَلِكَ نَقُولُ :

إِنَّ عُلَمَاءَ المُسْلِمِينَ كَثِيراً مَا جَمَعُوا بَيْنَ القَضَاءِ وَالقَدَرِ ، وَتَحَدَّثُوا عَنْهُمَا عَلَىٰ أَنَّهُمَا وِحْدَةٌ مُتَكَامِلَةٌ تَتَأَلَّفُ مِنْ عُنْصُرَيْنِ يُتَمِّمُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ .

وَنَحْنُ سَنَتَنَاوَلُهُمَا مَعاً أَيْضاً كَمَا سَنَضُمُّ إِلَيْهِمَا طَائِفَةً مِنَ المُسَلَّمَاتِ العَقَدِيَّةِ حَتَّىٰ تَكْتَمِلَ لَنَا الصُّورَةُ المُرَادَةُ وَيَتِمَّ المَعْنَىٰ المَقْصُودُ .

فَمَعْنَىٰ القَضَاءِ وَالقَدَرِ مَعاً هُوَ إِرَادَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِيجَادَ الأَشْيَاءِ عَلَىٰ وَجْهٍ مَخْصُوصٍ ، ثُمَّ إِيجَادُهَا فِعْلاً عَلَىٰ وَفْقِ المُرَادِ[1] .

وَإِنَّ عَلَىٰ المُسْلِمِ أَنْ يُؤْمِنَ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، فَعَنْ عُمَرَ بْنِ

---

(١) انظر «العقيدة الإسلامية وأسسها» لعبد الرحمن حبنكة الميداني : ص ٤٥٦.

الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)[1].

وَلَمْ يَكْتَفِ الإِسْلَامُ بِأَنْ جَعَلَ الإِيمَانَ بِالقَدَرِ رُكْناً مِنْ أَرْكَانِ العَقِيدَةِ؛ وَإِنَّمَا عَدَّهُ رُوحَهَا وَنِظَامَهَا، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (الإِيمَانُ بِالقَدَرِ نِظَامُ التَّوْحِيدِ)[2].

وَقَدْ جَعَلَ الإِسْلَامُ لِلْقَدَرِ ثَمَرَةً تَعُودُ عَلَىٰ المَرْءِ بِالسَّعَادَةِ وَالاطْمِئْنَانِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (الإِيمَانُ بِالقَدَرِ يُذْهِبُ الْهَمَّ وَالحُزْنَ)[3].

هَذَا، وَإِنَّ الإِيمَانَ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا إِذَا اعْتَقَدَ المُسْلِمُ أَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ سِوَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَصِفَاتِهِ الجَلِيلَةِ إِنَّمَا هُوَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ قُدْرَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ خَلَقَهُ وَأَبْدَعَهُ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ.

وَأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ: بِمَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ، وَمَا سَيَكُونُ، وَأَنَّ إِرَادَتَهُ جَلَّ وَعَلَا حُرَّةٌ مُخْتَارَةٌ، لَا يُؤَثِّرُ عَلَيْهَا مُؤَثِّرٌ، وَلَا يُكْرِهُهَا مُكْرِهٌ، وَأَنَّ فِي مَقْدُورِهَا أَنْ تَتَعَلَّقَ بِكُلِّ أَمْرٍ مُمْكِنٍ.

وَأَنَّ قُدْرَتَهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ عَلَىٰ إِيجَادِ مَا تَتَعَلَّقُ بِهِ إِرَادَتُهُ، وَقُدْرَتَهُ عَلَىٰ إِعْدَامِهِ قُدْرَةٌ تَامَّةٌ كَامِلَةٌ لَا تَقِفُ دُونَهَا عَوَائِقُ وَلَا حُدُودٌ.

وَأَنَّ حِكْمَتَهُ ـ تَعَالَىٰ ـ بَالِغَةٌ فِي اخْتِيَارِ الأَكْثَرِ كَمَالاً، وَإِبْدَاعاً، وَمَصْلَحَةً، دُونَ إِلْزَامٍ، أَوْ إِكْرَاهٍ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ تَوَابِعِ كَمَالَاتِهِ سُبْحَانَهُ.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه. (٢) رواه الدارقطني. (٣) رواه الحاكم.

وَأَنَّ عَدْلَهُ تَامٌّ ، فَمَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً .

وَمِنْ هَذَا الَّذِي أَسْلَفْنَاهُ تَتَّضِحُ لَنَا أَهَمُّ أُسُسِ التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ لِلْقَدَرِ ، وَمَا يَنْبَثِقُ عَنْ هَذِهِ الأُسُسِ مِنْ تَصَوُّرَاتٍ لَا بُدَّ لِلأَدِيبِ الإِسْلَامِيِّ مِنْ أَنْ يَضَعَهَا نُصْبَ عَيْنَيْهِ فِي سَائِرِ مَا يُبْدِعُهُ مِنْ أَعْمَالٍ أَدَبِيَّةٍ .

فَكُلُّ مَا حَفِلَ بِهِ هَذَا الكَوْنُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَقْدِيرِ العَزِيزِ العَلِيمِ وَإِيجَادِهِ ...

وَلَا شَيْءَ فِي هَذَا الكَوْنِ يَقَعُ صُدْفَةً مِنْ غَيْرِ تَقْدِيرٍ ...

وَلَا شَيْءَ فِيهِ يَتِمُّ جُزَافاً بِغَيْرِ حِسَابٍ ...

وَلَا شَيْءَ فِيهِ يَحْدُثُ اعْتِبَاطاً بِلَا غَايَةٍ ... وَإِنَّمَا كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِحُسْبَانٍ ، فَلَوْ زَادَتْ نِسْبَةُ « الأُوكسُوجِين » فِي الهَوَاءِ لَاحْتَرَقَ كُلُّ حَيٍّ ، وَلَوْ قَلَّتْ هَذِهِ النِّسْبَةُ لَمَاتَتِ الكَائِنَاتُ الحَيَّةُ الَّتِي عَلَىٰ ظَهْرِ الأَرْضِ ، وَلَوِ اقْتَرَبَ القَمَرُ مِنَ الأَرْضِ لَزَادَتْ قُوَّةُ جَذْبِهِ فَارْتَفَعَ مَدُّ المِيَاهِ وَطَغَتْ عَلَىٰ اليَابِسَةِ ، وَلَوْ دَنَتِ الأَرْضُ مِنَ الشَّمْسِ لَالْتَهَبَ كُلُّ مَا عَلَىٰ سَطْحِهَا وَاحْتَرَقَ ، وَلَوِ ابْتَعَدَتِ الأَرْضُ عَنِ الشَّمْسِ لَمَاتَ كُلُّ مَا عَلَيْهَا مِنَ الحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ .

إِنَّ هَذَا الإِحْكَامَ فِي التَّدْبِيرِ وَالدِّقَّةَ فِي التَّقْدِيرِ اللَّذَيْنِ رَأَيْنَا طَرَفاً مِنْهُمَا فِي الحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ نَرَىٰ أَمْثَالَ أَمْثَالِهِمَا فِي الإِنْسَانِ الَّذِي أَحْسَنَ اللَّهُ خَلْقَهُ .

ثُمَّ إِنَّ مَوْقِفَ الإِسْلَامِ مِنَ الإِيمَانِ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ لَا يَسْتَكْمِلُ صُورَتَهُ إِلَّا بِالإِيمَانِ بِالبَعْثِ وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ ، ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾[1].

---

(١) سورة الزلزلة : ٧ - ٨.

(وَإِنَّ اللَّهَ لَيَقْتَصُّ لِلشَّاةِ الجَمَّاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ)[1].

وَخُلَاصَةُ القَوْلِ :

هِيَ أَنَّ هَذَا القَدَرَ الصَّادِرَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُصَرِّفُ شُؤُونَ الإِنْسَانِ كُلَّهَا ، وَأَنَّ هَذَا التَّصْرِيفَ إِنَّمَا يَتِمُّ بِالحَقِّ وَالعَدْلِ ، وَيَكُونُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ .

وَأَنَّ حَيَاةَ الإِنْسَانِ لَا تَنْتَهِي عَلَىٰ هَذِهِ الأَرْضِ الزَّائِلَةِ وَإِنَّمَا تَمْتَدُّ إِلَىٰ الآخِرَةِ الثَّابِتَةِ الرَّاسِخَةِ .

وَأَنَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا هِيَ حَيَاةُ ابْتِلَاءٍ وَاخْتِبَارٍ ، وَأَنَّ الحَيَاةَ الأُخْرَىٰ هِيَ حَيَاةُ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ وَاسْتِقْرَارٍ .

وَعَلَىٰ هَذَا فَإِنَّ الأَدِيبَ الإِسْلَامِيَّ لَا تَقِفُ نَظْرَتُهُ عِنْدَ حُدُودِ مَا يَتِمُّ هُنَا ، وَإِنَّمَا تَمْتَدُّ إِلَىٰ آفَاقِ مَا قَدْ يَجْرِي هُنَاكَ .

أَمَّا الأَدِيبُ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَإِنَّهُ لَا يُدْرِكُ طَبِيعَةَ الأَحْدَاثِ ، وَلَا يَفْقَهُ حِكْمَتَهَا ؛ لِأَنَّهُ يَقِفُ عِنْدَ مَقْطَعٍ وَاحِدٍ مِنْ مَقَاطِعِهَا ، وَيَحْكُمُ عَلَيْهَا مِنْ خِلَالِ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا ، وَيَجْزِمُ بِنِهَايَتِهَا عِنْدَمَا تَكُونُ فِي بِدَايَتِهَا أَوْ أَوْسَاطِهَا ، فَيَقَعُ فِي الخَطَأِ ، وَيُصِيبُهُ الاِضْطِرَابُ وَالشَّكُّ وَالضَّيَاعُ .

وَلَمْ يُغْفِلِ القُرْآنُ الكَرِيمُ هَذَا الأَمْرَ ، وَلَمْ يَتْرُكِ المُؤْمِنِينَ يُعَانُونَ الحِيرَةَ فِي تَفْسِيرِ الأَحْدَاثِ الَّتِي لَا يَجِدُونَ لَهَا تَفْسِيراً ، وَإِنَّمَا عَالَجَ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ العَبْدِ الصَّالِحِ أَرْوَعَ مُعَالَجَةٍ وَأَوْفَاهَا[2].

إِنَّ الإِسْلَامَ بِتَنْظِيمِهِ الإِلَهِيِّ المُعْجِزِ لِلْعَلَاقَةِ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَالقَدَرِ ، وَبَيْنَهُ

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/ ٢٢٥.

(٢) لقد وردت هذه القصة في سورة الكهف : الآيات : ٦٦ - ٨٢.

وَبَيْنَ الطَّبِيعَةِ ، قَدْ دَفَنَ إِلَىٰ الأَبَدِ مَأْسَاةَ ذَلِكَ الصِّدَامِ ، وَقَضَىٰ عَلَىٰ عَنَاءِ الإِنْسَانِ وَشَقَائِهِ .

وَهُوَ حِينَ أَغْلَقَ أَبْوَابَ الصِّرَاعِ مَعَ القَدَرِ وَالطَّبِيعَةِ فِي وُجُوهِ الأُدَبَاءِ ... فَتَحَ أَمَامَهُمْ أَبْوَاباً وَفِيرَةً كَثِيرَةً لِأَعْمَالِهِمُ الأَدَبِيَّةِ ، وَمَدَّ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ دُرُوباً أَرْحَبَ لِهَذِهِ الأَعْمَالِ ، وَآفَاقاً أَفْسَحَ لِبِنَائِهَا .

فَفِي الشَّوْقِ إِلَىٰ الشَّهَادَةِ ، وَبَذْلِ النَّفْسِ رَخِيصَةً فِي سَبِيلِهَا ، وَاشْتِرَاءِ الحَيَاةِ البَاقِيَةِ بِالفَانِيَةِ مَعِينٌ مِنَ المَشَاعِرِ لَا يَنْضُبُ ، وَمَادَّةٌ دَسِمَةٌ لِلأَدَبِ بِعَامَّةٍ وَلِلأَعْمَالِ القَصَصِيَّةِ وَالمَسْرَحِيَّةِ بِخَاصَّةٍ .

وَإِنَّ فِي أَحْدَاثِ الإِيثَارِ النَّبِيلِ الجَلِيلِ ، وَمَوَاقِفِ البَذْلِ السَّخِيِّ السَّمْحِ الَّتِي وَقَفَهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، شُعَلاً تُلْهِبُ مَشَاعِرَ الخَيْرِ وَالبِرِّ فِي النُّفُوسِ ، وَتَمْنَحُ الأَدَبَ نُسْغاً[1] يَتَدَفَّقُ بِالحَيَوِيَّةِ وَالفَاعِلِيَّةِ .

وَإِنَّ فِي الهُيَامِ بِمَعَالِي الأُمُورِ وَالأَنَفَةِ مِنْ سَفَاسِفِهَا ، وَالنِّضَالِ الصَّعْبِ فِي سَبِيلِ بُلُوغِهَا دَماً آخَرَ مَشْحُوناً بِالقُوَّةِ .

وَإِذَا مُنِحَ الأَدِيبُ الإِسْلَامِيُّ القُدْرَةَ عَلَىٰ صَبِّهِ فِي شَرَايِينِ الأَدَبِ بِنَجَاحٍ حَوَّلَهُ إِلَىٰ أَدَاةٍ قَادِرَةٍ عَلَىٰ الإِثَارَةِ وَالتَّوْجِيهِ .

وَإِنَّ فِي أَخْبَارِ أَفْذَاذِ العُلَمَاءِ ، وَأَسَاطِينِ الحُكَمَاءِ ، وَأَكَابِرِ الدُّعَاةِ وَالمُصْلِحِينَ وَالسَّاسَةِ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالدِّينِ مَا يَمْلأُ عَالَمَ الأَدَبِ ، وَيُغْنِي مَطَالِبَ الأُدَبَاءِ .

---

(١) النُّسغ : ماء يخرج من الشجرة في مكان القطع منها .

وَإِنَّ فِي الإِيمَانِ بِقَضِيَّةٍ مِنْ نَبِيلِ القَضَايَا ، وَالحَيَاةِ مِنْ أَجْلِهَا ، وَالنِّضَالِ فِي سَبِيلِهَا ، وَتَخَطِّي العَقَبَاتِ الَّتِي تَحُولُ دُونَهَا يَنْبُوعاً ثَرًّا قَادِراً عَلَىٰ إِرْوَاءِ الأَدَبِ وَنَمَائِهِ .

وَإِنَّ فِي الأَشْوَاقِ الحَارَّةِ إِلَىٰ الخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالتَّفَانِي فِي العُبُودِيَّةِ لَهُ زَيْتاً مُقَدَّساً يُمْكِنُ أَنْ تُوقَدَ بِهِ شُعْلَةُ الأَدَبِ .

هَذَا ، وَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نَسْلُكَ سُبُلَ الصِّرَاعِ فِي الأَعْمَالِ القَصَصِيَّةِ وَالمَسْرَحِيَّةِ ، فَأَمَامَنَا خُصُومٌ أَلِدَّاءُ حَقِيقِيُّونَ يُمْكِنُ أَنْ نُوقِدَ نِيرَانَ الصِّرَاعِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ .

فَهُنَاكَ الصِّرَاعُ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَالشَّيْطَانِ ، وَهُوَ صِرَاعٌ عَنِيفٌ خِصْبٌ بَنَّاءٌ نَافِعٌ ، كَمَا أَنَّ هُنَاكَ صِرَاعاً بَيْنَ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ وَالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ، وَهُوَ صِرَاعٌ وَاقِعِيٌّ دَائِمٌ .

وَهُنَاكَ صِرَاعٌ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَالشُّحِّ الَّذِي يُهِينُ النُّفُوسَ ، وَيُطَأْطِئُ الهَامَاتِ .

إِنَّ هَذَا الصِّرَاعَ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ آنِفاً أَجْدَىٰ عَلَىٰ البَشَرِ مِنَ الصِّرَاعِ مَعَ القَدَرِ ، وَأَنْفَعُ لِلإِنْسَانِ مِنَ الوُقُوفِ عَلَىٰ أَطْلَالِ الحُظُوظِ التَّعِيسَةِ ، وَالبُكَاءِ عَلَىٰ ضَحَايَاهَا .

* * *

أَخْلَاقِيَّةُ الأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ
وَمَوْقِفُهُ مِنْ تَصْوِيرِ الشَّرِّ وَالرَّذِيلَةِ

اشْتَدَّ الجَدَلُ ـ مُنْذُ قَدِيمِ الزَّمَانِ ـ حَوْلَ أَخْلَاقِيَّةِ الأَدَبِ، وَمَا يَزَالُ هَذَا الجَدَلُ قَائِماً حَتَّىٰ اليَوْمِ.

فَفَرِيقٌ كَبِيرٌ مِنَ الأُدَبَاءِ وَالنُّقَّادِ يَرَىٰ أَنَّ عَلَىٰ الأَدَبِ أَنْ يَكُونَ أَخْلَاقِيًّا، وَفَرِيقٌ كَبِيرٌ آخَرُ يَرَىٰ أَنَّ الأَدَبَ لَا يَغْدُو أَدَباً حَقًّا إِلَّا إِذَا تَجَرَّدَ مِنْ كُلِّ قَيْدٍ حَتَّىٰ قَيْدِ الأَخْلَاقِ.

وَيُؤَيِّدُ هَذَا الفَرِيقُ رَأْيَهُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ مَكْمَنَ الجَمَالِ فِي الأَدَبِ إِنَّمَا هُوَ الإِبْدَاعُ وَالإِتْقَانُ، فَأَنْتَ إِذَا أَجَدْتَ تَصْوِيرَ الشَّرِّ وَالرَّذِيلَةِ فَإِنَّكَ لَا تَقِلُّ فَضْلاً عَمَّنْ يُجِيدُ تَصْوِيرَ الخَيْرِ وَالفَضِيلَةِ»[1].

أَمَّا الَّذِينَ يَدِينُونَ بِأَخْلَاقِيَّةِ الأَدَبِ وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ «جُويُو»[2] مِنَ النُّقَّادِ المُحْدَثِينَ، وَ«تَوْفِيقَ الحَكِيمَ» مِنَ النُّقَّادَ العَرَبِ المُعَاصِرِينَ فَيُبْدِيَانِ رَأْيَهُمَا فِي هَذَا المَوْضُوعِ بِدِقَّةٍ وَوُضُوحٍ حَيْثُ يَقُولُ «جُويُو»:

إِنَّ الرُّوحَ الأَخْلَاقِيَّ عِنْدَ الفَنَّانِ كَعَبْقَرِيَّتِهِ يَجِبُ أَنْ يَنْبُعَا مَعاً وَفِي وَقْتٍ وَاحِدٍ مِنْ أَعْمَاقِ طَبِيعَتِهِ، وَإِنَّ الفَنَّ غَيْرَ الأَخْلَاقِيِّ ـ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ ـ أَحَطُّ مَرْتَبَةً مِنَ الفَنِّ الأَخْلَاقِيِّ، وَذَلِكَ مِنَ الوِجْهَةِ الفَنِّيَّةِ الخَالِصَةِ.

فَالفَنُّ العَالِي لَيْسَ ذَلِكَ الَّذِي يُثِيرُ فِي النَّفْسِ أَحَرَّ المَشَاعِرِ وَأَعْنَفَهَا

---

(١) انظر «فن الأدب» لتوفيق الحكيم: ٧٤.
(٢) انظر المصدر السابق: ص ٧٥ وما بعدها.

فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا هُوَ ذَلِكَ الَّذِي يُثِيرُ فِيهَا أَكْرَمَ المَشَاعِرِ وَأَنْبَلَهَا » .

أَمَّا « تَوْفِيقُ الحَكِيمُ » فَيَعْرِضُ وِجْهَةَ نَظَرِهِ فِي ضَرُورَةِ أَخْلَاقِيَّةِ الْأَدَبِ فَيَقُولُ :

« إِنَّنِي لَا أَتَصَوَّرُ فَنًّا لَا يُصَوِّرُ الرَّذِيلَةَ كَمَا يُصَوِّرُ الفَضِيلَةَ ، وَلَا يُبْرِزُ الشَّرَّ كَمَا يُبْرِزُ الخَيْرَ ، فَحُرِّيَّةُ التَّصْوِيرِ هَذِهِ مَفْرُوضَةٌ وَمَطْلُوبَةٌ ، وَإِنَّ المُشْكِلَةَ عِنْدِي لَا تَكْمُنُ فِي حُرِّيَّةِ التَّصْوِيرِ ، وَإِنَّمَا تَكْمُنُ فِي الإِحْسَاسِ الأَخِيرِ الَّذِي يَسْتَقِرُّ فِي نُفُوسِ قُرَّاءِ هَذَا الْأَدَبِ » .

وَهُوَ يَرَىٰ أَنَّ هَذَا الإِحْسَاسَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَخْلَاقِيًّا ، أَوْ أَنْ يَكُونَ ـ عَلَىٰ الأَقَلِّ ـ غَيْرَ مُجَافٍ لِلأَخْلَاقِ .

وَهُوَ يُؤَيِّدُ رَأْيَهُ فِي ضَرُورَةِ أَخْلَاقِيَّةِ الْأَدَبِ بِقَوْلِهِ :

« إِنَّ خَطَرَ الْأَدَبِ يَبْدُو فِي أَنَّهُ يَمْلِكُ القُدْرَةَ عَلَىٰ اسْتِدْرَارِ عَطْفِكَ عَلَىٰ مَنْ يُصَوِّرُهُمْ مِنَ الأَشْخَاصِ ، وَإِثَارَةِ إِعْجَابِكَ بِهِمْ ...

فَإِذَا عَرَفْنَا أَنَّ العَطْفَ وَالإِعْجَابَ يُعْدِيَانِ كَمَا تُعْدِي الأَمْرَاضُ السَّارِيَةُ أَدْرَكْنَا خَطَرَ الْأَدَبِ غَيْرِ الأَخْلَاقِيِّ ...

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الْأَدَبَ الَّذِي يَقُودُ قَارِئَهُ إِلَىٰ العَطْفِ عَلَىٰ الِانْحِلَالِ ، وَالإِعْجَابِ بِالرَّذِيلَةِ وَالِانْحِدَارِ إِنَّمَا هُوَ أَدَبٌ هَدَّامٌ ؛ لِأَنَّ مُجْتَمَعاً بِأَسْرِهِ يُمْكِنُ أَنْ تَسْرِيَ فِيهِ العَدْوَىٰ عَنْ طَرِيقِ ذَلِكَ الْأَدَبِ » .

ثُمَّ يُضِيفُ « تَوْفِيقُ الحَكِيمُ » إِلَىٰ ذَلِكَ قَوْلَهُ :

« إِنَّ وَظِيفَةَ الْأَدَبِ أَنْ يُؤَثِّرَ فِي النَّفْسِ وَالفِكْرِ ... وَلَكِنْ مَا نَوْعُ هَذَا التَّأْثِيرِ » ؟ .

وَيُجِيبُ عَنْ هَذَا التَّسَاؤُلِ بِقَوْلِهِ :

« إِنَّ نَوْعَ التَّأْثِيرِ هُوَ الَّذِي يُحَدِّدُ الفَنَّ ، فَإِذَا طَالَعْتَ أَثَراً فَنِّيًّا ـ قَصِيدَةً أَوْ قِصَّةً أَوْ صُورَةً ـ وَشَعَرْتَ بَعْدَئِذٍ أَنَّهَا حَرَّكَتْ مَشَاعِرَكَ العُلْيَا ، أَوْ تَفْكِيرَكَ السَّامِيَ فَأَنْتَ أَمَامَ فَنٍّ رَفِيعٍ ، وَإِذَا لَمْ تُحَرِّكْ إِلَّا المُبْتَذَلَ مِنْ مَشَاعِرِكَ ، وَالتَّافِهَ مِنْ تَفْكِيرِكَ فَأَنْتَ أَمَامَ فَنٍّ رَخِيصٍ » .

ذَلِكَ هُوَ مَوْقِفُ النُّقَّادِ مِنْ قَضِيَّةِ « أَخْلَاقِيَّةِ الأَدَبِ » وَ« تَصْوِيرِهِ لِلشَّرِّ وَالرَّذِيلَةِ » .

فَمَا مَوْقِفُ الأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ مِنْ هَاتَيْنِ القَضِيَّتَيْنِ المُتَشَابِكَتَيْنِ ؟ .

إِنَّ مَوْقِفَهُ مِنْ « أَخْلَاقِيَّةِ الأَدَبِ » يَتَحَدَّدُ بِنَظْرَةِ الإِسْلَامِ إِلَىٰ الأَخْلَاقِ وَمَوْقِفِهِ مِنْهَا .

فَالرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِنَّمَا بُعِثَ لِيُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ ، وَلَا بُدَّ لِأَتْبَاعِهِ ـ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْظَوْا بِشَرَفِ الِانْتِسَابِ إِلَيْهِ ـ مِنْ أَنْ يَكُونُوا أَخْلَاقِيِّينَ ، اسْتِجَابَةً لِدَعْوَتِهِ ، وَجَرْياً عَلَىٰ غِرَارِهِ ، وَأَلَّا يُشَوِّهُوا نَقَاءَ الكَلِمَةِ ، وَيُفْسِدُوا رِسَالَتَهَا بِمَا تَجْرِي بِهِ أَقْلَامُهُمْ مِنْ أَعْمَالٍ أَدَبِيَّةٍ .

أَمَّا مَوْقِفُ الإِسْلَامِ مِنْ « تَصْوِيرِ الشَّرِّ وَالرَّذِيلَةِ » فَقَدْ بَدَا وَاضِحاً فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

فَلَقَدْ صَوَّرَ القُرْآنُ الكَرِيمُ رِجْسَ المُشْرِكِينَ ، وَفَسَادَ المُفْسِدِينَ ...

كَمَا صَوَّرَ فَضْلَ المُؤْمِنِينَ ، وَإِحْسَانَ المُحْسِنِينَ ... وَلَكِنَّ كُلًّا مِنَ التَّصْوِيرَيْنِ كَانَ يَهْدِفُ إِلَىٰ غَايَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ إِرْسَاءُ قَوَاعِدِ الخَيْرِ وَالفَضِيلَةِ فِي المُجْتَمَعَاتِ ، وَاقْتِلَاعُ جُذُورِ الشَّرِّ وَالرَّذِيلَةِ مِنْهَا .

فَهُوَ حِينَ يُصَوِّرُ الخَيْرَ إِنَّمَا يُصَوِّرُهُ مِنْ أَجْلِ الخَيْرِ، وَهُوَ حِينَ يُصَوِّرُ الشَّرَّ، إِنَّمَا يُصَوِّرُهُ مِن أَجْلِ الخَيْرِ أَيْضاً.

ذَلِكَ هُوَ وَاجِبُ الأَدِيبِ المُسْلِمِ، فَالقُرْآنُ الكَرِيمُ رَائِدُهُ وَقَائِدُهُ فِي هَذَا المَجَالِ وَفِي كُلِّ حَالٍ.

إِنَّ الإِسْلَامَ لَا يُنْكِرُ أَنَّ فِي البَشَرِيَّةِ ضَعْفاً، وَلَكِنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يُبَرِّرَ هَذَا الضَّعْفَ، وَيُهَوِّنَهُ فِي نُفُوسِ النَّاسِ.

فَكِتَابُ اللَّهِ وَحَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ كَثِيراً مَا أَلَمَّا بِهَذَا الضَّعْفِ. وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يَعْرِضَا ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ تَسْجِيلِ الوَاقِعِ، وَإِنَّمَا عَرَضَاهُ رَغْبَةً فِي بَيَانِ بَشَاعَةِ هَذَا الوَاقِعِ، وَسَعْياً إِلَى الارْتِفَاعِ بِالإِنْسَانِ مِنْ وَهْدَتِهِ[1] الَّتِي يَنْحَدِرُ إِلَيْهَا، وَتَطْوِيرِ حَيَاتِهِ وَتَرْقِيَتِهَا، وَإِعْلَاءِ غَرَائِزِهِ وَالسُّمُوِّ بِهَا.

وَقَدْ كَانَتِ الحَيَاةُ مُنْذُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَظَلَّتْ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، مَيْدَاناً عَرِيضاً يَصْطَرِعُ فِيهِ الخَيْرُ وَالشَّرُّ، وَيَلْتَقِي عَلَى صَعِيدِهِ البَرُّ وَالفَاجِرُ.

وَالأَدَبُ كَانَ وَمَا يَزَالُ يَتَغَذَّى مِنْ هَذَا الصِّرَاعِ، وَيَنْمُو بِهِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ المَنْطِقِ فِي شَيْءٍ أَنْ نَقْصُرَ هَذَا الأَدَبَ عَلَى خَيْرِ الخَيِّرِينِ، وَأَنْ نَخْتَارَ أَبْطَالَهُ مِنْ كَمَلَةِ الرِّجَالِ وَفُضْلَيَاتِ النِّسَاءِ، وَأَنْ نُدِيرَ ظُهُورَنَا لِلشَّرِّ وَالرَّذِيلَةِ، وَأَنْ نَعْتَبِرَهُمَا غَيْرَ مَوْجُودَيْنِ.

إِنَّ حُرِّيَّةَ تَصْوِيرِ الخَيْرِ وَالشَّرِّ مَكْفُولَةٌ لِلأَدِيبِ المُسْلِمِ، فَفِي وُسْعِهِ أَنْ يَخْتَارَ أَبْطَالَهُ مِنَ الأَطْهَارِ الأَبْرَارِ، أَوْ مِنَ الأَخْبَاثِ الأَشْرَارِ، أَوْ مِنْ كِلَيْهِمَا مَعاً، وَذَلِكَ بِشَرْطٍ وَاحِدٍ هُوَ أَنْ يَكُونَ الإِحْسَاسُ الَّذِي يَسْتَقِرُّ فِي نَفْسِ المُتَلَقِّينَ

---

(١) الوَهْدَة: المنحدر من الأرض.

هُوَ نَفْسُ الإِحْسَاسِ الَّذِي يَتْرُكُهُ القُرْآنُ الكَرِيمُ فِي النُّفُوسِ عِنْدَ تَصْوِيرِهِ لِهَذَيْنِ الضَّرْبَيْنِ مِنَ النَّاسِ .

إِنَّ عَلَىٰ الأَدِيبِ المُسْلِمِ أَنْ يُدْرِكَ الفَرْقَ بَيْنَ تَصْوِيرِ الرَّذِيلَةِ عَلَىٰ أَنَّهَا لَحْظَةٌ مِنْ لَحَظَاتِ ضَعْفِ الإِنْسَانِ ، وَبَيْنَ تَقْدِيمِهَا لِلْقُرَّاءِ عَلَىٰ أَنَّهَا بُطُولَةٌ تَسْتَحِقُّ التَّمْجِيدَ ، وَمُثُلٌ يَنْبَغِي أَنْ يَحْذُوَ النَّاسُ حَذْوَهَا .

فَالقُرْآنُ الكَرِيمُ صَوَّرَ خَطِيئَةَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ أَنَّهَا لَحْظَةٌ مِنْ لَحَظَاتِ ضَعْفِهِ أَمَامَ إِغْرَاءِ الشَّيْطَانِ لَا لَحْظَةَ بُطُولَةٍ حَقَّقَ فِيهَا ذَاتَهُ كَمَا زَعَمَ بَعْضُ الزَّاعِمِينَ .

فَاسْتَمِعْ إِلَىٰ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي حَادِثَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ، فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(١).

فَفِي القِصَّةِ ـ كَمَا تَرَىٰ ـ إِغْرَاءٌ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ ...

وَضَعْفٌ وَهَزِيمَةٌ مِنْ قِبَلِ الإِنْسَانِ ...

وَنَدَمٌ وَتَوْبَةٌ أَعْقَبَتْهُمَا أَوْبَةٌ إِلَىٰ جَادَّةِ الصَّوَابِ .

وَقِصَّةُ قَابِيلَ وَهَابِيلَ هِيَ الأُخْرَىٰ مَعْرِضٌ لِصِرَاعِ الخَيْرِ مَعَ الشَّرِّ وَصُورَةٌ

---

(١) سورة البقرة: ٣٥ ـ ٣٧.

فَذَّةٌ لِأَعْنَفِ ضُرُوبِ ذَلِكَ الصِّرَاعِ ، وَأَشَدِّهَا قَسْوَةً .

فَلَقَدْ وَصَفَتِ الإِنْسَانَ الـمُؤْمِنَ الـمُسَالِمَ الـمُفَوِّضَ أَمْرَهُ إِلَىٰ اللَّهِ ، الرَّاضِيَ بِقَضَائِهِ ، وَالإِنْسَانَ الشِّرِيرَ الْعُدْوَانِيَّ الَّذِي يَنْقَادُ إِلَىٰ نَفْسِهِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ .

اسْتَمِعْ إِلَىٰ قِصَّتِهِمَا الَّتِي وَرَدَتْ فِي سُورَةِ الـمَائِدَةِ حَيْثُ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْـحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ...

قَالَ : لَأَقْتُلَنَّكَ ...

قَالَ : إِنَّـمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الـمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ...

إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَـمِينَ ...

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ...

وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِـمِينَ ...

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْـخَاسِرِينَ ...

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوءَةَ أَخِيهِ ...

قَالَ : يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوءَةَ أَخِي ...

فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ...

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ

أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ...

وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ...﴾[1].

إِنَّ الإِحْسَاسَ الأَخِيرَ الَّذِي تَتْرُكُهُ قِصَّةُ الأَخَوَيْنِ عِنْدَ القُرَّاءِ؛ إِنَّمَا هُوَ الإِحْسَاسُ بِالأَسَىٰ وَالحَسْرَةِ عَلَىٰ القَتِيلِ المَغْدُورِ ...

وَالكَرَاهِيَةِ وَالازْدِرَاءِ لِلْقَاتِلِ الغَادِرِ ...

وَالاجْتِوَاءِ[2]، وَالنُّفُورِ مِنْ جَرِيمَةِ القَتْلِ.

بَلْ إِنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ صَوَّرَ لَنَا نَدَامَةَ القَاتِلِ عَلَىٰ فَعْلَتِهِ لِيَزِيدَنَا عُمْقاً فِي كَرَاهِيَةِ جَرِيمَةِ قَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا إِلَّا بِالحَقِّ.

إِنَّ مِنْ حَقِّ الأَدِيبِ الإِسْلَامِيِّ أَنْ يُصَوِّرَ الشَّرَّ وَالرَّذِيلَةَ إِذَا كَانَتْ طَبِيعَةُ المَوْقِفِ تَقْتَضِي تَصْوِيرَهُمَا، وَإِذَا كَانَ الهَدَفُ الَّذِي يَرْنُو إِلَيْهِ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِتَصْوِيرِهِمَا، وَأَنْ يَضَعَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ القَاعِدَةَ الَّتِي تَقُولُ:

«الضَّرُورَاتُ تُبِيحُ المَحْظُورَاتِ، وَإِنَّ الضَّرُورَةَ تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا».

وَفِي قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَيْرُ مِثَالٍ عَلَىٰ ذَلِكَ ...

فَالقُرْآنُ الكَرِيمُ لَمْ يَتَوَسَّعْ فِي تَصْوِيرِ نَزْوَةِ امْرَأَةِ العَزِيزِ، وَلَمْ يَصِفْ مَفَاتِنَ جَسَدِهَا وَصْفاً مُثِيراً يَجْعَلُ القَارِئَ يَهْتَمُّ بِالجُزْئِيَّاتِ العَرَضِيَّةِ اهْتِمَاماً يُبَاعِدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأُمُورِ الأَسَاسِيَّةِ[3].

* * *

(١) سورة المائدة: ٢٧ - ٣٢.

(٢) الاجْتِوَاء: الكراهية والبغض.

(٣) انظر هذه القصة في نموذج من المسرحيات الإسلامية ص ٢٦١.

مَوْقِفُ الأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ
مِنَ العَلَاقَةِ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ

إِنَّ الَّذِي يَتَتَبَّعُ النَّشَاطَ الأَدَبِيَّ فِي العَالَمِ اليَوْمَ لَيُدْرِكُهُ الذُّهُولُ حِينَ يَرَىٰ كَيْفَ طَغَتْ «الصِّلَةُ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ» عَلَىٰ الأَدَبِ طُغْيَاناً فَاقَ كُلَّ تَقْدِيرٍ؛ حَتَّىٰ غَدَتْ كَلِمَةُ الأَدَبِ مُرَادِفَةً لِمَا سَمَّوْهُ «الجِنْسَ».

فَالقِصَّةُ، وَالأُقْصُوصَةُ، وَالمَسْرَحِيَّةُ، وَالمُسَلْسَلَاتُ الإِذَاعِيَّةُ المَسْمُوعَةُ وَالمَرْئِيَّةُ، وَالأَفْلَامُ السِّينَمَائِيَّةُ، وَاليَوْمِيَّاتُ، وَالسِّيَرُ، وَغَيْرُهَا مِنْ فُنُونِ الأَدَبِ بَاتَتْ تَعِجُّ بِهَذِهِ «الصِّلَةِ» عَجِيجاً، وَأَصْبَحَتْ تَقْتَاتُ بِهَا حَتَّىٰ لَكَأَنَّهَا غَدَتْ كُلَّ شَيْءٍ فِي حَيَاةِ الإِنْسَانِ.

وَلَمْ يَقْتَصِرْ ذَلِكَ عَلَىٰ عَالَمِ الأَدَبِ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا امْتَدَّ إِلَىٰ عَالَمِ الوَاقِعِ وَالمُمَارَسَةِ أَيْضاً؛ مِمَّا جَعَلَ البَشَرِيَّةَ تُعَانِي مِنْ هَذِهِ الثَّوْرَةِ مَا تُعَانِيهِ اليَوْمَ.

وَلَقَدْ كَانَ لِلحَرَكَتَيْنِ الشُّيُوعِيَّةِ، وَاليَهُودِيَّةِ أَعْظَمُ الأَثَرِ فِي هَذَا الانْحِرَافِ الكَبِيرِ وَإِشَاعَتِهِ بَيْنَ النَّاسِ.

فَلَقَدْ جَاءَ فِي البَيَانِ الشُّيُوعِيِّ مَا نَصُّهُ[1]:

«لَيْسَ الشُّيُوعِيُّونَ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ إِدْخَالِ شُيُوعِيَّةِ النِّسَاءِ فِي المُجْتَمَعَاتِ؛ فَهَذِهِ الشُّيُوعِيَّةُ كَانَتْ مَوْجُودَةً تَقْرِيباً؛ ذَلِكَ لِأَنَّ البُورْجُوَازِيِّينَ لَمْ يَكْتَفُوا بِجَعْلِ

(١) البيان الشيوعي: ٥٢.

نِسَاءِ العُمَّالِ وَبَنَاتِهِمْ تَحْتَ تَصَرُّفِهِمْ ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَجِدُونَ لَذَّةً خَاصَّةً فِي تَبَادُلِ زَوْجَاتِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ .

فَالزَّوَاجُ البُرْجُوَازِيُّ لَيْسَ فِي حَقِيقَتِهِ سِوَىٰ إِشَاعَةِ النِّسَاءِ المُتَزَوِّجَاتِ بَيْنَ جَمِيعِ الأَزْوَاجِ .

وَقُصَارَىٰ مَا يُمْكِنُ أَنْ نُتَّهَمَ بِهِ - نَحْنُ الشُّيُوعِيِّينَ - هُوَ أَنَّنَا أَرَدْنَا أَنْ نَجْعَلَ إِشَاعَةَ النِّسَاءِ المُتَسَتِّرَةَ بِالرِّيَاءِ ، المُغَطَّاةَ بِالمُدَاجَاةِ[1] إِشَاعَةً صَرِيحَةً رَسْمِيَّةً » .

وَلَقَدْ جَاءَ « فْرُويد »[2] بِنَظَرِيَّاتِهِ « العِلْمِيَّةِ النَّفْسِيَّةِ »[3] الَّتِي أَيَّدَتِ الدَّعْوَةَ الشُّيُوعِيَّةَ أَشَدَّ التَّأْيِيدِ وَأَقْوَاهُ ؛ فَكَانَتْ أَعْظَمَ خَطَراً عَلَىٰ الإِنْسَانِيَّةِ مِنْ تِلْكَ الإِبَاحِيَّةِ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا البَيَانُ الشُّيُوعِيُّ ، حَيْثُ قَالَ « فْرُويد » - فِي حَزْمٍ وَتَأْكِيدٍ - :

« إِنَّ الإِنْسَانَ لَا يُحَقِّقُ ذَاتَهُ بِغَيْرِ الإِشْبَاعِ الجِنْسِيِّ ، وَكُلُّ قَيْدٍ يُقَيِّدُهُ مِنْ دِينٍ ، أَوْ خُلُقٍ ، أَوْ مُجْتَمَعٍ ، أَوْ تَقَالِيدَ إِنَّمَا هُوَ قَيْدٌ بَاطِلٌ غَيْرُ مَشْرُوعٍ ، وَهُوَ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ مُدَمِّرٌ لِطَاقَاتِ الإِنْسَانِ » .

ثُمَّ رَأَىٰ الصَّهَايِنَةُ أَنَّ النَّتِيجَةَ الحَتْمِيَّةَ لِإِطْلَاقِ الغَرَائِزِ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا البَيَانُ الشُّيُوعِيُّ ، وَفَلْسَفَهَا « فْرُويد » هِيَ هَدْمُ الحُصُونِ الأَخْلَاقِيَّةِ ، وَانْهِيَارُ القَوَاعِدِ وَالقِيَمِ الدِّينِيَّةِ ، وَاضْمِحْلَالُ الشُّعُوبِ ؛ فَنَشِطُوا فِي تَأْيِيدِ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ ، وَالعَمَلِ عَلَىٰ إِشَاعَتِهَا بَيْنَ النَّاسِ .

---

(١) المُدَاجَاة : المداراة وستر العداوة ، وإظهار المودة .

(٢) انظر « التحليل النفسي والدين » للدكتور مالك بدري : ١٤.

(٣) العلمية النفسية : نظرياته في علم النفس .

فَقَدْ جَاءَ فِي « بُرُوتُوكُولَاتِ حُكَمَاءِ صُهْيُونَ » مَا نَصُّهُ[1]:

« يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْمَلَ عَلَىٰ انْهِيَارِ الأَخْلَاقِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، فَتَسْهُلَ سَيْطَرَتُنَا عَلَىٰ العَالَمِ .

إِنَّ « فْرُويد » مِنَّا ، وَسَيَظَلُّ يُعَرِّي الإِنْسَانَ ، وَيَعْرِضُ عَلَاقَاتِهِ الجِنْسِيَّةَ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ ، حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ فِي نَظَرِ الشَّبَابِ شَيْءٌ مُقَدَّسٌ ، وَلَا يَبْقَىٰ لَدَىٰ الشَّابَّاتِ أَمْرٌ يَسْتَحْيِينَ مِنْ إِتْيَانِهِ ، وَيُصْبِحَ هَمُّ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ آنَذَاكَ إِرْوَاءَ الغَرِيزَةِ الجِنْسِيَّةِ ، وَحِينَئِذٍ تَنْهَارُ الأَخْلَاقُ » .

وَمِنْ سُوءِ حَظِّ المُجْتَمَعَاتِ فِي أُورُبَّا وَأَمْرِيكَا أَنَّ كَثِيراً مِنْ عُلَمَاءِ النَّفْسِ وَقَعُوا فِي الشَّرَكِ الَّذِي نَصَبَتْهُ لَهُمُ الصُّهْيُونِيَّةُ العَالَمِيَّةُ ؛ فَطَفِقُوا يُنَادُونَ بِأَنَّ المُشْكِلَةَ « الجِنْسِيَّةَ » لَا تُحَلُّ إِلَّا بِإِطْلَاقِ الغَرَائِزِ البَشَرِيَّةِ مِنْ عِقَالِهَا ، وَفَتْحِ الأَبْوَابِ أَمَامَهَا عَلَىٰ مَصَارِيعِهَا .

وَقَرَّرُوا فِيمَا يُشْبِهُ الجَزْمَ أَنَّ أَكْثَرَ الأَدْوَاءِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يُعَانِي مِنْهَا المُجْتَمَعُ الأُورُبِيُّ سَوْفَ تَجِدُ دَوَاءَهَا فِي هَذَا الإِطْلَاقِ .

وَلَقَدِ اسْتَجَابَ الأُدَبَاءُ وَالكُتَّابُ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ ؛ فَأَغْرَقُوا العَالَمَ الغَرْبِيَّ بِآلَافِ القِصَصِ والمَسْرَحِيَّاتِ الَّتِي تَمُورُ بِالإِبَاحِيَّةِ ، وَأَنْشَأُوا مِئَاتِ الصُّحُفِ وَالمَجَلَّاتِ الَّتِي تَدْعُو إِلَىٰ الانْحِلَالِ .

ثُمَّ انْتَقَلَ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ آنِفاً إِلَىٰ أَرْجَاءِ المَعْمُورَةِ .

غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ التَّجْرِبَةَ المُرَّةَ كَشَفَتْ لِبَعْضِ المُصْلِحِينَ وَالعُلَمَاءِ

---

(١) الخطر اليهودي « بروتوكولات حكماء صهيون » لمُحَمَّد خليفة التونسي : ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٩٢ - ١٩٤.

الِاجْتِمَاعِيِّينَ عَنْ إِخْفَاقِهَا الكَبِيرِ، فَقَرَّرُوا - جَازِمِينَ - أَنَّ إِطْلَاقَ الحُرِّيَّاتِ الجِنْسِيَّةِ لَمْ يُدَاوِ أَمْرَاضَ المُجْتَمَعَاتِ، وَإِنَّمَا زَادَهَا خَبَالاً عَلَىٰ خَبَالٍ.

ذَلِكَ لِأَنَّهُ مَلأَ حَيَاةَ النَّاسِ بِالعُقَدِ النَّفْسِيَّةِ، وَالِانْهِيَارَاتِ العَصَبِيَّةِ، وَجَرَّهُمْ إِلَىٰ الكَوَارِثِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ.

فَمَا مَوْقِفُ الإِسْلَامِ مِنْ هَذِهِ القَضِيَّةِ الكُبْرَىٰ، قَضِيَّةِ الصِّلَةِ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ؟.

وَمَا الرِّسَالَةُ العُظْمَىٰ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يُؤَدِّيَهَا الأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ فِي هَذَا المَجَالِ الكَبِيرِ؟.

لَا رَيْبَ فِي أَنَّ المُسْلِمِينَ يَدِينُونَ بِأَنَّ العَلَاقَةَ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ حَقِيقَةٌ عُظْمَىٰ لَا فِي حَيَاةِ الإِنْسَانِ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا فِي حَيَاةِ الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ جَمِيعِهَا.

وَلَا أَدَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ ٱلْأَرْضُ، وَمِنْ أَنفُسِهِمْ، وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

فَالتَّزَاوُجُ الَّذِي تُسْتَدَامُ بِهِ الحَيَاةُ، وَتَنْمُو، وَتَتَكَاثَرُ، لَيْسَ خَاصَّةً مِنْ خَوَاصِّ الإِنْسَانِ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي عَالَمِ الحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ أَيْضاً.

كَمَا أَنَّهُ مَوْجُودٌ فِي عَوَالِمَ أُخْرَىٰ بَدَأَ العِلْمُ يَكْشِفُ النِّقَابَ عَنْ طَرَفٍ مِنْهَا، لَكِنَّ العَلَاقَةَ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ لَيْسَتْ غَايَةً فِي ذَاتِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ وَسِيلَةٌ إِلَىٰ غَايَةٍ كُبْرَىٰ مِنْ غَايَاتِ الحَيَاةِ، وَلِكَيْ تَتَحَقَّقَ تِلْكَ الغَايَةُ عَلَىٰ أَكْمَلِ وَجْهٍ

---

(١) سورة يس: ٣٦.

وَأَدْوَمِهِ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تُوَاكِبَ هَذِهِ العَلَاقَةَ طَائِفَةٌ مِنَ المَشَاعِرِ. وَفِي طَلِيعَتِهَا الشَّوقُ إِلَىٰ الجِنْسِ الآخَرِ، وَالرَّغْبَةُ فِي قُرْبِهِ، وَانْبِسَاطُ النَّفْسِ لِإِقْبَالِهِ، وَانْقِبَاضُهَا لِإِعْرَاضِهِ.

لَكِنَّ قَضِيَّةَ «الجِنْسِ» هَذِهِ لَا يَجُوزُ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ حَيَاةِ الإِنْسَانِ السَّوِيِّ أَكْثَرَ مِنْ حَجْمِهَا، وَأَنْ تَشْغَلَ مِنَ اهْتِمَامَاتِهِ مَجَالاً أَكْبَرَ مِنْ رُقْعَتِهَا، أَمَّا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَنْحَرِفُونَ عَنِ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، وَيُوغِلُونَ فِي إِشْبَاعِ شَهَوَاتِهِمْ العَارِمَةِ، فَإِنَّمَا يُضَحُّونَ بِجَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الحَيَاةِ وَيُقَدِّمُونَهُ قُرْبَاناً لِجَانِبٍ آخَرَ.

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يُمَثِّلُونَ الإِنْسَانَ فِي كَمَالِهِ، وَاتِّسَاقِ جَوَانِبِ حَيَاتِهِ، وَإِنَّمَا يُمَثِّلُونَ ضَرْباً مِنْ ضُرُوبِ انْحِرَافِهِ، وَيُقَدِّمُونَ صُورَةً مِنْ صُوَرِ شُذُوذِهِ.

إِنَّ الإِسْلَامَ يَنْظُرُ إِلَىٰ الصِّلَةِ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ عَلَىٰ أَنَّهَا حَقِيقَةٌ أَصِيلَةٌ فِي كِيَانِ الإِنْسَانِ - كَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ - وَغَرِيزَةٌ رَاسِخَةٌ فِي حَيَاتِهِ.

وَالحَدِيثُ الشَّرِيفُ طَافِحٌ بِتَقْرِيرِ هَذِهِ الحَقِيقَةِ؛ فَالرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَقُولُ:

(حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُم: النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)[1].

فَالِاتِّصَالُ المَشْرُوعُ بِالمَرْأَةِ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الرَّسُولِ الأَعْظَمِ ﷺ؛ حَيْثُ رَوَىٰ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَىٰ بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِي عَلَيْهِ

(١) رواه أحمد في مسنده، والنسائي والبيهقي في السنن.

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا :

وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ؟ ...

وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ .

ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَداً .

وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ ، وَلَا أُفْطِرُ .

وَقَالَ آخَرُ : أَنَا اعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَداً .

فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : (أَأَنْتُمْ قُلْتُمْ كَذَا ... وَكَذَا ؟ ...

أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ...

فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) .

فَالرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَصُومُ آناً وَيُفْطِرُ آناً ، وَيُصَلِّي هَزِيعاً مِنَ اللَّيْلِ وَيَرْقُدُ هَزِيعاً آخَرَ ، وَيَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ... وَبِذَلِكَ يَأْخُذُ الِاتِّصَالُ بِالْمَرْأَةِ مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَجْمَهُ الْحَقِيقِيَّ لَا أَكْثَرَ .

وَحَجْمُهُ الْحَقِيقِيُّ يَكُونُ بِأَلَّا يَنْكَمِشَ ذَلِكَ الِاتِّصَالُ حَتَّىٰ تَتَحَوَّلَ الْحَيَاةُ إِلَىٰ رَهْبَنَةٍ ، وَأَلَّا يَتَّسِعَ حَتَّىٰ يُغَطِّيَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ .

هَذَا ، وَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَاتٍ وَاضِحَةً مِنَ اتِّصَالِ الْقَرِينِ بِقَرِينِهِ ، وَتَبْدُو أُولَىٰ هَذِهِ الْغَايَاتِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ** ... ﴾[1] فَفِي هَذِهِ

---

(١) سورة البقرة : ٢٢٣.

الكَلِمَاتِ الثَّلَاثِ القِصَارِ إِشَارَةٌ وَاضِحَةٌ إِلَىٰ أَنَّ الغَرَضَ الأَسَاسِيَّ مِنْ هَذَا الاِتِّصَالِ إِنَّمَا هُوَ بَقَاءُ النَّوْعِ ، وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ التَّوَالُدِ وَالتَّكَاثُرِ كَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ .

أَمَّا الغَايَةُ الثَّانِيَةُ فَتَبْدُو فِي قَوْلِهِ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوآ إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً** ...﴾[1] .

فَسَكَنُ العَشِيرِ إِلَىٰ عَشِيرِهِ يُتِيحُ لَهُ أَنْ يُمَارِسَ حَيَاتَهُ مُمَارَسَةً بَرِيئَةً مِنْ قُيُودِ الشَّهَوَاتِ المَكْبُوتَةِ ، طَلِيقَةً مِنْ إِسَارِ النَّوَازِعِ المُشَتَّتَةِ ، متَخَفِّفَةً مِنْ أَثْقَالِ الرَّغَبَاتِ العَارِمَةِ .

وَلِكَيْ يَتَحَقَّقَ « السَّكَنُ » بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ رَوْعَةٍ وَجَمَالٍ أَسْبَغَ اللَّهُ عَلَىٰ الزَّوْجَيْنِ نِعْمَةَ التَّوَادِّ وَالتَّرَاحُمِ .

فَمَا إِنْ يُصْبِحْ فُلَانٌ زَوْجاً لِفُلَانَةٍ حَتَّىٰ يَغْدُوَ بَعْدَ يَوْمٍ وَاحِدٍ مِنِ اقْتِرَانِهِ بِهَا أَقْرَبَ إِلَيْهَا مِنْ أُمِّهَا وَأَبِيهَا ، وَأُخْتِهَا وَأَخِيهَا ، وَأَوْثَقَ رَحِماً بِهَا مِنْ كُلِّ ذِي رَحِمٍ .

هَذَا وَإِنَّ مَشَاعِرَ الحُبِّ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ طَبِيعِيَّةٌ فِي ذَاتِهَا ، فِطْرِيَّةٌ فِي ضَرُورَتِهَا .

وَهِيَ عَلَىٰ هَذَا لَيْسَتْ مُجْتَوَاةً[2] حَتَّىٰ تُسْتَبْعَدَ ، أَوْ مُسْتَكْرَهَةً حَتَّىٰ تُوأَدَ فِي الصُّدُورِ .

وَهَذِهِ المُيُولُ لَيْسَتْ وَقْفاً عَلَىٰ الزَّوْجَيْنِ بَعْدَ الزَّوَاجِ فَقَطْ ؛ فَالنَّاسُ لَا يُولَدُونَ مُتَزَوِّجِينَ .

---

(١) سورة الروم: ٢١.

(٢) مُجْتَوَاة : مكروهة بغيضة إلى النفوس .

وَإِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ الزَّوَاجِ أَيْضاً ، وَذَلِكَ لِكَيْ تَحُضَّ عَلَيْهِ وَتُشَوِّقَ إِلَيْهِ .

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الإِسْلَامَ لَا يُنْكِرُ عَوَاطِفَ الإِعْجَابِ وَالحُبِّ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالأُنْثَىٰ .

وَلَا أَدَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قَدْ حُبِّبَ إِلَيْهِ مِنْ دُنْيَانَا ثَلَاثٌ إِحْدَاهَا النِّسَاءُ .

وَإِنَّمَا يُحْكَمُ عَلَىٰ هَذِهِ العَوَاطِفِ مِنْ خِلَالِ صَلَاحِهَا وَفَسَادِهَا ، وَحِلِّهَا وَتَحْرِيمِهَا ، وَاتِّفَاقِهَا مَعَ الفِطْرَةِ أَوِ انْحِرَافِهَا عَنْهَا .

فَإِذَا كَانَتْ تَرْمِي إِلَىٰ الإِخْلَالِ بِبِنْيَةِ المُجْتَمَعِ ، وَإِضَاعَةِ الأَنْسَابِ الَّتِي يَعْمَلُ الإِسْلَامُ عَلَىٰ صِيَانَتِهَا ...

وَتَتَعَدَّىٰ عَلَىٰ حُقُوقِ الآخَرِينَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُحْفَظَ ...

وَتَسْتَهْدِفُ العَبَثَ وَإِرْوَاءَ الشَّهَوَاتِ بِالمَاءِ الحَرَامِ فَهِيَ مُحَرَّمَةٌ مَرْفُوضَةٌ .

أَمَّا إِذَا كَانَتْ تَهْدِفُ إِلَىٰ الاِرْتِبَاطِ الطَّاهِرِ النَّقِيِّ بَيْنَ رَكِيزَتَي الحَيَاةِ الذَّكَرِ وَالأُنْثَىٰ فَهِيَ سَلِيمَةٌ مُبَاحَةٌ ، وَحُرِّيَّةُ التَّعْبِيرِ عَنْهَا ـ تَبَعاً لِذَلِكَ ـ مَكْفُولَةٌ مُتَاحَةٌ .

وَدَلِيلُنَا عَلَىٰ هَذِهِ الإِبَاحَةِ مَا وَرَدَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...

فَهُنَاكَ قِصَّةُ ابْنَةِ شُعَيبٍ مَعَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهِيَ قِصَّةٌ تُصَوِّرُ ضَرْباً مِنْ هَذِهِ المَشَاعِرِ النَّقِيَّةِ ، وَتُعَبِّرُ عَنْهَا أَجْمَلَ تَعْبِيرٍ .

فَالفَتَاةُ أُعْجِبَتْ بِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أُعْجِبَتْ بِرُجُولَتِهِ ، وَمُرُوءَتِهِ وَعِفَّتِهِ ، وَهُوَ خَالٍ بِهَا فِي الطَّرِيقِ إِلَىٰ أَبِيهَا ؛ فَاسْتَجَاشَتْ مَشَاعِرُهَا نَحْوَهُ ، وَتَمَنَّتْ أَنْ يَكُونَ فَارِسَ أَحْلَامِهَا ...

وَهَلْ فِي ذَلِكَ مِنْ جُنَاحٍ عَلَيْهَا ؟ ...

هَلْ مِنْ جُنَاحٍ عَلَىٰ فَتَاةٍ عَذْرَاءَ نَقِيَّةٍ تَقِيَّةٍ إِذَا هِيَ بَحَثَتْ عَنْ شَرِيكِ العُمْرِ ؟ .

وَقَدْ عَبَّرَتِ الفَتَاةُ لِأَبِيهَا عَنْ هَذِهِ المَشَاعِرِ حِينَ رَغِبَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَسْتَأْجِرَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَحِينَ نَعَتَتْهُ بِالقَوِيِّ الأَمِينِ .

وَلَمْ يَفُتْ عَلَىٰ الأَبِ غَرَضُ ابْنَتِهِ ، فَعَرَضَ عَلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُنْكِحَهُ إِحْدَىٰ ابْنَتَيْهِ لِقَاءَ صَدَاقٍ حَدَّدَهُ لَهُ .

ثُمَّ جَاءَ القُرْآنُ الكَرِيمُ ، فَاعْتَرَفَ بِهَذِهِ العَوَاطِفِ ، وَأَقَرَّ هَذَا السُّلُوكَ السَّلِيمَ .

وَأَوْرَدَ القِصَّةَ عَلَىٰ أَنَّهَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِطْرِيٌّ يُمَثِّلُ سُنَّةً مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ، وَعَرَضَهَا فِي أُسْلُوبٍ مُشْرِقٍ جَذَّابٍ[١] .

وَالأَدَبُ الإِسْلَامِيُّ الَّذِي يَعِيشُ ـ دَائِماً فِي أَكْنَافِ القُرْآنِ ، وَيَتَفَيَّأُ ظِلَالَهُ الوَارِفَةَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنْ كُلِّ عَلَاقَةِ حُبٍّ نَقِيَّةٍ لَا فُسُوقَ فِيهَا وَلَا عِصْيَانَ .

كَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنْ أَثَرِهَا فِي دَفْعِ كُلٍّ مِنَ الذَّكَرِ وَالأُنْثَىٰ إِلَىٰ إِبْرَازِ مَا يَعْتَمِلُ فِي نَفْسِهِ مِنْ مَشَاعِرَ ، وَمَا يُقَوِّي عَزِيمَتَهُ عَلَىٰ عَقْدِ الرِّبَاطِ المُحَبَّبِ إِلَىٰ اللَّهِ سُبْحَانَهُ[٢] ، وَتَوْثِيقِهِ .

---

(١) اقرأ الآيات : ٢٣ ـ ٢٨ من سورة القصص .

(٢) لقد جاء في الحديث الشريف : «أحبُّ الحلال إِلَىٰ الله النّكاح ...» .

كَمَا فِي وُسْعِهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنْ تَقَلُّبَاتِ هَذِهِ العَوَاطِفِ بَيْنَ التَّأَجُّجِ وَالفُتُورِ ، وَالشَّدِّ وَالجَذْبِ . مَادَامَ ذَلِكَ كُلُّهُ يَتِمُّ فِي حُدُودِ النَّظَافَةِ وَالنَّقَاءِ ، وَيَجْرِي عَلَىٰ شَرِيعَةِ اللَّهِ مِنْ إِحْلَالِ الطَّيِّبَاتِ ، وَتَحْرِيمِ الخَبَائِثِ .

وَكَمَا يَسْتَطِيعُ الأَدِيبُ الإِسْلَامِيُّ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنْ مَشَاعِرِ الحُبِّ السَّامِيَةِ الرَّفِيعَةِ ، فَإِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنْ مَشَاعِرِ الحُبِّ المُتَدَنِّيَةِ الوَضِيعَةِ ؛ وَلَكِنْ بِالشُّرُوطِ الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا عِنْدَ الكَلَامِ عَلَىٰ مَوْقِفِ الأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ مِنْ تَصْوِيرِ الشَّرِّ وَالرَّذِيلَةِ ، وَالَّتِي أَشَرْنَا فِيهَا إِلَىٰ :

« أَنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ قَدْ صَوَّرَ رِجْسَ المُشْرِكِينَ ، وَفَسَادَ المُفْسِدِينَ ...

كَمَا صَوَّرَ فَضْلَ المُؤْمِنِينَ ، وَإِحْسَانَ المُحْسِنِينَ ... لَكِنَّ كُلًّا مِنَ التَّصْوِيرَيْنِ كَانَ يَهْدِفُ إِلَىٰ غَايَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ إِرْسَاءُ قَوَاعِدِ الخَيْرِ وَالفَضِيلَةِ فِي المُجْتَمَعَاتِ ، وَاقْتِلَاعُ جُذُورِ الشَّرِّ وَالرَّذِيلَةِ مِنْهَا » .

هَذَا ، وَقَدِ ابْتُلِيَ العَالَمُ المَسِيحِيُّ بِمُعْضِلَةِ تَأْخِيرِ الزَّوَاجِ أَوِ الإِعْرَاضِ عَنْهُ ، ثُمَّ انْتَقَلَتْ إِلَيْنَا ـ نَحْنُ مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ ـ هَذِهِ المُعْضِلَةُ ، وَقَدْ بَرَزَتْ فِي « مِصْرَ » خَاصَّةً ، وَفِي الأَقْطَارِ الإِسْلَامِيَّةِ الأُخْرَىٰ عَامَّةً ؛ حَيْثُ دَأَبَتْ بَعْضُ المَجَلَّاتِ الأُسْبُوعِيَّةِ وَالصُّحُفِ اليَوْمِيَّةِ عَلَىٰ التَّصَدِّي لِلْعَازِمِينَ عَلَىٰ الزَّوَاجِ تَارَةً بِالنُّكْتَةِ اللَّاذِعَةِ وَأُخْرَىٰ بِالصُّورَةِ السَّاخِرَةِ ، وَثَالِثَةً بِالمَقْطُوعَةِ الشِّعْرِيَّةِ الهَازِلَةِ الَّتِي تُسَاقُ مَسَاقَ التَّعْزِيَةِ لِلصَّدِيقِ الَّذِي يُعْقَدُ قِرَانُهُ ، أَوْ يُزَفُّ إِلَىٰ عَرُوسِهِ ؛ حَتَّىٰ أَصْبَحَتْ كَلِمَةُ « القَفَصِ » مُرَادِفَةً لِلزَّوَاجِ .

فَإِذَا تَلَطَّفَ المُتَنَطِّعُونَ[1] نَعَتُوا هَذَا القَفَصَ « بِالذَّهَبِيِّ » وَهُمْ يُوحُونَ

(١) المُتَنَطِّعُون : المتشدقون بالكلام، المدّعون الفصاحة .

بِذَلِكَ إِلَىٰ الفَتَىٰ إِيحَاءً بِأَنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَ حَالَ دُونَ نَفْسِهِ وَدُونَ مُتَعِهَا وَلَذَّاتِهَا ، وَحَكَمَ عَلَيْهَا بِالحِرْمَانِ المُؤَبَّدِ ، وَذَلِكَ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ طَبَائِعَ الأُمُورِ تَقُولُ :

إِنَّ عَهْدَ الزَّوَاجِ نِهَايَةٌ لِعَهْدِ الحِرْمَانِ لَا بِدَايَةٌ لَهُ .

بَلْ إِنَّهُمْ يُشْعِرُونَهُ بِمَا هُوَ أَخْطَرُ مِنْ ذَلِكَ ، حَيْثُ يُوحُونَ إِلَيْهِ بِأَنَّ مُبَادَرَتَهُ إِلَىٰ الزَّوَاجِ المُبَكِّرِ دَلِيلٌ عَلَىٰ عَجْزِهِ عَنْ مُجَارَاةِ الأَقْرَانِ فِي مَيَادِينِ الفُتُوَّةِ وَالفُتُونِ .

وَلَقَدْ صَدَّقَ الشَّبَابُ هَذِهِ الفِرْيَةَ[1] الكَبِيرَةَ لِكَثْرَةِ مَا تَرَدَّدَتْ عَلَىٰ أَسْمَاعِهِمْ ، فَجَعَلُوا يَرَوْنَ فِي الزَّوَاجِ المُبَكِّرِ آيَةً مِنْ آيَاتِ النَّقْصِ ، وَعَلَامَةً مِنْ عَلَامَاتِ التَّخَلُّفِ .

وَلَقَدْ أَلْقَىٰ ذَلِكَ الخَطَرُ الدَّاهِمُ عَلَىٰ عَوَاتِقِ الأُدَبَاءِ الإِسْلَامِيِّينَ مَسْؤُولِيَّةً كُبْرَىٰ أَمَامَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ثُمَّ أَمَامَ فِلَذِ أَكْبَادِهِمْ مِنَ الشَّبَابِ .

وَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُجَرِّدُوا أَقْلَامَهُمُ المُؤْمِنَةَ لِحَضِّ الفِتْيَانِ وَالفَتَيَاتِ عَلَىٰ الفَضِيلَةِ ، وَتَنْفِيرِهِمْ مِنَ الرَّذِيلَةِ ، وَشَحْنِ نُفُوسِهِمْ بِالأَنَفَةِ وَالكِبْرِيَاءِ ، وَدَفْعِهِمْ إِلَىٰ الوُقُوفِ فِي وَجْهِ الشَّهَوَاتِ وَالتَّعَالِي عَلَيْهَا ، وَالتَّرَفُّعِ عَنِ الاِسْتِجَابَةِ إِلَيْهَا .

وَذَلِكَ مَعَ المُوَازَنَةِ الدَّائِمَةِ بَيْنَ اللَّذَّةِ العَابِرَةِ الَّتِي تَنْقَضِي فِي بِضْعِ لَحَظَاتٍ ، وَالعَوَاقِبِ الوَخِيمَةِ الَّتِي تُلَازِمُ المَرْءَ مَدَىٰ الحَيَاةِ ، ثُمَّ تُلَاحِقُهُ بَعْدَ المَمَاتِ ...

وَالتَّنْبِيهِ الدَّائِبِ إِلَىٰ أَنَّ فِي وُسْعِ المَرْءِ أَنْ يَسْتَبْدِلَ بِالخَبِيثِ المُحَرَّمِ الطَّيِّبَ الحَلَالَ .

---

(١) الفِرْيَة : الكذبة .

وَالإِلْحَاحِ الدَّائِمِ عَلَىٰ إِبْرَازِ المَآسِي الَّتِي حَلَّتْ بِالأَفْرَادِ وَالجَمَاعَاتِ نَتِيجَةً لِلْجُنُوحِ عَنِ الطَّرِيقِ السَّلِيمِ ، وَالِابْتِعَادِ عَنِ الجَادَّةِ المُسْتَقِيمَةِ .

وَسَيَجِدُ الدُّعَاةُ بِعَامَّةٍ وَالأُدَبَاءُ بِخَاصَّةٍ فِي الدِّرَاسَاتِ النَّفْسِيَّةِ الجَدِيدَةِ الَّتِي تَمَخَّضَتْ عَنْهَا التَّجْرِبَةُ المُرَّةُ فِي أُورُبَّا وَأَمْرِيكَا ...

وَفِي المَآسِي الِاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي بَاتَتْ تُهَدِّدُ الحَضَارَةَ الحَدِيثَةَ بِالزَّوَالِ ...

وَفِي العِيَادَاتِ النَّفْسِيَّةِ المُنْتَشِرَةِ فِي العَالَمِ انْتِشَاراً مُذْهِلاً ...

وَفِي أَقْوَالِ كِبَارِ المُصْلِحِينَ فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ ...

سَيَجِدُونَ فِي ذَلِكَ مَا يَمُدُّ أَدَبَهُمْ بِالأَحْدَاثِ المُثِيرَةِ ، وَالمَوَاقِفِ المُذْهِلَةِ ، وَالحَقَائِقِ المُقْنِعَةِ الَّتِي تَهُزُّ مَشَاعِرَ القُرَّاءِ هَزًّا .

وَسَيَتَّخِذُونَ مِنْه سِلَاحاً مَاضِياً لِلتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ .

وَلَقَدْ جَرَّبَ الأُسْتَاذَانِ الكَبِيرَانِ : « مُصْطَفَىٰ صَادِقُ الرَّافِعِيُّ » ، وَ« عَلِيُّ الطَّنْطَاوِيُّ » هَذَا السِّلَاحَ المَاضِيَ أَفْضَلَ تَجْرِبَةٍ وَأَكْمَلَهَا .

فَكَتَبَ أَوَّلُهُمَا بِضْعَ مَقَالَاتٍ نُشِرَتْ فِي مَجَلَةِ الرِّسَالَةِ ، ثُمَّ جُمِعَتْ فِي كِتَابِهِ « وَحْيُ القَلَمِ » .

وَكَتبَ ثَانِيهِمَا مَقَالَتَهُ الأَدَبِيَّةَ المَشْهُورَةَ الرَّائِعَةَ الَّتِي عُنْوَانُهَا : « يَا ابْنَتِي » ، وَالَّتِي طُبِعَتْ فِي كُرَّاسَةٍ صَغِيرَةٍ ، وَنُشِرَتْ بَيْنَ جَمَاهِيرِ النَّاسِ .

وَقَدْ قَرَأَ الآلَافُ المُؤَلَّفَةُ مَا كَتَبَهُ الرَّافِعِيُّ وَالطَّنْطَاوِيُّ ...

وَأَعَادُوا قِرَاءَتَهُ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ ...

وَاتَّعَظَ بِهِ مَنِ اتَّعَظَ ... وَازْدَجَرَ بِهِ مَنِ ازْدَجَرَ ...

وَلَكِنَّ وَرْدَةً وَاحِدَةً أَوْ وَرْدَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ لَا تُنْشِئَانِ رَبِيعاً .

فَأَيْنَ بَقِيَّةُ أَوْرَادِ الرَّبِيعِ ؟ ...

وَمَنْ هُمُ الأُدَبَاءُ الإِسْلَامِيُّونَ الَّذِينَ سَيَغْرِسُونَهَا مَشْكُورِينَ مِنَ النَّاسِ ... مَأْجُورِينَ مِنَ اللَّهِ ؟ ...

* * *

القِصَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ

أَوَّلاً: حَاجَتُنَا إِلَىٰ القِصَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ الحَدِيثَةِ

الدَّعْوَةُ الإِسْلَامِيَّةُ اليَوْمَ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ الاِسْتِعَانَةِ بِكُلِّ سِلَاحٍ ابْتَكَرَهُ هَذَا العَصْرُ، وَذَلِكَ لِمُقَاوَمَةِ خُصُومِهَا الأَلِدَّاءِ، وَالدِّفَاعِ عَنْ وُجُودِهَا المُسْتَهْدَفِ، وَضَمَانِ اسْتِمْرَارِهَا فِي الأَرْضِ.

وَهِيَ مَدْعُوَّةٌ لِاسْتِخْدَامِ جَمِيعِ الأَسَالِيبِ لِتَثْبِيتِ قُلُوبِ أَنْصَارِهَا عَلَىٰ الحَقِّ، وَغَزْوِ نُفُوسِ الآخَرِينَ المُنْتَشِرِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الأَدَبَ المَقْرُوءَ، وَالمَسْمُوعَ، وَالمَرْئِيَّ، كَانَ مِنْ أَمْضَىٰ الأَسْلِحَةِ الَّتِي حُورِبَ بِهَا الإِسْلَامُ وَالمُسْلِمُونَ فِي هَذَا العَصْرِ.

وَقَدْ كَانَ جَدِيراً بِالدُّعَاةِ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُصَاوِلُوا العَدُوَّ بِمِثْلِ سِلَاحِهِ، وَأَنْ يُسَخِّرُوا وَسَائِلَ الإِعْلَامِ الحَدِيثَةَ فِي بَثِّ مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ كَمَا سَخَّرَهَا أَعْدَاؤُهُمْ فِي نَشْرِ مَا يَبْذُرُونَهُ مِنْ شَرٍّ.

وَلَكِنَّهُمْ ـ مَعَ شَدِيدِ الأَسَفِ ـ لَمْ يُقَدِّرُوا سِلَاحَ الأَدَبِ حَقَّ قَدْرِهِ، وَلَمْ يُحَاوِلُوا أَنْ يَنْتَفِعُوا مِنْ تَجْرِبَةِ الخُصُومِ.

فَلَمْ يُعْطُوا الفُنُونَ الأَدَبِيَّةَ الحَدِيثَةَ ـ وَعَلَىٰ رَأْسِهَا الفَنُّ القَصَصِيُّ ـ مَا تَسْتَحِقُّهُ مِنَ اهْتِمَامٍ، وَلَمْ يَفْطِنُوا إِلَىٰ أَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْمِلُوا عَقِيدَتَهُمْ إِلَىٰ النَّاسِ عَلَىٰ مُتُونِ الأَدَبِ القَوِيَّةِ...

بَلْ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللَّهِ سَاءَ ظَنُّهُمْ بِالفَنِّ القَصَصِيِّ وَأَصْحَابِهِ ، بِسَبَبِ مَا فِي هَٰذِهِ القِصَصِ مِنْ فُجُورٍ ، وَتَحَلُّلٍ ، وَفَسَادٍ ، فَرَأَوْا أَنَّهُ لَا مَنْجَاةَ مِنْ هَٰذِهِ الفُنُونِ إِلَّا بِعَزْلِهَا ، وَالِابْتِعَادِ عَنْهَا ، وَمُقَاطَعَتِهَا .

فَهَبُّوا يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَىٰ نَبْذِهَا ، وَيَحُضُّونَهُمْ عَلَىٰ هَجْرِهَا ، وَيُبَصِّرُونَهُمْ بِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ شُرُورٍ وَمَفَاسِدَ .

وَقَدْ نَسِيَ هَٰؤُلَاءِ الدُّعَاةُ الطَّيِّبُونَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِهِمْ وَلَا وُسْعِ غَيْرِهِمْ عَزْلُ هَٰذِهِ الفُنُونِ الْأَدَبِيَّةِ عَنِ الحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَتْ تَجْرِي مَعَ الأَثِيرِ ، وَتَتَنَقَّلُ عَلَىٰ أَجْنِحَتِهِ المُرْهَفَةِ ، وَتَقْتَحِمُ عَلَىٰ أَبْنَائِنَا وَبَنَاتِنَا وَرِجَالِنَا وَنِسَائِنَا بُيُوتَهُمْ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ ، وَتُطَالِعُهُمْ لَيْلَ نَهَارَ فِي الجَرَائِدِ وَالمَجَلَّاتِ وَالكُتُبِ ، وَتَتَصَدَّىٰ لَهُمْ فِي المِذْيَاعِ وَالرَّائِي ...

لَقَدْ آنَ لِلدُّعَاةِ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْلَمُوا بِأَنَّ اسْتِكْمَالَ أَسْلِحَةِ الدَّعْوَةِ لَا يَتِمُّ إِلَّا حِينَ يَكُفُّونَ عَنْ مُقَاطَعَتِهِمْ لِهَٰذِهِ الفُنُونِ الْأَدَبِيَّةِ الحَدِيثَةِ ، وَيُجَنِّدُونَ قَدْراً كَبِيراً مِنْ طَاقَاتِهِمْ لِاسْتِخْدَامِهَا فِي دَعْوَتِهِمْ ، وَتَذْلِيلِهَا لِخَيْرِ النَّاسِ كَمَا ذَلَّلَهَا الآخَرُونَ لِشَرِّهِمْ .

إِنَّ الَّذِي يَقْرَأُ المَجَلَّاتِ الإِسْلَامِيَّةَ ـ عَلَىٰ قِلَّتِهَا ـ وَيَسْتَعْرِضُ الآثَارَ الْأَدَبِيَّةَ وَالفِكْرِيَّةَ الَّتِي يُنْتِجُهَا الأُدَبَاءُ الإِسْلَامِيُّونَ يَجِدُهَا تَقُومُ عَلَىٰ المَبَاحِثِ الفِكْرِيَّةِ البَحْتَةِ ، وتُوَجِّهُ شَطْراً كَبِيراً مِنْ جَهْدِهَا نَحْوَ الرَّدِّ عَلَىٰ مُفْتَرَيَاتِ خُصُومِهَا ، وَتَشْغَلُ نَفْسَهَا بِالبُحُوثِ وَالدِّرَاسَاتِ الدِّينِيَّةِ المُتَنَوِّعَةِ .

وَنَحْنُ ـ مَعَ شِدَّةِ إِيمَانِنَا بِالحَاجَةِ المَاسَّةِ إِلَىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ ـ نَرَىٰ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِهَٰذِهِ الحَرَكَاتِ مِنْ أَنْ تَضُمَّ إِلَىٰ أَسْلِحَتِهَا هَٰذِهِ سِلَاحَ الْأَدَبِ ، وَأَنْ تُولِيَهُ

مَا يَسْتَحِقُّ مِنَ اهْتِمَامٍ ...

وَأَنْ تُقَدِّرَ - فِي وَعْيٍ عَمِيقٍ - الآثَارَ الخَطِيرَةَ ، وَالأَضْرَارَ البَالِغَةَ الَّتِي تَنْجُمُ عَنْ إِهْمَالِ هَذَا السِّلَاحِ .

فَلَيْسَتِ الدِّرَاسَاتُ وَحْدَهَا ، وَلَا البُحُوثُ وَالرُّدُودُ بِمُفْرَدِهَا بِقَادِرَةٍ عَلَىٰ حَمْلِ لِوَاءِ الدَّعْوَةِ وَإِبْلَاغِهَا لِلنَّاسِ .

إِنَّنَا إِذَا لَمْ نَعِ هَذِهِ الحَقِيقَةَ تَمَامَ الوَعْيِ ، وَلَمْ نَتَدَارَكْ هَذَا النَّقْصَ عَجَزَتْ وَسَائِلُنَا الحَالِيَّةُ عَنِ النُّهُوضِ بِمَا أَلْقَاهُ اللَّهُ عَلَىٰ كَوَاهِلِنَا مِنْ أَعْبَاءٍ ، وَبَاءَتْ مَسَاعِينَا بِالخَيْبَةِ ، وَفَاتَنَا الأَجْرُ ، وَلَحِقَنَا الوِزْرُ .

وَإِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ تَجْنِيدِ الفَنِّ القَصَصِيِّ لِخِدْمَةِ العَقِيدَةِ ، وَجَعْلِ القِصَّةِ مَطِيَّةً ذَلُولاً لِلتَّرْبِيَةِ وَالتَّوْجِيهِ ، لَيْسَتْ فِكْرَةً جَدِيدَةً اسْتَحْدَثَتْهَا طَبِيعَةُ هَذَا العَصْرِ ، أَوْ أَمْراً طَارِئًا عَلَىٰ المُسْلِمِينَ اقْتَضَتْهُ ظُرُوفُ الحَيَاةِ الجَدِيدَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ أَمْرٌ قَدِيمٌ عَرَفَهُ المُسْلِمُونَ مُنْذُ كَانَ الإِسْلَامُ وَلِيداً فِي مَكَّةَ .

وَحَسْبُنَا دَلِيلاً عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ نَبِيَّهُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ أَنْ يَقُصَّ عَلَىٰ قَوْمِهِ القَصَصَ لِيَكُونَ لَهُمْ فِيهَا عِبْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ ، وَلِيَتَّخِذُوا مِنْهَا مُنْطَلَقاً إِلَىٰ التَّفْكِيرِ السَّلِيمِ القَوِيمِ الَّذِي يَهْدِيهِمْ إِلَىٰ الحَقِّ حَيْثُ قَالَ - عَلَتْ كَلِمَتُهُ - :

﴿ ... **فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[1].

وَلَقَدْ صَدَعَ الرَّسُولُ الأَعْظَمُ ﷺ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَبَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ فِي مُحْكَمِ الكِتَابِ مِنْ قِصَصٍ ...

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٦.

وَسَاقَ لَهُمْ فِي حَدِيثِهِ الشَّرِيفِ قِصَصاً أُخْرَىٰ كَثِيرَةً وَفِيرَةً ...

فَقَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْمَاعِيلَ ، وَأَصْحَابِ الأُخْدُودِ ، وَقِصَّةَ الأَطْفَالِ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا فِي المَهْدِ ، وَقِصَّةَ أَصْحَابِ الغَارِ ...

وَقِصَّةَ الكِفْلِ [وَهُوَ رَجُلٌ رَاوَدَ امْرَأَةً عَنْ نَفْسِهَا ، فَامْتَنَعَتْ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا اشْتَدَّتْ عَلَيْهَا الحَاجَةُ اسْتَسْلَمَتْ لَهُ ، فَلَمَّا هَمَّ بِهَا ارْتَعَدَتْ ، وَبَكَتْ خَوْفاً مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ، فَارْتَعَدَ لِارْتِعَادِهَا وَكَفَّ عَنْهَا ، وَتَابَ وَأَنَابَ][1]...

كَمَا قَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّةَ ـ رِيحِ ـ عَادٍ ، وَقِصَّةَ الأَقْرَعِ وَالأَبْرَصِ وَالأَعْمَىٰ ، وَقِصَصاً كَثِيرَةً أُخْرَىٰ بَلَغَتْ نَحْواً مِنْ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ قِصَّةً[2].

وَإِنَّهُ لَفَخْرٌ كَبِيرٌ لِهَذَا الفَنِّ القَصَصِيِّ أَنْ يَعْتَمِدَهُ القُرْآنُ الكَرِيمُ وَسِيلَةً لِلدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللَّهِ وَسِلَاحاً لِنِضَالِ خُصُومِ الإِسْلَامِ ، وَأَنْ يَتَّخِذَهُ الرَّسُولُ الكَرِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَدَاةً لِلتَّوْجِيهِ وَالإِرْشَادِ .

فَأَنْتَ إِذَا اسْتَعْرَضْتَ الكِتَابَ العَزِيزَ وَجَدْتَ فِيهِ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ خَمْسِينَ قِصَّةً تَتَرَدَّدُ بَيْنَ ثَنَايَاهُ ... تَارَةً كَامِلَةً ، وَأُخْرَىٰ مَنْقُوصَةً ، وَذَلِكَ حَسَبَ الغَرَضِ الَّذِي سِيقَتْ لَهُ ، وَوَفْقَ المَقَامِ الَّذِي رُوِيَتْ مِنْ أَجْلِهِ .

وَسَتَرَىٰ أَيْضاً مَصْدَرَ « القَصِّ » وَمَا يُشْتَقُّ مِنْهُ قَدْ تَكَرَّرَ فِي الذِّكْرِ الحَكِيمِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَرَّةً .

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ ...** ﴾[3]،

---

(١) انظر كتاب « جامع الأصول من أحاديث الرسول » لابن الأثير الجزري : ج ١١ كتاب القصص .

(٢) انظر الصحيحين .

(٣) سورة يوسف : ٣.

وَقَوْلُهُ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ...﴾[1]، وَقَوْلُهُ : ﴿ ... فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2]، وَقَوْلُه : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ...﴾[3].

وَلَقَدْ أَحَسَّ الْمُشْرِكُونَ بِمَا لِقَصَصِ الْقُرْآنِ مِنْ تَأْثِيرٍ عَلَىٰ الْقُلُوبِ ، وَفِعْلٍ فِي النُّفُوسِ ، وَإِنْذَارٍ وَتَبْشِيرٍ ، فَأَرَادُوا أَنْ يُقَاوِمُوا الْإِسْلَامَ بِنَفْسِ سِلَاحِهِ ، وَأَنْ يَتَصَدُّوا لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ بِالْأُسْلُوبِ الَّذِي وَاجَهَهُمْ بِهِ[4].

فَهَذَا النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ - وَهُوَ ابْنُ خَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ - وَأَحَدُ رِجَالَاتِ قُرَيْشٍ الْمَعْدُودِينَ عِلْماً وَفَهْماً وَبَيَاناً ، يَذْهَبُ إِلَىٰ بِلَادِ « فَارِسَ » فَيَسْتَحْضِرُ كُتُبَ الْعَجَمِ ، وَيَعِي مَا فِيهَا مِنْ قِصَصٍ .

وَكَانَ إِذَا جَلَسَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ مَجْلِساً يَدْعُو فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ ، وَيَتْلُو عَلَىٰ النَّاسِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ خِلَالِ قِصَصِهِ أَنْ يُصِيبَهُمْ شَيْءٌ مِمَّا أَصَابَ الْأُمَمَ الْخَالِيَةَ ، يَحِلُّ مَحِلَّهُ إِذَا قَامَ ، وَيَقُولُ لِلنَّاسِ : يَا قَوْمُ إِنَّ مُحَمَّداً يُحَدِّثُكُمْ بِحَدِيثِ عَادٍ وَثَمُودَ ، وَمَا أَحَادِيثُهُ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ...

وَإِنِّي - وَاللَّهِ - يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَحْسَنُ حَدِيثاً مِنْهُ ، فَأَنَا أُحَدِّثُكُمْ بِحَدِيثِ « رُسْتُمَ » ، وَ« أَسْفَنْدِيَارَ » ، وَأَخْبَارِ « الْأَكَاسِرَةِ » .

ثُمَّ إِذَا فَرَغَ مِنْ قَصَصِهِ قَالَ : « بِمَاذَا مُحَمَّدٌ أَحْسَنُ حَدِيثاً مِنِّي » ؟ .

وَفِي النَّضْرِ وَأَشْيَاعِهِ نَزَلَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا

---

(١) سورة الكهف: ١٣.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٦.

(٣) سورة يوسف: ١١١.

(٤) لقد استفدنا في إعداد هذا البحث من كتاب: « سيكولوجية القِصّة في القُرآن الكريم » للدكتور التهامي نقرة.

قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَآ إِنْ هَذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾[1]...

وَقَدْ أَذَاعَ الْمُشْرِكُونَ أَقَاصِيصَ « النَّضْرِ » بَيْنَ العَرَبِ لَعَلَّهُمْ يُطْفِئُونَ بِهَا القَصَصَ القُرْآنِيَّ ، وَلَكِنَّهُمْ أُصِيبُوا بِالخَيْبَةِ وَحَاقَ بِهِمُ الخِذْلَانُ .

وَأَنْتَ إِذَا وَقَفْتَ عَلَىٰ القَصَصِ النَّبَوِيِّ أَدْرَكْتَ مَبْلَغَ اهْتِمَامِ الرَّسُولِ الكَرِيمِ ﷺ بِهَذَا اللَّوْنِ مِنَ الأَدَبِ ، وَمَدَىٰ تَعْوِيلِهِ عَلَيْهِ فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ وَتَرْبِيَةِ النُّفُوسِ المُؤْمِنَةِ ، وَتَثْبِيتِهَا عَلَىٰ الحَقِّ .

وَلَعَلَّ أَرْوَعَ هَذِهِ القِصَصِ ـ وَكُلُّهَا رَائِعٌ ـ تِلْكَ الَّتِي أَخْرَجَهَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ صُهَيْبٍ الرُّومِيِّ أَنَّ الرَّسُولَ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ قَالَ :

(كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ ، فَلَمَّا كَبِرَ « السَّاحِرُ » قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَاماً أُعَلِّمُهُ السِّحْرَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَاماً لِيُعَلِّمَهُ .

وَكَانَ فِي طَرِيقِ الغُلَامِ إِلَىٰ السَّاحِرِ رَاهِبٌ فَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ وَتَعَلَّقَ بِهِ . فَكَانَ إِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ ، وَقَعَدَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَىٰ الرَّاهِبِ ، فَقَالَ « لَهُ » : إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ : حَبَسَنِي أَهْلِي ، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ ، فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ ... فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ مَرَّ بِدَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ ، فَقَالَ : الْيَوْمَ أَعْلَمُ هَلِ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ ... فَأَخَذَ حَجَراً ، ثُمَّ قَالَ :

اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّىٰ يَمْضِيَ النَّاسُ ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا ، وَمَضَىٰ النَّاسُ .

---

(١) سورة الأنفال : ٣١.

ثُمَّ أَتَىٰ الرَّاهِبَ وَأَخبَرَهُ بِمَا كَانَ ، فَقَال لَهُ الرَّاهِبُ : أَيْ بُنَيَّ ، أَنْتَ اليَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي إِذْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَىٰ ... وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَىٰ . فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ ...

ثُمَّ أَصْبَحَ الغُلَامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ ، فَسَمِعَ بِهِ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ « ثَمِينَةٍ » وَقَالَ : إِنَّ هَذَا كُلَّهُ لَكَ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي ، فَقَالَ : إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَداً وَإِنَّمَا اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَشْفِي فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُهُ فَيَشْفِيكَ . فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ .

ثُمَّ أَتَىٰ مَجْلِسَ المَلِكِ ، وَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ :

مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ ؟.

قَالَ : رَبِّي ...

قَالَ : وَهَلْ لَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ .

قَالَ : رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ .

فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الغُلَامِ ، فَاسْتَحْضَرَ المَلِكُ الغُلَامَ وَقَالَ لَهُ :

أَيْ بُنَيَّ لَقَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ حَدًّا جَعَلَكَ تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ .

فَقَالَ : إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَداً ، وَإِنَّمَا اللَّهُ يَشْفِي ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الرَّاهِبِ .

فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَىٰ ، فَدَعَا بِالمِنْشَارِ ، فَوَضَعَ المِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ المَلِكِ

فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَن دِينِكَ فَأَبَىٰ ، فَوَضَعَ المِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ .

ثُمَّ جِيءَ بِالغُلَامِ فَقَالَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَىٰ فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَقَالَ : اذْهَبُوا إِلَىٰ جَبَلِ كَذَا وَكَذَا ، وَاصْعَدُوا بِهِ الجَبَلَ ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ فَدَعُوهُ ، وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ .

فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعَدُوا بِهِ الجَبَلَ فَقَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبَلُ فَسَقَطُوا ، أَمَّا هُوَ فَعَادَ يَمْشِي إِلَىٰ المَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانِيهِمُ اللَّهُ .

فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ ، ثُمَّ احْمِلُوهُ فِي سَفِينَةٍ وَتَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ فَرُدُّوهُ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ .

فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ المَلِكِ .

فَقَالَ لَهُ المَلِكُ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ .

فَقَالَ : كَفَانِيهِمُ اللَّهُ ، وَإِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّىٰ تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ .

قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ .

قَالَ : تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَتَصْلُبُنِي عَلَىٰ جِذْعِ شَجَرَةٍ ثُمَّ خُذْ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ ، ثُمَّ قُلْ : بِاسْمِ رَبِّ الغُلَامِ ، ثُمَّ ارْمِنِي ... فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي .

فَجَمَعَ « المَلِكُ » النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَصَلَبَهُ عَلَىٰ جِذْعٍ ، ثُمَّ أَخَذَ

سَهْماً مِنْ كِنَانَتِهِ ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ ، ثُمَّ قَالَ : بِاسْمِ رَبِّ الغُلَامِ ...

ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ ...

فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ ...

فَقَالَ النَّاسُ : آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ ... آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ ... آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ .

فَقِيلَ لِلْمَلِكِ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُهُ ؟ ...

قَدْ - وَاللَّهِ - نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ ، فَالنَّاسُ قَدْ آمَنُوا بِرَبِّ الغُلَامِ .

فَأَمَرَ بِالأَخَادِيدِ فَخُدَّتْ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ ، وَأَضْرَمَ فِيهَا النِّيرَانَ وَقَالَ : مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَاحْمُوهُ فِيهَا « أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ » ، فَفَعَلُوا ... حَتَّىٰ جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ عَنِ الوُقُوعِ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الغُلَامُ : يَا أُمَّهْ ... اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَىٰ الحَقِّ ...) .

وَفِي أَصْحَابِ الأُخْدُودِ الَّذِينَ أَنْزَلُوا بِالـمُؤْمِنِينَ مَا أَنْزَلُوهُ مِنْ نَكَالٍ ، وَفِي الـمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ ذَاقُوا فِي سَبِيلِ إِيمَانِهِمْ مَا ذَاقُوا نَزَلَتْ سُورَةُ البُرُوجِ ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ** [أَيْ لُعِنَ] **أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** [أَيْ بِإِحْرَاقِهِمْ] ، **ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ، فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ** [أَيْ بِكُفْرِهِمْ] **وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ** ﴾ [أَيْ فِي الآخِرَةِ] .

وَإِنَّهُ لَجَدِيرٌ بِنَا ـ مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ ـ أَنْ نَحْذُوَ حَذْوَ الكِتَابِ العَزِيزِ وَحَدِيثِ الرَّسُولِ الكَرِيمِ ﷺ فِي اسْتِخْدَامِ هَذَا الفَنِّ الرَّائِعِ فِي المَجَالَاتِ الَّتِي اسْتَخْدَمَهُ فِيهَا القُرْآنُ الكَرِيمُ عَلَىٰ وَجْهٍ يَتَلَاءَمُ مَعَ رُوحِ العَصْرِ وَمُتَطَلَّبَاتِهِ .

وَلَقَدْ تَنَبَّهَ أَحَدُ كِبَارِ الأُدَبَاءِ المُعَاصِرِينَ إِلَىٰ ذَلِكَ فَقَالَ فِي كِتَابِهِ « فَنُّ الْأَدَبِ » : « لَقَدِ اسْتَخْدَمَ القُرْآنُ الكَرِيمُ الفَنَّ القَصَصِيَّ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ المَرَامِي الدِّينِيَّةِ ، وَلَكِنَّ المُدْهِشَ أَنَّ الْأَدَبَ العَرَبِيَّ لَمْ يَرَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ إِلَّا نَمُوذَجاً لُغَوِيًّا ، وَلَمْ يَرَ فِيهِ النَّمُوذَجَ الفَنِّيَّ ، فَلَمْ يَخْطُرْ لَهُ اسْتِلْهَامُ قِصَصِهِ ، وَاسْتِغْلَالُهَا اسْتِغْلَالاً فَنِّيًّا مُسْتَفِيضاً »[1] .

فَلْنَمْضِ عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ نَحْوَ التَّخْطِيطِ لِلْقِصَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ ، وَتَحْدِيدِ أَهْدَافِهَا وَوَظَائِفِهَا .

ثانياً : أَهْدَافُ القِصَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَوَظَائِفُهَا

قَبْلَ الدُّخُولِ فِي هَذِهِ الفِقْرَةِ مِنَ البَحْثِ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ نُشِيرَ إِلَىٰ أَنَّ الْأَدَبَ الإِسْلَامِيَّ الَّذِي نَدْعُو إِلَيْهِ ، وَالَّذِي تَبَنَّتْهُ جَامِعَةُ الإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سُعُودٍ الإِسْلَامِيَّةُ وَغَيْرُهَا مِنَ الجَامِعَاتِ .

وَالَّذِي نَتَمَنَّىٰ أَنْ تَتَبَنَّاهُ الجَامِعَاتُ الأُخْرَىٰ .

إِنَّمَا هُوَ أَدَبٌ هَادِفٌ مُلْتَزِمٌ يَكْتُبُهُ كَاتِبُهُ وَهُوَ يَطْرَحُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الأَسْئِلَةَ الثَّلَاثَةَ التَّالِيَةَ : **لِمَنْ أَكْتُبُ ؟ ... وَلِمَاذَا أَكْتُبُ ؟ ... وَمَاذَا أَكْتُبُ ؟ ...**

وَأَنَّ القِصَّةَ الإِسْلَامِيَّةَ فَرْعٌ مِنْ دَوْحَةِ الْأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ الَّذِي عَرَّفْنَاهُ :

---

(١) فن الأدب لتوفيق الحكيم : ٢٦.

« بِأَنَّهُ التَّعْبِيرُ الفَنِّيُّ الهَادِفُ عَنْ وَقْعِ الحَيَاةِ وَالكَوْنِ وَالإِنْسَانِ عَلَىٰ وِجْدَانِ الأَدِيبِ تَعْبِيراً يَنْبُعُ مِنَ التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ لِلْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَخْلُوقَاتِهِ »[1].

هَذَا وَإِنَّ لِلأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ أَهْدَافاً عَامَّةً تَلْتَزِمُ بِهَا القِصَّةُ كَمَا تَلْتَزِمُ بِهَا سَائِرُ فُنُونِ هَذَا الأَدَبِ .

إِلَّا أَنَّهُ تَبْقَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ أَهْدَافٌ وَوَظَائِفُ أَكْثَرُ لُصُوقاً بِهَذَا الفَنِّ مِنَ القَوْلِ ، وَأَشَدُّ وُضُوحاً ، وَإِنَّ فِي طَلِيعَةِ هَذِهِ الأَهْدَافِ :

١ - حِرْصَنَا عَلَىٰ أَنْ نَبُثَّ فِي المُسْلِمِينَ خَاصَّةً ، وَفِي الإِنْسَانِيَّةِ عَامَّةً ، رُوحَ الإِيمَانِ السَّلِيمِ القَوِيمِ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ؛ وَذَلِكَ لِلْوُقُوفِ فِي وَجْهِ هَذَا السَّيْلِ الجَارِفِ مِنَ القَصَصِ الفَلْسَفِيِّ الَّذِي طَغَىٰ عَلَىٰ عَصْرِنَا ، وَبَرَزَ فِيهِ بُرُوزاً كَبِيراً .

وَالَّذِي لَمْ يَقْتَصِرْ قُرَّاؤُهُ عَلَىٰ العَارِفِينَ بِلُغَاتِهِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا ، وَإِنَّمَا شَاعَ فِي أَرْجَاءِ المَعْمُورَةِ .

وَذَلِكَ بِسَبَبِ المُبَادَرَةِ إِلَىٰ تَرْجَمَتِهِ إِلَىٰ أَكْثَرِ لُغَاتِ أَهْلِ الأَرْضِ ، وَالإِسْرَاعِ فِي إِذَاعَتِهِ وَنَشْرِهِ فِي الآفَاقِ ، وَأَنْتَ تَجِدُ هَذَا القَصَصَ فِي الأَعْمَالِ الَّتِي أَعَدَّهَا زُعَمَاءُ المَذَاهِبِ الأَدَبِيَّةِ مِنَ الفَلَاسِفَةِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ الأَدَبِ أَدَاةً لِلتَّعْبِيرِ عَنْ أَفْكَارِهِمُ الفَلْسَفِيَّةِ .

وَهُوَ قَصَصٌ يَرْمِي - فِيمَا يَرْمِي إِلَيْهِ - إِلَىٰ هَدْمِ فِكْرَةِ الأُلُوهِيَّةِ عِنْدَ الإِنْسَانِ وَاعْتِنَاقِ المَبْدَإِ القَائِلِ : « لَا إِلَهَ ، وَالحَيَاةُ مَادَّةٌ » .

---

(١) لقد وضحنا هذا التعريف في البحث الثالث من هذا الكتاب ص ١٠٣.

وَمِنْ هُنَا تَتَجَلَّىٰ إِحْدَىٰ الوَظَائِفِ الكُبْرَىٰ لِلقِصَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ.

وَهِيَ تَقْدِيمُ فَلْسَفَةٍ إِيمَانِيَةٍ تَنْبَثِقُ مِنَ الإِسْلَامِ، وَتَصَوُّرِهِ الفَرِيدِ المَنْطِقِيِّ المُبَسَّطِ لِلخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَالعَمَلُ عَلَىٰ تَرْسِيخِ عَقِيدَةِ الإِيمَانِ بِالغَيْبِ، وَالبَعْثِ، وَالثَّوَابِ، وَالعِقَابِ.

وَمَنْ يَسْتَعْرِضِ القِصَصَ الوَارِدَةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَجِدْهَا تَهْدِفُ عَلَىٰ الدَّوَامِ إِلَىٰ تَحْقِيقِ هَذِهِ الغَايَةِ الأَسَاسِيَّةِ الكُبْرَىٰ أَيًّا كَانَتِ الغَايَاتُ وَالأَهْدَافُ الجَانِبِيَّةُ الَّتِي تَرْمِي إِلَىٰ تَحْقِيقِهَا.

وَلِإِيضَاحِ ذَلِكَ يَحْسُنُ بِنَا أَنْ نَسْتَعْرِضَ مَطَالِعَ بَعْضِ القِصَصِ الوَارِدَةِ فِي الكِتَابِ العَزِيزِ لِنَرَىٰ كَيْفَ يَتَصَدَّرُ هَذَا الغَرَضُ جَمِيعَ الأَغْرَاضِ الأُخْرَىٰ وَيَتَقَدَّمُ عَلَيْهَا، ثُمَّ تُورَدُ بَعْدَ ذَلِكَ القِصَّةُ الَّتِي يَقُصُّهَا اللَّهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي قِصَّةِ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ، فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾[1].

وَقَالَ فِي قِصَّةِ صَالِحٍ مَعَ ثَمُودَ: ﴿**وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا[2] فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ**﴾[3].

وَقَالَ فِي قِصَّةِ هُودٍ مَعَ قَوْمِهِ: ﴿**وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً، قَالَ يَا قَوْمِ**

(١) سورة المؤمنون: ٢٣.

(٢) استعمركم فيها: جعلكم عماراً وسكاناً لها.

(٣) سورة هود: ٦١.

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[1].

وَنَحْنُ حِينَ نُجَنِّدُ العَمَلَ القَصَصِيَّ لِخِدْمَةِ فِكْرَتِنَا الأَسَاسِيَّةِ ، وَهِيَ تَرْسِيخُ العَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ القَوِيمَةِ فِي النُّفُوسِ ، إِنَّمَا نُجَارِي الآدَابَ العَالَمِيَّةَ المُعَاصِرَةَ الَّتِي كَادَتْ تَغْدُو كُلُّهَا أَوْ جُلُّهَا آدَابَ أَفْكَارٍ وَفَلْسَفَاتٍ كَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ .

وَنَحْنُ حِينَ نَسْلُكُ هَذَا المَسْلَكَ سَيُتَاحُ لَنَا أَنْ نَعْرِضَ فَلْسَفَةَ الإِسْلَامِ عَنِ الخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَلْوَانٍ مِنَ الأَدَبِ ، وَعَلَىٰ رَأْسِهَا القِصَّةُ لِيَقْرَأَهَا المَلَايِينُ مِنَ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَا يَقْرَأُونَ الكُتُبَ الفِكْرِيَّةَ البَحْتَةَ ، وَلَا يُقْبِلُونَ عَلَيْهَا .

وَمِنْ حُسْنِ حَظِّ هَذَا العَصْرِ أَنَّهُ ظَهَرَتْ فِيهِ طَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ رِجَالِ الفِكْرِ تَعَمَّقُوا الإِسْلَامَ ، وَنَفَذُوا إِلَىٰ أَغْوَارِ فَلْسَفَتِهِ الإِلَهِيَّةِ ، وَسَجَّلُوهَا فِي آثَارِهِمْ بِأُسْلُوبٍ عِلْمِيٍّ عَصْرِيٍّ مُقْنِعٍ يَأْخُذُ سَبِيلَهُ إِلَىٰ العُقُولِ بِسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ .

وَفِي طَلِيعَةِ هَؤُلَاءِ : مُحَمَّدُ إِقْبَالٍ ، وَأَبُو الأَعْلَىٰ المَوْدُودِيُّ ، وَأَبُو الحَسَنِ النَّدْوِيُّ ، وَعَبَّاسُ مَحْمُودُ العَقَّادُ ، وَمُحَمَّدُ عَبْدُ اللَّهِ دِرَازُ ، وَمَالِكُ بْنُ نَبِي ، وَسَيِّدُ قُطْبٍ ، وَمُحَمَّدُ قُطْبٍ ، وَمُحَمَّدُ البَهِي ، وَمُحَمَّدُ المُبَارَكُ ، وَأَبُو زَهْرَةَ ، وَغَيْرُهُمْ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ لَا نُحْصِيهِمْ عَدَداً .

فَفِي تُرَاثِ هَؤُلَاءِ وَتُرَاثِ نَابِغَةِ الإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ « ابْنِ تَيْمِيَةَ » مَا يُزَوِّدُ القَاصَّ الإِسْلَامِيَّ بِفِكْرٍ إِيمَانِيٍّ نَاضِجٍ ؛ يُمَكِّنُهُ مِنْ تَقْدِيمِ أَعْمَالٍ قَصَصِيَّةٍ فَذَّةٍ تَنْفُذُ إِلَىٰ أَعْمَاقِ عُقُولِ القُرَّاءِ ، وَتَلْمِسُ أَشَدَّ الأَوْتَارِ حَسَاسِيَةً فِي نُفُوسِهِمْ .

---

(١) سورة الأعراف : ٦٥.

وَإِنَّ فِي قِصَّةِ « الإِيمَانُ بَيْنَ الفَلْسَفَةِ وَالعِلْمِ وَالقُرْآنِ » لِلشَّيْخِ « نَدِيم الجِسْرِ »(١) وَقِصَّةِ « عَذْرَاءُ جَاكَرْتَا » لِلدُّكْتُور « نَجِيبِ الكِيلَانِيِّ » مَثَلَيْنِ طَيِّبَيْنِ لِلقِصَّةِ الفَلْسَفِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ .

وَإِنْ كَانَتْ أُولَاهُمَا بِحَاجَةٍ إِلَىٰ مَزِيدٍ مِنَ الطَّاقَاتِ الفَنِّيَّةِ القَصَصِيَّةِ وَثَانِيَتُهُمَا بِحَاجَةٍ إِلَىٰ مَزِيدٍ مِنَ العُمْقِ الفِكْرِيِّ .

وَالقِصَّةُ الأُولَىٰ تُمَثِّلُ الفِكْرَ الإِسْلَامِيَّ العَقَدِيَّ ، أَمَّا الثَّانِيَةُ فَتُمَثِّلُ الفِكْرَ الإِسْلَامِيَّ الاِجْتِمَاعِيَّ .

وَيَتَفَرَّعُ عَنْ قَضِيَّةِ الإِيمَانِ بِاللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قَضِيَّةُ الإِيمَانِ بِالبَعْثِ وَالحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ وَالخُلُودِ .

وَهِيَ قَضِيَّةٌ اقْتَلَعَتْهَا الفَلْسَفَاتُ الحَدِيثَةُ السَّائِدَةُ مِنْ جُذُورِهَا ، وَدَأَبَ القَصَصُ الفَلْسَفِيُّ العَالَمِيُّ عَلَىٰ مُحَارَبَتِهَا بِكُلِّ السُّبُلِ .

وَلَقَدْ نَسِيَ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَعْمَلُوا مَعَاوِلَهُمْ فِي هَدْمِ هَذِهِ العَقِيدَةِ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي حَمَتِ الإِنْسَانَ مِنْ فِكْرَةِ العَدَمِ المُدَمِّرَةِ لِحَيَاتِهِ ، وَمَنَحَتْهُ الأَمَلَ فِي أَنَّ كِفَاحَهُ فِي هَذِهِ الأَرْضِ لَيْسَ عَبَثاً يَنْتَهِي بِضَجْعَةِ القَبْرِ ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** ﴾(٢).

٢ ـ ثُمَّ إِنَّ مِنْ وَظَائِفِ هَذَا القَصَصِ الإِسْلَامِيِّ أَنْ يُعَالِجَ مُشْكِلَةَ القَلَقِ الَّتِي أَصْبَحَتْ فِي طَلِيعَةِ مُشْكِلَاتِ إِنْسَانِ هَذَا العَصْرِ فِي أُورُبَّا وَأَمْرِيكَا ، وَالَّتِي بَدَأَتْ

---

(١) هُو مفتي طرابلس في لبنان ، والقِصَّة من منشورات المكتب الإسلامي في بيروت ، وهي تقع في أربعمائة وخمسين صفحة ، وقد قرّظها عدد كبير من مشاهير المُسْلِمِين المعاصرين.

(٢) سورة المؤمنون : ١١٥.

تَهُبُّ رِيحُهَا عَلَيْنَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ.

وَلَا تَتِمُّ هَذِهِ المُعَالَجَةُ إِلَّا بِبَثِّ الطُّمَأْنِينَةِ فِي النُّفُوسِ إِلَىٰ وُجُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالإِيمَانِ المُطْلَقِ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَالثِّقَةِ الَّتِي لَا حُدُودَ لَهَا بِحِكْمَتِهِ، وَتَعْمِيقِ النَّظْرَةِ إِلَىٰ الأَحْدَاثِ الجَارِيَةِ، وَعَدَمِ الوُقُوفِ عِنْدَ حَلْقَةٍ مِنْ حَلَقَاتِهَا، أَوْ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِهَا.

فَكَثِيرٌ مِنَ الأَحْدَاثِ لَا تَنْتَهِي فِي حَيَاةِ فَرْدٍ مِنَ الأَفْرَادِ وَإِنَّمَا تَسْتَغْرِقُ حَيَوَاتِ أَفْرَادٍ كَثِيرِينَ.

وَلَمْ يُغْفِلِ القُرْآنُ الكَرِيمُ هَذَا الأَمْرَ، وَلَمْ يَتْرُكِ المُؤْمِنِينَ يُعَانُونَ هَذِهِ الحِيرَةَ فِي تَفْسِيرِ الأَحْدَاثِ الَّتِي لَا يَجِدُونَ لَهَا تَفْسِيراً.

وَإِنَّمَا عَالَجَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ مَعَ الخَضْرِ، حَيْثُ ﴿**قَالَ لَهُ مُوسَىٰ: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً؟.**

قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً؟.

قَالَ: سَتَجِدُنِي إِنْ شَآءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْراً...

قَالَ: فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً.

فَانْطَلَقَا، حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا.

قَالَ: أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْراً [أَيْ عَظِيماً].

قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ [لَكَ]: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً؟.

قَالَ: لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ، وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً.

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ ، قَالَ : أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ؟ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْراً [أَيْ مُنْكَراً] .

قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ؟ .

قَالَ : إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً .

فَانْطَلَقَا ، حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ .

قَالَ : لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً .

قَالَ : هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً :

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً .

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً * فَأَرَدْنَآ أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً .

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ، وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .

ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾(١) .

---

(١) سورة الكهف : ٦٦ - ٨٢.

وَلِمَزِيدِ إِيضَاحٍ لِهَذَا المَعْنَىٰ يَحْسُنُ بِنَا أَنْ نَرْوِيَ هَذِهِ الأُسْطُورَةَ المَنْسُوبَةَ إِلَىٰ الفَيْلَسُوفِ الصِّينِيِّ «لي هِنز» وَخُلاصَتُهَا[1]: أَنَّهُ كَانَ يَعِيشُ فَوْقَ تَلٍّ مِنْ تِلَالِ غَابَةٍ نَائِيَةٍ رَجُلٌ شَيْخٌ، وَمَعَهُ ابْنُهُ وَجَوَادٌ لَهُ.

وَفِي ذَاتِ صَبَاحٍ هَرَبَ الجَوَادُ وَاخْتَفَىٰ، فَأَقْبَلَ الجِيرَانُ عَلَىٰ الشَّيْخِ يُعَزُّونَهُ عَلَىٰ نَكْبَتِهِ بِفَقْدِ جَوَادِهِ، فَقَالَ لَهُمُ الشَّيْخُ:

وَمَا أَدْرَاكُمْ أَنَّهَا نَكْبَةٌ؟ ...

فَصَمَتُوا، وَانْصَرَفُوا وَاجِمِينَ.

وَلَمْ تَمْضِ أَيَّامٌ طَوِيلَةٌ حَتَّىٰ عَادَ الجَوَادُ إِلَىٰ الشَّيْخِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعُدْ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا جَاءَ مُصْطَحِباً مَعَهُ قَطِيعاً مِنَ الخُيُولِ البَرِّيَّةِ.

فَعَادَ الجِيرَانُ إِلَىٰ الشَّيْخِ فَرِحِينَ مُهَنِّئِينَ بِهَذَا الغُنْمِ المَوْفُورِ، وَالحَظِّ السَّعِيدِ؛ فَنَظَرَ إِلَيْهِمُ الشَّيْخُ بِهُدُوءٍ وَقَالَ:

وَمَنْ أَدْرَاكُمْ أَنَّهُ حَظٌّ سَعِيدٌ؟ ... فَسَكَتُوا مَذْهُولِينَ، وَانْصَرَفُوا مُتَحَيِّرِينَ.

وَمَرَّتِ الأَيَّامُ ... وَجَعَلَ ابْنُ الشَّيْخِ يُرَوِّضُ الخُيُولَ البَرِّيَّةَ، فَامْتَطَىٰ مِنْهَا جَوَاداً عَنِيداً فَسَقَطَ مِنْ فَوْقِ صَهْوَتِهِ إِلَىٰ الأَرْضِ، فَكُسِرَتْ سَاقُهُ، فَرَجَعَ الجِيرَانُ مَرَّةً أُخْرَىٰ إِلَىٰ الشَّيْخِ مَحْزُونِينَ يَبُثُّونَهُ أَلَمَهُمْ لِمَا وَقَعَ لِوَلَدِهِ وَيُعَزُّونَهُ فِي هَذَا الحَظِّ العَاثِرِ، فَقَالَ لَهُمُ الشَّيْخُ بِرِفْقٍ:

وَمَنْ أَدْرَاكُمْ أَنَّهُ حَظٌّ عَاثِرٌ؟ ... فَانْصَرَفُوا صَامِتِينَ.

وَمَضَىٰ العَامُ وَإِذَا حَرْبٌ تَقُومُ، وَجُنِّدَ الشَّبَابُ وَأُرْسِلُوا إِلَىٰ المَيْدَانِ،

---

(١) فن الأدب لتوفيق الحكيم: ٨٠ - ٨١.

فَلَاقَىٰ أَكْثَرُهُمْ حَتْفَهُ ، أَمَّا ابْنُ الشَّيْخِ فَإِنَّ العَرَجَ الَّذِي بِقَدَمِهِ أَعْفَاهُ مِنَ الذَّهَابِ إِلَىٰ الحَرْبِ ، وَأَنْقَذَهُ مِنْ مُلَاقَاةِ المَوْتِ .

إِلَىٰ هُنَا تَنْتَهِي قِصَّةُ الفَيْلَسُوفِ الصِّينِيِّ ... وَلَوْ أَنَّهُ اسْتَرْسَلَ فِيهَا لَمَا فَرَغْنَا مِنْ تَعَاقُبِ الخَيْرِ وَالشَّرِّ عَلَىٰ الحَادِثِ الوَاحِدِ .

ذَلِكَ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ نَهَارَهُ وَلَيْلَهُ ، وَهُمَا يَدُورَانِ حَوْلَهُ بِغَيْرِ انْقِطَاعٍ ، وَلَكِنَّ الإِنْسَانَ فِي نَظْرَتِهِ القَصِيرَةِ وَذَاكِرَتِهِ الضَّعِيفَةِ وَفِكْرِهِ المَحْدُودِ لَا يَرَىٰ الحَادِثَ إِلَّا فِي حَلَقَاتِهِ المُنْفَصِلَةِ وَنَتَائِجِهِ المُؤَقَّتَةِ وَمُؤَثِّرَاتِهِ المُفَاجِئَةِ ، فَعَيْنُهُ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَشْمَلَهُ فِي جُمْلَتِهِ ، لِأَنَّ جُمْلَتَهُ مُمْتَدَّةٌ فِي الغَيْبِ . وَلَا يَعْلَمُ الغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ .

وَإِنَّ مِنْ شَأْنِ هَذِهِ النَّظْرَةِ الإِيمَانِيَّةِ إِلَىٰ الحَوَادِثِ أَنْ تَفْتَحَ أَمَامَ فِكْرِ الأَدِيبِ الإِسْلَامِيِّ وَقَلْبِهِ آفَاقَ التَّأَمُّلِ الرَّحِيبِ الفَسِيحِ فِي الأَحْدَاثِ الجَارِيَةِ ، فَلَا يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ اللَّحْظَةِ الحَاضِرَةِ ، وَلَا يُحَاوِلُ تَفْسِيرَهَا مُنْفَصِمَةً عَنْ سَوَابِقِهَا وَلَوَاحِقِهَا .

وَهُوَ حِينَ يَعْرِضُ الأَحْدَاثَ إِنَّمَا يَعْرِضُهَا وَهُوَ مُطْمَئِنٌّ أَشَدَّ الِاطْمِئْنَانِ إِلَىٰ الحِكْمَةِ البَالِغَةِ الَّتِي تَكْمُنُ فِي كُلِّ حَدَثٍ ، سَوَاءٌ أَبَدَتْ لَهُ هَذِه الحِكْمَةُ وَهُوَ حَيٌّ يَعِيشُ عَلَىٰ هَذِهِ الأَرْضِ أَمْ لَمْ تَبْدُ لَهُ لِأَنَّ الحَادِثَ كَثِيراً مَا تَكُونُ حَلَقَاتُهُ نَاقِصَةً لَمْ تُسْتَكْمَلْ بَعْدُ .

وَبِذَلِكَ تَصْفُو مَشَاعِرُهُ وَمَشَاعِرُ قُرَّائِهِ مِنَ القَلَقِ وَالِاضْطِرَابِ ؛ بَعْدَ أَنْ صَفَا ذِهْنُهُ مِنْ مُعْضِلَةِ التَّنَاقُضِ .

وَيَنْطَلِقُ فِي سُبُلِ البِنَاءِ وَالإِعْمَارِ وَالإِبْدَاعِ بَعْدَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ اليَأْسِ وَالقَلَقِ وَالِاضْطِرَابِ وَاضِعاً نُصْبَ عَيْنَيْهِ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ ...

﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ...
وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ...
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

هَذَا وَإِنَّ القَصَصَ الإِسْلَامِيَّ حِينَ يَحْمِلُ هَذَا العِبْءَ يَكُونُ قَدْ وَقَفَ فِي مُوَاجَهَةِ القَصَصِ اليُونَانِيِّ القَدِيمِ ، وَكَثِيرٍ مِنَ القَصَصِ الَّذِي ظَلَّ يَنْسِجُ عَلَىٰ مِنْوَالِهِ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا ، فَلَقَدْ دَأَبَ ذَلِكَ القَصَصُ عَلَىٰ تَأْكِيدِ العَدَاوَةِ بَيْنَ القُوَىٰ المُغَيَّبَةِ وَبَيْنَ الإِنْسَانِ ، وَأَلَحَّ عَلَىٰ إِخْضَاعِ أَبْطَالِ القِصَّةِ إِلَىٰ سُلْطَةٍ خَارِجِيَّةٍ طَاغِيَةٍ تُلْغِي شَخْصِيَّاتِهِمْ وَتَتَصَرَّفُ فِي مُقَدَّرَاتِهِمْ تَصَرُّفاً عَشْوَائِياً أَرْعَنَ قَائِماً عَلَىٰ التَّشَفِّي ، وَالتَّعَنُّتِ ، وَأَخْذِ الأَبْنَاءِ بِجَرِيرَةِ الآبَاءِ كَمَا فِي قِصَّةِ « أُودِيبَ »[2] وَغَيْرِهَا .

٣ ـ وَمِنْ غَايَاتِ القِصَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ أَيْضاً الانْتِصَارُ لِلْخَيْرِ فِي صِرَاعِهِ الدَّائِبِ مَعَ الشَّرِّ ، وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ عَرْضِ مَوَاقِفِ ذَلِكَ الصِّرَاعِ ، وَخَوْضِ المَعْرَكَةِ إِلَىٰ جَانِبِ الخَيْرِ حَتَّىٰ تَعْلُوَ رَايَتُهُ ، وَمُنَازَلَةِ الشَّرِّ وَتَعْرِيَتِهِ إِلَىٰ أَنْ تَخْضَدَ شَوْكَتُهُ .

وَفِي قِصَّةِ « هَابِيلَ » وَأَخِيهِ « قَابِيلَ » نَمُوذَجٌ رَائِعٌ لِهَذَا الصِّرَاعِ ، وَمَثَلٌ فَذٌّ مُؤَثِّرٌ لِمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ هَذَا الضَّرْبُ مِنَ القَصَصِ .

فَلَقَدْ رَسَمَتْ هَذِهِ القِصَّةُ صُورَتَيْنِ لِشَخْصِيَّتَيْنِ مُتَبَايِنَتَيْنِ :

إِحْدَاهُمَا تُمَثِّلُ الإِيمَانَ وَمَا يَنْبَعِثُ عَنْهُ مِنْ خَيْرٍ وَحُبٍّ وَسَلَامٍ ...

---

(١) سورة البقرة: ٢١٦.

(٢) أوديب أو « أوديبوس » Oidipous في أساطير اليونان هو بطل « طيبة » ، قتل أباه ، وتزوج أمه دون علم منه فلمّا عرف الحقيقة فقأ عينيه ، وانتحرت أمه وظلّ هائماً عَلَىٰ وجهه ، ونزلت اللعنة بطيبة وبأبنائها . وقد عالج سوفوكليس هذه الأسطورة بثلاث مسرحيات (انظر الموسوعة العربية الميسرة ـ أوديبوس) .

وَالأُخْرَىٰ تُمَثِّلُ الكُفْرَ وَمَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ شَرٍّ .

وَلَقَدْ جَلَّىٰ الحِوَارُ الَّذِي دَارَ بَيْنَ الأَخَوَيْنِ المَلَامِحَ البَارِزَةَ لِشَخْصِيَّةِ كُلٍّ مِنْهُمَا ، فَقَالَ « قَابِيلُ » لِأَخِيهِ « هَابِيلَ » : ﴿ **لَأَقْتُلَنَّكَ** ﴾ .

فَكَانَ جَوَابُهُ : ﴿ **لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ؛ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَـمِينَ** ﴾ .

وَتَمْضِي القِصَّةُ إِلَىٰ نِهَايَتِهَا المُحْزِنَةِ ... لَكِنَّ الخَيْرَ يَنْتَصِرُ عَلَىٰ الشَّرِّ ، وَكَانَ أَوَّلَ انْتِصَارٍ لَهُ ذَلِكَ النَّدَمُ الَّذِي بَاتَ يَنْهَشُ قَلْبَ الأَخِ الآثِمِ الظَّالِمِ عَلَىٰ فَعْلَتِهِ الشَّنْعَاءِ بِقَتْلِ أَخِيهِ .

فَانْظُرْ إِلَيْهِ وَهُوَ يَحْمِلُ أَخَاهُ القَتِيلَ عَلَىٰ كَتِفَيْهِ ، وَيَجْرِي بِهِ هَائِماً عَلَىٰ وَجْهِهِ لَا يَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِهِ .

ثُمَّ تَأَمَّلْهُ وَهُوَ يَرَىٰ الغُرَابَ يَنْبُشُ فِي الأَرْضِ ﴿ **لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ** ﴾ فَيَقُولُ : ﴿ **يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ ...** ﴾ .

ثُمَّ اسْتَمِعْ إِلَىٰ النِّهَايَةِ الَّتِي خُتِمَتْ بِهَا القِصَّةُ حَيْثُ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ **فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ** ﴾(١).

٤ ـ وَمِنْ غَايَاتِ القِصَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ مُعَالَجَةُ الأَوْبَاءِ الخُلُقِيَّةِ ، وَالِانْحِرَافَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ الَّتِي تَجْتَاحُ بَعْضَ المُجْتَمَعَاتِ ، وَتَضْرِبُ بِجُذُورِهَا فِي تُرْبَتِهَا حَتَّىٰ تَغْدُوَ أَمْراً مُتَعَارَفاً عَلَيْهِ لَا يَسْتَنْكِرُهُ مُسْتَنْكِرٌ ، وَلَا يَسْتَهْجِنُهُ مُسْتَهْجِنٌ .

---

(١) لقراءة القِصَّة كما وردت في الكتاب العزيز اقرأ الآيات : ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١ من سورة المائدة .

ذَلِكَ لِأَنَّ الفَرْدَ حِينَ يَنْدمِجُ فِي المُجْتَمَعِ الفَاسِدِ يَكْتَسِبُ مِنْ وُجُودِهِ فِيهِ قُوَّةً تُشَجِّعُهُ عَلَىٰ الِاسْتِرْسَالِ فِي المَعَايِبِ وَالمُوبِقَاتِ الَّتِي كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحْجِمَ عَنْهَا لَوْ كَانَ مُنْفَرِداً .

فَالجَمَاعَةُ ـ كَمَا يُقَرِّرُ عُلَمَاءُ الِاجْتِمَاعِ ـ لَا تُسْأَلُ عَنْ أَفْعَالِهَا كَمَا يُسْأَلُ الفَرْدُ عَنْ فِعْلِهِ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا شَاعَتْ تِلْكَ الأَفْعَالُ فِيهَا وَذَاعَتْ[1] .

وَلَعَلَّ أَعْنَفَ مَثَلٍ عَلَىٰ ذَلِكَ قِصَّةُ « لُوطٍ » مَعَ قَوْمِهِ ، فَلَقَدْ عَشَّشَ الفَسَادُ ، وَالشُّذُوذُ وَالِانْحِرَافُ فِي مُجْتَمَعِهِمْ حَتَّىٰ غَدَا الشَّرُّ عِنْدَهُمْ خَيْراً ، وَالمُنْكَرُ مَعْرُوفاً ، وَلَمْ يَبْقَ فِي القَوْمِ رَجُلٌ رَشِيدٌ .

إِنَّ هَذَا الَّذِي أَسْلَفْنَاهُ يُوَضِّحُ لَنَا العِبْءَ الثَّقِيلَ الَّذِي أُلْقِيَ عَلَىٰ عَاتِقِ القِصَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ ، وَذَلِكَ بِأَنْ تَعْمَلَ عَلَىٰ تَعْرِيَةِ فَسَادِ المُجْتَمَعَاتِ ، وَأَنْ تَسْتَنْكِرَهُ ، وَتَكْسِبَ الأَنْصَارَ فِي اسْتِنْكَارِهِ مَهْمَا غَدَا ذَائِعاً شَائِعاً .

فَدَوْلَةُ البَاطِلِ إِلَىٰ زَوَالٍ مَهْمَا كَانَتْ مَتِينَةَ الأُسُسِ ، قَوِيَّةَ الدَّعَائِمِ .

٥ ـ ثُمَّ إِنَّ مِنْ أَهْدَافِ القِصَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ العَمَلَ عَلَىٰ تَثْبِيتِ قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ ، المُلْتَزِمِينَ بِشَرْعِهِ ، الذَّائِدِينَ عَنْ دِينِهِ .

ذَلِكَ لِأَنَّ أَصْحَابَ العَقَائِدِ يَلْقَوْنَ فِي هَذَا العَصْرِ مِنْ صُنُوفِ العَنَتِ مَا يُزَلْزِلُ الصُّمَّ الصِّلَابَ .

وَلِذَا فَإِنَّهُمْ بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَىٰ الكَلِمَةِ الوَاثِقَةِ الَّتِي تُثَبِّتُ قُلُوبَهُمْ عَلَىٰ الحَقِّ ، وَتُوَطِّدُ عَزَائِمَهُمْ عَلَىٰ الصِّدْقِ ، وَتَكُونُ بَلْسَماً لِجِرَاحِهِمُ الدَّامِيَةِ ، وَأَمَلاً

---

(١) انظر « روح الاجتماع » ترجمة أحمد فتحي زغلول : ٣٠.

لِنُفُوسِهِمُ المَكْدُودَةِ ، وَسَلْوَةً لِأَفْئِدَتِهِمُ الَّتِي صَهَرَتْهَا الخُطُوبُ .

وَالقِصَّةُ هِيَ أَحَدُ الفُنُونِ الأَدَبِيَّةِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُولَ هَذِهِ الكَلِمَةَ ، وَهِيَ الصَّوْتُ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْلُغَ مَا لَا تَبْلُغُهُ الأَصْوَاتُ الأُخْرَىٰ فِي هَذَا العَصْرِ ...

إِنَّ هَؤُلَاءِ المُؤْمِنِينَ مَا هُمْ إِلَّا طَوَائِفُ مِنْ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَهُمْ مَهْمَا بَلَغُوا مِنَ القُوَّةِ وَالصَّبْرِ وَالجَلَدِ لَا يَصِلُونَ إِلَىٰ بَعْضِ مَا تَحَلَّىٰ بِهِ الرَّسُولُ الكَرِيمُ ﷺ .

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ طَفَحَ الكِتَابُ العَزِيزُ بِالقَصَصِ القُرْآنِيِّ الَّذِي كَانَتْ غَايَتُهُ تَثْبِيتَ فُؤَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِينَ مَعَهُ . حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَىٰ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ مُخَاطِباً نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : ﴿ **وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[1] .

فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ الأَعْظَمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ مَا يُثَبِّتُ فُؤَادَهُ فَأَتْبَاعُهُ مِنَ المُعَذَّبِينَ فِي الأَرْضِ أَحْوَجُ إِلَىٰ ذَلِكَ ...

فَلْنَكْتُبْ لَهُمُ القِصَصَ الَّتِي تُضِيءُ ظُلُمَاتِ حَيَاتِهِمْ بِالأَمَلِ ، وَتُدَاوِي جِرَاحَاتِ نُفُوسِهِمْ بِالمَوْعِظَةِ ، وَتُفْعِمُ أَفْئِدَتَهُمْ ثِقَةً بِنَصْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَتَجْعَلُهُمْ عَلَىٰ يَقِينٍ بِأَنَّ العِنَايَةَ الإِلَهِيَّةَ هِيَ دَوْماً مَعَ أَهْلِ الحَقِّ ، وَأَنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .

---

(١) سورة هود : ١٢٠.

وَسَيَجِدُ القَصَّاصُونَ الإِسْلَامِيُّونَ فِي أَخْبَارِ المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الَّذِينَ حَفَلَ بِهِمْ تَارِيخُ الدَّعَوَاتِ إِلَىٰ اللَّهِ مَادَةً غَزِيرَةً ثَرَّةً لَا تَنْضُبُ ، جَذَّابَةً مَشُوقَةً لَا تُمَلُّ .

وَسَيَرَوْنَ فِي النِّهَايَاتِ الرَّائِعَةِ الَّتِي انْتَهَىٰ إِلَيْهَا أُولَئِكَ الأَتْقِيَاءُ الأَنْقِيَاءُ الصَّابِرُونَ مَا يُثَبِّتُونَ بِهِ أَفْئِدَةَ المُؤْمِنِينَ المُجَاهِدِينَ .

كَمَا سَيَجِدُونَ فِي أَخْبَارِ الطُّغَاةِ البُغَاةِ الَّذِينَ تَصَدَّوا لِلْحَقِّ ، وَغَمَسُوا أَيْدِيَهُمْ فِي دِمَاءِ أَصْحَابِهِ مَادَّةً ثَرَّةً لَا تَقِلُّ عَنْ سَابِقَتِهَا عَطَاءً وَتَأْثِيراً .

وَهُنَا لَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نُنَبِّهَ إِلَىٰ أَنَّ مُعَالَجَةَ القِصَصِ الَّتِي تَحْكِي البَلَاءَ الَّذِي صَبَّهُ الطُّغَاةُ عَلَىٰ ذَوِي العَقَائِدِ لَا يَجُوزُ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَىٰ بَثِّ اليَأْسِ فِي نُفُوسِ المُؤْمِنِينَ ، وَتَشْجِيعِ أَعْدَائِهِمْ عَلَىٰ التَّنْكِيلِ بِهِمْ .

وَلَنَا فِي القَصَصِ القُرْآنِيِّ خَيْرُ مُوَجِّهٍ إِلَىٰ هَذَا الأَمْرِ .

فَلَقَدْ دَأَبَ اليَهُودُ عَلَىٰ قَتْلِ أَنْبِيَائِهِمْ ، وَقَدْ أَثْبَتَ القُرْآنُ ذَلِكَ بِصُورَةٍ سَرِيعَةٍ مُجْمَلَةٍ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْطِنٍ . مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾(١) .

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ كَانَ لِمَقْتَلِ كُلِّ نَبِيٍّ قِصَّةٌ مُثِيرَةٌ تُرْوَىٰ ، وَخَبَرٌ هَامٌّ يُنْقَلُ ، غَيْرَ أَنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ لَمْ يُورِدْ أَيَّ قِصَّةٍ مِنْ تِلْكَ القِصَصِ الَّتِي تَحْكِي قَتْلَ الأَنْبِيَاءِ .

مَعَ العِلْمِ بِأَنَّ المُفَسِّرِينَ قَدْ أَوْصَلُوا عَدَدَ الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ قَتَلَهُمُ اليَهُودُ إِلَىٰ أَرْبَعِينَ نَبِيًّا .

---

(١) سورة آل عمران : ٢١.

وَلَعَلَّ الحِكْمَةَ فِي ذَلِكَ تَجَنُّبُ مَا يُثِيرُ الخَوْفَ وَالوَهَنَ فِي نُفُوسِ المُؤْمِنِينَ، وَهُمْ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ حَاجَةً إِلَىٰ مَا يُوَطِّدُ عَزَائِمَهُمْ، وَيَرْبِطُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ، وَيُثَبِّتُ أَفْئِدَتَهُمْ.

وَنَحْنُ إِذَا أَخَذْنَا هَذَا التَعْلِيلَ بِعَيْنِ الِاعْتِبَارِ غَدَا فَهْمُنَا أَدَقَّ وَأَعْمَقَ لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ...** ﴾[1].

بَلْ إِنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ حِينَ عَرَضَ أَخْبَارَ بَعْضِ الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ انْتَهَتْ حَيَاتُهُمْ بِالقَتْلِ أَغْفَلَ هَذَا الجَانِبَ وَلَمْ يُعَرِّجْ عَلَيْهِ.

فَهُوَ قَدْ قَصَّ عَلَيْنَا كَثِيراً مِنْ أَخْبَارِ «زَكَرِيَّا» وَ«يَحْيَىٰ» عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُشِرْ إِلَىٰ نَبَإِ قَتْلِهِمَا، وَلَمْ يَلْفِتِ الأَنْظَارَ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ فِي قَصِّ أَحْدَاثِ القَتْلِ هَذِهِ مَا قَدْ يُوقِظُ الفِتْنَةَ النَّائِمَةَ، وَيُغْرِي السُّفَهَاءَ بِارْتِكَابِ الجَرَائِمِ، وَيُجَرِّئُ أَعْدَاءَ الدَّعْوَةِ عَلَىٰ الدُّعَاةِ.

إِنَّ عَلَىٰ القَاصِّ الإِسْلَامِيِّ المُعَاصِرِ ـ وَهُوَ يَكْتُبُ قِصَصَ نِضَالِ المُؤْمِنِينَ فِي سَبِيلِ العَقِيدَةِ، وَأَخْبَارِ مُعَانَاتِهِمُ الَّتِي تَنْتَهِي بِالِاسْتِشْهَادِ ـ أَنْ يُؤَكِّدَ بِأَنَّ الِاسْتِشْهَادَ فِي سَبِيلِ الحَقِّ ـ وَإِنْ كَانَ هَزِيمَةً فِي الظَّاهِرِ فَهُوَ فِي الحَقِيقَةِ انْتِصَارٌ لِلْعَقِيدَةِ الَّتِي آمَنَ بِهَا الشَّهِيدُ، وَفَوزٌ عَظِيمٌ لَهُ بِمَا قَدَّمَهُ لِلنَّاسِ فِي حَيَاتِهِ مِنْ خَيْرٍ وَبِرٍّ، وَمَا ادَّخَرَهُ لِنَفْسِهِ بَعْدَ مَمَاتِهِ مِنْ مَثُوبَةٍ وَأَجْرٍ.

وَأَنْ يُرَسِّخَ فِي أَذْهَانِ قُرَّائِهِ بِأَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ تَقْضِي بِأَنْ يَنْتَصِرَ الخَيْرُ

---

(١) سورة غافر: ٧٨.

وَأَتْبَاعُهُ فِي النِّهَايَةِ ، وَأَنْ يُؤَكِّدَ لَهُمْ بِأَنَّ المَوْتَ إِذَا كَانَ نِهَايَةً لِكُلِّ حَيٍّ فَإِنَّ المَوْتَ فِي سَبِيلِ العَقِيدَةِ أَرْفَعُ مَرَاتِبِ المَوْتِ وَأَسْمَاهَا .

وَلَعَلَّ فِي قِصَّةِ « مُسَيْلِمَةَ » الكَذَّابِ مَعَ حَبِيبِ بْنِ زَيْدٍ وَأُمِّهِ نَسِيبَةَ المَازِنِيَّةِ مَا يُحَقِّقُ هَذَا المَعْنَىٰ وَيُوَضِّحُهُ ، فَلَقَدْ جَاءَ فِي هَٰذِهِ القِصَّةِ :

« إِنَّ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابَ قَدْ ازْدَادَ شَرُّهُ ، وَاسْتَشْرَىٰ فَسَادُهُ ، فَرَأَىٰ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِرِسَالَةٍ يَزْجُرُهُ فِيهَا عَنْ غَيِّهِ ، وَنَدَبَ لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ حَبِيبَ بْنَ زَيْدٍ .

وَكَانَ يَوْمَئِذٍ شَابًّا نَاضِرَ الشَّبَابِ ، مُكْتَمِلَ الفَتَاءِ ، مُؤْمِناً مِنْ قِمَّةِ رَأْسِهِ إِلَىٰ أَخْمُصِ قَدَمَيْهِ .

مَضَىٰ حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ إِلَىٰ مَا أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَيْرَ وَانٍ وَلَا مُتَرَيِّثٍ حَتَّىٰ بَلَغَ دِيَارَ بَنِي « حَنِيفَةَ » فِي أَعَالِي « نَجْدٍ » ، وَدَفَعَ الرِّسَالَةَ إِلَىٰ مُسَيْلِمَةَ .

فَمَا كَادَ مُسَيْلِمَةُ يَقِفُ عَلَىٰ مَا جَاءَ فِيهَا حَتَّىٰ انْتَفَخَ صَدْرُهُ ضَغِينَةً وَحِقْداً ، وَبَدَا الشَّرُّ وَالغَدْرُ عَلَىٰ قَسَمَاتِ وَجْهِهِ الدَّمِيمِ الأَصْفَرِ ، وَأَمَرَ بِحَبِيبِ بْنِ زَيْدٍ أَنْ يُقَيَّدَ ، وَأَنْ يُؤْتَىٰ بِهِ إِلَيْهِ فِي ضُحَىٰ اليَوْمِ التَّالِي .

فَلَمَّا كَانَ الغَدُ تَصَدَّرَ مُسَيْلِمَةُ مَجْلِسَهُ ... ثُمَّ أَمَرَ بِحَبِيبِ بْنِ زَيْدٍ فَجِيءَ بِهِ إِلَيْهِ وَهُوَ يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ عَلَىٰ مَلأٍ مِنَ النَّاسِ .

وَقَفَ حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ وَسَطَ الجُمُوعِ الحَاشِدَةِ مَشْدُودَ القَامَةِ ، مَرْفُوعَ الهَامَةِ شَامِخَ الأَنْفِ ... فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ مُسَيْلِمَةُ وَقَالَ :

أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ .

فَتَمَيَّزَ مُسَيْلِمَةُ غَيْظاً وَقَالَ : وَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ؟ .

فَقَالَ حَبِيبٌ فِي سُخْرِيَةٍ لَاذِعَةٍ : إِنَّ فِي أُذُنَيَّ صَمَماً عَنْ سَمَاعِ مَا تَقُولُ .

فَامْتَقَعَ وَجْهُ مُسَيْلِمَةَ وَارْتَجَفَتْ شَفَتَاهُ وَقَالَ لِجَلَّادِهِ : اقْطَعْ قِطْعَةً مِنْ جَسَدِهِ ، فَأَهْوَىٰ الجَلَّادُ بِسَيْفِهِ عَلَىٰ حَبِيبٍ وَبَتَرَ قِطْعَةً مِن جَسَدِهِ ؛ فَتَدَحْرَجَتْ عَلَىٰ الأَرْضِ .

ثُمَّ أَعَادَ مُسَيْلِمَةُ عَلَيْهِ السُّؤَالَ نَفْسَهُ ، وَتَلَقَّىٰ مِنْهُ الجَوَابَ نَفْسَهُ ، فَأَمَرَ بِأَن تُقْطَعَ مِنْ جَسَدِهِ قِطْعَةٌ أُخْرَىٰ ، فَقُطِعَتْ وَتَدَحْرَجَتْ عَلَىٰ الأَرْضِ حَتَّىٰ اسْتَوَتْ إِلَىٰ جَانِبِ أُخْتِهَا ، وَالنَّاسُ شَاخِصُونَ بِأَبْصَارِهِمْ إِلَيْهِ .

وَمَضَىٰ مُسَيْلِمَةُ يَسْأَلُ ، وَالجَلَّادُ يَقْطَعُ ، وَحَبِيبٌ يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ ، حَتَّىٰ صَارَ نَحْوٌ مِنْ نَصْفِهِ بِضَعاً مُقَطَّعَةً مَنْثُورَةً عَلَىٰ الأَرْضِ ... وَنِصْفُهُ الآخَرُ كُتْلَةً تَتَكَلَّمُ .

ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُهُ وَعَلَىٰ شَفَتَيْهِ الطَّاهِرَتَيْنِ اسْمُ النَّبِيِّ الَّذِي بَايَعَهُ لَيْلَةَ العَقَبَةِ ... اسْمُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

نَعَىٰ النَّاعِي حَبِيبَ بْنَ زَيْدٍ إِلَىٰ أُمِّهِ نَسِيبَةَ المَازِنِيَّةِ ـ فَمَا زَادَتْ عَلَىٰ أَنْ قَالَتْ : مِنْ أَجْلِ مِثْلِ هَذَا المَوْقِفِ أَعْدَدْتُهُ ... وَعِنْدَ اللَّهِ احْتَسَبْتُهُ ... لَقَدْ بَايَعَ الرَّسُولَ الكَرِيمَ لَيْلَةَ العَقَبَةِ طِفْلاً صَغِيراً ... وَوَفَّىٰ لَهُ اليَوْمَ شَابًّا كَبِيراً ...

وَلَئِنْ أَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْ مُسَيْلِمَةَ لَأَجْعَلَنَّ بَنَاتِهِ يَلْطِمْنَ الخُدُودَ عَلَيْهِ ...

لَمْ يُبْطِئِ اليَوْمُ الَّذِي تَمَنَّتْهُ نَسِيبَةُ كَثِيراً ... حَيْثُ أَذَّنَ مُؤَذِّنُ أَبِي بَكْرٍ فِي المَدِينَةِ : أَنْ حَيَّ عَلَىٰ قِتَالِ المُتَنَبِّئِ الكَذَّابِ مُسَيْلِمَةَ ... فَمَضَىٰ المُسْلِمُونَ

يَحُثُّونَ الخُطَىٰ إِلَىٰ لِقَائِهِ ، وَكَانَ فِي الجَيْشِ نَسِيبَةُ المَازِنِيَّةُ وَوَلَدُهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ .

وَفِي يَوْمِ اليَمَامَةِ الأَغَرِّ شُوهِدَتْ نَسِيبَةُ تَشُقُّ الصُّفُوفَ كَاللَّبُؤَةِ الثَّائِرَةِ وَهِيَ تُنَادِي : أَيْنَ عَدُوُّ اللَّهِ ؟ ... دُلُّونِي عَلَىٰ عَدُوِّ اللَّهِ ...

فَلَمَّا انْتَهَتْ إِلَيْهِ وَجَدَتْهُ مُجَدَّلاً عَلَىٰ الأَرْضِ وَسُيُوفُ المُسْلِمِينَ تَنْهَلُ مِنْ دِمَائِهِ فَطَابَتْ نَفْساً ، وَقَرَّتْ عَيْناً ... وَلِمَ لَا ؟ .

أَلَمْ يَنْتَقِمِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِفَتَاهَا البَرِّ التَّقِيِّ مِنْ قَاتِلِهِ البَاغِي الشَّقِيِّ ؟ بَلَىٰ ...

فَلَقَدْ مَضَىٰ كُلٌّ مِنْهُمَا إِلَىٰ رَبِّهِ ، وَلَكِنْ ...

فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ ... وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ[1].

٦ ـ ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ غَايَةً أُخْرَىٰ مِنْ غَايَاتِ القِصَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ ، هِيَ تَرْهِيبُ المُنْحَرِفِينَ وَالضَّالِّينَ مِنْ مَغَبَّةِ الِانْحِرَافِ وَالضَّلَالِ .

وَإِنْذَارُهُمْ بِالعَوَاقِبِ الوَخِيمَةِ الَّتِي تَتَرَتَّبُ عَلَىٰ سُلُوكِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ... ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾[2].

وَلَقَدْ أَثْبَتَ تَارِيخُ الدَّعْوَةِ المُحَمَّدِيَّةِ ـ وَهُوَ مِنَّا قَرِيبٌ ـ أَنَّ قِصَصَ الوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ وَآيَاتِ الإِنْذَارِ وَالتَّحْذِيرِ كَانَتْ تَهُزُّ أَفْئِدَةَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ هَزًّا ، وَأَنَّهُمْ كَادُوا يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ لِئَلَّا يَسْمَعُوا تِلْكَ القَوَارِعَ الَّتِي يَصْعَقُهُمْ بِهَا القُرْآنُ صَعْقاً وَيُزَلْزِلُ بِهَا عِنَادَهُمْ زِلْزَالاً شَدِيداً .

---

(١) للوقوف عَلَىٰ قِصَّة حبيب بن زيد الأنصاري اقرأ : « صور من حياة الصَّحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) سورة طه : ١٢٧.

وَإِنَّ إِنْشَاءَ قِصَصٍ تُبْرِزُ سُنَنَ اللَّهِ فِي أَخْذِ الغَاوِينَ الضَّالِينَ كَفِيلٌ بِأَنْ يَرْدَعَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ غَيِّهِمْ ، وَأَنْ يُشْعِرَهُمْ بِخُطُورَةِ مَسْلَكِهِمْ ... وَهُوَ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ جَدِيرٌ بِأَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ الأَوْبَةِ إِلَىٰ اللَّهِ ، وَالنَّدَمِ عَلَىٰ مَا سَلَفَ ، وَالعَزْمِ عَلَىٰ عَدَمِ العَوْدَةِ .

وَالقَصَصُ القُرْآنِيُّ حَافِلٌ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ الِاعْتِبَارِ بِسُنَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، مَلِيءٌ بِالحَضِّ عَلَىٰ تَدَبُّرِ أَحْوَالِ الَّذِينَ حَادُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ .

وَهُوَ مُفْعَمٌ بِالتَّأْكِيدِ عَلَىٰ أَنَّ بَقَاءَ الأُمَمِ وَنَمَاءَهَا مَنُوطَانِ بِسُلُوكِ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأَنَّ هَلَاكَهَا مُلَازِمٌ لِلتَّخَلِّي عَنْ هَذِهِ السَّبِيلِ .

وَأَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَخَلَّفُ .

٧ ـ ثُمَّ إِنَّ مِنْ أَغْرَاضِ القِصَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ التَّصَدِّيَ لِمَرَضِ التَّرَفِ ، وَهُوَ دَاءٌ وَبِيلٌ مَا تَفَشَّىٰ فِي أُمَّةٍ إِلَّا كَانَ سَبَباً فِي فَشَلِهَا وَذَهَابِ رِيحِهَا وَتَسْلِيطِ عَدُوِّهَا عَلَيْهَا .

وَإِنَّ مِنْ أَعْرَاضِ هَذَا المَرَضِ كَثْرَةَ الإِنْفَاقِ عَلَىٰ التَّوَافِهِ ، وَشِدَّةَ الِاحْتِفَاءِ بِالمَظَاهِرِ ، وَخُلُوَّ الحَيَاةِ مِنَ الوَاجِبَاتِ ، وَشَغْلَهَا بِالتُّرَّهَاتِ ، وَهُوَ مَرَضٌ إِذَا رَانَ[1] عَلَىٰ القُلُوبِ فَقَدَتْ حَاسَّتَهَا الَّتِي تَتَلَقَّىٰ بِهَا الأَحْدَاثَ ، وَعَجَزَ أَصْحَابُهَا عَنْ مُوَاجَهَةِ شُئُونِ الحَيَاةِ الَّتِي تَتَرَاوَحُ ـ عَادَةً ـ بَيْنَ الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ ، وَالصِّحَّةِ وَالبَلَاءِ ، وَالقَسْوَةِ وَاللِّينِ ، وَالظِّلِّ وَالحَرُورِ .

---

(١) رَان : غلب وقهر ، والمقصود هنا الصدأ يعتري القلوب ويغلب عليها حتىٰ تعجز عن الوصول إلىٰ الحق .

فَأَدْنَىٰ نَازِلَةٍ تَنْزِلُ بِهِمْ تُزَلْزِلُ كِيَانَهُمْ ، وَتَهْدِمُ بُنْيَانَهُمْ ، وَتُسْلِمُهُمْ إِلَىٰ الْقُنُوطِ وَاليَأْسِ ...

وَالمُتْرَفُ إِنْسَانٌ يَظْلِمُ نَفْسَهُ بِالفُسُوقِ وَالعِصْيَانِ ، وَيَظْلِمُ غَيْرَهُ بِالحَاجَةِ وَالحِرْمَانِ ، وَيَظْلِمُ مُجْتَمَعَهُ بِالتَّقَهْقُرِ وَالخُمُودِ .

وَأَنْتَ إِذَا تَدَبَّرْتَ أَمْرَ الدُّوَلِ الَّتِي نُكِبَتْ عَبْرَ التَّارِيخِ وَجَدْتَ أَنَّ التَّرَفَ كَانَ - فِي الغَالِبِ - السَّبَبَ فِي نَكْبَتِهَا وَزَوَالِهَا وَانْقِرَاضِهَا .

وَمِنْ شَأْنِ القَصَصِ الإِسْلَامِيِّ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ هَذَا المَرَضِ مَادَّةً خِصْبَةً لِلْمِئَاتِ مِنَ الأَعْمَالِ القَصَصِيَّةِ النَّاجِحَةِ .

وَسَيَجِدُ القَاصُّ فِي تَوَارِيخِ الأُمَمِ القَرِيبَةِ وَالبَعِيدَةِ ، وَفِي أَحْدَاثِ الحَيَاةِ المُعَاصِرَةِ زَاداً لِقَصَصِهِ لَا يَنْفَدُ ... وَصَدَقَ اللَّهُ العَظِيمُ إِذْ يَقُولُ :

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ، وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾[١].

٨ - وَأَخِيراً فَإِنَّ مِنْ أَغْرَاضِ القِصَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ النُّفُوذَ إِلَىٰ أَغْوَارِ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ وَبَيَانَ مَكَامِنِ القُوَّةِ وَالضَّعْفِ فِيهَا ، وَالكَشْفَ عَنْ نَوَازِعِ الخَيْرِ وَالشَّرِّ الَّتِي تَتَدَاوَلُهَا .

وَالغَرَضُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ إِرْشَادُ الإِنْسَانِ إِلَىٰ مَنَاحِي قُوَّتِهِ وَضَعْفِهِ .

---

(١) سورة الأنبياء : ١١ - ١٥.

وَتَزوِيدُهُ بِالسِّلَاحِ الَّذِي يُغَلِّبُ فِيهِ النَّفْسَ اللَّوَّامَةَ ... عَلَىٰ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ ...

وَالقِصَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ حِينَ تُعَالِجُ هَذَا المَوْضُوعَ إِنَّمَا تَلْتَزِمُ الوَاقِعِيَّةَ الَّتِي هِيَ سِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ الإِسْلَامِ.

فَتَصِفُ وَاقِعَ النُّفُوسِ كَمَا هُوَ ... وَتَصِفُهُ كَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ... وَالقَصَّاصُ الإِسْلَامِيُّ حِينَ يَجْعَلُ النَّفْسَ الإِنْسَانِيَّةَ مَادَّةً لِقِصَّتِهِ وَيُسَخِّرُ فَنَّهُ الرَّفِيعَ لِهَذَا الغَرَضِ إِنَّمَا يَسْلُكُ سَبِيلَ القَصَصِ القُرْآنِيِّ أَيْضاً.

فَفِي الكِتَابِ العَزِيزِ قِصَّةٌ وَرَدَتْ سَبْعَ مَرَاتٍ هِيَ قِصَّةُ أَبِينَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ كَانَ لِإِيرَادِهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنَ الأَمْكِنَةِ السَّبْعَةِ غَرَضٌ تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ السُّورَةِ، وَيُحَدِّدُهُ السِّيَاقُ وَالسِّبَاقُ.

وَلَكِنَّ هَذَا التَّكْرَارَ إِنَّمَا يُوحِي بِكَمَالِ العِنَايَةِ الإِلَهِيَّةِ بِهَذَا الإِنْسَانِ الَّذِي كَرَّمَهُ اللَّهُ فَجَعَلَهُ مُسْتَخْلَفاً عَلَىٰ هَذِهِ الأَرْضِ، وَشَرَّفَهُ بِأَنْ خَصَّهُ وَحْدَهُ بِالتَّكْلِيفِ، وَزَوَّدَهُ بِمَا لَمْ يُزَوِّدْ بِهِ الكَائِنَاتِ الأُخْرَىٰ مِنَ العَقْلِ، وَمَنَحَهُ نَفْخَةً مِنْ رُوحِهِ، مِمَّا جَعَلَهُ جَدِيراً بِهَذِهِ العِنَايَةِ.

وَفِي قِصَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَرْضٌ لِنَوَازِعِ الخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ، وَإِبْرَازٌ لِلصِّرَاعِ القَائِمِ بَيْنَهَا، وَتَوْجِيهٌ وَتَسْدِيدٌ لِخُطَاهَا فِي دُرُوبِ الفَلَاحِ؛ حَتَّىٰ يَنْتَصِرَ خَيْرُ هَذِهِ النَّفْسِ عَلَىٰ شَرِّهَا، وَتَسْمُوَ قُوَّتُهَا عَلَىٰ ضَعْفِهَا.

فَقِصَّةُ الشَّجَرَةِ المُحَرَّمَةِ، وَوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاسْتِجَابَةُ آدَمَ لَهُ، ثُمَّ الصَّحْوَةُ بَعْدَ الغَفْوَةِ، وَالنَّدَمُ بَعْدَ الذَّنْبِ، وَطَلَبُ المَغْفِرَةِ بَعْدَ العِصْيَانِ، إِنَّمَا هِيَ قِصَّةُ الإِنْسَانِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

وَصَدَقَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذْ يَقُوْلُ :

(كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)(١).

وَيَقُولُ أَيْضاً :

(لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَىٰ شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا ، وَقَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةٌ عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ :

اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ)(٢).

* * *

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن ماجة ، والحاكم .

(٢) رواه مسلم .

الـمَسْرَحِيَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ

أَوَّلاً: الـمُقَدِّمَةُ

إِنَّ الأَخْطَارَ الاِجْتِمَاعِيَّةَ وَالثَّقَافِيَّةَ وَالفَنِّيَّةَ الَّتِي يُوَاجِهُهَا الـمُسْلِمُونَ اليَوْمَ تَكَادُ تَقْضِي عَلَىٰ وُجُودِهِمُ الذَّاتِيِّ قَضَاءً مُبْرَماً ، وَتُحَوِّلُهُمْ مِنْ أُمَّةٍ كَانَ النَّاسُ يَعِيشُونَ عَلَىٰ مَوَائِدِهَا السَّخِيَّةِ النَّقِيَّةِ إِلَىٰ شُعُوبٍ مُمَزَّقَةٍ تَعِيشُ عَلَىٰ فُتَاتِ مَوَائِدِ الآخَرِينَ .

وَلِذَا كَانَ عَلَىٰ القَصَّاصِينَ وَالمَسْرَحِيِّينَ الإِسْلَامِيِّينَ أَنْ يُجَنِّدُوا مَا حَبَاهُمُ اللَّهُ مِنْ مَوَاهِبَ لِمُعَالَجَةِ هَذِهِ الأَوْبَاءِ ، وَأَنْ يَعْمَلُوا عَلَىٰ إِثَارَةِ الشُّعُورِ بِالذَّاتِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي نُفُوسِ القُرَّاءِ وَالنَّظَّارَةِ ، وَأَنْ يُوَجِّهُوهُمْ إِلَىٰ الاِعْتِزَازِ بِالمُثُلِ الثَّمِينَةِ الَّتِي حَبَاهَا اللَّهُ لِلمُسْلِمِينَ ، وَالاِسْتِعْلَاءِ بِذَلِكَ كُلِّهِ عَلَىٰ الآخَرِينَ .

وَإِذَا كَانَ الـمُغْتَصِبُونَ قَدْ جَلَوْا عَنْ دِيَارِ المُسْلِمِينَ بِجُيُوشِهِمُ الجَرَّارَةِ ، وَأَسْلِحَتِهِمُ الفَتَّاكَةِ ، فَإِنَّهُمْ قَدِ اسْتَقَرُّوا فِيهَا بِأَفْكَارِهِمُ الهَدَّامَةِ ، وَتَوْجِيهَاتِهِمُ الـمُدَمِّرَةِ .

وَإِذَا كَانَ حُكَّامُهُمْ قَدْ غَادَرُوهَا فَإِنَّهُمْ قَدْ أَحَلُّوا مَحَلَّهُمْ مَنْ لَا يَقِلُّ عَنْهُمْ إِخْلَاصاً لِآرَائِهِمْ ، وَتَحْقِيقاً لِأَهْدَافِهِمُ القَرِيبَةِ وَالبَعِيدَةِ .

إِنَّ عَلَىٰ الأُدَبَاءِ الإِسْلَامِيِّينَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الطَّاقَةَ عَلَىٰ إِعْدَادِ المَسْرَحِيَّاتِ وَالـمُسَلْسَلَاتِ الإِذَاعِيَّةِ وَالمَرْئِيَّةِ « التِّلْفِزْيُونِيَّةِ » أَنْ يُوقِنُوا بِأَنَّهُمْ قَدْ أَصْبَحُوا اليَوْمَ فِي طَلِيعَةِ المَسْؤُولِينَ أَمَامَ اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَنْ يَتَحَوَّلُوا إِلَىٰ دُعَاةٍ يَسْتَوْحُونَ

مَوْضُوعَاتِهِمْ مِنْ قَضَايَا المُسْلِمِينَ الكُبْرَىٰ ، وَأَنْ يُجَنِّدُوا أَعْمَالَهُمُ الأَدَبِيَّةَ لِخِدْمَةِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ ، وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ أَفْكَارِهِمْ وَاتِّجَاهَاتِهِمْ .

لَقَدْ سَخَّرَ « بِرنَارد شُو » كَثِيراً مِنْ أَعْمَالِهِ المَسْرَحِيَّةِ الرَّائِعَةِ لِخِدْمَةِ أَفْكَارِهِ وَاتِّجَاهَاتِهِ ، وَهُوَ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ إِلَّا لِثِقَتِهِ البَالِغَةِ بِأَنَّ المَسْرَحَ أَدَاةٌ فَعَالَةٌ فِي نُفُوسِ النَّظَّارَةِ ، وَمِنْبَرٌ فَذٌّ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ المَبَادِئِ وَالتَّبْشِيرِ بِالمُعْتَقَدَاتِ[1] .

وَقَدْ شَارَكَهُ فِي نَظْرَتِهِ هَذِهِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الكُتَّابِ المَسْرَحِيِّينَ فِي أُورُبَّا الغَرْبِيَّةِ وَالشَّرْقِيَّةِ .

فَهَلْ نَحْذُو حَذْوَ هَؤُلَاءِ الأُدَبَاءِ المُلْتَزِمِينَ ، وَنُجَنِّدُ وَسَائِلَ إِعْلَامِنَا بِعَامَّةٍ وَالرَّائِي « التِّلْفِزْيُونَ » بِخَاصَّةٍ لِإِيقَاظِ مَا غَفَا مِنْ ثَرْوَتِنَا الرُّوحِيَّةِ ، وَالنُّهُوضِ بِمَا كَبَا[2] مِنْ خِلَالِنَا الإِسْلَامِيَّةِ ، وَالأَخْذِ بِأَيْدِي شَبَابِنَا وَشَابَّاتِنَا إِلَىٰ الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ الَّذِي يُرْضِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؟ .

هَلْ فِي وُسْعِنَا أَنْ نُقَدِّمَ لِأَبْنَائِنَا وَبَنَاتِنَا ـ مِنْ خِلَالِ المِذْيَاعِ وَالرَّائِي ـ صُوَراً مُشْرِقَةً مُثِيرَةً مِنْ تَعَالِيمِ الإِسْلَامِ السَّمْحَةِ ، وَمَوَاقِفِهِ الفَذَّةِ ، وَلَآلِئِهِ المَكْنُونَةِ فِي كُلِّ مَجَالٍ مِنْ مَجَالَاتِ الحَيَاةِ ؟ .

إِنَّ جِهَازَ الرَّائِي نِعْمَةٌ كُبْرَىٰ مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ الكَثِيرَةِ الوَفِيرَةِ الَّتِي تَفَضَّلَ اللَّهُ بِهَا عَلَىٰ الإِنْسَانِ لِتَكُونَ أَدَاةً طَيِّعَةً لِتَوْسِيعِ آفَاقِهِ ، وَوَسِيلَةً مُيَسَّرَةً لِإِغْنَاءِ فِكْرِهِ وَإِرْهَافِ مَشَاعِرِهِ ، لَكِنَّهُ غَدَا أَدَاةً لِشَقَاءِ الإِنْسَانِ المُسْلِمِ وَبَلَائِهِ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ

---

(١) انظر الموسوعة العربية المُيَسَّرة : « جورج برنارد شو » Goerge Bernard Shaw و« فن المَسْرَحِيَّة من خلال تجاربي الشخصية » لعلي أحمد باكثير الصفحة ٣٦.

(٢) كَبَا : تعثر وانكفأ عَلَىٰ الأرض.

مَا طَفَحَ بِهِ مِنَ العَلَاقَاتِ الجِنْسِيَّةِ المُحَرَّمَةِ ، وَالِانْحِرَافَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الضَّالَّةِ ، وَالآرَاءِ العِلْمِيَّةِ المُنْحَرِفَةِ .

لَقَدْ كَانَتْ الأُمِّيَّةُ - الَّتِي هِيَ شَرٌّ فِي ذَاتِهَا - تَحُولُ دُونَ كَثِيرٍ مِنْ رِجَالِنَا وَنِسَائِنَا وَدُونَ قِرَاءَةِ هَذِهِ المُوبِقَاتِ المَكْتُوبَةِ .

فَلَمَّا انْتَشَرَ المِذْيَاعُ وَالرَّائِي مَعاً سَاوَيَا بَيْنَ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ وَالَّذِينَ لَا يَقْرَءُونَ حَيْثُ جَعَلَاهَا مَسْمُوعَةً مَرْئِيَّةً بَدَلاً مِنْ أَنْ تَكُونَ مَكْتُوبَةً مَقْرُوءَةً .

وَرُبَّ قَائِلٍ يَقُولُ : إِنَّ المُسْلِمِينَ لَمْ يَأْبَهُوا لِلمَسْرَحِ وَالمَسْرَحِيَّةِ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَعَلَىٰ عَهْدِ أَصْحَابِهِ وَتَابِعِيهِمْ وَتَابِعِي تَابِعِيهِمْ ، وَلَمْ يَهْتَمُّوا بِذَلِكَ الأَمْرِ ، فَبِمَ تُعَلِّلُونَ ذَلِكَ ؟ ...

وَالَّذِي يَبْدُو لَنَا أَنَّ لِذَلِكَ سَبَبَيْنِ اثْنَيْنِ :

أَوَّلُهُمَا : أَنَّ هَذَا الفَنَّ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفاً عِنْدَ العَرَبِ فِي الجَاهِلِيَّةِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ عَرَفُوهُ لَاتَّخَذَ مِنْهُ الإِسْلَامُ مَوْقِفاً وَاضِحاً بَيِّناً ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأُمُورِ .

فَإِمَّا أَنْ يَقْبَلَهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَرْفُضَهُ ، وَإِمَّا أَنْ يُعَدِّلَهُ تَعْدِيلاً يَتَّفِقُ مَعَ الإِسْلَامِ وَيَخْدُمُهُ .

وَثَانِيهُمَا : أَنَّ وَسَائِلَ الإِعْلَامِ الَّتِي انْتَشَرَتِ اليَوْمَ فِي أَرْجَاءِ المَعْمُورَةِ ، وَغَزَتْ دِيَارَ المُسْلِمِينَ مِنْ أَقْصَاهَا إِلَىٰ أَقْصَاهَا ، لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً فِي المَاضِي ، وَلَوْ وُجِدَتْ لَاتَّخَذَ المُسْلِمُونَ مِنْهَا بِعَامَّةٍ ، وَمِنْ هَذَا المَوْضُوعِ بِخَاصَّةٍ ، مَوْقِفاً صَرِيحاً وَاضِحاً .

ثَانِياً : تَعْرِيفُ الـمَسْرَحِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ ، وَطَرِيقَةُ بِنَائِهَا

« المَسْرَحِيَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ فَنٌّ يَقُومُ عَلَىٰ القَوَاعِدِ الأَسَاسِيَّةِ لِلْمَسْرَحِ مُبْتَعِداً عَمَّا يُخَالِفُ الإِسْلَامَ وَقِيَمَهُ ، وَهِيَ تَعْرِضُ عَلَىٰ جُمْهُورِ النَّظَّارَةِ شَأْناً مِنَ الشُّؤُونِ الهَامَّةِ الَّتِي تُوَافِقُ الإِسْلَامَ أَوْ تُخَالِفُهُ ، وَذَلِكَ لِيَلْتَزِمَ الـمُشَاهِدُونَ بِمَا يَتَّفِقُ مَعَ دِينِ اللَّهِ ، وَيُعْرِضُوا عَمَّا يُخَالِفُهُ عَنْ قَنَاعَةٍ » .

هَذَا وَإِنَّ البِنَاءَ الـمُحْكَمَ لِلمَسْرَحِيَّةِ النَّاجِحَةِ هُوَ الَّذِي يَلْتَزِمُ بِالشَّكْلِ الهَرَمِيِّ ، حَيْثُ يَبْدَأُ بِعَرْضِ الأَزْمَةِ وَشَخْصِيَّاتِهَا الفَعَّالَةِ ، وَبَيَانِ العِلَاقَاتِ القَائِمَةِ بَيْنَهَا ...

ثُمَّ يَأْخُذُ بِالنُّمُوِّ وَالصُّعُودِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ قِمَّةَ الهَرَمِ ...

ثُمَّ يَبْدَأُ بِالِانْحِدَارِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَىٰ أَنْ يُحَلَّ حَلًّا يَتَّفِقُ مَعَ مَبَادِئِ الإِسْلَامِ وَقِيَمِهِ .

ثَالِثاً : الفُرُوقُ الكُبْرَىٰ بَيْنَ الـمَسْرَحِيَّةِ وَالقِصَّةِ

لِلاسْتِزَادَةِ مِنْ إِيضَاحِ طَبِيعَةِ الـمَسْرَحِيَّةِ وَأُسُسِهَا لَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نُبْرِزَ الفُرُوقَ الجَوْهَرِيَّةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ القِصَّةِ ، وَتَتَجَلَّىٰ هَذِهِ الفُرُوقُ فِي الأُمُورِ التَّالِيَةِ :

١ ـ إِنَّ المَسْرَحِيَّةَ مُقَيَّدَةٌ بِزَمَنٍ مَحْدُودٍ هُوَ زَمَنُ التَّمْثِيلِ ، وَيَتَرَاوَحُ هَذَا الزَّمَنُ بَيْنَ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ وَأَرْبَعِ سَاعَاتٍ عَلَىٰ الأَكْثَرِ ، وَلِذَا فَهِيَ تَقْتَصِرُ عَلَىٰ أَبْرَزِ الحَوَادِثِ وَأَهَمِّهَا ، فَتَطْوِي بَعْضَهَا ، وَتُجْمِلُ بَعْضَهَا الآخَرَ .

أَمَّا القِصَّةُ فَكَثِيراً مَا تَقُومُ عَلَىٰ الإِطْنَابِ وَالتَّوَسُّعِ اللَّذَيْنِ يَفْتَحَانِ أَمَامَهَا كَثِيراً مِنَ الأَبْوَابِ الـمُغْلَقَةِ ، فَتَقَعُ أَحْيَاناً فِي مُجَلَّدٍ كَبِيرٍ ، وَأَحْيَاناً أُخْرَىٰ فِي عَدَدٍ مِنَ الـمُجَلَّدَاتِ .

٢ ـ وَالمَسْرَحِيَّةُ مُقَيَّدَةٌ بِالمَكَانِ كَمَا هِيَ مُقَيَّدَةٌ بِالزَّمَانِ ، فَالمَسْرَحُ هُوَ المَجَالُ الَّذِي تَقَعُ حَوَادِثُهَا فِيهِ ، وَهُوَ مَجَالٌ مَحْدُودٌ ، بَيْنَمَا فِي وُسْعِ القِصَّةِ أَنْ تَقَعَ فِي الأَجْوَاءِ ، وَالبِحَارِ ، وَالبَرَارِي ، وَفَوْقَ شَوَامِخِ الجِبَالِ ...

٣ ـ وَالمَسْرَحِيَّةُ مَقَيَّدَةٌ بِقُدْرَاتِ المُمَثِّلِينَ عَلَىٰ الحَرَكَةِ ، وَالقِيَامِ بِمَا أُسْنِدَ إِلَيْهِمْ مِنْ عَمَلٍ ، وَذٰلِكَ فِي حُدُودِ إِمْكَانَاتِهِمُ البَشَرِيَّةِ .

وَالقِصَّةُ لَا تَتَقَيَّدُ بِشَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ ، لِأَنَّ المَسْرَحِيَّةَ مَنْظُورَةٌ وَالقِصَّةَ مَقْرُوءَةٌ .

٤ ـ وَالمَسْرَحِيَّةُ مُرْتَبِطَةٌ بِالنَّظَّارَةِ ...

وَالنَّظَّارَةُ شَدِيدُو الِاعْتِمَادِ عَلَىٰ الحَرَكَةِ الحِسِّيَّةِ المَرْئِيَّةِ ، وَالِانْفِعَالِ بِهَا .

أَمَّا القِصَّةُ فَمُرْتَبِطَةٌ بِالقُرَّاءِ ...

وَالقُرَّاءُ يَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ الكَلِمَةِ المَكْتُوبَةِ وَيَتَأَثَّرُونَ بِهَا .

٥ ـ وَالمَسْرَحِيَّةُ بِسَبَبِ مَا ذَكَرْنَاهُ آنِفاً تَحْتَاجُ إِلَىٰ مُخْرِجٍ مَوْهُوبٍ يَتَمَتَّعُ بِطَاقَاتٍ فَنِّيَّةٍ خَاصَّةٍ تُمَكِّنُهُ مِنَ الِاسْتِعَاضَةِ عَنِ الجُمْلَةِ بِالحَرَكَةِ ، وَعَنِ الخَاطِرَةِ بِالحَادِثَةِ ، وَذٰلِكَ أَمْرٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ القِصَّةُ .

٦ ـ وَالمَسْرَحِيَّةُ ذَاتُ قَالَبٍ وَاحِدٍ يَلْتَزِمُ بِهِ كُتَّابُ المَسْرَحِيَّاتِ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُدْخِلُوا عَلَيْهِ كَثِيراً مِنَ التَّعْدِيلِ .

أَمَّا القِصَّةُ فَفِي وُسْعِ كَاتِبِهَا أَنْ يُقَدِّمَهَا فِي قَوَالِبَ مُتَعَدِّدَةٍ بِحَيْثُ تَكُونُ عَلَىٰ شَكْلِ مُذَكِّرَاتٍ ، أَوْ يَوْمِيَّاتٍ ، أَوْ رِحْلَاتٍ ، أَوْ رَسَائِلَ مُتَبَادَلَةٍ ، أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ .

٧ ـ وَالمَسْرَحِيَّةُ القَائِمَةُ عَلَىٰ « المَأْسَاةِ » بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَىٰ العُقَدِ الَّتِي تَدُورُ الحَوَادِثُ حَوْلَهَا ، وَيَتَطَوَّرُ المَوْضُوعُ وَيَنْمُو بِسبَبِهَا ، كَمَا هِيَ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ الصِّرَاعِ العَنِيفِ الَّذِي يَحْتَدِمُ بَيْنَ شُخُوصِهَا .

وَلِتَحْقِيقِ ذَلِكَ تُبْتَدَعُ لَهَا المَوَاقِفُ وَالعُقَدُ الَّتِي تُثِيرُ النَّظَّارَةِ وَتَشُدُّهُمْ إِلَيْهَا شَدًّا .

أَمَّا القِصَّةُ فَلَا تَحْتَاجُ دَائِماً إِلَىٰ العُقَدِ وَالصِّرَاعِ ، وَلَا تَعْتَمِدُ عَلَىٰ ذَلِكَ كُلَّ الاِعْتِمَادِ .

٨ ـ ثُمَّ إِنَّ كُلًّا مِنَ المَسْرَحِيَّةِ وَالقِصَّةِ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ الحَرَكَةِ المُتَطَوِّرَةِ الَّتِي تَرْبِطُ بَيْنَ أَجْزَائِهَا بِرِبَاطٍ مَتِينٍ ، غَيْرَ أَنَّ الحَرَكَةَ فِي المَسْرَحِيَّةِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ سَرِيعَةً مُتَحَفِّزَةً مُتَوَثِّبَةً كَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ .

أَمَّا الحَرَكَةُ فِي القِصَّةِ فَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ بَطِيئَةً مَرِنَةً .

رَابِعاً : عَنَاصِرُ المَسْرَحِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ

تَتَأَلَّفُ المَسْرَحِيَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ مِنْ عَنَاصِرَ خَمْسَةٍ يُمْكِنُ إِجْمَالُهَا فِيمَا يَلِي :

١ ـ الفِكْرَةُ الأَسَاسِيَّةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَنْبُعَ مِنْ قَضِيَّةٍ إِسْلَامِيَّةٍ وَاحِدَةٍ وَاضِحَةِ المَعَالِمِ ، بَيِّنَةِ المَقَاصِدِ ، مُحَدَّدَةِ الأَهْدَافِ .

غَيْرَ أَنَّهُ فِي وُسْعِ الأَدِيبِ الإِسْلَامِيِّ وَغَيْرِهِ أَنْ تَتَعَدَّدَ عِنْدَهُمَا القَضَايَا إِذَا كَانَتْ مُتَرَابِطَةً مُتَكَامِلَةً بِحَيْثُ تَكُونُ كُلُّ قَضِيَّةٍ نَتِيجَةً لِمَا قَبْلَهَا ، وَسَبَباً لِمَا بَعْدَهَا .

أَمَّا القَضَايَا الَّتِي يَنْفَصِلُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضِهَا الآخَرِ فِي الوِحْدَةِ الفِكْرِيَّةِ

أَوْ فِي الزَّمَنِ ؛ فَإِنَّهَا تُقَوِّضُ أَرْكَانَ العَمَلِ المَسْرَحِيِّ سَوَاءٌ أَكَانَ إِسْلَامِيًّا أَمْ غَيْرَ إِسْلَامِيٍّ .

٢ ـ المَوْضُوعُ ، فَإِنَّ لَدَىٰ الكَاتِبِ الإِسْلَامِيِّ مَجَالاً رَحْباً لِاخْتِيَارِ المَوْضُوعَاتِ المَسْرَحِيَّةِ وَالقَصَصِيَّةِ لَا نَحْسِبُ أَنْ غَيْرَهُ يَحْظَىٰ بِمِثْلِهِ .

فَأَمَامَهُ المُجْتَمَعُ الإِسْلَامِيُّ بِجَلِيلِ خَصَائِصِهِ الفَذَّةِ السَّامِيَةِ ، وَنَبِيلِ خَصَائِلِهِ الفَرِيدَةِ الرَّائِعَةِ .

وَأَمَامَهُ التَّارِيخُ الإِسْلَامِيُّ المَاضِي بِعُمْقِهِ وَصِدْقِهِ وَسُمُوِّهِ وَغِنَىٰ أَحْدَاثِهِ .

وَأَمَامَهُ التَّارِيخُ الإِسْلَامِيُّ الحَاضِرُ بِنَكَبَاتِهِ وَرَزَايَاهُ ، وَمَا حَفِلَ بِهِ مِنَ المَوَاقِفِ الثَّمِينَةِ الَّتِي أَضَاءَتْ بَعْضَ ظُلُمَاتِ حَيَاةِ المُسْلِمِينَ ، وَأَبْقَتْ شُعْلَةَ الخَيْرِ مُتَّقِدَةً فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ .

وَهُنَا لَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نُشِيرَ إِلَىٰ أَنَّ المَوْضُوعَاتِ التَّارِيخِيَّةَ تَنْقَسِمُ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ اثْنَيْنِ :

● أَوَّلُهُمَا مَا كَانَ مُتَّصِلاً بِسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَبِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَسِيَرِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

فَلَيْسَ مِنْ حَقِّ الأَدِيبِ الإِسْلَامِيِّ أَنْ يُعَدِّلَ فِي هَذَا القِسْمِ أَوْ يُبَدِّلَ ، أَوْ يَزِيدَ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ عِنْدِهِ قَلِيلاً كَانَ هَذَا المَزِيدُ أَمْ كَثِيراً .

وَكُلُّ مَا يُبَاحُ لَهُ ـ فِي نَظَرِنَا ـ أَنْ يُقَدِّمَ مِنْهُ مَا يَرَىٰ تَقْدِيمَهُ ، وَأَنْ يُؤَخِّرَ مِنْهُ مَا يَرَىٰ تَأْخِيرَهُ ...

وَأَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ مَا يُحَقِّقُ غَرَضَهُ الفَنِّيَّ ، وَأَنْ يَتْرُكَ مِنْهُ مَا لَا حَاجَةَ لَهُ بِهِ .

وَأَنْ يَضَعَ نُصْبَ عَيْنَيهِ عَلَىٰ الدَّوَامِ قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ عَامِداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)[1].

● أَمَّا القِسْمُ الثَّانِي الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِتَارِيخِنَا الإِسْلَامِيِّ ، فَإِنَّ مُهِمَّةَ الأُدَبَاءِ المَسْرَحِيِّينَ وَالقَصَصِيِّينَ لَا تَقُومُ عَلَىٰ عَرْضِ التَّارِيخِ لِتَعْرِيفِ النَّاسِ بِهِ ، فَكُتُبُ التَّارِيخِ أَقْدَرُ مِنْهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ .

وَإِنَّمَا تَقُومُ عَلَىٰ اخْتِيَارِ التَّجَارِبِ الفَذَّةِ مِنْهُ ، وَذَلِكَ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ مُشْكِلَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ أَوِ اجْتِمَاعِيَّةٍ تَشْغَلُهُمْ ، وَتَشْغَلُ أَبْنَاءَ عَصْرِهِمْ .

عَلَىٰ أَنَّ حُرِّيَةَ كُتَّابِ المَسْرَحِيَّةِ وَالقِصَّةِ فِي التَّصَرُّفِ فِي أَحْدَاثِ التَّارِيخِ قَلِيلَةٌ ، فَفِي وُسْعِهِمْ أَنْ يَبْتَدِعُوا لِمَوَاقِفِهِ الَّتِي لَا رَوَابِطَ بَيْنَهَا مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الرَّوَابِطِ ، وَأَنْ يُتَمِّمُوا نَوَاقِصَهُ بِمَا يُكْمِلُهَا ، عَلَىٰ أَلَّا يُؤَثِّرَ ذَلِكَ فِي طَبِيعَتِهِ ، وَلَا يُغَيِّرَ شَيْئًا مِنْ حَقِيقَتِهِ .

فَإِذَا زَادُوا عَلَىٰ ذَلِكَ حُكِمَ عَلَىٰ عَمَلِهِمْ بِالتَّزْوِيرِ[2].

هَذَا وَإِنَّ الأُدَبَاءَ المَسْرَحِيِّينَ وَالقَصَّاصِينَ يَمْلِكُونَ الحُرِّيَةَ الرَّحْبَةَ فِي تَفْسِيرِ التَّارِيخِ ، وَتَوضِيحِ بَوَاعِثِهِ عَلَىٰ النَّحْوِ الَّذِي يَخْدُمُ أَهْدَافَهُمُ الإِسْلَامِيَّةَ النَّبِيلَةَ ، وَمَرَامِيَهُمُ الإِيمَانِيَّةَ السَّامِيَةَ .

كَمَا أَنَّ لَهُمُ الحُرِّيَةَ المُطْلَقَةَ فِي إِبْرَازِ الأَحْدَاثِ وَالشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي لَمْ يُولِهَا التَّارِيخُ مَا تَسْتَحِقُّهُ مِنَ العِنَايَةِ .

ثُمَّ إِنَّ الشَّخْصِيَاتِ كَثِيراً مَا تَكُونُ مُتَعَدِّدَةَ الجَوَانِبِ مُتَنَوِّعَةَ النَّشَاطِ ، وَفِي

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) انظر فن المَسْرَحِيَّة للدكتور محمد مندور.

وُسْعِ الأَدِيبِ الإِسْلَامِيِّ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ ذَلِكَ مَا يُحَقِّقُ دَعْوَتَهُ ، وَأَنْ يُهْمِلَ مَا عَدَاهُ .

٣ ـ رَسْمُ الشَّخْصِيَّةِ الـمَسْرَحِيَّةِ ، لَا بُدَّ لِلْكَاتِبِ الإِسْلَامِيِّ مِنْ أَنْ يَعِيشَ بِذِهْنِهِ مَعَ أَشْخَاصِ مَسْرَحِيَّتِهِ بُرْهَةً كَافِيَةً وَافِيَةً مِنَ الزَّمَنِ ، وَأَنْ يَعْمَلَ عَلَىٰ تَصَوُّرِ السِّمَاتِ الأَرْبَعَةِ التَّالِيَةِ عِنْدَ كُلٍّ مِنْهُمْ وَتَحْدِيدِهَا ، وَهِيَ :

- السِّمَةُ الدِّينِيَّةُ .
- وَالسِّمَةُ الاِجْتِمَاعِيَّةُ وَالثَّقَافِيَّةُ .
- وَالسِّمَةُ الجَسَدِيَّةُ .
- وَالسِّمَةُ النَّفْسِيَّةُ .

فَعَلَىٰ تَصَوُّرِ هَذِهِ السِّمَاتِ وَتَحْدِيدِهَا يَتَوَقَّفُ نَجَاحُ الكَاتِبِ المَسْرَحِيِّ ... كَمَا يَتَوَقَّفُ نَجَاحُ المُخْرِجِ .

وَمَا يُقَالُ عَنِ المَسْرَحِيَّةِ يُقَالُ عَنِ القِصَصِ وَالمُسَلْسَلَاتِ الإِذَاعِيَّةِ وَالمَرْئِيَّةِ .

وَسَنَعْرِضُ كُلَّ سِمَةٍ مِنْ هَذِهِ السِّمَاتِ بِشَيْءٍ مِنَ الإِيضَاحِ وَالتَّفْصِيلِ .

أَمَّا السِّمَةُ الدِّينِيَّةُ : فَتَتَنَاوَلُ صَلَاحَ الشَّخْصِ أَوْ طَلَاحَهُ ، وَصِدْقَ تَدَيُّنِهِ أَوْ نِفَاقَهُ ، وَعُمْقَ إِيمَانِهِ أَوْ سَطْحِيَّتَهُ ، وَصَلَابَةَ الْتِزَامِهِ أَوْ ضَعْفَهُ .

وَأَمَّا السِّمَةُ الاِجْتِمَاعِيَّةُ وَالثَّقَافِيَّةُ : فَتَتَنَاوَلُ المُحِيطَ الَّذِي نَشَأَ فِيهِ ، وَالتَّرْبِيَةَ الَّتِي رُبِّيَ عَلَيْهَا ، وَالطَّبَقَةَ الَّتِي يَنْتَمِي إِلَيْهَا ، وَالعَمَلَ الَّذِي يُزَاوِلُهُ ، وَمَدَىٰ ثَقَافَتِهِ العَامَّةِ ، وَمَبْلَغَ عِلْمِهِ الخَاصِّ .

وَأَمَّا السِّمَةُ الجَسَدِيَّةُ : فَتَتَنَاوَلُ قَامَتَهُ مِنْ حَيْثُ طُولُهَا أَوْ قِصَرُهَا ، وَبُنْيَتَهُ

مِنْ حَيْثُ قُوَّتُهَا أَوْ ضَعْفُهَا ، وَأَعْضَاءَهُ مِنْ حَيْثُ سَلَامَتُهَا مِنَ العَاهَاتِ أَوِ ابْتِلَاؤُهَا بِبَعْضِهَا .

وَأَمَّا السِّمَةُ النَّفْسِيَّةُ : فَتَتَكَوَّنُ مِنَ السِّمَاتِ الثَّلَاثِ السَّابِقَةِ ، وَتُخَلِّفُ فِي الذَّاتِ الإِنْسَانِيَّةِ طِبَاعَهَا وَمُيُولَهَا وَمِزَاجَهَا ، وَخَصَائِصَهَا السَّلْبِيَّةَ وَالإِيجَابِيَّةَ .

وَكُلَّمَا تَعَمَّقَ الكَاتِبُ المَسْرَحِيُّ فِي تَحْدِيدِ أَشْخَاصِ مَسْرَحِيَّتِهِ ، وَنَفَذَ إِلَىٰ دَقَائِقِ حَيَاتِهِمْ ارْتَفَعَ المُسْتَوَىٰ الفَنِّيُّ لِعَمَلِهِ ، وَعَظُمَ تَأْثِيرُهُ فِي النُّظَّارَةِ الَّذِينَ يُشَاهِدُونَ مَسْرَحِيَّتَهُ ، وَفِي القُرَّاءِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَهَا .

وَمَا يُقَالُ عَنِ المَسْرَحِيَّةِ فِي هَذَا المَجَالِ يُقَالُ عَنِ القِصَصِ وَالمُسَلْسَلَاتِ وَنَحْوِهَا .

وَقَبْلَ أَنْ نَنْتَقِلَ إِلَىٰ العُنْصُرِ الرَّابِعِ يَجْدُرُ بِنَا أَنْ نُقَدِّمَ صُورَةً لِلْبَطَلِ فِي بَعْضِ الأَعْمَالِ المَسْرَحِيَّةِ القَائِمَةِ عَلَىٰ « المَلْهَاةِ »[1].

فَذَلِكَ البَطَلُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ فِي كَثِيرٍ مِنْهَا سَيِّئَ السِّيرَةِ ، عَفِنَ السَّرِيرَةِ ، يَتَحَرَّكُ بَيْنَ النَّاسِ وَفِي صَدْرِهِ نَزَوَاتٌ تَنْهَشُ فُؤَادَهُ نَهْشاً ... وَفِي عَيْنَيْهِ نَظَرَاتٌ تَحْرِقُ الأَخْضَرَ وَاليَابِسَ ... وَفِي قَلْبِهِ أَطْمَاعٌ لَا يُشْبِعُهَا مَالُ الدُّنْيَا كُلُّهُ ...

فَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يَضَعَ يَدَيْهِ عَلَىٰ تِلْكَ الثَّرْوَةِ الَّتِي أَفَاءَ اللَّهُ بِهَا عَلَىٰ وَلِيِّ نِعْمَتِهِ ... وَأَنْ يَخْطِفَ ذَلِكَ المَنْصِبَ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ أَحَدُ زُمَلَائِهِ بِجِدِّهِ وَجِهَادِهِ ... وَأَنْ يَتَزَوَّجَ تِلْكَ المَرْأَةَ الغَنِيَّةَ الَّتِي لَا يَكُونُ كُفْئًا لَهَا ...

---

(١) المَلْهَاة : مسرحية منظومة أو منثورة ، تصف معايب النَّاس ورذائلهم بقصد السخرية والضحك .

وَلَمَّا كَانَتِ الصِّفَاتُ النَّفْسِيَّةُ شَدِيدَةَ التَّأْثِيرِ عَلَىٰ الصِّفَاتِ السُّلُوكِيَةِ ، فَإِنَّ هَذَا البَطَلَ سَتَظْهَرُ عَلَيْهِ أَمَارَاتُ الوَضَاعَةِ وَالخِسَّةِ ، وَسَيَبْدُو ذَلِكَ فِي نَظَرَاتِهِ الشَّرِهَةِ ... وَالْتِفَاتَاتِهِ القَلِقَةِ ، وَابْتِسَامَاتِهِ الْمُرْتَابَةِ ...

فَتُحِسُّ - وَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ - كَأَنَّ أَمَامَكَ مُجْرِماً قَدْ نَفَضَ يَدَيْهِ الآنَ مِنْ تُرَابِ جَرِيمَتِهِ ، أَوْ هُوَ يَسْتَعِدُّ لِلْوُقُوعِ بِهَا[1].

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ طَبِيعَةَ المَسْرَحِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ تُوجِبُ عَلَيْنَا بِأَنْ نَخْتِمَ حَيَاةَ هَذَا البَطَلِ بِالبَوَارِ وَالخُسْرَانِ ﴿ **فَمَنْ يَعمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾[2].

٤ ـ **الصِّرَاعُ المَسْرَحِيُّ**، ذَلِكَ أَنَّ المَسْرَحِيَّةَ تَقُومُ عَلَىٰ ضَرْبٍ مِنَ الصِّرَاعِ العَنِيفِ بَيْنَ المُمَثِّلِينَ كَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ .

وَذَلِكَ الصِّرَاعُ يَنْبَعِثُ مِنْ تَبَايُنِ الأَشْخَاصِ وَتَنَاقُضِهِمْ شَرِيطَةَ أَنْ يَنْشَأَ عَنْ ذَلِكَ تَلَاحُمٌ وَتَوَازُنٌ يُفْضِيَانِ إِلَىٰ تَحْقِيقِ الهَدَفِ الَّذِي تَرْمِي إِلَيْهِ المَسْرَحِيَّةُ .

ثُمَّ إِنَّ أَفْضَلَ ضُرُوبِ الصِّرَاعِ المَسْرَحِيِّ وَأَكْمَلَهَا مَا يَجْرِي بَيْنَ الأَشْخَاصِ لَا مَا يَجْرِي بَيْنَ الأَفْكَارِ المُجَرَّدَةِ ...

فَالإِنْسَانُ إِنَّمَا يُسْتَثَارُ عَنْ طَرِيقِ المُشَارَكَةِ الوِجْدَانِيَةِ لِأَخِيهِ الإِنْسَانِ .

أَمَّا المَعَانِي الفِكْرِيَّةُ المُجَرَدَةُ فَقَدْ تُدَاعِبُ الأَذْهَانَ وَالأَحَاسِيسَ ، وَلَكِنَّهَا لَا تَسْتَثِيرُهَا .

---

(١) انظر البحث الَّذِي أعده حسين علي محمد وعنوانه : « نظرة إيمانية للصِّرَاع الدرامي والشخصية في الأدب المسرحي » ونال عَلَيْهِ جائزة دار البحوث العلمية في الكويت .

(٢) سورة الزلزلة : ٧ - ٨.

وَلِكَيْ يَحْتَدِمَ الصِّرَاعُ وَيَسْتَمِرَّ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ بَيْنَ الشُّخُوصِ شَخْصِيَّةٌ مِحْوَرِيَّةٌ تَتَّسِمُ بِالْقُوَّةِ ، وَالِالْتِزَامِ بِمَا تَدِينُ بِهِ ، وَالعَمَلِ عَلَىٰ تَحْقِيقِهِ أَوِ المَوْتِ فِي سَبِيلِهِ .

وَتَكُونُ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةُ فِي الغَالِبِ قَلِيلَةَ التَّطَوُّرِ عَلَىٰ المَسْرَحِ لِأَنَّهَا تَكُونُ بَالِغَةً أَوْجَ اكْتِمَالِهَا وَنُضْجِهَا مُنْذُ البِدَايَةِ .

غَيْرَ أَنَّ هَذَا النُّضْجَ وَالِاكْتِمَالَ يَحْسُنُ أَنْ يَظْهَرَا عَلَىٰ المَسْرَحِ شَيْئًا فَشَيْئًا لِيَزِيدَا النُّظَّارَةَ تَعَلُّقاً بِهَا ، وَإِكْبَاراً لَهَا ، وَتَمَنِّياً بِأَنْ تَعْلُوَ كَلِمَتُهَا عَلَىٰ الآخَرِينَ . وَيُطْلِقُ المَسْرَحِيُّونَ عَلَىٰ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ لَقَبَ البَطَلِ .

هَذَا وَإِنَّ البَطَلَ فِي المَسْرَحِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ يَتَّسِمُ بِالسِّمَاتِ التَّالِيَةِ :

« فَهُوَ خَيِّرٌ بِطَبْعِهِ ، وَيَتَمَتَّعُ بِسُلْطَانٍ أَدَبِيٍّ عَلَىٰ أَشْخَاصِ المَسْرَحِيَّةِ .

ثُمَّ إِنَّ ذَوِي قُرْبَاهُ وَمَعَارِفَهُ الكُثْرَ وَأَبْنَاءَ مُجْتَمَعِهِ يُلْقُونَ عَلَىٰ عَاتِقِهِ أَعْبَاءَهُمُ الَّتِي يَضِيقُونَ بِهَا ، وَيَتْرُكُونَ لَهُ تَقْرِيرَ مَصَائِرِهِمُ الَّتِي لَا يَمْلِكُونَ القُدْرَةَ عَلَىٰ تَقْرِيرِهَا . وَذَلِكَ بِمَحْضِ اخْتِيَارِهِمْ لَهُ ، وَثِقَتِهِمْ بِهِ بِحَيْثُ يَكُونُ هُوَ الرَّاعِي وَهُمُ الرَّعِيَّةُ ، وَيَغْدُو مَلِكَهُمْ غَيْرَ المُتَوَّجِ .

وَتَتَمَثَّلُ مَلَكِيَّتُهُ فِي قَلْبِهِ الزَّكِيِّ ، وَوِجْدَانِهِ النَّقِيِّ ، وَكَفِّهِ السَّخِيِّ ، وَمَهَابَتِهِ وَإِكْبَارِهِ .

وَبِذَلِكَ يَغْدُو ضَرُورَةً مِنْ ضَرُورَاتِ مُجْتَمَعِهِ لِأَنَّهُ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ بَقَائِهِ ، وَوَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ ارْتِقَائِهِ[1].

---

(١) انظر المسرح الإسلامي : إنساناً وصِراعاً لجمال الدين محمد شلبي .

وَيُعْتَبَرُ الصِّرَاعُ فِي المَسْرَحِيَّةِ مِنْ أَهَمِّ عَنَاصِرِهَا الفَنِّيَّةِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ العُنْصُرُ الَّذِي يُمَيِّزُهَا عَنْ غَيْرِهَا مِنْ فُنُونِ الأَدَبِ ، وَهُوَ الَّذِي يُسْبِغُ عَلَيْهَا الطَّابَعَ الفَنِّيَّ الخَاصَّ بِهَا .

وَالصِّرَاعُ ضَرْبَانِ خَارِجِيٌّ وَدَاخِلِيٌّ :

أَمَّا الصِّرَاعُ الخَارِجِيُّ فَهُوَ الَّذِي يَقَعُ بَيْنَ الفَرْدِ وَالمُجْتَمَعِ ، أَوْ بَيْنَ فَرْدَيْنِ مِنْ أَفْرَادِهِ ، أَوْ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ الذَّكَرِ وَالأُنْثَى[1] .

وَأَمَّا الصِّرَاعُ الدَّاخِلِيُّ فَهُوَ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ المَرْءِ وَنَفْسِهِ : بَيْنَ وَاجِبِهِ وَمَصَالِحِهِ ... بَيْنَ عَقِيدَتِهِ وَأَهْوَائِهِ ... بَيْنَ الحَقِّ عَلَى مَرَارَتِهِ ، وَبَيْنَ البَاطِلِ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ مُغْرِيَاتٍ[2] .

وَلِكَيْ يَكُونَ هَذَا الصِّرَاعُ مُثِيراً يَحْسُنُ أَنْ يَسْتَمِرَّ إِلَى أَوَاخِرِ المَسْرَحِيَّةِ ، وَلِكَيْ تَبْقَى النَّظَّارَةُ مُتَعَلِّقَةً بِالمَسْرَحِ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَعْلُوَ الحَقُّ تَارَةً ، وَيَعْلُوَ البَاطِلُ أُخْرَى ، وَأَنْ يَتَصَارَعَا صِرَاعاً مَرِيراً يُثِيرُ النَّظَّارَةَ . شَرِيطَةَ أَنْ يَنْتَصِرَ الحَقُّ فِي المَسْرَحِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ كَمَا أَوْضَحْنَا آنِفاً .

هَذَا وَلَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ أَنَّ الصِّرَاعَ المُفْتَعَلَ يَفُتُّ فِي عَضُدِ المَسْرَحِيَّةِ ، وَيَدْفَعُ النَّظَّارَةَ إِلَى الشُّعُورِ بِانْعِدَامِ الصِّدْقِ الفَنِّيِّ .

٥ ـ الحِوَارُ وَأَهَمِّيَّتُهُ ، إِنَّ الحِوَارَ ضَرْبٌ مِنَ البَيَانِ الرَّائِعِ المُثِيرِ الَّذِي اسْتُخْدِمَ فِي كَثِيرٍ مِنَ المَوَاقِفِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأُرِيدَ بِهِ التَّأْثِيرُ وَالإِثَارَةُ .

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر علم المَسْرَحِيَّة لمؤلفه «الإردوس بنكول» ترجمة دريني خشبة : ص ١٣٣.

وَلَقَدْ أَشَرْنَا إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الأُخْدُودِ الَّتِي جَاءَتْ مُفَصَّلَةً فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَخُتِمَتْ مُوجَزَةً فِي سُورَةِ البُرُوجِ(١) .

وَيُعْتَبَرُ الحِوَارُ مِنْ أَهَمِّ عَنَاصِرِ التَّأْلِيفِ المَسْرَحِيِّ ، فَهُوَ الَّذِي يَجْلُو الشَّخْصِيَّاتِ وَيُفْصِحُ عَنْ خَبَايَاهَا ، وَهُوَ الَّذِي يَحْمِلُ عِبْءَ الصِّرَاعِ مِنْ بِدَايَةِ المَسْرَحِيَّةِ إِلَىٰ نِهَايَتِهَا .

وَلَا يَبْلُغُ الحِوَارُ كَمَالَهُ إِلَّا إِذَا وَثِقَ الكَاتِبُ بِسُمُوِّ فِكْرَتِهِ ، وَأَدْرَكَ - بِعُمْقٍ - طَبَائِعَ شَخْصِيَّاتِ مَسْرَحِيَّتِهِ ، وَنَفَذَ إِلَىٰ خَصَائِصِ كُلٍّ مِنْهُمْ ، وَجَعَلَ كُلَّ كَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَاتِهِمْ مُعَبِّرَةً عَمَّا يَلْتَهِبُ فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ المَشَاعِرِ ، مُصَوِّرَةً لِمَا يَخْتَلِجُ فِي أَفْئِدَتِهِمْ مِنْ مَعَانِي الرِّضَىٰ أَوِ السُّخْطِ ، وَالنَّجَاحِ أَوِ الإِخْفَاقِ ، وَالِاطْمِئْنَانِ أَوِ القَلَقِ ، وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ مِمَّا تَهْتَزُّ لَهُ نُفُوسُ النَّظَّارَةِ رِضًى وَارْتِيَاحاً ، أَوْ غَضَباً وَانْفِعَالاً .

هَذَا ، وَلَا يُمَيِّزُ المَسْرَحِيَّةَ عَنِ القِصَّةِ تَمْيِيزاً وَاضِحاً إِلَّا طَرِيقَتُهَا فِي اسْتِخْدَامِ أُسْلُوبِ الحِوَارِ ...

فَالحِوَارُ هُوَ المَظْهَرُ المَادِّيُّ العَمَلِيُّ لِلْمَسْرَحِيَّةِ ...

وَالصِّرَاعُ هُوَ المَظْهَرُ المَعْنَوِيُّ لَهَا(٢).

* * *

---

(١) انظر القِصَّة الإسْلامية من هذا الكتاب ص ٢١٥.

(٢) انظر الأدب وفنونه للدكتور عِزّ الدين إسماعيل: ٢٣٩.

نَـمُوذَجٌ مِنَ الـمَسْرَحِيَّاتِ الإِسْلَامِيَّةِ

قِصَّةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

إِنَّ مَأْسَاةَ نَبِيِّ اللَّهِ يَعْقُوبَ وَابْنِهِ يُوسُفَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنْ أَرْوَعِ الـمَآسِي الَّتِي عَرَفَتْهَا الإِنْسَانِيَّةُ، وَأَحْفَلِهَا بِضُرُوبِ الصِّرَاعِ العَنِيفِ الَّذِي يُعَدُّ عُنْصُراً مِنْ عَنَاصِرِ القِصَّةِ بِصُورَةٍ عَامَّةٍ، وَالـمَسْرَحِيَّةِ بِصُورَةٍ خَاصَّةٍ.

وَإِذَا كَانَتِ الأَعْمَالُ القَصَصِيَّةُ تَسْتَغْنِي عَنِ الصِّرَاعِ فَإِنَّ الأَعْمَالَ الـمَسْرَحِيَّةَ لَا تَسْتَغْنِي عَنْهُ وَلَا تَقُومُ إِلَّا بِهِ.

«وَقَدْ شَغَلَتْ هَذِهِ الـمَأْسَاةُ سُورَةَ يُوسُفَ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا. فَالآيَتَانِ الأُولَىٰ وَالثَّانِيَةُ مِنْ تِلْكَ السُّورَةِ مَهَّدَتَا لِهَذِهِ القِصَّةِ.

وَالآيَاتُ العَشْرُ الَّتِي خُتِمَتْ بِهَا جَاءَتْ تَعْقِيباً عَلَيْهَا، مِمَّا جَعَلَ السُّورَةَ الَّتِي بَلَغَتْ مِائَةً وَإِحْدَىٰ عَشَرَةَ آيَةً تَدُورُ حَوْلَ قِصَّةِ يُوسُفَ وَحْدَهَا»[1].

وَفِيمَا يَلِي عَرْضٌ لِهَذِهِ الـمَأْسَاةِ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ مَا وَرَدَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مُوَضَّحٌ بِمَا وَقَفَ عَلَيْهِ الـمُفَسِّرُونَ مِنْ أَخْبَارٍ دَارَتْ حَوْلَهَا.

هَذَا، وَإِنَّ زَمَانَ هَذِهِ الـمَأْسَاةِ أَيَّامُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ أَبَوَيْهِ السَّلَامُ.

---

(١) انظر «في ظلال القُرآن» لسيد قطب: ١٢/١٧٥.

وَإِنَّ مَكَانَهَا أَرْضُ « كَنْعَانَ » مِنْ بِلَادِ « الشَّامِ » ، وَأَرْضُ « مِصْرَ » ، وَمَا بَيْنَ هَذَيْنِ المَكَانَيْنِ .

وَإِنَّ أَبْطَالَهَا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَإِخْوَتُهُ العَشَرَةُ الَّذِينَ وُلِدُوا مِنْ أُمٍّ غَيْرِ أُمِّهِ .

وَإِنَّ مَأْسَاتَهَا حَلَّتْ بِهِ وَبِأَبَوَيْهِ كَمَا كَادَتْ أَنْ تَحِلَّ بِأَخِيهِ مِنْ أُمِّهِ وَأَبِيهِ .

وَأَمَّا مَشَاهِدُهَا ، فَقَدْ تَتَابَعَتْ وَفْقَ الخُطُوَاتِ التَّالِيَةِ(١):

(١)

هَذَا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرَىٰ فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ كَانَ عَلَىٰ قِمَّةِ جَبَلٍ شَاهِقٍ وَقَدْ مَدَّ بِطَرْفِهِ إِلَىٰ بَطْنِ الوَادِي فَرَأَىٰ قُرَّةَ عَيْنِهِ وَثَمَرَةَ فُؤَادِهِ يُوسُفَ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ عَشَرَةٌ مِنَ الذِّئَابِ الضَّارِيَةِ تُرِيدُ افْتِرَاسَهُ ، وَأَنَّهَا كَادَتْ تَقْضِي عَلَيْهِ لَوْلَا أَنَّ كَبِيرَهَا رَقَّ لَهُ ، وَدَفَعَ الشَّرَّ المُسْتَطِيرَ عَنْهُ ؛ حَيْثُ أَقْنَعَ الذِّئَابَ الأُخْرَىٰ بِإِلْقَائِهِ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ بَدَلاً مِنَ افْتِرَاسِهِ ... فَنَهَضَ يَعْقُوبُ مِنْ نَوْمِهِ خَائِفاً وَجِلاً وَجَعَلَ يُفَكِّرُ فِي تَأْوِيلِ رُؤْيَاهُ .

(٢)

لَمْ يَمْضِ عَلَىٰ رُؤْيَا يَعْقُوبَ طَوِيلُ وَقْتٍ حَتَّىٰ اسْتَيْقَظَ يُوسُفُ ذَاتَ صَبَاحٍ مِنْ نَوْمِهِ فَرِحاً مَسْرُوراً ؛ فَقَدْ رَأَىٰ فِي مَنَامِهِ ﴿ **أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ** ﴾ لَهُ ﴿ **سَاجِدِينَ** ﴾ . فَأَخْبَرَ أَبَاهُ بِمَا رَآهُ ، فَأَغْمَضَ الأَبُ عَيْنَيْهِ ، وَطَفِقَ

(١) انظر كتاب « المسرح الإسلامي » لأحمد شوقي قاسم، ص ٦٠ وما بعدها.

يَسْبَحُ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الرُّؤْيَا ، وَيَرْبِطُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا رَآهُ هُوَ مِنْ قَبْلُ .

ثُمَّ رَبَّتَ عَلَىٰ كَتِفِ يُوسُفَ ، وَقَبَّلَهُ فِي جَبِينِهِ الْمُشْرِقِ ، وَاحْتَضَنَهُ حُبًّا لَهُ وَإِشْفَاقاً عَلَيْهِ ...

ثُمَّ ﴿قَالَ : يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ، فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ .

ثُمَّ أَخْبَرَهُ بِمُسْتَقْبَلِهِ الزَّاهِرِ ، وَقَالَ لَهُ :

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

(٣)

عَلِمَ الإِخْوَةُ بِرُؤْيَا يُوسُفَ ، وَوَقَفُوا عَلَىٰ تَأْوِيلِهَا ، فَأَشْفَقُوا مِنْهَا أَشَدَّ الإِشْفَاقِ ، وَأَدْرَكُوا أَنَّهُ سَيَحْظَىٰ بِضُرُوبٍ مِنَ السُّمُوِّ وَالْمَجْدِ وَالرِّفْعَةِ ؛ لَا يَنَالُهَا إِلَّا الأَعِزَّةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَأَنَّهُ سَيَزْدَادُ هُوَ وَأَخُوهُ قُرْباً مِنْ أَبِيهِمْ وَحُظْوَةً عِنْدَهُ ، مِمَّا زَادَهُمْ حِقْداً عَلَيْهِ ، وَتَصْمِيماً عَلَىٰ الْخَلَاصِ مِنْهُ ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾ .

فَقَالَ أَحَدُهُمْ - وَكَانَ رَفِيقاً بِهِ : ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ .

(٤)

عَزَمَ إِخْوَةُ يُوسُفَ عَلَىٰ تَنْفِيذِ مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ ، فَمَضَوْا إِلَىٰ أَبِيهِمْ وَ﴿ **قَالُوا : يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ، وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ .

فَتَرَدَّدَ أَبُوهُمْ فِي الِاسْتِجَابَةِ لِطَلَبِهِمْ ، وَشَعَرَ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ عَلَىٰ وَلَدِهِ الأَثِيرِ عِنْدَهُ وَ﴿ **قَالَ : إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ، وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ** ﴾ ...

فَهَدَّءُوا رَوْعَهُ ، وَطَمْأَنُوهُ وَ﴿ **قَالُوا : لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذاً لَّخَاسِرُونَ** ﴾ ... فَاسْتَجَابَ أَبُوهُمْ لِطَلَبِهِمْ عَلَىٰ كُرْهٍ مِنْهُ .

(٥)

انْطَلَقَ الإِخْوَةُ بِيُوسُفَ ، وَمَضَىٰ أَبُوهُمْ وَرَاءَهَمْ لِيُوَدِّعَهُمْ ، وَجَعَلَ يُكَرِّرُ تَوْصِيَتَهُ لَهُمْ بِأَخِيهِمُ الصَّغِيرِ ، فَطَفِقُوا يُخَفِّفُونَ مِنْ رَوْعِهِ ، وَيَعِدُونَهُ بِأَنْ يَكُونُوا بَرَرَةً بِهِ مُشْفِقِينَ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا ابْتَعَدُوا عَنْ أَبِيهِمْ، وَصَارُوا فِي أَمَانٍ مِنْ عَيْنِهِ رَكَلُوا يُوسُفَ بِأَقْدَامِهِمْ ، وَطَرَحُوهُ عَلَىٰ الأَرْضِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ .

فَاسْتَجَارَ بِأَخِيهِ الأَكْبَرِ ، وَقَالَ لَهُ :

أَنْتَ أَكْبَرُ إِخْوَتِي ، وَالوَصِيُّ عَلَيَّ بَعْدَ أَبِي ؛ فَارْحَمْ ضَعْفِي وَعَجْزِي وَحَدَاثَةَ سِنِّي ، فَلَطَمَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ وَقَالَ : لَا قَرَابَةَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، فَادْعُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً لِتَحْمِيَكَ مِنَّا وَتَحُولَ دُونَكَ وَدُونَنَا .

فَاسْتَجَارَ بِأَخٍ لَهُ آخَرَ، فَرَقَّ لَهُ وَتَدَاوَلَ مَعَ إِخْوَتِهِ الآخَرِينَ فِي أَمْرِهِ، فَأَجْمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ، وَأَلْقَوْهُ فِيهِ.

(٦)

جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴿ أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ فَلَمَّا سَمِعَ إِجْهَاشَهُمْ، وَرَأَىٰ الدُّمُوعَ تَنْحَدِرُ مِنْ عُيُونِهِمْ قَالَ: مَا بِكُمْ؟ ... أَحَدَثَ شَيْءٌ لِلْغَنَمِ، فَقَالُوا: لَا. فَقَالَ: أَيْنَ يُوسُفَ؟.

فَازْدَادُوا تَبَاكِياً، وَ﴿ **قَالُوا: يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ، وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ** ﴾.

ثُمَّ دَفَعُوا إِلَيْهِ قَمِيصَ يُوسُفَ، وَعَلَيْهِ دَمٌ كَاذِبٌ إِذْ ذَبَحُوا سَخْلَةً[1] وَلَطَّخُوهُ بِدَمِهَا، لَكِنْ فَاتَهُمْ أَنْ يُمَزِّقُوا القَمِيصَ؛ فَقَالَ لَهُمْ أَبُوهُمْ لَمَّا رَأَىٰ القَمِيصَ صَحِيحاً، وَتَأَكَّدَ مِنْ كَذِبِهِمْ: ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً** ﴾ مُرِيعاً فَفَعَلْتُمُوهُ ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾.

(٧)

مَضَتْ عَلَىٰ يُوسُفَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ فِي البِئْرِ وَهُوَ يُعَانِي مِنْ ظَلَامِهِ الدَّامِسِ، وَبَرْدِهِ القَارِسِ مَا يُعَانِي، وَإِخْوَتُهُ يُرَاقِبُونَهُ عَنْ بُعْدٍ، وَيُفَكِّرُونَ فِي وَضْعِ خَاتِمَةٍ لِجَرِيمَتِهِمُ الشَّنْعَاءِ.

فَجَاءَتْ قَافِلَةٌ مِنَ «الشَّامِ» تُرِيدُ «مِصْرَ»، وَاسْتَرَاحَتْ قَرِيباً مِنَ البِئْرِ، وَأَرْسَلَتْ أَحَدَ رِجَالِهَا، وَهُوَ «مَالِكُ بْنُ دَاعِرٍ»، لِيَأْتِيَ لَهَا بِالمَاءِ، ﴿ **فَأَدْلَىٰ**

(١) السَّخْلَة: ولد الشاة.

دَلْوَهُ ﴾ فِي البِئْرِ ، فَاسْتَمْسَكَ يُوسُفَ بِحَبْلِ الدَّلْوِ وَتَعَلَّقَ بِهِ ، فَأَخْرَجَهُ مَالِكٌ وَهُوَ لَا يَدْرِي مَاذَا يَفْعَلُ ، فَلَمَّا رَآهُ انْشَرَحَ صَدْرُهُ وَ﴿ **قَالَ : يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ** ﴾ جَمِيلُ الطَّلْعَةِ بَهِيُّ المَنْظَرِ .

وَهُنَا تَجَمَّعَ إِخْوَةُ يُوسُفَ حَوْلَهُ وَقَالُوا لِمَالِكٍ : هَذَا عَبْدٌ لَنَا هَرَبَ مِنَّا ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ نَظْرَةَ تَعَجُّبٍ مِمَّا يَقُولُونَ ...

فَهَمَسُوا فِي أُذُنِ يُوسُفَ وَقَالُوا لَهُ بِالعِبْرَانِيَّةِ : إِمَّا أَنْ تُقِرَّ بِمَا نَقُولُهُ عَنْكَ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ نَبِيعُكَ لَهُ ، وَتَنْجُو بِنَفْسِكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَأْخُذَكَ فَنَقْتُلَكَ .

فَقَالَ يُوسُفُ لِمَالِكٍ : لَقَدْ صَدَقُوا فِيمَا قَالُوهُ لَكَ ، فَأَنَا عَبْدٌ لَهُمْ ، وَلَقَدْ هَرَبْتُ مِنْهُمْ ... فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ مَالِكٌ وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا سَمْتُهُ بَسَمْتِ العَبِيدِ . فَقَالُوا لَهُ : بَلْ إِنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِنَا رُبِّيَ فِي دُورِنَا ، وَتَأَدَّبَ بِآدَابِنَا . فَقَالَ لَهُمْ مَالِكٌ : إِنْ أَرَدْتُمْ بَيْعَهُ اشْتَرَيْتُهُ مِنْكُمْ . فَبَاعُوهُ ﴿ **بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ** ﴾ .

ثُمَّ مَضَىٰ بِهِ مَالِكٌ إِلَىٰ « مِصْرَ » ، وَبَاعَهُ بِعِشْرِينَ دِينَاراً ذَهَباً وَثَوْبَيْنِ ثَمِينَيْنِ .

(٨)

اشْتَرَىٰ يُوسُفَ عَزِيزُ « مِصْرَ » ، وَكَانَ عَقِيماً لَا وَلَدَ لَهُ ... فَأَلْقَى اللَّهُ مَحَبَّتَهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَوْصَىٰ بِهِ امْرَأَتَهُ « زُلَيْخَا » ، وَقَالَ لَهَا : ﴿ **أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً** ﴾ .

وَلَمَّا بَلَغَ يُوسُفُ أَشُدَّهُ ، وَظَهَرَتْ رَوَائِعُ جَمَالِهِ ، عَشِقَتْهُ زَوْجَةُ العَزِيزِ ، وَتَعَلَّقَتْ بِهِ أَشَدَّ التَّعَلُّقِ ، وَطَفِقَتْ تُرَاوِدُهُ عَنْ نَفْسِهِ ، فَكَانَ يَأْبَىٰ عَلَيْهَا ذَلِكَ أَشَدَّ الإِبَاءِ ، وَيَسْتَنْكِرُهُ أَعْظَمَ الاسْتِنْكَارِ .

فَأَوْغَلَتْ فِي مُرَاوَدَتِهِ، وَأَبْرَزَتْ مِنْ أُنُوثَتِهَا مَا أَلْهَبَ دِمَاءَهُ وَأَشْعَلَ أَحَاسِيسَهُ.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ ﴿**غَلَّقَتِ الأَبْوَابَ**﴾ وَ﴿**هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا**﴾ وَكَادَا يَقَعَانِ فِي الإِثْمِ ﴿**لَوْلَآ أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾. فَأَعْرَضَ عَنْهَا، وَفَرَّ مِنْهَا، وَتَسَابَقَا نَحْوَ بَابِ القَصْرِ: هُوَ يُرِيدُ الخُرُوجَ مِنْهُ، وَهِيَ تُرِيدُ مَنْعَهُ مِمَّا أَرَادَ.

فَلَمَّا كَادَ يَخْرُجُ أَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ بِشِدَّةٍ فَقُدَّ القَمِيصُ مِنْ دُبُرٍ.

وَقَدْ حَدَثَ ذَلِكَ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي فَتَحَ فِيهَا العَزِيزُ البَابَ، فَالْتَفَتَتْ «زُلَيْخَا» إِلَىٰ زَوْجِهَا وَ﴿**قَالَتْ: مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾.

فَنَظَرَ العَزِيزُ إِلَىٰ يُوسُفَ نَظْرَةَ اسْتِنْكَارٍ، فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ: ﴿**هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَّفْسِي**﴾، فَالْتَفَتَ إِلَيْهَا فِي دَهْشَةٍ، فَقَالَتْ: بَلْ هُوَ الَّذِي رَاوَدَنِي عَنْ نَفْسِي. وَحَارَ العَزِيزُ فِيمَا ادَّعَيَاهُ، وَلَمْ يَدْرِ أَيُّهُمَا يُصَدِّقُ وَأَيُّهُمَا يُكَذِّبُ.

فَعَرَضَ الأَمْرَ عَلَىٰ ابْنِ عَمٍّ لَهَا، ـ وَكَانَ رَاجِحَ العَقْلِ بَعِيدَ النَّظَرِ ـ فَقَالَ:

﴿**إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾. فَنَظَرَ العَزِيزُ إِلَىٰ قَمِيصِهِ فَوَجَدَهُ قَدْ ﴿**قُدَّ مِنْ دُبُرٍ**﴾.

فَالْتَفَتَ إِلَىٰ زَوْجَتِهِ وَ﴿**قَالَ: إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**﴾. ثُمَّ طَلَبَ مِنْ يُوسُفَ أَنْ يُعْرِضَ عَنْ هَذَا الأَمْرِ وَأَلَّا يَذْكُرَهُ لِأَحَدٍ حَتَّىٰ لَا يَشِيعَ بَيْنَ النَّاسِ، وَطَلَبَ مِنْ زَوْجَتِهِ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لِذَنْبِهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ ﴿**مِنَ الخَاطِئِينَ**﴾.

لَكِنَّ الأَمْرَ لَمْ يَبْقَ سِرًّا مَكْتُوماً، فَقَدِ انْتَشَرَ بَيْنَ النَّاسِ عَنْ طَرِيقِ سَاقِي

العَزِيزِ ، وَخَبَّازِهِ وَحَاجِبِهِ ، وَالقَيِّمِ عَلَىٰ دَوَابِّهِ ، وَصَاحِبِ سِجْنِهِ ، وَتَنَاقَلَتْهُ النِّسْوَةُ ، وَشَهَّرْنَ بِامْرَأَةِ العَزِيزِ ، وَغَمَزْنَهَا وَلَمَزْنَهَا ، وَطَفِقْنَ يَقُلْنَ : إِنَّهَا رَاوَدَتْ ﴿ **فَتَاهَا عَنْ نَّفْسِهِ** ﴾ ، وَإِنَّهُ ﴿ **قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا** ﴾ ، وَ﴿ **إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ .

(٩)

عَلِمَتْ « زُلَيْخَا » بِأَمْرِ النِّسْوَةِ اللَّوَاتِي شَهَّرْنَ بِهَا ، وَكُنَّ أَرْبَعِينَ امْرَأَةً فَدَعَتْهُنَّ إِلَىٰ قَصْرِهَا ، وَلَمَّا اكْتَمَلَ جَمْعُهُنَّ رَحَّبَتْ بِهِنَّ ، وَبَالَغَتْ فِي إِكْرَامِهِنَّ ، وَلَمَّا أَحْضَرَتْ لَهُنَّ الطَّعَامَ ؛ أَعْطَتْ ﴿ **كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً** ﴾ لِتَقْطَعَ بِهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ قَطْعٍ . ثُمَّ قَالَتْ لِيُوسُفَ : ﴿ **اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ : حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ .

عِنْدَ ذَلِكَ شَعَرَتْ بِانْتِصَارِهَا عَلَيْهِنَّ ، فَنَظَرَتْ إِلَيْهِنَّ نَظْرَةَ الْمُنْتَصِرِ وَقَالَتْ : ذَلِكَ الَّذِي ﴿ **لُمْتُنَّنِي فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ** ﴾ .

ثُمَّ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ وَهَدَّدَتْهُ وَتَوَعَّدَتْهُ ، وَقَالَتْ : إِذَا هُوَ ﴿ **لَمْ يَفْعَلْ مَآ أَمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ** ﴾ وَلَيَكُونَنَّ ﴿ **مِنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ .

فَالْتَفَتَتِ النِّسْوَةُ إِلَىٰ يُوسُفَ وَحَاوَلْنَ إِقْنَاعَهُ بِكُلِّ السُّبُلِ ، وَحَذَّرْنَهُ مِنَ السِّجْنِ وَوَيْلَاتِهِ ، وَقُلْنَ لَهُ أَطِعْ مَوْلَاتَكَ . فَنَظَرَ إِلَيْهِنَّ فِي اشْمِئْزَازٍ وَ﴿ **قَالَ : رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ، وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ؛ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ .

(١٠)

وَثِقَ العَزِيزُ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَرَاءَةِ يُوسُفَ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ رَأَوا أَنْ يَسْجُنُوهُ رَدْحاً مِنَ الزَّمَنِ ؛ لِيُشْعِرُوا عَامَّةَ النَّاسِ بِأَنَّهُ هُوَ المُخْطِئُ ، وَلِيُلْقُوا سِتَاراً كَثِيفاً عَلَىٰ هَٰذِهِ الحَادِثَةِ المُثِيرَةِ ، فَدَخَلَ يُوسُفُ السِّجْنَ رَاضِياً بِقَضَاءِ رَبِّهِ ، وَطَفِقَ يَلْقَىٰ المَسْجُونِينَ فَيُوَاسِي مَهْمُومِيهِمْ ، وَيُعَزِّي مُصَابِيهِمْ ، وَيَعُودُ مَرْضَاهُمْ ، وَيُدَاوِي جَرْحَاهُمْ ، وَيَسْهَرُ اللَّيْلَ مُنَاجِياً رَبَّهُ فِي تَبَتُّلٍ وَضَرَاعَةٍ وَخُشُوعٍ .

(١١)

بَقِيَ يُوسُفُ فِي السِّجْنِ حَتَّىٰ مَاتَ العَزِيزُ وَحَلَّ مَحَلَّهُ مَلِكٌ آخَرُ ، فَوَشَىٰ الوُشَاةُ لِلْمَلِكِ الجَدِيدِ بِاثْنَيْنِ مِنْ رِجَالِ حَاشِيَتِهِ هُمَا صَاحِبُ شَرَابِهِ وَخَبَّازُهُ ؛ فَأَمَرَ بِأَنْ يُلْقَيَا فِي غَيَابَةِ السِّجْنِ ، وَهُنَاكَ الْتَقَيَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَاسْتَمَعَا إِلَىٰ تَأْوِيلِهِ لِلرُّؤْيَا وَأُعْجِبَا بِهِ أَشَدَّ الإِعْجَابِ ، ثُمَّ مَا لَبِثَا طَوِيلاً حَتَّىٰ رَأَىٰ كُلٌّ مِنْهُمَا رُؤْيَا وَطَلَبَ مِنْهُ تَأْوِيلَهَا ؛ فَقَالَ سَاقِي المَلِكِ : ﴿ **إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً** ﴾ ، وَقَالَ خَبَّازُهُ : ﴿ **إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ** ﴾ .

ثُمَّ قَالَا لَهُ : نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِ مَا رَأَيْنَاهُ ﴿ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ ... فَلَمْ يَشَأْ يُوسُفُ أَنْ يَتَعَجَّلَ فِي تَأْوِيلِ رُؤْيَاهُمَا وَإِرْوَاءِ غَلِيلِهِمَا ، وَإِنَّمَا آثَرَ أَنْ يُقَدِّمَ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ كَلِمَةً يُوَجِّهُهُمَا فِيهَا وَيُرْشِدُهُمَا وَيَعِظُهُمَا ، فَكَانَ مِمَّا قَالَهُ لَهُمَا :

﴿ **إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ النَّاسِ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ**

لَا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ .

ثُمَّ خَتَمَ دَعْوَتَهُ وَتَوْجِيهَاتِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثُمَّ فَسَّرَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا رُؤْيَاهُ ، فَقَالَ لِلسَّاقِي : إِنَّ المَلِكَ سَيُخْرِجُكَ مِنَ السِّجْنِ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ ، وَإِنَّهُ سَيُعِيدُكَ إِلَىٰ خِدْمَتِهِ ، وَإِنَّكَ سَتَسْقِيهِ الخَمْرَ عَلَىٰ عَادَتِكَ ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَبَتَتْ لَهُ بَرَاءَتُكَ . وَقَالَ لِلْخَبَّازِ : إِنَّكَ سَتَخْرُجُ مِنَ السِّجْنِ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ أَيْضاً لَكِنَّكَ سَتُصْلَبُ ، وَسَتَبْقَىٰ مَصْلُوباً حَتَّىٰ تَأْكُلَ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِكَ .

ثُمَّ قَالَ لِلسَّاقِي : إِذَا تَحَقَّقَتْ رُؤْيَاكَ وَعُدْتَ إِلَىٰ خِدْمَةِ المَلِكِ فَاذْكُرْنِي عِنْدَهُ ، وَقُلْ لَهُ : إِنَّ فِي السِّجْنِ فَتًى حُبِسَ ظُلْماً .

لَكِنَّ الشَّيْطَانَ أَنْسَاهُ ذِكْرَ يُوسُفَ عِنْدَ المَلِكِ ، ﴿ فَلَبِثَ ﴾ يُوسُفُ ﴿ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ .

(١٢)

رَأَىٰ المَلِكُ رُؤْيَا أَفْزَعَتْهُ أَشَدَّ الفَزَعِ وَمَلأَتْ فُؤَادَهُ رُعْباً ، فَجَمَعَ رِجَالَ حَاشِيَتِهِ ، وَأَهْلَ العِلْمِ عِنْدَهُ ، وَأَشْرَافَ قَوْمِهِ ، وَالعَارِفِينَ بِالكَهَانَةِ وَالتَّنْجِيمِ وَالسِّحْرِ ، وَقَصَّ عَلَيْهِمْ رُؤْيَاهُ ، فَقَالَ :

إِنِّي رَأَيْتُ ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ، وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ

خُضْرٍ﴾ قَدِ الْتَوَتْ عَلَيْهِنَّ سَبْعُ سُنْبُلَاتٍ يَابِسَاتٍ ، وَعَلَتْ فَوْقَهُنَّ .

ثُمَّ قَالَ : **﴿يَا أَيُّهَا الْـمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾** .

فَقَالُوا : إِنَّ مَا رَأَيْتَهُ **﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾** ، وَأَخْلَاطُ مَنَامٍ **﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾** .

فَاسْتَشَاطَ الـمَلِكُ غَيْظاً مِنْهُمْ وَغَضَباً عَلَيْهِمْ ، وَهَدَّدَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ . عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ السَّاقِي الَّذِي كَانَ سَجِيناً مَعَ يُوسُفَ : **﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾** إِلَىٰ السِّجْنِ لِلِقَاءِ مَنْ يُفَسِّرُ هَذِهِ الرُّؤْيَا ؛ فَأَرْسَلُوهُ .

(١٣)

مَضَىٰ السَّاقِي إِلَىٰ السِّجْنِ ، وَلَقِيَ يُوسُفَ ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا فَفَسَّرَهَا لَهُ بِدِقَّةٍ وَإِيجَازٍ .

فَأَسْرَعَ بِتَفْسِيرِهَا إِلَىٰ الـمَلِكِ ، فَوَثِقَ مِمَّا سَمِعَهُ أَشَدَّ الثِّقَةِ ، وَاهْتَمَّ بِهِ أَشَدَّ الاِهْتِمَامِ ، وَقَالَ لِرِجَالِ حَاشِيَتِهِ : **﴿ائْتُونِي بِهِ﴾** ؛ فَعَادَ السَّاقِي إِلَىٰ يُوسُفَ يُبَشِّرُهُ بِخَلَاصِهِ مِنَ السِّجْنِ ، وَيَسْتَدْعِيهِ لِلِقَاءِ الـمَلِكِ ، لَكِنَّ يُوسُفَ أَبَىٰ الخُرُوجَ مِنْ سِجْنِهِ ، وَأَصَرَّ عَلَىٰ إِثْبَاتِ بَرَاءَتِهِ وَعِفَّتِهِ حَتَّىٰ لَا يَكُونَ إِخْرَاجُهُ مِنَ السِّجْنِ صَفْحاً عَنْهُ ، وَحَتَّىٰ لَا يَنْظُرَ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ بِعَيْنِ الاِتِّهَامِ .

فَقَالَ لِلسَّاقِي : **﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾** . فَرَجَعَ إِلَىٰ الـمَلِكِ ، وَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَهُ يُوسُفُ ، فَجَمَعَ الـمَلِكُ النِّسْوَةَ وَفِي مُقَدِّمَتِهِنَّ امْرَأَةُ العَزِيزِ وَسَأَلَهُنَّ عَنْ مَوْقِفِهِنَّ مِنْ يُوسُفَ وَمَوْقِفِهِ مِنْهُنَّ ، فَـ **﴿قُلْنَ : حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾** .

وَ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَّفْسِهِ ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

(١٤)

مَضَىٰ يُوسُفُ إِلَىٰ المَلِكِ فَرَحَّبَ بِهِ وَأَدْنَىٰ مَنْزِلَهُ وَقَالَ لَهُ : إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ تَفْسِيرَ رُؤْيَايَ وَتَفْصِيلَهَا يَا يُوسُفُ ، فَقَالَ لَهُ : لَقَدْ رَأَيْتَ أَيُّهَا المَلِكُ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ شُهْبٍ حِسَانٍ كَشَفَ لَكَ عَنْهُنَّ النِّيلُ ، فَبَيْنَا أَنْتَ تَنْظُرُ إِلَيهِنَّ ، وَتَتَعَجَّبُ مِنْ حُسْنِهِنَّ إِذْ نَضَبَ النِّيلُ ، وَغَارَ مَاؤُهُ ، وَخَرَجَ مِنْ أَوْحَالِهِ سَبْعُ بَقَرَاتٍ عِجَافٍ لَيْسَتْ لَهُنَّ ضُرُوعٌ ، فَاخْتَلَطْنَ بِالسِّمَانِ وَمَزَّقْنَ جُلُودَهُنَّ ، وَأَكَلْنَ لُحُومَهُنَّ ، وَحَطَّمْنَ عِظَامَهُنَّ .

فَبَيْنَا كُنْتَ أَيُّهَا المَلِكُ تُحَدِّقُ فِيهِنَّ ، وَتَتَعَجَّبُ مِنْهُنَّ وَمِنْ أَفْعَالِهِنَّ ، وَكَيْفَ أَنَّ السِّمَنَ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِنَّ وَذَلِكَ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ مَا أَكَلْنَ وَوَفْرَةِ مَا مَلأْنَ مِنْهُ البُطُونَ .

إِذَا بِسَبْعِ سَنَابِلَ خُضْرٍ مُمْتَلِئَاتٍ حَبًّا وَمَاءً ، وَإِلَىٰ جَانِبِهِنَّ سَبْعٌ يَابِسَاتٌ لَيْسَ فِيهِنَّ مَاءٌ وَلَا خُضْرَةٌ ...

وَقَدْ نَبَتَتِ السَّنَابِلُ الخُضْرُ وَاليَابِسَاتُ فِي مَنْبِتٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ هَبَّتْ عَلَيْهَا الرِّيحُ فَذَرَتِ الأَوْرَاقَ اليَابِسَةَ عَلَىٰ الأَوْرَاقِ الخُضْرِ ، وَأَشْعَلَتْ فِيهَا النِيرَانَ فَأَحْرَقَتْهَا وَجَعَلَتْهَا سَوْدَاءَ ، مِمَّا جَعَلَكَ أَيُّهَا المَلِكُ تَسْتَيْقِظُ مِنْ نَوْمِكَ قَلِقاً مَذْعُوراً .

فَنَظَرَ إِلَيْهِ المَلِكُ فِي دَهْشَةٍ وَإِعْجَابٍ وَإِكْبَارٍ وَقَالَ لَهُ : مَا أَعْجَبَ هَذَا الَّذِي سَمِعْتُهُ مِنْكَ فَكَأَنَّكَ أَنْتَ الَّذِي رَأَيْتَ الرُّؤْيَا ، وَكَأَنَّكَ أَنْتَ الَّذِي تَمَلَّيْتَ

مِنْهَا . فَبِمَ تُشِيرُ عَلَيَّ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ؟ .

فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ : أَرَىٰ أَنْ تَزْرَعَ فِي السَّنَوَاتِ السَّبْعِ المُخْصِبَةِ سَائِرَ مَا تَسْتَطِيعُ زَرْعَهُ مِنَ الأَرْضِ بِفَيَافِيهَا وَقِفَارِهَا ، فَإِنَّكَ لَوْ زَرَعْتَ عَلَىٰ مَدَرٍ[1] أَوْ حَجَرٍ لَنَبَتَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ ، وَلأَسْبَغَ عَلَيْهِ البَرَكَةَ وَالنَّمَاءَ .

ثُمَّ أَبْقِ مَا حَصَدْتَهُ فِي سَنَابِلِهِ ﴿ **إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** ﴾ الأَعْنَابَ وَالزَّيْتُونَ وَغَيْرَهَا .

فَقَالَ المَلِكُ : مَنْ لِي بِتَدْبِيرِ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟ فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ : ﴿ **اجْعَلْنِي** ﴾ أَمِيناً ﴿ **عَلَىٰ خَزَائِنِ** ﴾ أَرْضِ « مِصْرَ » ، وَسَتَجِدُنِي حَفِيظاً عَلَيْهَا عَلِيماً بِهَا . فَاسْتَجَابَ المَلِكُ لِطَلَبِهِ . وَمَكَّنَ اللَّهُ لِيُوسُفَ فِي أَرْضِ « مِصْرَ » ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا عَانَاهُ مِنْ ضِيقٍ وَسِجْنٍ .

وَلَقَدْ تَوَّجَهُ المَلِكُ عَلَىٰ مَلأٍ مِنَ النَّاسِ وَوَلَّاهُ شُؤُونَ الدَّوْلَةِ ، فَحَظِيَتْ بِهِ أَرْضُ « مِصْرَ » ، وَسَعِدَ بِهِ سُكَّانُهَا ، وَنَعِمَ بِهِ مَنْ أَمَّهَا مِنَ النَّاسِ .

(١٥)

دَخَلَتْ سَنَوَاتُ القَحْطِ السَّبْعُ ، وَأَصَابَ أَرْضَ « كَنْعَانَ » وَبِلَادَ « الشَّامِ » مِنْ نَقْصٍ فِي القَمْحِ وَالثَّمَرَاتِ مَا أَهْلَكَ العِبَادَ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَتَدَفَّقُونَ عَلَىٰ « مِصْرَ » لِيَمْتَارُوا[2] مِنْهَا .

(١) المدر : الطين الَّذِي لا يخالطه رمل .

(٢) لِيَمْتَارُوا : ليشتروا الميرة التي هي الطعام .

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ المُمْتَارِينَ إِخْوَةُ يُوسُفَ الَّذِينَ أَذَاقُوهُ مُرَّ العَذَابِ ، وَأَلْقَوْهُ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ، وَوَقَفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ، عَرَفَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوهُ ؛ لِبُعْدِ عَهْدِهِمْ بِهِ ، وَشِدَّةِ يَقِينِهِمْ بِأَنَّهُ قَدْ غَدَا فِي عِدَادِ الهَالِكِينَ .

ثُمَّ إِنَّهُ مَا كَانَ يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ أَنَّ أَخَاهُمُ الصَّغِيرَ الَّذِي بَاعُوهُ بَيْعَ الرَّقِيقِ ، وَأَلْحَقُوا بِهِ مَا أَلْحَقُوهُ مِنَ الضُّرِّ قَدْ غَدَا مَلِكاً لِمِصْرَ . فَقَالَ لَهُمْ يُوسُفُ :

مَا أَقْدَمَكُمْ بِلَادِي ؟ .

فَقَالُوا : إِنَّمَا جِئْنَا طَلَباً لِلْمِيرَةِ .

فَقَالَ : لَعَلَّكُمْ عُيُونٌ عَلَيْنَا ؟ .

فَقَالُوا : مَعَاذَ اللَّهِ .

فَقَالَ : مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ ؟ .

فَقَالُوا : مِنْ بِلَادِ « كَنْعَانَ » ، وَأَبُونَا نَبِيُّ اللَّهِ يَعْقُوبُ .

فَقَالَ : وَهَلْ لِأَبِيكُمْ أَوْلَادٌ غَيْرُكُمْ ؟ .

فَقَالُوا : بَلَىٰ ... لَقَدْ كُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ وَلَداً ، فَهَلَكَ أَصْغَرُنَا فِي البَرِّيَّةِ حَيْثُ أَكَلَهُ الذِّئْبُ .

وَكَانَ أَحَبَّنَا إِلَىٰ أَبِينَا ، وَبَقِيَ شَقِيقُهُ الصَّغِيرُ ؛ فَاحْتَفَظَ بِهِ عِنْدَهُ لِيَتَسَلَّىٰ بِهِ عَنْ فِرَاقِ أَخِيهِ .

فَأَمَرَ يُوسُفُ رِجَالَ حَاشِيَتِهِ بِإِكْرَامِهِمْ وَإِنْزَالِهِمْ خَيْرَ مَنْزِلٍ .

وَلَمَّا وَفَّىٰ لَهُمْ كَيْلَهُمْ ، وَ﴿ جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ قَالَ لَهُمْ :

ائْتُونِي بِأَخِيكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ لِأَتَثَبَّتَ مِنْ صِحَّةِ مَا قُلْتُمْ ... ﴿ **أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ** ﴾ مِنْ غَيْرِ بَخْسٍ ، وَأَنَّنِي ﴿ **خَيْرُ الْمُنزِلِينَ** ﴾ .

ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلاً بِلَهْجَةٍ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الوَعِيدِ : ﴿ **فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ** ﴾ لِأَسْتَوْثِقَ مِنْ صِحَّةِ مَا قُلْتُمُوهُ ﴿ **فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ** ﴾ .

فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَ﴿ **قَالُوا : سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ** ﴾ ، وَسَنُلِحُّ فِي طَلَبِهِ مِنْهُ ﴿ **وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ** ﴾ .

ثُمَّ أَمَرَ يُوسُفُ غِلْمَانَهُ بِأَنْ يَعْمَدُوا إِلَىٰ رِحَالِهِمْ وَأَنْ يَدُسُّوا فِيهَا الدَّرَاهِمَ الَّتِي أُخِذَتْ مِنْهُمْ ثَمَناً لِمِيرَتِهِمْ ، فَاسْتَجَابُوا لِأَمْرِهِ .

وَلَقَدْ فَعَلَ ذَٰلِكَ ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ إِلَيْهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لِطَلَبِهِ . فَلَمَّا بَلَغُوا دِيَارَهُمْ وَوَضَعُوا أَحْمَالَهُمْ ، حَيَّوا أَبَاهُمْ وَبَنِيهِ ، وَأَخْبَرُوهُ بِمَا أَلْقَاهُ عَلَيْهِمُ المَلِكُ مِنْ أَسْئِلَةٍ ، وَمَا أَغْدَقَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ إِكْرَامٍ .

وَأَنَّهُ طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِأَخِيهِمْ مَعَهُمْ ، وَأَنْذَرَهُمْ بِحِرْمَانِهِمْ مِنَ الكَيْلِ إِذَا هُمْ لَمْ يَفْعَلُوا .

ثُمَّ سَأَلُوا أَبَاهُمْ - بِإِلْحَاحٍ - أَنْ يُرْسِلَهُ مَعَهُمْ إِذَا كَانَ يُرِيدُ مِنْهُمْ أَنْ يَكْتَالُوا . وَطَفِقُوا يُوَثِّقُونَ لَهُ الْعُهُودَ بِأَنْ يَكُونُوا أُمَنَاءَ عَلَيْهِ ، حَافِظِينَ لَهُ مَا وَجَدُوا إِلَىٰ ذَٰلِكَ سَبِيلاً .

فَقَالَ لَهُمْ أَبُوهُمْ - فِي مَرَارَةٍ - : ﴿ **هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ** ﴾ ثُمَّ فَعَلْتُمْ وَكِدْتُمْ لَهُ مَا كِدْتُمْ ؟ .

ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلاً : ﴿ **فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ .

(١٦)

فَتَحَ أَبْنَاءُ يَعْقُوبَ مَتَاعَهُمُ الَّذِي جَاءُوا بِهِ فَعَرَتْهُمُ الدَّهْشَةُ حِينَ وَجَدُوا دَرَاهِمَهُمْ قَدْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ، وَكَثُرَ عِنْدَهُمُ التَّسَاؤُلُ عَنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ ، ثُمَّ الْتَفَتُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ وَقَالُوا : هَلْ فَوْقَ هَذَا الإِكْرَامِ إِكْرَامٌ يَا أَبَانَا ؟ ...

فَأَنْتَ إِذَا أَذِنْتَ لَنَا بِأَنْ نَسْتَجِيبَ لِطَلَبِ المَلِكِ ؛ فَإِنَّنَا سَنَأْتِي بِمَا نَسْتَحِقُّهُ مِنْ مِيرَةٍ . وَسَنَزْدَادُ بِوُجُودِ أَخِينَا مَعَنَا ﴿ **كَيْلَ بَعِيرٍ** ﴾ .

وَلَكَ عَلَيْنَا عَهْدُ اللَّهِ أَنْ نَحْفَظَ أَخَانَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، وَأَنْ نَذُودَ عَنْهُ كُلَّ شَرٍّ .

فَهَدَأَتْ نَفْسُ أَبِيهِمْ بَعْضَ الهُدُوءِ وَ﴿ **قَالَ : لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ** ﴾ حَتَّىٰ آخُذَ مِنْكُمْ مَوْثِقاً ﴿ **لَتَأْتُنَّنِي بِهِ** ﴾ وَأَلَّا يَمْنَعَكُمْ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ ﴿ **إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ** ﴾ فَتَمُوتُوا فِي سَبِيلِهِ ، أَوْ تُغْلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِكُمْ غَلَباً لَا طَاقَةَ لَكُمْ بِرَدِّهِ .

﴿ **فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ... قَالَ : اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ** ﴾ نَحْنُ وَأَنْتُمْ ﴿ **وَكِيلٌ** ﴾ . ثُمَّ زَوَّدَهُمْ بِنَصِيحَةٍ مِنْ نَصَائِحِهِ الثَّمِينَةِ فَـ﴿ **قَالَ : يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا** ﴾ « مِصْرَ » ﴿ **مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ** ﴾ وَإِنَّمَا ﴿ **ادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ** ﴾ وَذَلِكَ دَفْعاً لِحَسَدِ الحَاسِدِينَ ، وَإِبْعَاداً عَنْ عُيُونِ العَائِنِينَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّنِي ﴿ **مَا أُغْنِي عَنكُم مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ وَلَا طَاقَةَ لِي بِدَفْعِ مَا قَدَّرَهُ عَلَيْكُمْ ؛ فَمَا ﴿ **الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** ﴾ وَحْدَهُ ﴿ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ** ﴾ وَبِهِ وَثِقْتُ ، ﴿ **وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ .

(١٧)

دَخَلَ إِخْوَةُ يُوسُفَ « مِصْرَ » مِنْ أَبْوَابِهَا الأَرْبَعَةِ كَمَا أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ، وَلَمَّا

أَقْبَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ حَيَّوْهُ وَبَيَّوْهُ ، فَرَدَّ التَّحِيَّةَ بِمِثْلِهَا ، ثُمَّ أَمَرَ رِجَالَ حَاشِيَتِهِ بِأَنْ يُنْزِلُوا كُلَّ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ فِي مَنْزِلٍ وَاحِدٍ ، وَأَنْ يُنْزِلُوا أَخَاهُمُ الصَّغِيرَ فِي قَصْرِهِ ، وَأَنْ يَزْعُمُوا لَهُمْ أَنَّهُمْ إِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ لِضِيقِ الأَمَاكِنِ .

فَلَمَّا انْفَرَدَ يُوسُفُ بِأَخِيهِ ضَمَّهُ إِلَيْهِ وَ﴿ **قَالَ : إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ مَعَكَ ...

فَفَغَرَ الفَتَىٰ فَاهُ دَهْشَةً وَقَالَ : أَخِي ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ ، إِنِّي أَخُوكَ .

فَقَالَ : لَا تَرُدَّنِي إِلَيْهِمْ يَا أَخِي ، وَلَا تُرْجِعْنِي مَعَهُمْ ، فَإِنِّي لَأَخْشَىٰ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْهُمْ مَا أَصَابَكَ .

فَقَالَ يُوسُفُ :

لَيْسَ فِي وُسْعِي أَنْ أُبْقِيَ عَلَيْكَ إِلَّا إِذَا نَسَبْتُ إِلَيْكَ تُهْمَةً لَا تَلِيقُ بِكَ .

فَقَالَ : وَمَا هَذِهِ التُّهْمَةُ ؟ .

فَقَالَ : السَّرِقَةُ .

فَقَالَ : أَلْصِقْ بِي مَا تَشَاءُ ... وَأَفْرِغْ عَلَيَّ مِنَ التُّهَمِ مَا تُرِيدُ ... وَأَبْقِ عَلَيَّ مَعَكَ .

(١٨)

أَمَرَ يُوسُفُ رِجَالَهُ بِأَنْ يُجَهِّزُوا إِخْوَتَهُ بِجَهَازِهِمْ ، وَأَنْ يَجْعَلُوا صَاعَ المَلِكِ المَصْنُوعِ مِنَ الذَّهَبِ المُرَصَّعِ بِالجَوْهَرِ فِي رَحْلِ أَخِيهِمْ .

وَلَمَّا هَمَّتِ القَوَافِلُ بِالرَّحِيلِ ﴿ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ فِي النَّاسِ : ﴿ أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ .

فَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَىٰ رِجَالِ المَلِكِ وَقَالُوا : ﴿ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ ؟ .

﴿ قَالُوا : نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ ﴾ ، وَإِنَّهُ ﴿ لِمَنْ جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ ...

ثُمَّ إِنَّ المَلِكَ سَيُزَوِّدُهُ بِنَاقَةٍ مِنْ نُوقِهِ لِيَحْمِلَ عَلَيْهَا عَطِيَّتَهُ لَهُ .

فَقَالَ الإِخْوَةُ لِرِجَالِ المَلِكِ : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم ﴾ أَنَّنَا ﴿ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ ، وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ .

فَقَالُوا لَهُمْ : مَا جَزَاءُ السَّارِقِ ﴿ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ ؟ .

فَقَالُوا : جَزَاؤُهُ أَنْ يُسْتَرَقَّ[1]، وَنَحْنُ بِذَلِكَ نُعَاقِبُ السَّارِقِينَ .

(١٩)

أَمَرَ يُوسُفُ رِجَالَ حَاشِيَتِهِ أَنْ يَبْدَءُوا بِالبَحْثِ عَنْ صُوَاعِ المَلِكِ فِي رِحَالِ إِخْوَتِهِ العَشَرَةِ ، ثُمَّ يُتْبِعُوا ذَلِكَ بِالبَحْثِ فِي رَحْلِ أَخِيهِ الصَّغِيرِ ، فَفَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ عَلَىٰ مَلأٍ مِنَ النَّاسِ ، فَأَلْفَوْا صُوَاعَ المَلِكِ عِنْدَ الأَخِ الصَّغِيرِ .

فَهَمَسَ بَعْضُ إِخْوَتِهِ لِبَعْضٍ وَ﴿ قَالُوا : إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ .

وَكَانُوا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ سَرِقَةَ يُوسُفَ لِصَنَمِ جَدِّهِ لِأُمِّهِ ... وَتَحْطِيمِهِ لَهُ ، وَتَبْدِيدِهِ ؛ لِئَلَّا يَعْبُدَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

---

(١) يُسْتَرَق : يصبح عبداً رقيقاً .

فَأَسَرَّ يُوسُفُ كَلِمَتَهُمْ هَذِهِ فِي نَفْسِهِ ، وَهَمَسَ قَائِلاً : ﴿ **أَنتُمْ شَرٌّ مَكَاناً** ﴾ مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴿ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ** ﴾ .

(٢٠)

الْتَفَتَ الإِخْوَةُ إِلَىٰ يُوسُفَ وَ﴿ **قَالُوا : أَيُّهَا الْعَزِيزُ** ﴾ إِنَّ لِهَذَا الفَتَىٰ ﴿ **أَباً شَيْخاً كَبِيراً** ﴾ يُحِبُّهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُحِبُّنَا جَمِيعاً ، وَيَتَعَزَّىٰ بِهِ عَنْ فِرَاقِ وَلَدِهِ الَّذِي هَلَكَ وَسَيُحْزِنُهُ بُعْدُهُ عَنْهُ أَشَدَّ الحَزَنِ ، ﴿ **فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ** ﴾ وَاسْتَعْبِدْهُ بَدَلاً مِنْهُ ﴿ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ .

فَقَالَ لَهُمْ : ﴿ **مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ** ﴾ وَإِنَّنَا إِذَا أَخَذْنَا غَيْرَهُ كُنَّا مِنَ الظَّالِمِينَ .

(٢١)

يَئِسَ الإِخْوَةُ مِنِ اسْتِجَابَةِ عَزِيزِ « مِصْرَ » لِطَلَبِهِمْ ، فَاعْتَزَلُوا غَيْرَ بَعِيدٍ عَنْهُ وَتَدَاوَلُوا الأَمْرَ بَيْنَهُمْ فَـ ﴿ **قَالَ كَبِيرُهُمْ : أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم** ﴾ عَهْداً أَمَامَ اللَّهِ فِي أَخِيكُمْ هَذَا ؟ ...

لِذَلِكَ فَإِنِّي قَدْ عَقَدْتُ العَزْمَ عَلَىٰ أَلَّا أُفَارِقَ أَرْضَ « مِصْرَ » ﴿ **حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي** ﴾ بِالعَوْدَةِ إِلَيْهِ ﴿ **أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي** ﴾ بِخَلَاصِ أَخِي مِمَّا وَقَعَ فِيهِ ﴿ **وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** ﴾ .

ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلاً : ﴿ **ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا : يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا** ﴾ عَلَيْهِ إِلَّا بِمَا رَأَيْنَا بِأَعْيُنِنَا ، وَسَمِعْنَا بِآذَانِنَا ...

وَإِنَّنَا مَا كُنَا عَالِمِينَ بِالغَيْبِ حَتَّىٰ نَتَنَبَّأَ بِمَا سَيَحْدُثُ ...

وَإِذَا كُنْتَ تُرِيدُ أَن تَسْتَوْثِقَ مِنْ صِحَّةِ مَا قُلْنَاهُ لَكَ ، فَابْعَثْ إِلَىٰ « مِصْرَ » مَنْ يَأْتِيكَ بِالخَبَرِ اليَقِينِ ...

وَاسْأَلْ أَصْحَابَ العِيرِ ﴿ **الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا** ﴾ مِنْ بَنِي « كَنْعَانَ » ...

وَعِنْدَ ذَلِكَ سَتَعْلَمُ أَنَّنَا ﴿ **لَصَادِقُونَ** ﴾ .

(٢٢)

رَجَعَ الإِخْوَةُ إِلَىٰ أَبِيهِمْ وَأَخْبَرُوهُ بِمَا وَقَعَ لِأَخِيهِمُ الأَصْغَرِ ، فَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ وَ﴿ **قَالَ : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً** ﴾ فَفَعَلْتُمْ بِهِ كَمَا فَعَلْتُمْ بِأَخِيهِ يُوسُفَ مِنْ قَبْلُ .

فَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهَبَنِي الصَّبْرَ ... وَأَنْ يَأْتِيَنِي بِيُوسُفَ وَأَخَوَيْهِ ﴿ **جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ** ﴾ بِحَالِي المُسْتَجِيبُ لِسُؤَالِي .

ثُمَّ ﴿ **تَوَلَّىٰ عَنْهُمْ** ﴾ ، وَأَقْلَعَ عَنِ الحَدِيثِ مَعَهُمْ ﴿ **وَقَالَ : يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ** ﴾ وَيَا حُزْنَا عَلَىٰ فِرَاقِهِ ...

ثُمَّ طَفِقَ يَبْكِي عَلَيْهِ وَعَلَىٰ أَخَوَيْهِ حَتَّىٰ ﴿ **ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ** ﴾ مِنْ حَرَارَةِ البُكَاءِ ، وَمَرَارَةِ الحُزْنِ .

فَقَالَ لَهُ أَوْلَادُهُ : ﴿ **تَاللَّهِ** ﴾ لَا ﴿ **تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ** ﴾ حَتَّىٰ كِدْتَ مِنْ فَرْطِ ذِكْرِكَ لَهُ وَحُزْنِكَ عَلَيْهِ أَنْ ﴿ **تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ** ﴾ .

فَحَدَّقَ فِيهِمْ وَ﴿ **قَالَ : إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَىٰ اللَّهِ** ﴾ لَا إِلَيْكُمْ ، فَهُوَ الَّذِي عِنْدَهُ تَنْفَعُ الشَّكْوَىٰ .

وَإِنِّي لَعَلَىٰ ثِقَةٍ مِنْ صِحَّةِ الرُّؤْيَا الَّتِي رَآهَا يُوسُفُ وَصِدْقِهَا ...

وَإِنِّي لَعَلَىٰ يَقِينٍ مِنْ أَنَّهُ حَيٌّ ...

وَإِنِّي لَأَعْلَمُ ﴿ **مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ .

ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلاً : ﴿ **يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا** ﴾ إِلَىٰ « مِصْرَ » ، وَتَسَقَّطُوا خَبَرَ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ، وَتَحَسَّسُوا أَمْرَهُمَا ، وَاطْلُبُوهُمَا بِكُلِّ وَسِيلَةٍ ، وَلَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴿ **وَلَا تَيْأَسُوا** ﴾ مِنْ رَوْحِهِ ، فَـ ﴿ **إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ .

(٢٣)

انْطَلَقَ الإِخْوَةُ إِلَىٰ « مِصْرَ » ، وَدَخَلُوا عَلَىٰ مَلِكِهَا وَ﴿ **قَالُوا : يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ** ﴾ لَقَدْ ﴿ **مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ** ﴾ وَأَهْلَكَنَا الْعَوَزُ ، وَلَقَدْ جِئْنَاكَ ﴿ **بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ** ﴾ لَا تَفِي بِمَا تُغْدِقُهُ عَلَيْنَا مِنْ خَيْرٍ ، فَأَتِمَّ ﴿ **لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا** ﴾ وَ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ** ﴾ .

فَرَقَّ يُوسُفُ لَهُمْ ، وَتَحَرَّكَتِ الرَّحْمَةُ فِي فُؤَادِهِ عَلَيْهِمْ ، وَآثَرَ أَنْ يَكْشِفَ لَهُمْ عَنْ سُوءِ طَوِيَّتِهِمْ ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ الْحُجُبَ الْقَائِمَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَـ ﴿ **قَالَ : هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ** ﴾ ؟ .

لَقَدْ أَوْجَعْتُمُوهُ ضَرْباً وَهُوَ أَخُوكُمْ ...

وَأَشْبَعْتُمُوهُ غَمْزاً وَلَمْزاً وَهُوَ أَمَانَةٌ فِي أَعْنَاقِكُمْ ...

ثُمَّ أَلْقَيْتُمُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ...

وَبِعْتُمُوهُ بَيْعَ الرَّقِيقِ ...

وَأَلْحَقْتُمْ بِأَبِيهِ الَّذِي هُوَ أَبُوكُمْ وَبِأَخِيهِ الَّذِي هُوَ أَخُوكُمْ مَا أَلْحَقْتُمْ مِنَ الأَذَىٰ وَالضُّرِّ .

فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْهُ أَيْقَنُوا أَنَّ عَزِيزَ « مِصْرَ » الَّذِي يُكَلِّمُهُمْ إِنَّمَا هُوَ أَخُوهُمْ فَقَالُوا : تَاللَّهِ ﴿ **لَأَنْتَ يُوسُفُ** ﴾ .

فَقَالَ : نَعَمْ ، إِنِّي ﴿ **أَنَا يُوسُفُ ، وَهَذَا أَخِي** ﴾ وَلَقَدْ ﴿ **مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا** ﴾ فَجَمَعَ شَمْلَنَا بَعْدَ تَفَرُّقٍ ، وَأَغْدَقَ الخَيْرَ عَلَيْنَا بَعْدَ حِرْمَانٍ ، وَإِنَّ مَنْ ﴿ **يَتَّقِ** ﴾ اللَّهَ ﴿ **وَيَصْبِرْ** ﴾ عَلَىٰ قَضَائِهِ ؛ فَإِنَّهُ ﴿ **لَا يُضِيعُ** ﴾ أَجْرَهُ .

فَانْهَمَرَتْ دُمُوعُ إِخْوَةِ يُوسُفَ أَسًى عَلَىٰ مَا فَعَلُوهُ بِأَبِيهِمْ وَأَخِيهِمْ ، وَ﴿ **قَالُواْ : تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا** ﴾ بِالمُلْكِ الَّذِي آلَ إِلَيْكَ ، وَأَغْدَقَ عَلَيْكَ مِنَ الخَيْرِ مَا لَمْ يُغْدِقْهُ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنَّا .

وَأَنْزَلَكَ مَنْزِلَةً يَطْمَحُ إِلَيْهَا الأَخْيَارُ الأَبْرَارُ .

وَلَقَدْ كُنَّا خَاطِئِينَ فِي أَمْرِكَ ، آثِمِينَ فِيمَا أَلْحَقْنَاهُ بِكَ وَبِأَبِيكَ مِنْ ضُرٍّ وَأَذًى .

فَقَالَ لَهُمْ : ﴿ **لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ** ﴾ ، وَلَا عَتَبَ عَلَيْكُمْ فِيمَا اجْتَرَحْتُمْ ، ﴿ **يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ .

ثُمَّ سَأَلَهُمْ عَنْ أَبِيهِ وَمَا حَلَّ بِهِ بِسَبَبِ النَّكَبَاتِ الَّتِي تَوَالَتْ عَلَيْهِ ، فَقَالُوا :

ذَهَبَتْ عَيْنَاهُ .

فَأَخْرَجَ لَهُمْ قَمِيصَهُ وَقَالَ : ﴿ **اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ .

(٢٤)

مَا كَادَتِ العِيرُ تَصِلُ بِإِخْوَةِ يُوسُفَ إِلَىٰ أَرْضِ « كَنْعَانَ » ... حَتَّىٰ حَمَلَتْ

نَسَمَاتُ الصَّبَا[1] رَوَائِحَ يُوسُفَ إِلَىٰ أَبِيهِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَبِفَضْلِهِ ...

فَالْتَفَتَ إِلَىٰ مَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِهِ وَحَفَدَتِهِ ، وَقَالَ : ﴿ **إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ** ﴾ .

فَدُهِشُوا لِذَلِكَ وَقَالُوا : أَيْنَ أَنْتَ مِنْ يُوسُفَ ؟ ...

إِنَّ إِفْرَاطَكَ فِي حُبِّهِ ، وَتَشَبُّثَكَ بِلِقَائِهِ ؛ هُمَا اللَّذَانِ جَعَلَاكَ تَظُنُّ فِي أَمْرِهِ الظُّنُونَ ، وَتَتَنَاسَىٰ أَنَّهُ هَلَكَ مَعَ الهَالِكِينَ .

(٢٥)

وَصَلَ إِخْوَةُ يُوسُفَ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ ، وَأَقْبَلُوا عَلَىٰ أَبِيهِمْ فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ وَطَرَحُوا القَمِيصَ ﴿ **عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً** ﴾ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَ﴿ **قَالَ : أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ .

فَانْهَمَرَتْ دُمُوعُهُمْ أَسًى وَأَسَفاً عَلَىٰ مَا اجْتَرَحُوهُ وَ﴿ **قَالُوا : يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ** ﴾ .

فَقَالَ لَهُمْ : ﴿ **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ ...

وَسَأَجْعَلُ هَذَا الاِسْتِغْفَارَ فِي لَحَظَاتِ السَّحَرِ رَجَاءَ الِاسْتِجَابَةِ .

(٢٦)

مَضَىٰ نَبِيُّ اللَّهِ يَعْقُوبُ وَزَوْجَتُهُ وَأَوْلَادُهُ إِلَىٰ « مِصْرَ » ، وَلَمَّا اقْتَرَبُوا مِنْ حَوَاشِي المَدِينَةِ وَجَدُوا يُوسُفَ وَعِلْيَةَ القَوْمِ قَدْ ضَرَبُوا الخِيَامَ فِي أَطْرَافِهَا لِاسْتِقْبَالِهِمْ وَإِكْرَامِ وِفَادَتِهِمْ .

---

(١) الصَّبَا : ريح تهب من مشرق الشمس إذا استوىٰ الليل والنهار .

فَلَمَّا وَقَعَتْ أَعْيُنُهُمْ عَلَىٰ عَيْنَيْ يُوسُفَ انْهَمَرَتِ الدُّمُوعُ مِنْ مَآقِيهِمْ فَرَحاً بِلِقَائِهِ .

وَضَمَّ يُوسُفُ أَبَوَيْهِ إِلَىٰ صَدْرِهِ ، وَقَالَ لَهُمَا وَلِمَنْ مَعَهُمَا : ﴿ **ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَآءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴾ .

فَدَخَلُوهَا بِفَضْلٍ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةٍ ، وَجَلَسَ يُوسُفُ عَلَىٰ سَرِيرِ الـمُلْكِ ﴿ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ** ﴾ فَأَجْلَسَهُمَا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ .

وَانْحَنَىٰ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ إِجْلَالاً لَهُ ، وَإِكْبَاراً لِمَنْ مَعَهُ .

فَنَظَرَ يُوسُفُ إِلَىٰ أَبِيهِ ﴿ **وَقَالَ : يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ** ﴾ الَّتِي رَأَيْتُهَا ﴿ **مِنْ قَبْلُ** ﴾ .

فَـ ﴿ **قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا** ﴾ ... ثُمَّ إِنَّهُ أَسْبَغَ عَلَيَّ مِنْ إِنْعَامِهِ وَإِحْسَانِهِ مَا لَا قِبَلَ لِي بِشُكْرِهِ ﴿ **إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ، وَجَآءَ بِكُم** ﴾ إِلَيَّ مِنَ الْبَادِيَةِ ...

وَأَصْلَحَ مَا أَفْسَدَهُ ﴿ **الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي** ﴾ ...

﴿ **إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِـمَا يَشَآءُ** ﴾ عَلِيمٌ بِخَلْقِهِ ... حَكِيمٌ بِصُنْعِهِ ...

﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الـمُلْكِ ... وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ...**

فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ...

أَنتَ وَلِيِّـي فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ ... تَوَفَّنِي مُسْلِماً ...

وَأَلْـحِقْنِي بِالصَّالِـحِينَ ﴾ .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

* * *

كتب للمؤلف

- شعر الطَّرد

« إلىٰ نهاية القرن الثالث الهجري » .

- علي بن الـجَهْم

« حياته وشعره » .

- صور من حياة الصحابة « ٦٥ شخصية »

« طبعة جديدة مشروعة مزيدة ومنقحة مجلد واحد » .

- صور من حياة الصحابيات .
- صور من حياة التَّابعين « ٣٧ صورة »

« طبعة مزيدة ومنقحة مجلد واحد » .

- الدِّين القيِّم .
- حدث في رمضان .
- أرض البطولات .
- البطولة .
- الصَّيد عند العرب

« أدواته وطرقه ـ حيوانه الصائِد والمصِيد » .

- الْعُدْوَانُ عَلَىٰ الْعَرَبِيَّةِ عُدْوَانٌ عَلَىٰ الإِسْلَامِ .
- فن الامتحانات

« بين الطَّالب والـمُعَلِّم » .

- فن الدِّراسة .

* * *

